عقبات في طريق الهداية

وسبل الوقاية منها

عقبات في طريق الهداية
وسبل الوقاية منها

الكتاب يتناول خمسة وخمسين موضوعًا
مِن حيث التعريف و بيان الخطر والتربية الوقائية والعلاج

الجزء الأول

الدكتور
عبد القادر محمد المعتصم دهمان

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الثانية

١٤٣٩ هـ / ٢٠١٨ م

رقم الإيداع: ١٧٩٠٨ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٦١٨-٥٠-٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة:

الحمدُ لله الذي أنارَ للسَّالكين طريقَ الهداية، وأزاحَ عن بصائرهم ظلماتِ الغواية، والصَّلاةُ والسَّلام على المرسل رحمةً للعالمين، والهادي إلى الطَّريق القويم، والمبيِّنِ لآيات الذكر الحكيم.

أما بعد: فإنَّ من أعظم نِعَم الله ﷻ على العبد أن يوفِّقَه إلى استخلاص الحقِّ من بين اضطرابِ الفرق، وتباينِ المسالك، وأن يتجاوزَ العقباتِ التي تحولُ دونَ الهداية؛ للارتقاءِ إلى يفاعِ الاستبصار، ولاستنقاذِ النَّفسِ من دَرَكَاتِ النَّار.

وإنَّ الهداية أفضلُ مطلوبٍ، وأسمى مرغوب، ولكنَّ طريقها محفوفٌ بالمكاره، فلا ينالُ سِلْعَة الله تعالى الغالية إلَّا من جاهد نفسه، وخالفَ الشيطان والهوى، وتجاوزَ الصوارف والعقبات، وسلكَ طريق الفلاح والنَّجاة.

والتَّفريطُ أو التَّساهل في طلب الهداية مفضٍ إلى التَّحسر والنَّدم، حيثُ يكون المفرِّطُ من الخائبين الخاسرين، كما قال الله ﷻ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزمر:٥٦-٥٨]، فالعاقلُ من اختارَ طريق السَّعادة، واعتبرَ بغيره، والغافلُ من سلكَ طريق الشَّقاء، واعتبرَ به غيرُه.

والهدايةُ طريقُها واضحٌ، ولكن قد تحولُ دونه صوارف وعوائق وموانع تصرفُ المكلَّف عن الحقِّ، أو تعيقُ الفكر عن سديد النَّظر، فلا تَسْلَمُ المعرفةُ -والحالة هذه- من الآفاتِ، وبالتالي لا يصلُ السالك إلى الاقتناع والهداية.

والآفاتُ أو العوائقُ قد تكون نفسيَّة كالعجب، والتَّكبر، والحسد، والرياء أو حبِّ الظُّهور، والغضب، والخجل أو الحياء المذموم المانع من السؤال عن المهمات، والتَّعصب، والحسد، والحقد، واتِّباع الهوى، والشُّعور بالكمال..إلى غير ذلك مما سيأتي بيانه.

وينبغي الاحتراز عن الآفات القلبية؛ فإنها من أهم أسباب الانتكاس بعد الهداية، والاعوجاج بعد الاستقامة. "فقد يكون الخطأ أو الجنوح الفكري عن الحقيقة ناشئًا عن الوهم الذي يحدثه الخوف أو الطمع أو الشهوة العارمة أو الغضب، أو حاجة من حاجات النفس، أو يحدثه عدم اتزان فكري؛ لخلل عارض أو دائم أو نحو ذلك من الأعراض والأمور النفسية. وقد ضرب الله ﷻ مثلًا لذلك بما حدث للمؤمنين في غزوة الأحزاب بسبب ما تعرضوا له من خوف شديد فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠﴾ [الأحزاب:٩ -١١]. فالاضطراب النفسي الذي أحدثه الخوف الشديد جعل الأبصار تزيغ، والبصر متى زاغ فسدت رؤيته، فرأى غير الحقيقة، وجعل الأفكار تضطرب، ومع الاضطراب تأتي الأوهام. فقوله ﷻ: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ﴾ هي لا شك حالة نفسية عارضة جلبها اختلال وظائف النفس بسبب شدة الخوف الطارئ، وهي ما يشمله العفو للعذر القائم. وقد حمى الله ﷻ رسوله ﷺ من زيغ البصر وطغيانه رغم عظم المشهد الذي رآه عند سدرة المنتهى فقال ﷻ: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:١٧]. ﴿مَا زَاغَ﴾، أي: ما انحرف ولا اضطرب. ﴿وَمَا طَغَى﴾: زاد في الرؤية على الحقيقة شيئًا"[(١)].

ومنها: عقبات وآفات خارجيَّة، كالإعلام المضلل، والبيئة الفاسدة والتربية السيئة.

---

(١) انظر: بصائر للمسلم المعاصر (ص:٩٦) فما بعد.

ومن الآفاتِ: ما يظهرُ في سلوكِ المكلَّف كاتِّباع الهوى، والإسرافِ، والبطالةِ، والفتور، واتباع الظَّنِّ المنهي عنه، وصحبةِ أهل الباطل، وتعاطي المسكرات..الخ.

ومنها: آفاتٌ في طريقِ الدعوة ينعكسُ أثرُها على المتلقِّي، كسوءِ التبليغ، وكتمانِ الحق.

ومنها: ما يكون دائرًا بين أمرين، أحدُهما محمودٌ، والآخرُ مذمومٌ، كالحياءِ -مثلًا- فما يعنينا هنا: الشِّق الثاني من حيثُ كونه عائقًا عن الهداية.

وتحصَّل مما تقدَّم أن العقبات منها ما هو ماديٌّ محسوس، ومنها ما هو معقول.

ومن أرادَ الهدايةَ فإنَّ أمامه من العقبات والعوائق ما قد يعرفه، وما قد يجهله.

وهذه العقبات تتفاوت من حيث الأثر، فبعضها أصعبُ من بعض، وأعظم خطرًا، وهذا بالنَّظر إلى حقيقة هذه الصوارف.

أما أثرها بالنِّسبة للسَّالكين فقد تحول دون تحقيق المراد أو بلوغ الغاية، وهي الهداية، وهذا الضَّلال عن الهداية ناشئٌ عن ضعفِ البصيرة في الدِّين، والبعد عن تعاليمه، وضعف الهمَّة في طلب الهداية.

ولا يخفى أنَّ العلم بهذه العقبات ومآلاتها من سبل الوقاية من آفاتها وخطرها على المكلَّف في سيره إلى الله ﷻ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهنا طرق ومتاهات لا يحصيها إلا رب العباد". وقال: "فإذا كان السير ضعيفًا، والهمة ضعيفة، والعلم بالطريق ضعيفًا، والقواطع الخارجة والداخلة كثيرة شديدة فإنه جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء، إلا أن يتداركه الله ﷻ برحمة منه من حيث لا يحتسب فيأخذ بيده، ويخلصه من أيدي القواطع"(١).

وقد فرَّق ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين العوائق والعلائق، وأوضح أن كلًّا منهما قد يكون عقبةً في طريق المكلَّف وسيره إلى الله ﷻ، ومن معوقات الهداية ما لم يتجاوز المكلَّف تلك العقبات، ويصحح المسار. فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما (العوائق) فهي أنواع المخالفات

(١) طريق الهجرتين (ص:١٨٥).

ظاهرها وباطنها، فإنها تعوق القلب عن سيره إلى الله ﷻ، وتقطع عليه طريقه، وهي ثلاثة أمور: (شرك وبدعة ومعصية)، فيزول عائق الشرك: بتجريد التوحيد، وعائق البدعة: بتحقيق السنة، وعائق المعصية: بتصحيح التوبة. وهذه العوائق لا تتبين للعبد، يأخذ في أهبة السفر، ويتحقق بالسير إلى الله ﷻ، والدار والآخرة، فحينئذ تظهر له هذه العوائق، ويحس بتعويقها له بحسب قوة سيره، وتجرده للسفر، وإلا فما دام قاعدًا لا يظهر له كوامنها وقواطعها.

وأما (العلائق) فهي كل ما تعلق به القلب دون الله ﷻ ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من ملاذ الدنيا وشهواتها، ورياستها، وصحبة الناس والتعلق بهم. ولا سبيل له إلى قطع هذه الأمور الثلاثة ورفضها إلا بقوة التعلق بالمطلب الأعلى، وإلا فقطعها عليه بدون تعلقه بمطلوبه ممتنع؛ فإن النفس لا تترك مألوفها ومحبوبها إلا لمحبوب هو أحب إليها منه، وآثر عندها منه، وكلما قوي تعلقه بمطلوبه ضعف تعلقه بغيره، وكذا بالعكس، والتعلق بالمطلوب هو شدة الرغبة فيه، وذلك على قدر معرفته به، وشرفه وفضله على ما سواه"[١].

كما فرّق بين العوائق والعلائق بأن (العوائق) هي: (الحوادث الخارجية)، و(العلائق) هي التعلقات القلبية بالمباحات ونحوها[٢].

وهذه دراسةٌ أتناولُ فيها العقبات -ما كان منها من العوائق أو العلائق التي تكون في طريق الهداية-؛ ليكون كلُّ مسلمٍ على حذرٍ وبينةٍ وبرهانٍ من خطرها وآثارها، فيحترز عن مضلَّات الهداية، ويبصر طريقَ الحقِّ، ويعرض عن سُبُلِ الغواية، والذِّكرى تنفعُ المؤمنين، وتنيرُ بصائر السَّالكين.

وقد أرسلَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لهداية النَّاس إلى طريق النَّجاة، وجعل للبشر من الحواس ما يهديهم في عالم المحسوسات، فجعل لهم أعينًا، وميزهم بالنُّطق، ثم أودع فيهم خصائص القدرة على إدراك الخير والشَّر، والهدى والضَّلال، والحقِّ والباطل،

---

(١) الفوائد، لابن القيم (ص:١٥٤).

(٢) المصدر السابق (ص:١٤٥).

وبيَّن لهم طريقَ الخير وطريق الشَّر، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣]. وقال ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝١١﴾ [البلد:٨-١١]. وعقبة جمع: عَقَبات، والعقبة، بالتحريك. أصلها: المرقى الصعب من الجبال. وعقبة الجبل: الطَّرَف في أعلى الجبل، يقال: وقف حمار الشَّيخ في العقبة. "ويقال: اقتحم فلان عقبة أو وهدة: رمى بنفسه على شدة يريد اجتيازها وتخطيها"[(١)].

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والاقتحام: الدخول والمجاوزة بشدة ومشقة. والْقُحْمَة: الشدة[(٢)].

وجعل الصَّالحة عقبة، وعملها اقتحامًا لها؛ لما في ذلك من معاناة المشقة ومجاهدة النفس"[(٣)].

وقال ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الاقتحام الدخول بشدَّة ومشقة، والعقبة عبارة عن الأعمال الصالحة المذكورة بعد، وجعلها عقبة استعارة من عقبة الجبل؛ لأنها تصعب ويشق صعودها على النفوس"[(٤)].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي العقبات تظهر مقدرة السابرة[(٥)]. و(الاقتحام): الدخول العسير في مكان أو جماعة كثيرين، يقال: اقتحم الصف، وهو افتعال للدلالة على التكلف مثل اكتسب، فشبه تكلف الأعمال الصالحة باقتحام العقبة في شدَّته على

---

(١) المعجم الوسيط، مادة: (قحم) (٢/٧١٧).

(٢) "(الْقُحْمَة): الشِّدَّة" المغرب، مادة: (قحم) (ص:٣٧٣). "القُحْمة السَّنَة الشَّديدة. يقال: أَصابت الأعرابَ القُحْمةُ إذا أصابهم قحط" الصحاح، للجوهري (٥/٢٠٠٦). وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ركب قحمةً من القحم، وهي عظام الأمور التي لا يركبها كل أحد. ووقعوا في القحمة وهي السنة الشديدة. وركب قحمة الطريق: ما صعب منها على سالكه، وللخصومة قحمٌ. وَاقْتَحَمَ عَقَبَةً أو وَهْدَةً أو نَهرًا: رمى بنفسه فيها على شدّة ومشقّة". أساس البلاغة (٢/٥٤).

(٣) الكشاف (٤/٧٥٦).

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٤٨٤).

(٥) يقال: سبر الشيء: استخرج كنهَ أمرِه، وسبر الشيء: قاس غوره؛ ليتعرف على عمقه ومقداره، وسبر قدرته: اختبره وجربه.

النفس ومشقته، قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [فصلت:٣٥]. والاقتحام: ترشيح لاستعارة العقبة لطريق الخير، وهو مع ذلك استعارة؛ لأنَّ تزاحم الناس إنما يكون في طلب المنافع كما قال: ***والمورد العذب كثير الزحام[١].

وأفاد نفي الاقتحام أنه عدل على الاهتداء؛ إيثارًا للعاجل على الآجل، ولو عزم وصبر لاقتحم العقبة"[٢].

وبناء على ما تقدَّم فإنَّ المعنى الاصطلاحي المراد من العقبات هنا: ما يعترض السَّالكين من الصِّعاب، والموانع، والعوائق التي قد تحول دون تحقيق المراد أو بلوغ الغاية، وهي الهداية.

ومن مسالك الهداية: فقه العقبات؛ لتجنبها والاحتراز عنها.

ومن أراد سلوكَ طريق الهداية فإنَّ الله تعالى يُعِينُه على تجاوزِ العقبات؛ لأنَّ الهداية من الهادي: الدِّلالة على الطريق الموصل إلى المطلوب، والتوفيق لسلوك ذلك الطريق، ومن العبد: معرفة الحقِّ والعمل به، والله سبحانه هو الهادي، والعبد هو المهتدي.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]: "والصراط المستقيم يتضمن معرفة الحق والعمل به"[٣].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والهداية معرفة الحق والعمل به، فمن لم يجعله الله تعالى عالما بالحق عاملًا به لم يكن له سبيل إلى الاهتداء"[٤].

هداية الدَّلالة والإرشاد وهداية التوفيق:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والهدايةُ هدايتان: هداية الدَّلالة والإرشاد، وهذه حاصلةٌ لكلِّ أحد، وهداية التوفيق، وهي حاصلةٌ لمن شاء الله هدايتَه، ومن أدلَّة الهداية الأولى قول الله ﷻ لنبيِّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، أي:

---

(١) عجز لبيت من الشعر، لبشار بن برد في (ديوانه) (١٩٢/٤)، وصدره: (يزدحم الناس على بابه***).

(٢) التحرير والتنوير (٣٥٦/٣٠).

(٣) منهاج السنة النبوية (١٩/١).

(٤) شفاء العليل (ص:٥٣).

أنَّك تدعو كلَّ أحد إلى الصراط المستقيم، ومن أدلَّة الهداية الثانية قول الله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦]، وقد جمع الله ﷻ بين الهدايتين في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥]، فقوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾، أي: كلَّ أحد، فحُذف المفعول لإرادة العموم، وهذه هي هداية الدلالة والإرشاد، وقوله: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أظهرَ المفعولَ؛ لإفادة الخصوص، وهي هداية التوفيق"(١). "فالدعوة إلى الحق عامة للجميع، والهداية خاصة فيمن وفقه الله ﷻ"(٢).

الهدايات الأربع التي نصَّ عليها الراغب الأصفهاني وابن القيم والشيخ محمد عبده رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ:

١ – الهدايات الأربع التي نصَّ عليها الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهداية الله ﷻ للإنسان على أربعة أوجه:

الأول: الهداية التي عمَّ بجنسها كلَّ مكلَّف من العقل، والفطنة، والمعارف الضَّروريَّة التي أعم منها كل شيء بقدر فيه حسب احتماله، كما قال: ﴿رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

الثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وإنزال القرآن ونحو ذلك، وهو المقصود بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء:٧٣].

الثالث: التَّوفيق الذي يختصُّ به من اهتدى، وهو المعنيُّ بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد:١٧]، وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس:٩]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩]، ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا

---

(١) شرح حديث جبريل في تعليم الدين، عبد المحسن العباد البدر (ص:٧٠)، وانظر: تفسير الفاتحة والبقرة، لمحمد بن صالح العثيمين (٢/٤٢٦– ٤٢٧).

(٢) عشرون حديثا من صحيح البخاري، عبد المحسن العباد البدر (ص:٤٣).

هُدًى﴾ [مريم:٧٦]، ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:٢١٣]، ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣].

الرَّابع: الهداية في الآخرة إلى الجنَّة، المعنيُّ بقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [محمد:٥]، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ إلى قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف:٤٣].

وهذه الهدايات الأربع مترتبة، فإن من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية، بل لا يصح تكليفه، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة، ومن حصل له الرابع فقد حصل له الثلاث التي قبلها، ومن حصل له الثالث فقد حصل له اللذان قبله. ثمّ ينعكس، فقد تحصل الأولى ولا يحصل له الثاني ولا يحصل الثالث، والإنسان لا يقدر أن يهدي أحدًا إلا بالدعاء وتعريف الطرق دون سائر أنواع الهدايات، وإلى الأوّل أشار بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة:٢٤]، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد:٧]، أي: داع، وإلى سائر الهدايات أشار بقوله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]. وكلّ هداية ذكر الله ﷻ أنه منع الظالمين والكافرين فهي الهداية الثالثة، وهي التّوفيق الذي يختص به المهتدون، والرابعة التي هي الثواب في الآخرة، وإدخال الجنة. نحو قوله ﷻ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا إلى قوله: وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:٨٦]، وكقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [النحل:١٠٧]. وكل هداية نفاها الله ﷻ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن البشر، وذكر أنهم غير قادرين عليها فهي ما عدا المختصّ من الدعاء وتعريف الطريق، وذلك كإعطاء العقل، والتوفيق، وإدخال الجنة، كقوله عزَّ ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام:٣٥]، ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ [النمل:٨١]، ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل:٣٧]، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٣٦]، ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر:٣٧]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ

﴿وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦]". وقد فصل الراغب ﷺ القول في ذلك وبينه(١).

٢ – نَقْلُ ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ للهداياتِ الأربع في غير موضع من كتبه:

وقد نقل ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ على غير موضع، فقد قال في أحد هذه المواضع: فأما مراتب الهدى فأربعة:

إحداها: الهدى العام وهو هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيمها، وهذا أعم مراتبه.

المرتبة الثانية: الهدى بمعنى البيان والدلالة والتعليم والدعوة إلى مصالح العبد في معاده، وهذا خاص بالمكلفين، وهذه المرتبة أخص من المرتبة الأولى، وأعم من الثالثة.

المرتبة الثالثة: الهداية المستلزمة للاهتداء وهي هداية التوفيق، ومشيئة الله ﷻ لعبده الهداية، وخلقه دواعي الهدى، وإرادته، والقدرة عليه للعبد. وهذه الهداية التي لا يقدر عليها إلا الله ﷻ.

المرتبة الرابعة: الهداية يوم المعاد إلى طريق الجنة والنار" انتهى.

وقد فصل القول في ذلك وبينه(٢). فقال في (مفتاح دار السعادة): "والهداية لها أربع مراتب، وهي مذكورة في القرآن:

المرتبة الاولى: الهداية العامة، وهي هداية كل مخلوق من الحيوان والآدمي لمصالحه التي بها قام أمْرُه. قال الله ﷻ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى ۝٢ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى ۝٣﴾ [الأعلى:١-٣]، فذكر أمورًا أربعة: الخلق والتسوية والتقدير والهداية. فسوى خلقه وأتقنه وأحكمه، ثم قدر له أسباب مصالحه في معاشه وتقلباته وتصرفاته، وهداه إليها والهداية تعليم فذكر أنه الذي خلق وعلم، كما ذكر نظير ذلك في أول سورة

---

(١) انظر: المفردات، مادة: (هدى) (ص: ٨٣٥- ٨٤٠)، وانظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٥/٣١٣).

(٢) انظر: شفاء العليل (ص:٦٦)، بدائع الفوائد (٢/٣٥)، مفتاح دار السعادة (ص:٨٤).

أنزلها على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقال تعالى حكاية عن عدوه فرعون أنه قال لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾﴾ [طه:٤٩-٥٠]. وهذه المرتبة أسبق مراتب الهداية وأعمها.

المرتبة الثانية: هداية البيان والدلالة التي أقام بها حجته على عباده، وهذه لا تستلزم الاهتداء التام. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:١٧]، يعني: بيَّنا لهم ودَلَلْناهم وعرَّفناهم، فآثروا الضلالة والعمى. وقال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٨].

المرتبة الثالثة: وهذه المرتبة أخص من الأولى، وأعم من الثانية، وهي هدى التوفيق والإلهام.

قال الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥]، فَعَمَّ بالدعوة خلقه، وخصَّ بالهداية من شاء منهم . قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦]، مع قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]. فأثبت هداية الدعوة والبيان، ونفى هداية التوفيق والإلهام، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تشهد الحاجة(١): من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وقال ﷻ: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل:٣٧]، أي: من يضله الله لا يهتدي أبدًا، وهذه الهداية الثالثة هي الهداية الموجبة المستلزمة للاهتداء، وأما الثانية فشرط لا موجب، فلا يستحيل تخلف الهدى عنها بخلاف الثالثة، فإن تَخَلُّف الهدى عنها مستحيل.

---

(١) جاء في الحديث عن عبد الله قال: علمنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التشهد في الصلاة، والتشهد في الحاجة قال: التشهد في الصلاة: ((التحيات لله والصلوات والطيبات..الخ))، والتشهد في الحاجة: ((إن الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، فمن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله..الخ)) الحديث. أخرجه ابن ماجه [١٨٩٢]، والترمذي [١١٠٥]، والنسائي [٣٢٧٧]، والطبراني في (الكبير) [١٠٠٧٩].

المرتبة الرابعة: الهداية في الآخرة إلى طريق الجنَّة والنَّار. قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات:٢٢- ٢٣].

وأما قول أهل الجنَّة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣].

فيُحتمل أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة، وأن يكونوا أرادوا الهداية في الدنيا التي أوصلتهم إلى دار النعيم، ولو قيل: إن كلا الأمرين مراد لهم، وأنهم حمدوا الله ﷻ على هدايته لهم في الدنيا، وهدايتهم إلى طريق الجنة كان أحسن وأبلغ"(١).

وقد روى البخاري في (صحيحه) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**يَخْلُصُ المؤمنون من النَّار، فَيُحْبَسُونَ على قَنْطَرَة بين الجنة والنار، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِم من بعض مَظَالِمُ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة، فو الذي نفس محمد بيده، لأحدهم أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ في الجنة منه بِمَنْزِلِهِ كان في الدنيا**))(٢).

٣ – الهدايات الأربع التي نصّ عليها الشيخ محمد عبده رَحِمَهُ اللَّهُ:

منح الله ﷻ الإنسان أربع هدايات يتوصل بها إلى سعادته.

أولاها: هداية الوجدان الطبيعي والإلهام الفطري:

وتكون للأطفال منذ ولادتهم، فإن الطفل بعد ما يولد يشعر بألم الحاجة إلى الغذاء فيصرخ طالبًا له بفطرته، وعندما يصل الثدي إلى فيه يلهم التقامه وامتصاصه.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/٨٤- ٨٥).

(٢) صحيح البخاري [٦٥٣٥].

الثانية: هداية الحواس والمشاعر:

وهي متممة للهداية الأولى في الحياة الحيوانية، ويشارك الإنسان فيهما الحيوان الأعجم، بل هو فيهما أكمل من الإنسان؛ فإن حواس الحيوان وإلهامه يكملان له بعد ولادته بقليل، بخلاف الإنسان فإن ذلك يكمل فيه بالتدريج في زمن غير قصير، ألا تراه عقب الولادة لا تظهر عليه علامات إدراك الأصوات والمرئيات، ثم بعد مدة يبصر، ولكنه لقصر نظره يجهل تحديد المسافات، فيحسب البعيد قريبًا، فيمد يديه إليه ليتناوله -وإن كان قمر السماء-. ولا يزال يغلط حسه حتى في طور الكمال.

الهداية الثالثة: العقل:

خلق الله ﷻ الإنسان ليعيش مجتمعا ولم يعط من الإلهام والوجدان ما يكفي مع الحس الظاهر لهذه الحياة الاجتماعية كما أعطي النحل والنمل، فإن الله قد منحها

من الإلهام ما يكفيها، لأن تعيش مجتمعة يؤدي كل واحد منها وظيفة العمل لجميعها، ويؤدي الجميع وظيفة العمل للواحد، وبذلك قامت حياة أنواعها كما هو مشاهد.

أما الإنسان فلم يكن من خاصة نوعه أن يتوفر له مثل ذلك الإلهام، فحباه الله هداية هي أعلى من هداية الحس والإلهام، وهي العقل الذي يصحح غلط الحواس والمشاعر ويبين أسبابه، وذلك أن البصر يرى الكبير على البعد صغيرًا، ويرى العود المستقيم في الماء معوجًا، والصفراوي يذوق الحلو مرًّا. والعقل هو الذي يحكم بفساد مثل هذا الإدراك.

الهداية الرابعة: الدين:

يغلط العقل في إدراكه كما تغلط الحواس، وقد يهمل الإنسان استخدام حواسه وعقله فيما فيه سعادته الشخصية النوعية، ويسلك بهذه الهدايات مسالك الضلال، فيجعلها مسخرة لشهواته ولذاته حتى توره موارد الهلكة. فإذا وقعت المشاعر في مزالق

الزلل، واسترقت الحظوظ والأهواء العقل فصار يستنبط لها ضروب الحيل، فكيف يتسنى للإنسان مع ذلك أن يعيش سعيدًا؟ وهذه الحظوظ والأهواء ليس لها حد يقف الإنسان عنده، وما هو بعائش وحده، وكثيرًا ما تتطاول به إلى ما في يد غيره، فهي لهذا تقتضي أن يعدو بعض أفراده على بعض، فيتنازعون ويتدافعون، ويتجادلون ويتجالدون، ويتواثبون ويتناهبون حتى يفني بعضهم بعضًا، ولا تغني عنهم تلك الهدايات شيئا فاحتاجوا إلى هداية ترشدهم في ظلمات أهوائهم، إذا هي غلبت على عقولهم، وتبين لهم حدود أعمالهم ليقفوا عندها، ويكفوا أيديهم عما وراءها.

ثم إن مما أودع في غرائز الإنسان الشعور بسلطة غيبية متسلطة على الأكوان ينسب إليها كل ما لا يعرف له سببًا؛ لأنها هي الواهبة كل موجود ما به قوام وجوده، وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة، فهل يستطيع أن يصل بتلك الهدايات الثلاث إلى تحديد ما يجب عليه لصاحب تلك السلطة الذي خلقه وسواه، ووهبه هذه الهدايات وغيرها، وما فيه سعادته في تلك الحياة الثانية؟ كلا إنه في أشد الحاجة إلى هذه الهداية الرابعة –الدين– وقد منحه الله ﷻ إياها.

أشار القرآن إلى أنواع الهداية التي وهبها الله ﷻ للإنسان في آيات كثيرة منها قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]، أي: طريقي السعادة والشقاوة، والخير والشر.

قال الأستاذ الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذه تشمل هداية الحواس الظاهرة والباطنة، وهداية العقل وهداية الدين، ومنها قوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت:١٧]، أي: دللناهم على طريقي الخير والشر، فسلكوا سبل الشر المعبر عنه بالعمى. وذكر غير هاتين الآيتين مما في معناهما ثم قال: بقي معنا هداية أخرى وهي المعبر عنها بقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]، فليس المراد من هذه الهداية ما سبق ذكره، فالهداية في الآيات السابقة بمعنى: الدلالة، وهي بمنزلة إيقاف الإنسان على رأس الطريقين: المهلك، والمنجي، مع بيان ما يؤدي إليه كل منهما، وهي مما تفضل الله ﷻ به على جميع أفراد البشر. وأما هذه الهداية فهي

أخص من تلك، والمراد بها إعانتهم وتوفيقهم للسير في طريق الخير والنجاة مع الدلالة، وهي لم تكن ممنوحة لكل أحد كالحواس والعقل وشرع الدين.

ولما كان الإنسان عرضة للخطأ والضلال في فهم الدين، وفي استعمال الحواس والعقل على ما قدمنا، كان محتاجًا إلى المعونة الخاصة، فأمرنا الله ﷻ بطلبها منه في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] فمعنى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: دلنا دلالة تصحبها معونة غيبية من لدنك تحفظنا بها من الضلال والخطأ، وما كان هذا أول دعاء علمنا الله ﷻ إياه، إلا لأن حاجتنا إليه أشد من حاجتنا إلى كل شيء سواه"انتهى(١).

وبناء على ما تقدَّم فإنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد جعل في مسيرة كلِّ مكلف عقبات، ولكن هذه العقبات لم توضع لمنع الإنسان من الوصول إلى الهداية، وإنما لأجل الاختبار في الدنيا.

ولا يتحقق الاختبار إلا مع عقبات يبصرها الباحث عن الحق والنَّجاة، والمخلص في سيره إلى الله ﷻ، وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: ((**حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره**))(٢). وعند مسلم عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**حُفَّت الْجَنَّة بالْمَكَارِه، وحُفَّت النَّار بالشَّهوات**))(٣).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: "وهو من جوامع كلمه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وبديع بلاغته في ذمِّ الشهوات –وإن مالت إليها النفوس–، والحض على الطاعات –وإن كرهتها النفوس وشق عليها–"(٤).

قال الإمام النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: "فأما المكاره فيدخل فيها: الاجتهاد في العبادات، والمواظبة عليها، والصبر على مشاقها، وكظم الغيظ، والعفو، والحلم، والصدقة،

---

(١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) (١/٥٢– ٥٤)، تفسير الفاتحة، ملخص من دروس الشيخ محمد عبده (ص:٤٨– ٥٢)، مطبعة الموسوعات، بباب الخلق بمصر سنة [١٣١٩هـ].

(٢) صحيح البخاري [٦٤٨٧].

(٣) صحيح مسلم [٢٨٢٢].

(٤) فتح الباري (١١/ ٣٢٠)، وانظر: عمدة القاري (٢٣/٧٨).

والإحسان إلى المسيء، والصبر عن الشهوات، ونحو ذلك. وأما الشهوات التي النار محفوفة بها فالظاهر أنها الشهوات المحرمة، كالخمر، والزنا، والنظر إلى الأجنبية، والغيبة، واستعمال الملاهي، ونحو ذلك. وأما الشهوات المباحة فلا تدخل في هذه، لكن يكره الإكثار منها؛ مخافة أن يجر إلى المحرمة، أو يقسي القلب، أو يشغل عن الطاعات، أو يحوج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا"(١).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المفهم): "وفائدة هذا التمثيل: أن الجنَّةَ لا تنال إلا بقطع مفاوز المكاره، وبالصَّبر عليها، وأن النَّار لا يُنجى منها إلا بترك الشَّهوات، وفطام النفس عنها"(٢).

ويستفاد أنَّ طريق الحقّ ليس مفروشًا بالورد، وأنَّ الدَّاعي إلى الحقّ عرضةً للأذى.

والطريق إلى الهداية والسعادة ليس طريقًا ممهدًا، وإنما وعر صعب المنال كما تقدم، فيعترض العبد عوائق وعقبات قد تعرقل سيرة إلى الله ﷻ، وتحول دون الهداية.

فكان لزامًا على العبد أن يكون على بصيرة وبينة مما قد يكون سبب هلاكه، ويَسْعى للوقاية قبلَ الآفات قبل وقوعها، ويُشخِّص المرض عند حدوثه؛ ليستشفَّ من خلاله الدواء الناجع لما أصابه، فإذا ما أصابته آفة عمل على التحرر منها بالعلم وإخلاص العمل لله ﷻ.

ومن أسباب الهداية والعافية: مهارةُ الاستماع، والتَّأمُّلُ والنَّظر. فقد فصَّل الله ﷻ الآيات وبيَّنها لقوم يعقلونها، ومع ذلك أعرضَ من أعرضَ وأصم أذنيه عن السَّماع، وقلبَه عن التَّعقل.

والوصولُ إلى نتيجةٍ مع من لا يريد أن يستمعَ ممتنع، والمحاورةُ أو الجدلُ أو الموعظةُ في هذه الحالة لا تفيد. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦].

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/١٦٥).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/١٦١).

وسيأتيك مزيد من البيان عن (إتقان مهارة الاستماع) في (أسباب الوقاية من خطر الإعراض عن الذِّكر والتَّذكر والعلاج).

وكلما كان القلب نديًّا بالإيمان زاد تذوقه لحلاوة القرآن، وأدرك من معانيه وتوجيهاته ما لا يدركه منه القلب الصَّلد الجاف، واهتدى بنوره إلى ما لا يهتدي إليه الجاحد الصادف، وانتفع بصحبته ما لا ينتفع القارئ المطموس. وإنَّ الإنسان ليقرأ الآية أو السورة مرات كثيرة، وهو غافل أو عجول، فلا تَنِضُّ له بشيء، وفجأة يشرق النور في قلبه، فتفتح له عن عوالم ما كانت تخطر له ببال، وتصنع في حياته صنع المعجزة في تحويلها من منهج إلى منهج، ومن طريق إلى طريق.

ولا بدَّ في التوبة من طهارة النفس من دَرَن المعاصي، والنَّدمِ على ما فَعَل في الماضي، والترك في الحاضر، والعزم على أن لا يفعل مثله في المستقبل. و(التوابون) الذين يحبهم الله ﷻ هم الذين كلما أذنبوا تابوا. قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥]، وقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]. فقوله ﷻ: ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾، يعني: من الذنوب. ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، أي: من الأقذار، فالتطهر شامل للطهارتين الحسية والمعنوية، أي: المتطهرين من الأقذار والأحداث، ومن الفواحش والمنكرات.

ومن نعم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على عباده أنه نزل عليهم من السماء ماء يتطهرون به. قال الله ﷻ: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨]. ووصف الماء به؛ إشعار بتمام النعمة فيه، وتتميم للنعمة فيما بعده؛ فإنَّ الماء الطهور أهنأ وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته، وتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهروها فبواطنهم أحقُّ بذلك وأولى(١).

قال ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التوبةُ واجبةٌ على كلِّ مؤمن مكلَّف بدليلِ الكتابِ والسُّنةِ وإجماعِ الأمة. وفرائضها ثلاثة: الندم على الذنب من حيث عُصِيَ به ذو الجلال، لا من

(١) انظر: تفسير البيضاوي (٤/١٢٧)، تفسير أبي السعود (٦/٢٢٤).

حيث أضرَّ ببدن أو مال، والإقلاع عن الذَّنب في أوَّل أوقات الإمكان من غير تأخيرٍ ولا توان، والعزم أن لا يعود إليه أبدًا، ومهما قضى الله عليه بالعود أحدث عزمًا مجدَّدًا. وآدابها ثلاثة: الاعتراف بالذنب مقرونًا بالانكسار، والإكثار من التضرع والاستغفار، والإكثار من الحسنات؛ لمحو ما تقدم من السيئات. ومراتبها سبع: فتوبة الكفار من الكفر، وتوبة المخلطين من الذنوب الكبائر[(١)]، وتوبة العدول من الصغائر، وتوبة العابدين من الفترات، وتوبة السالكين من علل القلوب والآفات، وتوبة أهل الورع من الشبهات، وتوبة أهل المشاهدة من الغفلات. والبواعث على التوبة سبعة: خوف العقاب، ورجاء الثواب، والخجل من الحساب، ومحبة الحبيب، ومراقبة الرقيب القريب، وتعظيم بالمقام، وشكر الإنعام"[(٢)].

ومن أسباب العافية: النظر بعين البصيرة إلى العاقبة، فقد جاء في الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**يُؤْتَى بِأَنْعَم أهل الدُّنيا من أهل النَّار يوم القيامة، فَيُصْبَغُ في النَّار صَبْغَة، ثمَّ يقال: يا ابنَ آدم هل رأيتَ خيرًا قَطُّ؟ هل مَرَّ بكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فيقول: لا، والله يا ربِّ ويُؤْتَى بأشَدِّ النَّاس بُؤْسًا في الدُّنْيَا، من أهل الجَنَّة، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً في الجَنَّة، فيقال له: يا ابْنَ آدَمَ هل رأيت بُؤْسًا قَطُّ؟ هل مرَّ بكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقول: لا، والله يا ربِّ ما مَرَّ بي بُؤْسٌ قَطُّ، ولا رأيتُ شِدَّةً قَطُّ**))[(٣)].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا الحديث يحث على مراعاة العواقب، فإن التعب إذا أعقب الراحة هان، والراحة إذا أثمرت النصب فليست راحة، فالعاقل من نظر في المآل لا في عاجل الحال. وقد قالت الحكماء: لا تنال الراحة بالراحة، وقل أن يلمع برق لذة إلا وتقع صاعقة ندم"[(٤)].

---

(١) المخلطين: الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا.

(٢) تفسير ابن جزي (٢/ ٦٨).

(٣) صحيح مسلم [٢٨٠٧].

(٤)كشف المشكل من حديث الصحيحين (٣/ ٣٠٩-٣١٠).

ومن أسباب العافية والهداية: الإيمان والتوحيد والثقة بالله تعالى، واجتناب الشرك كما سيأتي بيانه في (عقبة الشرك بالله ﷻ).

ومن أعظم أسباب العافية والهداية: محبة الله ﷻ، ورسوله ﷺ، وفي المقابل فإن ضعفها من أسباب الغواية كما سيأتي بيانه في (عقبة فَقْد محبَّة الله تعالى ورسوله ﷺ أو ضعفها أو تأخُّرها).

ومن أسباب العافية والهداية: امتثال ما أمَرَ الله ﷻ ورسوله ﷺ، واجتناب ما نَهى الله ﷻ ورسوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عنه، كما سيأتي بيانه في (عقبة الذنوب والمعاصي).

قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء:٦٦-٦٨].

قال أبو جعفر رَحِمَهُ اللَّهُ: "يعني بذلك جل ثناؤه: ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرًا لهم؛ لإيتائنا إياهم على فعلهم ما وعظوا به من طاعتنا والانتهاء إلى أمرنا: ﴿أَجْرًا﴾، يعني: جزاء وثوابًا عظيمًا. ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ لعزائمهم وآرائهم، وأقوى لهم على أعمالهم؛ لهدايتنا إياهم: ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾، يعني: طريقًا لا اعوجاج فيه، وهو دين الله ﷻ القويم الذي اختاره لعباده وشرعه لهم، وذلك الإسلام. ومعنى قوله: ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ﴾، ولوفقناهم للصراط المستقيم"(١).

ومن أسباب العافية والهداية: الإنابة والتوبة والرجوع إلى الله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد:٢٧]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر:١٧-١٨]، ويقول ﷻ: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [الزمر:٥٤]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر:١٣]، ويقول سبحانه: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣].

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ٥٢٩-٥٣٠).

ومن أسباب العافية والهداية والتوفيق: التَّمسكُ والاعتصامُ بكتاب الله ﷻ وسُنَّة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران:١٠١]، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٣]، ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء:١٤٥-١٤٦]، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:١٧٥]، ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج:٧٨].

فالقرآن الكريم هو الهادي إلى الصراط المستقيم، وهو حبل الله المتين، من قال به صدق، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم. قال الله ﷻ: ﴿الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة:١-٢]، وقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٩].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: "يقول تعالى ذكره: إن هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرشد ويسدد من اهتدى به. ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، يقول: للسبيل التي هي أقوم من غيرها من السبل، وذلك دين الله ﷻ الذي بعث به أنبياءه، وهو الإسلام، يقول جل ثناؤه: فهذا القرآن يهدي عباد الله المهتدين به إلى قصد السبيل التي ضل عنها سائر أهل الملل المكذبين به. كما حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، قال: التي هي أصوب: هو الصواب وهو الحق؛ قال: والمخالف هو الباطل. وقرأ قول الله تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة:٣]، قال: فيها الحقُّ ليس فيها عوج. وقرأ: ﴿لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ [الكهف:١-٢] يقول: قيمًا مستقيمًا.

قوله: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول: ويبشر أيضًا مع هدايته من اهتدى به للسبيل الأقصد: الذين يؤمنون بالله ورسوله، ويعملون في دنياهم بما أمرهم الله ﷻ به، وينتهون عما نهاهم عنه. بأن ﴿لَهُمْ أَجْرًا﴾ من الله على إيمانهم وعملهم الصالحات. ﴿كَبِيرًا﴾، يعني: ثوابًا عظيمًا، وجزاء جزيلًا، وذلك هو الجنة التي أعدَّها الله تعالى لمن رضي عمله"(١).

والتَّمسكُ بكتابِ الله ﷻ وسُنَّةِ رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمانٌ من الزيغ والضَّلال. قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله**))(٢). أما التَّمسك بسنَّة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن طاعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من طاعة الله ﷻ -كما سيأتي بيانه في غير موضع-.

ومن أسباب العافية والهداية: الإكثار من الدعاء والاستغفار، فهذا دأب الصالحين المهتدين كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في وصف حالهم في سؤالهم الثبات على طاعته: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨].

وكان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أمَّةً، شاكرًا لأنعم الله ﷻ، سائلًا المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الثبات على طاعته، فكان يكثر من الدعاء ويقول كما أخبر سبحانه: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام:٧٧]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم:٣٩-٤١].

ومن دعاء نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى**))(٣).

وعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سألت عائشة -أم المؤمنين- رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، بأي شيء كان نبي الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من

(١) تفسير الطبري (١٧/٣٩٢-٣٩٣).
(٢) صحيح مسلم [١٢١٨].
(٣) صحيح مسلم [٢٧٢١].

الليل افتتح صلاته: ((**اللهم رب جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**))[1].

وعن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال لي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**قل: اللهم اهدني وسددني، واذكر، بالهدى هدايتك الطريق، والسداد، سداد السهم**))، وحدثنا ابن نمير، حدثنا عبد الله يعني ابن إدريس، أخبرنا عاصم بن كليب، بهذا الإسناد قال: قال لي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**قل: اللهم إني أسألك الهدى والسداد**)) ثم ذكر بمثله[2].

وقال الحسن بن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: علمني رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كلمات أقولهن في الوتر: ((**اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت**..الخ)) الحديث[3].

ومن دعائه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربي، وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعا، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت**))[4].

وعند النسائي بسند صحيح: ((**اللهم اهدني لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق**..الخ)) الحديث[5].

---

(١) صحيح مسلم [٧٧٠].

(٢) صحيح مسلم [٢٧٢٥].

(٣) حديث الحسن: أخرجه ابن أبي شيبة [٢٩٧٠٥]، وأحمد [١٧١٨]، والدارمي [١٦٣٤]، وأبو داود [١٤٢٥]، والترمذي وحسنه [٤٦٤]، والبزار [١٣٣٧]، والنسائي [١٧٤٥]، وأبو يعلى [٦٧٨٦]، وابن الجارود [٢٧٢]، وابن خزيمة [١٠٩٥]، وابن حبان [٩٤٥]، والطبراني في (الكبير) [٢٧٠١]، والحاكم [٤٨٠١]، والبيهقي في (السنن الكبرى) [٤٢٩٨]. قال العراقي: "أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه، والنسائي من حديث الحسن. وإسناده صحيح". المغني عن حمل الأسفار (ص:١٨٣).

(٤) صحيح مسلم [٧٧١].

(٥) سنن النسائي [٨٩٦]، وأخرجه أيضًا: الطبراني في (الدعاء) [٤٩٩]، وفي (مسند الشاميين) [٢٩٧٤].

ومن دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((اللهم زَيِّنَّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداةً مهتدين))**(١).

ومن دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((..رَبِّ تَقَبَّلْ توبتي، واغسل حَوْبَتِي، وأَجِبْ دعوتي، واهدِ قلبي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وسدد لساني، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قلبي))**(٢).

ومن أسباب العافية والهداية: شكر المنعم على نعمه، قال الله ﷻ: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة:١٩٨].

قال أبو جعفر رَحِمَهُ اللَّهُ: "يعني بذلك جل ثناؤه: واذكروا الله أيها المؤمنون عند المشعر الحرام بالثناء عليه، والشكر له على أياديه عندكم، وليكن ذكركم إياه بالخضوع لأمره، والطاعة له والشكر على ما أنعم عليكم من التوفيق، لما وفقكم له من سُنَنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِه عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد الذي كنتم فيه من الشرك والحيرة والعمى عن طريق الحق وبُعْد الضلالة، كذكره إياكم بالهدى، حتى استنقذكم من النار به بعد أن كنتم على شفا حفرة منها، فنجاكم منها. وذلك هو معنى قوله: ﴿كَمَا هَدَاكُمْ﴾"(٣). وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة:٧]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [النمل:٦٢].

ومن أسباب العافية والهداية: ذكرُ الله ﷻ على الدَّوام، والاستعانةُ به، واللجوءُ إليه في كشف الضُّر والسوء، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف:٢٣-٢٤].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٤٤٢]، وأحمد [١٨٣٢٥]، والنسائي [١٣٠٥]، وابن حبان [١٩٧١]، والحاكم [١٩٢٣] وقال: "صحيح الإسناد". وأخرجه أيضًا: تمام [١٣٨٧]. وعند أحمد وتمام بلفظ: (واجعلنا هداة مهديين).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٩٣٩٠]، وأحمد [١٩٩٧]، وابن حميد [٧١٧]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٦٦٥]، وابن ماجه [٣٨٣٠]، وأبو داود [١٥١٠]، والترمذي [٣٥٥١] وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: الحاكم [١٩١٠] وقال: "صحيح الإسناد".

(٣) تفسير الطبري (٤/ ١٨٣).

ومن أسباب العافية والهداية: المسارعة إلى الاستجابة لله ﷻ، ولرسوله ﷺ قبل أن يحال بين المرء وقلبه، قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال:٢٤]. والمراد بالاستجابة: تزكية النفس بالعلم والطَّاعة والامتثال.

ومن أسباب العافية: الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الطاعات، ومجاهدة النفس والشيطان والهوى، والإكثار من النوافل التي تقرُّب من الله سبحانه.

ومن أسباب العافية والهداية: الاحتراز عن مضلات الهداية، والحرص على اغتنام ما يقابلها من صالح الأعمال.

وأتناول في هذه الدراسة موضوع (التربية الوقائية)، وهو من أهم الموضوعات التي ينبغي أن يُعْنى بها؛ لأنه يعالج الأخطار التي قد تصيب الفرد، أو تهدد وحدة الأسرة، وأمن المجتمع. ولا سيما ما يُروج له أو يخشى وقوعه في القريب، فينبغي أخذ أسباب الوقاية؛ لتجنب وقوعه؛ لأنه إذا وقع قد يستفحل خطره، ويعسر علاجه، فالوقاية من الخطر قبل وقوعه خير من العلاج بعد وقوعه.

وقد كان الاهتمام بهذه الموضوع جديًا لأهميته؛ لأن مجتمعاتنا بحاجةٍ إلى العافيةِ من كثير من الأمراض التي تصرف عن الهداية، وتعيق الفكر عن سديد النظر، ومن هذه الأمراض: سوء التبليغ، والغلو والتطرف، والتعصب، وتصدر كثير من الجهال منابر الدعوة، والمفاهيم الخاطئة للاستقامة والالتزام؛ ولذلك فقد نما التَّطرف إلى حدٍّ كبير، وأصاب الأمَّة ما أصابها من البلاء والركود. ومن الأمراض: الخمر وسائر المسكرات، والإعلام المضلل وغير ذلك مما جاء مبينًا في فقرات هذا الكتاب.

ولا شك أن الوقاية خير من العلاج، فهي تحصن الإنسان الذي يسلك طريق الهداية من أن تناله الآفات أو ينحرف عن طريق الحق، كما أن (التربية الوقائية) لا تحصن الفرد فحسب، ولكنها تحصن الأسرة، وتحصن المجتمع.

وتكون التربية الوقائية بتحديد الخطر، وتعريفه، والتبصير بآثاره وعاقبته، وفي المقابل التوجيه إلى الطريق الصحيح.

ومن سُنَّة الله تعالى في الأمم أنَّه لا يهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧].

وتحتاج الأمة في الفتن، عندما يلتبس الحق بالباطل أن ترجع لأهل العلم الراسخ، والنظر الثاقب، وتمكينهم؛ حتى يعلو صوت الحق، وتخمد سَوْرَةُ الباطل، لكن الرجوع إلى المصلحين قبل وقوع الفتن خير من الرجوع إليهم بعد وقوعها؛ فمن شأن المصلحين أنهم يحذرون من الخطر قبل وقوعه؛ ليكون الناس على بينة وبصيرة، وأنهم يَبْدَؤون بالأهم فالأهم، ويركزون على ما يخشى وقوعه في القريب مما وقع في بلد مجاور ويخشى انتقاله، أو مما أثاره دعاة الفتنة ويخشى تفشيه وانتشاره.

وهذه تذكرة أرجو أن تكون نافعة ببيان العقبات في طريق الهداية، وقد حاولت أن أحصي تلك العقبات فتحصل لي منها خمس وخمسون عقبة، وقد رتبتها على النحو التالي:

١ – **العقبة الأولى:** الشيطان.

٢ – **العقبة الثانية:** الكفر بالله ﷻ.

٣ – **العقبة الثالثة:** الشرك بالله ﷻ.

٤ – **العقبة الرابعة:** النفاق.

٥ – **العقبة الخامسة:** البدعة.

٦ – **العقبة السادسة:** اتباع الهوى.

٧ – **العقبة السابعة:** الذنوب والمعاصي.

٨ – **العقبة الثامنة:** الإعراض عن الهدى.

٩ – **العقبة التاسعة:** الشَّك والحَيْرَة.

١٠ – **العقبة العاشرة:** حب الدُّنيا والتَّنازع على حطامها.

١١ – **العقبة الحادية عشرة:** رفقاء السوء.

١٢ – **العقبة الثانية عشرة:** الجهل.

١٣ – **العقبة الثالثة عشرة:** التقليد الأعمى.

١٤ – العقبة الرابعة عشرة: سوء التبليغ.

١٥ – العقبة الخامسة عشرة: القدوة السيئة.

١٦ – العقبة السادسة عشرة: كتمان الحق.

١٧ – العقبة السابعة عشرة: التفريط في تحري الحق.

١٨ – العقبة الثامنة عشرة: اشتباه الحقيقة.

١٩ – العقبة التاسعة عشرة: كثرة أهل الباطل.

٢٠ – العقبة العشرون: التقديس (اعتقاد العصمة في غير المعصوم).

٢١ – العقبة الحادية والعشرون: المسكرات.

٢٢ – العقبة الثانية والعشرون: المجادلة بالباطل.

٢٣ – العقبة الثالثة والعشرون: المفهوم الخاطئ للاستقامة.

٢٤ – العقبة الرابعة والعشرون: الافتتان بعلوم الفلسفة.

٢٥ – العقبة الخامسة والعشرون: اتباع الظن المنهي عنه.

٢٦ – العقبة السادسة والعشرون: العجب والكِبْر.

٢٧ – العقبة السابعة والعشرون: الغرور.

٢٨ – العقبة الثامنة والعشرون: الحسد.

٢٩ – العقبة التاسعة والعشرون: الغضب.

٣٠ – العقبة الثلاثون: الخجل أو الحياء المذموم.

٣١ – العقبة الحادية والثلاثون: فَقْدُ محبَّة الله ﷻ، ورسوله ﷺ أو ضعفها أو تأخُّرها.

٣٢ – العقبة الثانية والثلاثون: الرضا عن النفس.

٣٣ – العقبة الثالثة والثلاثون: التعصب.

٣٤ – العقبة الرابعة والثلاثون: العشق.

٣٥ – العقبة الخامسة والثلاثون: الغفلة.

٣٦ – العقبة السادسة والثلاثون: عدم الاعتراف بالخطأ.

٣٧ – العقبة السابعة والثلاثون: اليأس والقنوط.

٣٨ – العقبة الثامنة والثلاثون: الخوف المذموم.

٣٩ – العقبة التاسعة والثلاثون: البيئة الفاسدة والتربية السيئة.

٤٠ – العقبة الأربعون: الإعلام المضلل.

٤١ – العقبة الحادية والأربعون: الفقر المنسي والغنى المطغي.

٤٢ – العقبة الثانية والأربعون: الفتور.

٤٣ – العقبة الثالثة والأربعون: البطالة.

٤٤ – العقبة الرابعة والأربعون: التسرع في الحكم على الأشياء.

٤٥ – العقبة الخامسة والأربعون: ترك المشورة.

٤٦ – العقبة السادسة والأربعون: الطائفية والحزبية.

٤٧ – العقبة السابعة والأربعون: التعلل بالابتلاءات.

٤٨ – العقبة الثامنة والأربعون: تفرق السبل.

٤٩ – العقبة التاسعة والأربعون: الاشتغال بالمفضول عن الفاضل.

٥٠ – العقبة الخمسون: الإسراف في المباحات.

٥١ – العقبة الحادية الخمسون: الاستدراج.

٥٢ – العقبة الثانية والخمسون: آفات اللسان (الكذب، والغيبة، والنميمة، والإفك والبهتان).

٥٣ – العقبة الثالثة والخمسون: الظلم.

٥٤ – العقبة الرابعة والخمسون: الفتنة.

٥٥ – العقبة الخامسة والخمسون: المكر والخداع.

الدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان

الكويت حرسها الله

الجمعة السادس من جمادى الأولى سنة [١٤٣٨ هـ].

توطئة:

وتتضمن: بيان منهج البحث ومصطلحاته، والألفاظ ذات الصِّلة به:

أولًا: بيان منهج البحث:

وأما بيان منهج البحث فقد اعتمدتُ منهجًا متقاربًا في غالب العقبات من حيث التعريف، وبيان وجه الصدِّ عن الحقِّ والهداية في كل عقبة، وبيان خطرها، وأثرها، وسبل الوقاية من آفاتها، والعلاج والتحرر من آثارها، وقد استغنيت عن واضحٍ لا يحتاجُ إلى بيانٍ، وعمَّا تبينَ من النَّظائر المشابهة، أو سَبْقِ بيان ، أو من المخالفة.

وكان لزامًا تشخيص الداء، وبيان أسباب الوقاية؛ حتى يحترز منه، وذلك ببيان خطر الإصابة بهذا الداء أو ذاك، وبيان الأثر والمآل، والإرشاد إلى الضدِّ النافع، وبيان وسائل العلاج لمن أصيب به، وتختلف سبل العلاج باختلاف التشخيص والأشخاص.

وقد اعتمدت في ذلك على الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأقوال العلماء. وخرَّجت الأحاديث والأقوال. أما تخريج الأحاديث فيأتي على النَّحو التَّالي: إذا كان الحديث في الصَّحيحين، فإني أقتصر عليهما في التَّخريج، وإن كان في أحدهما دون الآخر، فإني أخرجه منه وأكتفي. وأمَّا إذا لم يكن الحديث موجودًا في الصَّحيحين أو أحدهما فإنِّي أسعى جاهدًا إلى تخريجه من المسانيد والسنن، وقد اعتمدت الترتيب على حسب تاريخ الوفاة، وذكر رقم الحديث فقط بالنسبة لكتب الحديث المرقمة بين مقفيين [**]، وذكر الجزء والصفحة بالنسبة للأحاديث غير المرقمة بين قوسين (**)، وإذا كثرت الطرق أكتفي بذكر أصحها.

أمَّا الحكم على الحديث فإنني أذكرُ درجةَ الحديث إن لم يكن في الصَّحيحين. وإذا تكرَّر ذكر الحديث الشَّريف في مواطنَ لاحقة، فإنَّني أكتفي بالإشارة لتقدُّمه، وكذلك إذا تكرَّر ذكرُ الأثر أو القول فإنَّني أكتفي بالإشارة إلى تقدُّمه. وقد التزمت توثيقَ الأشعار والأمثال من مصادرها. وأن يختم الاقتباس بذكر المرجع الَّذي قد اقتبس منه في الحاشية. وذكر مادة كل لفظ عند الرجوع إلى المعاجم.

ثانيًا: مصطلحات البحث والألفاظ ذات الصِّلة:

١ – مصطلحات البحث:

أ. **العقبات:** تقدم بيان معناها وصلته بالبحث.

ب. **الصَّوارف:** "الصرف: رد الشيء عن وجهه، صرفه يصرفه صرفًا فانصرف. وصارف نفسه عن الشيء: صرفها عنه. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾ [التوبة:١٢٧]، أي: رجعوا عن المكان الذي استمعوا فيه، وقيل: انصرفوا عن العمل بشيء مما سمعوا. ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، أي: أضلهم الله مجازاة على فعلهم؛ وصرفت الرجل عني فانصرف، والـمُنْصَرَف: قد يكون مكانًا وقد يكون مصدرًا، وقوله ﷻ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾، أي: أجعل جزاءهم الإضلال عن هداية آياتي. وقوله ﷻ: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ [الفرقان:١٩]، أي: ما يستطيعون أن يصرفوا عن أنفسهم العذاب ولا أن ينصروا أنفسهم"[١].

والمراد من الصَّوارف هنا: الموانع عن الهداية، فهي في ذاتها موانع، ولكن الفَطِن في سيره إلى الله ﷻ يجتازها باتقائها والإعراض عنها، واتخاذ أسباب الوقاية من آفاتها، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوفقه ويهديه.

ج. **الموانع:** "المنع: خلاف الإعطاء. وقد منع فهو مانع ومنوع ومناع. ومنعت الرجل عن الشيء فامتنع منه"[٢].

وقد ورد الصرف بمعنى المنع والصد في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ الآية [الأعراف:١٤٦]. قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المعنى: سأمنع وأصد"[٣]. وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: سأمنع فهم

---

(١) لسان العرب، مادة: (صرف) (١٨٩/٩).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (منع) (١٢٨٧/٣).

(٣) المحرر الوجيز (٢/ ٤٥٤).

الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوبَ المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرون على الناس بغير حقٍّ، أي: كما استكبروا بغير حقٍّ أذلهم الله بالجهل"(١).

هـ. العوائق:

وتقدم بيان معناها وصلته بالبحث.

و. العلائق:

وتقدم بيان معناها وصلته بالبحث.

٢ – الألفاظ ذات الصِّلة:

أ. الْمُقْحِمَات:

الْمُقْحِمَات: بضم ميم وسكون قاف وكسر حاء. وقد جاء في الحديث عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: ((**لما أُسْرِيَ برسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **انْتُهِيَ به إلى سِدْرَة الْمُنْتَهَى أعطي ثلاثًا: فأعطي رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ثلاثًا: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئًا: الْمُقْحِمَات**)). قال ابن منظور رَحِمَهُ اللَّهُ: "أي: الذنوب العظام التي تُقْحِم أصحابها في النَّار، أي: تلقيهم فيها. وفي التَّنزيل: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [البلد:١١]"(٢). والْمُقْحِمَات من الألفاظ ذات الصلة، وتشترك مع العقبات في كونها من أسباب الخذلان، وسوء العاقبة.

ب. الموبقات:

(الموبقات): المهلكات، وقد جاء في الحديث: ((**اجتنبوا السبع الموبقات**))، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: ((**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**))(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٤٢٦).

(٢) لسان العرب، مادة: (قحم) (١٢/٤٦٣)، وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/١٩)، غريب الحديث، لابن الجوزي (٢/٢٢١).

(٣) صحيح البخاري [٢٧٦٦، ٦٨٥٧]، مسلم [٨٩].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "إنكم لتعملون أعمالًا، هي أدَقُّ في أعيُنِكم من الشَّعَر، إن كنَّا لنعدُّها على عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الموبقات". قال أبو عبد الله: "يعني بذلك: المهلكات"[(١)].

والموبقات كسابقتها من الألفاظ ذات الصلة، وتشترك مع العقبات في كونها من أسباب الخذلان، وسوء العاقبة.

ج. المهلكات:

وقد ورد بلفظه ومعناه ومادته في غير موضع. ومن ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**))[(٢)].

(١) صحيح البخاري [٦٤٩٢].

(٢) سيأتي تخريج الحديث في عقبة (العجب).

العقبة الأولى

الشيطان

أولًا: تعريف الشيطان:

الشَطَنُ: الحبْل. قال الخليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو الحبْل الطويل، وجمعه: (أَشْطَان). ووصف أعرابي فرسًا لا يَخْفى فقال: كأنه شَيْطَانٌ في أَشْطَان.

وكل عَاتٍ مُتَمَرِّدٍ من الإنس والجن والدَّواب شيطان. والعرب تسمي الحيَّة: شيطانًا. وتَشَيْطَنَ الرَّجُل وشَيْطَن إذا صار كالشَّيْطان، وفَعَل فِعْله.

وفي الشَّيْطَان قولان: أحدهما: أنَّه من (شَطَنَ) إذا بَعُدَ[1] عن الحَقِّ، أو عن رحمة الله، فتكون النُّون أصليَّة، ووزنه: (فَيْعَال)، وكلُّ عاتٍ مُتَمَرِّدٍ من الجِنِّ والإنس والدَّوَابِّ فهو شيطان.

والقول الثَّاني: أنَّ الياء أصليَّة والنُّونَ زائدة، عكس الأوَّل، وهو من (شَاطَ) يَشِيطُ إذا بَطَلَ أو احْتَرَقَ، فوزنه: فعلان[2]. وعلى هذا الأساس يكون ممنوعًا من الصرف.

وقال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن جَعَلت نُون الشَّيْطَانِ أصليَّة كان من (الشَّطَن): البُعْد: أي بَعُد عن الخير، أو من الحبل الطَّويل، كأنَّه طال في الشَّر. وإن جعلتها زائدة كان من (شَاطَ يَشيطُ) إذا هلَك، أو من (اسْتَشَاط غضبًا) إذا احْتدَّ في غضبه والتهب، والأوَّل أصحُّ"[3].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والشيطان في لغة العرب مشتق من (شطن) إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير. وقيل: مشتق من (شاط)؛ لأنه مخلوق من نار، ومنهم من يقول: كلاهما صحيح في المعنى، ولكن الأول أصح، وعليه يدل كلام العرب"[4].

---

(١) يقال: بئر شطون، أي: بعيدة القَعْر، والشاطن: البعيد عن الحق. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (شطن) (٢/٤٧٥)، غريب الحديث، لابن قتيبة (٣/٧٥٩)، لسان العرب (١٣/٢٣٨).

(٢) العين، مادة: (شطن) (٦/٢٣٦)، الصحاح، للجوهري (٥/٢١٤٤)، المصباح المنير (١/٣١٣)، مختار الصحاح (ص:١٦٥).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (شطن) (٢/٤٧٥).

(٤) تفسير ابن كثير (١/١١٥)، وانظر ما حققه العلامة محمد الطاهر بن عاشور في (التحرير والتنوير) (١/٢٩٠-٢٩١).

والحاصل أن الشَّيْطَان إما من (شطن) بِمَعْنى: (بعد) ، فهو بعيد بكفره وفسقه عن كل خير، وبعيد عن رحمة الله تعالى، كما أنه بعيد بطبعه عن طباع البشر. أو من (شاط) بِمَعْنى: هلك[1] أو هاج أو احترق[2] أو ذهب وبطل[3]، والأول أصح.

وقال محمد بن إسحق رَحِمَهُ اللَّهُ: إنما سمي شيطانًا؛ لأنه شطن عن أمر ربه، والشطون: البعيد النازح[4].

واللِّسان العربيُّ الذي نَزَلَ به القرآن يُطْلِقُ اسْمَ (الشَّيطان) على كُلِّ عَاتٍ مُتَمَرِّدٍ من الجنِّ والإنس والدَّوابِّ[5]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ الآية [البقرة:١٤]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]. ومنه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ**))[6].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: "والشياطين جمع: شيطان، جمع تكسير، وحقيقة الشيطان أنه نوع من المخلوقات الْمُجَرَّدَة، طبيعتها الحرارة النَّارِيَّة وهم من جنس الجِنِّ، قال تعالى في إبليس: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف:٥٠]. وقد اشتهر ذكره في كلام الأنبياء والحكماء، ويطلق الشيطان على الْمُفْسِدِ وَمُثِيرِ الشَّرِّ، تقول العرب: فلان من الشياطين، ومن شياطين العرب وذلك استعارة، وكذلك أطلق هنا على قادة المنافقين في النفاق، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ﴾ ..الخ"[7].

---

(١) روي أَنَّ زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قاتل براية رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى شاطَ في رماح القوم، والمعنى: هلَك.

(٢) يقال: شاطت القِدْر: احترقت ولصق بأسفلها شيء محترق.

(٣) يقال: شاط دم الْقَتِيل، أي: ذهب هدرًا.

(٤) انظر: غريب الحديث، لابن قتيبة (٧٥٩/٣).

(٥) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٣٢/١)، الصحاح، للجوهري، مادة: (شطن) (٢١٤٤/٥)، مقاييس اللغة (١٨٣/٣)، الكليات (ص:٥٢٣)، تفسير القرطبي (٩٠/١)، أضواء البيان (٢٥٧/٢).

(٦) صحيح مسلم [٥١٠].

(٧) التحرير والتنوير (٢٩٠/١).

وإبليس هو كبير الشَّياطين[1]، وقد ورد ذكره غير مرة في القرآن الكريم كما سيأتي في (جذور عداوة الشيطان للإنسان).

واختُلف في تسميته بإبليس على قولين: أحدهما: أنه اسم أعجمي وليس بمشتقٍّ. والثاني: أنه اسمُ اشتقاق، اشتُقَّ من (الإبلاس)، وهو اليأس من الخير[2]. قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واستبعد كونه مشتقًا بأنه لو كان كذلك لكان إنما سمي إبليس بعد يأسه من رحمة الله بطرده ولعنه، وظاهر القرآن أنه كان يسمى بذلك قبل ذلك كذا قيل. ولا دلالة فيه لجواز أن يسمى بذلك باعتبار ما سيقع له"[3].

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإبليس اسم الشيطان الأول الذي هو مُوَلِّدُ الشياطين، فكان إبليس لنوع الشياطين والجِنِّ بمنزلة آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لنوع الإنسان. وإبليس اسم مُعَرَّبٌ من لغة غير عربية لم يعينها أهل اللغة، ولكن يدل لكونه مُعَرَّبًا أن العرب منعوه من الصَّرْف، ولا سبب فيه سوى العلمية والعجمة؛ ولهذا جعل الزجاج همزته أصلية، وقال: وزنه على فعليل. وقيل: هو اسم عربي مشتق من (الإبلاس) وهو البعد من الخير، واليأس من الرحمة، وهذا اشتقاق حسن لولا أنه يُنَاكِدُ منعه من الصرف، وجعلوا وزنه: (إِفْعِيلَ)؛ لأن همزته مزيدة. وقد اعتذر عن منعه من الصرف بأنه لما لم يكن له نظير في الأسماء العربية عُدَّ بمنزلة الأعجمي، وهو اعتذار ركيك. وأكثر الذين أحصوا الكلمات الْمُعَرَّبَة في القرآن لم يَعُدُّوا منها اسم (إبليس)؛ لأنهم لم يتبينوا ذلك وصلاحية الاسم لمادة عربية ومناسبته لها"[4].

---

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٣/٨٠).

(٢) انظر: تفسير الماوردي (النكت والعيون) (١/١٠٢).

(٣) فتح الباري (٦/٣٣٩).

(٤) التحرير والتنوير (١/٤٢٤)، بتصرف يسير. وانظر: تفسير الطبري (١/٥٠٩- ٥١٠)، معجم مقاييس اللغة، مادة: (بلس) (١/٢٩٩)، وانظر كذلك: ما حققه الحافظ ابن حجر في (الفتح) (٦/٣٣٩).

ثانيًا: الابتلاء من السنن الرَّبانيَّة:

إنَّ الله تعالى جعلَ الدنيا دارَ ابتلاءٍ وامتحان واختبار، وليست دارَ خلودٍ واستقرار، وإنما هي دارُ رحيلٍ وانتقال، يمتحن العبادُ فيها ويُختَبرُون؛ ليميز الله ﷻ الخبيث من الطيب.

والابتلاءُ سنَّةٌ من سننه الرَّبانيَّة الجارية كما قال سبحانه: ﴿الم ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت:١- ٣]، والابتلاءُ يمحِّص الصَّادقين من الكاذبين، ويكفِّرُ الذُّنوب، ويرفعُ درجاتِ المؤمنين الصَّابرين والمخلصين.

والإنسانُ من حيث الخلق مركَّبٌ من كثيرٍ من الصِّفات التي هي على طرفي نقيضٍ بين الخير والشَّر، تتجاذبُهُ نوازعُ الخير ونوازعُ الشَّر، والعقيدةُ تُوجِّه الإنسانَ إلى الميول الخيرة، والشيطان يزِّينُ له الشَّهوات، ويغريه بنعيمٍ آنيٍّ سرعان ما ينقضي، وتبقى آثاره، فمن يتبعُ خطوات الشيطان فليس له من الملذات إلَّا ما حصل له في الدنيا على قلَّته وتكديره بالمنغصات، ثم يجني بعد ذلك جزاء ما قدمت يداه.

ولا يبصرُ المكلَّفُ سبيلَ الهداية إلَّا بالعلم النَّافع الذي يرشد إلى الحقِّ، ويوضِّح سُبُلَ الغواية وأخطارها ومآلاتها، ويحفِّزُ في المكلَّف وازعَ العملَ الذي يحمله على قيادةِ النفس إلى طريق السَّعادة، والانتصار على نوازعِ الشرِّ والهوى والشَّيطان. فمن لم يغلقْ منافذ الشيطان إلى نفسه، وينتصر على عدوه في الداخل فكيف سينتصر على عدوه في الخارج؟! ومن لم يتحرر من إملاءات الشيطان ووساوسه كيف سيتحرر من سلطان عدوه؟!

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإنَّ الله تعالى خلق هذا الآدمي واختاره من بين سائر البرية، وجعل قلبه محل كنوزه من الإيمان والتوحيد والاخلاص والمحبة والحياء والتعظيم والمراقبة، وجعل ثوابه إذا قدم عليه أكمل الثواب وأفضله، وهو النظر إلى وجهه والفوز برضوانه ومجاورته في جنته، وكان مع ذلك قد ابتلاه بالشهوة والغضب والغفلة، وابتلاه بعدوه إبليس، لا يفتر عنه، فهو يدخل عليه من الأبواب التي هي من نفسه وطبعه فتميل

نفسه معه؛ لأنه يدخل عليها بما تحب، فيتفق هو ونفسه وهواه على العبد: ثلاثة مسلَّطون آمرون، فيبعثون الجوارح في قضاء وطرهم، والجوارح آلة منقادة، فلا يمكنها إلا الانبعاث، فهذا شأن هذه الثلاثة وشأن الجوارح، فلا تزال الجوارح في طاعتهم كيف أمروا وأين يمموا.

هذا مقتضى حال العبد، فاقتضت رحمة ربه العزيز الرحيم به أن أعانه بجند آخر، وأمدَّه بمدد آخر يقاوم به هذا الجند الذي يريد هلاكه، فأرسل إليه رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنزل عليه كتابه، وأيده بملك كريم يقابل عدوه الشيطان، فإذا أمره الشيطان بأمر أمره الملك بأمر ربه ﷻ، وبين له ما في طاعة العدو من الهلاك، فهذا يلم به مرة، وهذا مرة، والمنصور من نصره الله ﷻ، والمحفوظ من حفظه الله تعالى، وجعل له مقابل نفسه الأمارة: نفسًا مطمئنة إذا أمرته النفس الأمارة بالسوء نهته عنه النفس المطمئنة، وإذا نهته الأمارة عن الخير أمرته به النفس المطمئنة.

فهو يطيع هذه مرة، وهذه مرة، وهو الغالب منهما، وربما انقهرت إحداهما بالكلية قهرًا لا تقوم معه أبدًا.

وجعل له مقابل الهوى الحامل له على طاعة الشيطان والنفس الأمارة نورًا وبصيرة وعقلًا يرده عن الذهاب مع الهوى الحامل له على طاعة الشيطان، فكلما أراد أن يذهب مع الهوى ناداه العقل والبصيرة والنور: الحذر الحذر؛ فإن المهالك والمتالف بين يديك، وأنت صيد الحرامية وقطاع الطريق إن سرت خلف هذا الدليل.

فهو يطيع الناصح مرة فيبن له رشده ونصحه، ويمشي خلف دليل الهوى مرة فيقطع عليه الطريق.."[(١)].

ثالثًا: جذور عداوة الشيطان للإنسان:

إنَّ عداوة الشيطان للإنسان قديمة. وقد بدأت هذه العداوة بحسد إبليس لأبي البشرية آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وامتناعه من السجود له مع الملائكة، عندما أمرهم الله ﷻ

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص:١٧-١٨).

بذلك. قال الله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص:٧١- ٨٥].

فينبغي على المسلم أن يتذكَّر هذه العداوة التي حذَّرنا الله ﷻ منها، وأن يجعلها نصب عينه. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦]، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس:٦٠].

رابعًا: أساليب الشيطان في الإغواء والإضلال:

حذَّرنا الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من اتِّباع خطوات الشَّيطان، وبيَّن أنه عدوٌّ مبين، يقودُ إلى الهلاك والشرِّ المستطير، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة:١٦٨]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور:٢١].

والمؤمنون هم أجدر الناس أن ينفروا من الشيطان، وأن يسلكوا طريقًا غير طريقة المضل؛ فقد أنار الحق بصائرهم، فكانوا على يقظةٍ وحذرٍ من مسالك الشيطان المهلكة.

وقد خلق الله ﷻ عباده على الفطرة الخالصة والطبع السليم، متهيئين لقبول الهداية، وأرسل إليهم الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يهدونهم إلى الصراط المستقيم، ويحذرونهم من نزعات الشيطان، ولكن الكثيرين منهم أعرضوا عن الهداية، وتبعوا خطوات الشيطان خطوة خطوة حتى أوقعهم في المهالك، وصرفهم عن الحق.

وتتنوع أساليب الشيطان في الإغواء والإضلال والاستدراج[1]، فتارة يزين للإنسان الباطل والحرام بصورة الحق والحلال، بل ويُهَوِّنه عليه حتى يتجرأ على أعظم المحرمات من غير اكتراث ولا مبالاة، وتارة يجره إلى المعصية خطوة بعد خطوة، فمثلًا: يزين له النظر المحرم، ثم يجره إلى التفكير فيه، ثم إلى الهمِّ، ثم إلى العزم على الزنا، ثم مباشرته والعياذ بالله، وتارة يثقله عن امتثال أوامر الله تعالى وأوامر رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فيكسل عن النوافل -مثلًا-، حتى يجره إلى التهاون بالفرائض والواجبات، كما جاء في الحديث: عن عياض بن حمار المجاشعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ذات يوم في خطبته: **((ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم، مما عَلَّمَنِي يومي هذا، كل مال نَحَلْتُهُ عبدًا حلالٌ، وإني خلقت عبادي حنفاءَ كلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فَاجْتَالَتْهُمْ عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحللت لهم، وَأَمَرَتْهُمْ أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا..))**[2].

وقال الله ﷻ مبينًا خطورة ما يدعو إليه الشيطان، وعاقبة الاستجابة له: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٦ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [فاطر:٦- ٧].

---

(١) سيأتي بيان ذلك في (عقبة الاستدراج).

(٢) صحيح مسلم [٢٨٦٥]. ((كل مال نحلته عبدًا حلال)) في الكلام حذف، أي: قال الله تعالى كل مال..الخ. ومعنى: نحلته: أعطيته، أي: كل مال أعطيته عبدًا من عبادي فهو له حلال، والمراد إنكار ما حرموا على أنفسهم من السائبة والوصيلة والبحيرة والحامي وغير ذلك، وأنها لم تصر حرامًا بتحريمهم، وكل مال ملكه العبد فهو له حلال حتى يتعلق به حق. (وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم) أي: مسلمين. وقيل: طاهرين من المعاصي. وقيل: مستقيمين منيبين؛ لقبول الهداية. وقيل: المراد حين أخذ عليهم العهد في الذر وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:١٧٢]. قوله: ((وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم)) هكذا هو في نسخ بلادنا: (فاجتالتهم) بالجيم، وكذا نقله القاضي عن رواية الأكثرين، وعن رواية الحافظ أبي علي الغساني: (فاختالتهم) بالخاء المعجمة. قال: والأول أصح وأوضح، أي: استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل كذا فسره الهروي وآخرون. وقال شمر: اجتال الرجل الشيء: ذهب به، واجتال أموالهم: ساقها وذهب بها. قال القاضي: ومعنى (فاختالوهم) بالخاء على رواية من رواه، أي: يحبسونهم عن دينهم ويصدونهم عنه". شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٧/١٩٧)، وانظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (٨/١٩٧).

وقد ثبت في (الصحيحين) أنَّ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **((إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم))**(١).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، حتى يصادف نفسه ويخالطها، ويسألها عمَّا تحبه وتؤثره، فإذا عرفه استعان بها على العبد، ودخل عليه من هذا الباب، وكذلك علَّم إخوانه وأولياءه من الإنس، إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضًا أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه؛ فإنَّه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود، وهو عن طريق مقصده مصدود"(٢).

وقد توسع العلماء في بيان مداخل الشيطان على النفس، فمنهم من حدَّها بعدد معين، فقد أوصلها الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ إلى ثمانية مداخل(٣)، ومنهم من زاد على ذلك، ومنهم من أنقص، ومنهم من لم يحدَّها بحدٍّ، بل جعلها تشمل كل أمراض القلوب(٤). يقول الدكتور عمر الأشقر: "في الإنسان نقاط ضعف كثيرة، هي في الحقيقة أمراض، والشيطان يعمق هذه الأمراض في نفس الإنسان، بل تصبح مداخله إلى النفس الإنسانية، ومن هذه الأمراض: الضعف، واليأس، والقنوط، والبطر، والفرح، والعجب، والفخر، والظلم، والبغي، والجحود، والكنود(٥)، والعجلة، والطيش، والسفه، والبخل، والشح، والحرص، والجدل، والمراء، والشك، والريبة، والجهل، والغفلة، واللدد في الخصومة، والغرور، والادعاء الكاذب، والهلع، والجزع، والمنع، والتمرد، والطغيان، وتجاوز الحدود، وحب المال، والافتتان بالدنيا"(٦).

---

(١) صحيح البخاري [٢٠٣٨، ٢٠٣٩، ٣٢٨١، ٧١٧١]، مسلم [٢١٧٤، ٢١٧٥].

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/١١٢).

(٣) انظر: إحياء علوم الدين (٣/٣٢).

(٤) انظر: الشيطان خطواته وغاياته، رسالة ماجستير بكلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية بغزة، وائل عمر علي بشير، (ص:١٣٣- ١٣٥) [١٤٢٦هـ].

(٥) كَنَدَ كنودا، أي: كَفَرَ النعمة. والكَنُود: الكفور للنعمة.

(٦) عالم الجن والشياطين، د. عمر بن سليمان الأشقر (ص: ٨٥- ٨٦).

خامسًا: أهداف الشيطان:

إن للشيطان هدفًا بعيدًا، وهو أن يُلقى الإنسان في نار جهنم، ويحرم من الجنة، وهذه غاية يحشد لأجل تحقيقها كافة الأساليب والوسائل.

وله أهداف قريبة يتدرج في تحقيقها، منها:

١- إيقاع العباد في الشرك والكفر:

وذلك بدعوتهم إلى عبادة غير الله ﷻ، والكفر به وبشريعته ولقائه، وبصفات كماله، وبما أخبرت به رسله عنه: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ [الحشر:١٦]. وكما تقدم في الحديث: ((**وَأَمَرَتْهُمْ أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا**..))(١). وسيأتي بيان ذلك في (عقبة الكفر بالله ﷻ)، و(عقبة الشرك بالله ﷻ).

٢ - إيقاعهم في البدعة:

وسيأتي بيان ذلك في (عقبة البدعة).

٣- إيقاعهم في كبائر الذنوب والمعاصي:

من فعل المحرمات، وترك الواجبات. وسيأتي بيان ذلك في (عقبة الذنوب والمعاصي).

٤ - إيقاعهم في صغائر الذنوب والمعاصي:

حيث يهون عليهم أمرها، والوقوع فيها مرة بعد مرة. وسيأتي بيان ذلك في (عقبة الذنوب والمعاصي).

٥ - شغلهم بالمباحات عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزود للمعاد: وسيأتي بيان ذلك في (عقبة الإسراف في المباحات).

٦ — شغلهم بالأعمال المفضولة عن الفاضلة:

وسيأتي بيان ذلك في (عقبة الاشتغال بالمفضول عن الفاضل).

٧ - صدُّه العبادَ عن سبيل الله ﷻ:

---

(١) صحيح مسلم [٢٨٦٥]، وقد تقدم.

ومن أهداف الشيطان صدُّ الناس عن سبيل الله ﷻ، وصرفهم عن طريق النجاة، وتزيين الباطل، وإيقاعهم في الضلال. "فلا يترك سبيلًا من سبل الخير [والهداية] يسلكه عبد من عباد الله ﷻ إلا قعد فيه، يصدهم ويميل بهم، فعن سبرة بن أبي فاكه قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**إن الشيطان قَعَدَ لابن آدم بِأَطْرُقِهِ فقعد له بطريق الإسلام، فقال: تُسْلِمُ وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال تهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل**[1] **فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد فهو جَهْدُ النفس**[2] **والمال فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ، وَيُقْسَمُ الْمَالُ، فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ**))، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**فمن فعل ذلك كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، ومن قتل كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، وإن غَرِقَ كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، أو وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة**))[3].

ومصداق ذلك في كتاب الله ﷻ ما حكاه الله ﷻ عن الشيطان أنه قال لرب العزة: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۝١٧﴾ [الأعراف:١٦-١٧].

---

(١) (الطِّوَل): بكسر الطاء وفتح الواو، وهو الحبل الذي يشد أحد طرفيه في وتد والطرف الآخر في يد الفرس، وهذا من كلام الشيطان، ومقصوده أن المهاجر يصير كالمقيد في بلاد الغربة لا يدور إلا في بيته، ولا يخالطه إلا بعض معارفه، فهو كالفرس في طول لا يدور ولا يرعى إلا بقدره، بخلاف أهل البلاد في بلادهم، فإنهم مبسوطون لا ضيق عليهم، فأحدهم كالفرس المرسل. حاشية السندي على سنن النسائي (٢٢/٦).

(٢) فهو (جهد النفس): بفتح الجيم بمعنى المشقة والتعب، والمراد بالمال: الجمال والعبيد ونحوهما، أو المال مطلقًا. وإطلاق الجهد للمشاكلة، أي: تنقيصه وإضاعته والله تعالى أعلم. حاشية السندي على سنن النسائي (٢٢/٦).

(٣) أخرجه أحمد [١٥٩٥٨]، والنسائي [٣١٣٤]، وابن حبان [٤٥٩٣]، والطبراني في (الكبير) [٦٥٥٨]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٩٤١]. قال العراقي في (المغني عن حمل الأسفار) (ص:٩٠٦): "أخرجه النسائي من حديث سبرة بن أبي فاكه بإسناد صحيح".

وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ﴾، أي: على صراطك، فهو منصوب بنزع الخافض، أو هو منصوب بفعل مضمر، أي: لألزمنَّ صراطك، أو لأرصدَنَّه، أو لأعوجنه.

وعبارات السلف في تفسير (الصراط) متقاربة، فقد فسره ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: بأنه: الدين الواضح، وابن مسعود بأنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كتاب الله، وقال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هو الإسلام، وقال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: هو الحق. فالشيطان لا يدع سبيلًا من سبل الخير إلا قعد فيه يصد الناس عنه[1].

فالشيطان يصد عن الحق والهداية ويخيل للإنسان الأمور بخلاف ما هي، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ۝٣٧﴾ [الزخرف:٣٦- ٣٧]. والشيطان "يسلك سبلًا كثيرة، يغرر بها بعباد الله ﷻ: منها: تزيين الباطل: هذا هو السبيل الذي كان الشيطان، ولا يزال، يسلكه لإضلال العباد، فهو يظهر الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل، ولا يزال بالإنسان يحسن له الباطل، ويكرهه بالحق، حتى يندفع إلى فعل المنكرات، ويعرض عن الحق، كما قال اللعين لربِّ العزة: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحجر:٣٩-٤٠]. ومنها: تثبيطه العباد عن العمل ورميهم بالتسويف والكسل. ومنها: الوعد والتَّمْنِيَة: كما قال سبحانه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء١٢٠]، ومنها: إظهار النصح للإنسان، كما قال سبحانه: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:٢١]. ومنها: التدرج في الإضلال، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة:١٦٨]، ومنها: إنساؤه العبد ما فيه خيره وصلاحه..إلى غير ذلك[2].

ومن أهدافه: إفساد الطاعات، ومنها: الإيذاء البدني والنفسي إلى غير ذلك"[3].

و"الجن والشياطين كالإنس فيهم جوانب قوة، وجوانب ضعف، قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦]، ولم يعط الرَّب سبحانه الشيطان القدرة على

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٣٩٣- ٣٩٤)، زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (٢/١٠٦).

(٢) ينظر ذلك مفصلًا في (عالم الجن والشياطين)، د. عمر بن سليمان الأشقر (ص:٦٨) فما بعد.

(٣) انظر: المصدر السابق (ص:٥٥-٥٩).

إجبار الناس وإكراههم على الضلال والكفر: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:٦٥]، ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ [سبأ:٢١]. ومعنى ذلك أن الشيطان ليس له طريق يتسلط بها عليهم، لا من جهة الحجة، ولا من جهة القدرة، والشيطان يدرك هذه الحقيقة، فقد قال الله ﷻ عنه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر:٣٩-٤٠]. وإنما يتسلَّط على العباد الذين يرضون بفكره، ويتابعونه عن رضا وطواعية: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢]. وفي يوم القيامة يقول الشيطان لأتباعه الذين أضلهم وأهلكهم: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم:٢٢]. وفي آية أخرى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:١٠٠]. والسلطان الذي أعطيه الشيطان هو تسلطه عليهم بالإغواء والوسوسة، وتمكنه منهم، بحيث يؤزهم على الكفر والشرك ويزعجهم إليه، ولا يدعهم يتركونه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣].

ومعنى: (تؤزهم): تحركهم وتهيجهم. وسلطان الشيطان على أوليائه ليس لهم فيه حجَّة وبرهان، وإنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم، لما وافقت أهواءَهم وأغراضهم، فهم الذين أعانوا على أنفسهم، ومكنوا عدوهم من سلطانه عليهم بموافقته ومتابعته، فلما أعطوا بأيديهم، واستأسروا له، سُلِّط عليهم عقوبةً لهم. فالله ﷻ لا يجعل للشيطان على العبد سلطانًا حتى يجعل له العبد سبيلًا بطاعته والشرك به، فجعل الله ﷻ حينئذٍ له عليه تسلطًا وقهرًا"[1].

٨ - غرس العداوة والبغضاء في صفوفهم:

جاء في الحديث: عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إن الشيطان قد أَيِسَ أن يعبده الْمُصَلُّونَ في جزيرة العرب، ولكن في التَّحْرِيشِ**

(١) المصدر السابق (ص:٣١-٣٢).

بينهم))[(١)]، أي: بإيقاع العداوة والبغضاء بينهم، وإغراء بعضهم ببعض، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١].

وهو يأمر بكل شر: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٩].

وخلاصة الأمر أنَّ كل عبادة محبوبة لله ﷻ بغيضة إلى الشيطان، وكل معصية مكروهة للرحمن محبوبة للشيطان[(٢)].

سادسًا: وظيفة الشيطان:

الشيطانُ كلُّ عاتٍ متمرد من الإنس والجن، يوسوسُ شياطينُ الجنِّ إلى شياطينِ الإنس، وكذلك بعضُ الجنِّ إلى بعض، وبعضُ الإنس إلى بعض كما قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

وقال الله ﷻ في بيان صفات المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة:١٤-١٦].

"وقد قسم القرآن الشياطين، وهم القائمون بوظيفة الوسوسة إلى قسمين: شياطن الإنس، وشياطين الجن. وذكر أن بعضهم يوحي إلى بعض زخرف القول. وشيطان الجن ميسر للشر. فكل من يعمل عمله من الإنس فهو مثله. ومن شياطن الإنس: بطانة السوء وقرين السوء.

---

(١) صحيح مسلم [٢٨١٢]. قوله ﷺ: (ولكن في التحريش بينهم) أي: ولكنه يسعى في التحريش بالخصومات والشحناء والحروب والفتن ونحوها. شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٧/١٥٦).

(٢) انظر: عالم الجن والشياطين، د. عمر بن سليمان الأشقر (ص:٥٦).

وورد في الآثار أنَّ لكلِّ إنسان قرينًا من الجنِّ[1].

ومن هذا الباب تقديم الإنس على الجن في (آية الأنعام)[2]؛ لأن معرض الكلام في عداوتهم للأنبياء، وهي من الإنس أظهر، ودواعيها من التكذيب والإيذاء أوضح.

وفي آية: (الناس) قدم الجِنَّة على الناس[3]؛ لأن الحديث عن الوسوسة، وهي من شياطين الجن أخفى وأدق، وإن كانت من شياطين الإنس أعظم وأخطر وأدهى وأمر، فشيطان الجن يستخدم شيطان الإنس للشرِّ والإفساد، فيُرْبِي عليه ويكون شرًّا منه؛ لأنه بمثابة السِّلاح الذي يفتك به. وربَّ كلمة واحدة صغيرة يوحيها جنيٌّ لإنسيٍّ، ويوسوس إليه بتنفيذها، فتتولد منها فتن، ويتمادى شرها من قرن إلى قرن، ومن جيل إلى جيل.

وهذا النوع الإنسانيُّ المهيأ لقابلية الخير وقابلية الشر إذا انحط وتسفل كان شرًّا محضًا، وإذا ترقى وتعالى شارف أفق الملأ الأعلى، وأوشك أن يكون خيرًا محضًا، لولا أن العصمة لم تكتب إلَّا لطائفة منه، وهم الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. فالإنسان إذا انحط يكون شرًّا من الشيطان، وإذا ارتقى يكون أفضل من الملك- أعني: جنس الإنسان- ومن هذا

---

(١) جاء في الحديث: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((ما منكم من أحد، إلا وقد وكل به قرينه من الجن))، قالوا: وإياك؟ يا رسول الله قال: ((وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير)) صحيح مسلم [٢٨١٤]. (فأسلم) برفع الميم وفتحها وهما روايتان مشهورتان، فمن رفع قال: معناه: أسلم أنا من شره وفتنته، ومن فتح قال: إن القرين أسلم من (الإسلام) وصار مؤمنًا لا يأمرني إلا بخير. واختلفوا في الأرجح منهما، فقال الخطابي: الصحيح المختار: الرفع، ورجح القاضي عياض: الفتح، وهو المختار؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فلا يأمرني إلا بخير). واختلفوا على رواية الفتح، قيل: (أسلم) بمعنى: استسلم وانقاد، وقد جاء هكذا في غير (صحيح مسلم) فاستسلم. وقيل: معناه صار مسلمًا مؤمنًا، وهذا هو الظاهر. قال القاضي: واعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الشيطان في جسمه وخاطره ولسانه. وفي هذا الحديث إشارة إلى التحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه، فأعلمنا بأنه معنا؛ لنحترز منه بحسب الإمكان. شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٧/١٥٧- ١٥٨)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (٨/١٧٥).

(٢) يعني: قوله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ الآية.

(٣) يعني: قوله ﷻ: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس:٦].

الجنس، كان محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكمل الخلق الذي ليس لمخلوق رتبة مثله في الكمال"[1].

سابعًا: الوقاية من آفات الشيطان والعلاج:

١ – الالتجاء إلى الله ﷻ ولزوم طريق الهداية:

إن لكل إنسان قرين يزين له الباطل، ويعمل على صدِّه عن الحق، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦]، وقال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ [فصلت:٢٥]. "وهو من باب توزيع الجمع على الجمع، أي: لكلِّ واحد قرين. فهذا الإنسان الضعيف يلازمه قرين من الجن، ثم لا يخلو من قرين أو قرناء من الإنس، يزينون له ما بين يديه وما خلفه، ويصدونه عن ذكر الله ﷻ. فماذا يصنع؟ ما عليه إلَّا أن يلتجيء إلى الله ﷻ، ويستعيذ به ويتذكر؛ فإنه لا يؤخذ وهو ذاكر مستيقظ، وإنما يؤخذ إذا كان غافلًا، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف:٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١]"[2].

فمما يواجه به كيد الشيطان: أن يسارع العبدُ إلى التوبة والإنابة إلى الله ﷻ، وهذا دأب عباد الله الصالحين، فإذا همَّ أحدُهم بذنبٍ أو تلبَّسَ بمعصيةٍ تذكَّرَ عقابَ الله ﷻ ووعيدَه، وما أعده لعباده الصالحين، من النعيم المقيم، فتاب وأناب، واستعاذ بالله ﷻ من الشيطان الرجيم، ونأى بنفسه عن رفقاء السوء، ومواطن الشبهات، واستقام على الصراط المستقيم، ولزم طريق الهداية.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والوسواس يعرض لكلِّ من توجَّه إلى الله تعالى بذكرٍ أو غيره، لا بد له من ذلك، فينبغي للعبد أن يثبت ويصبر، ويلازم ما هو فيه من الذكر والصلاة، ولا يضجر؛ فإنه بملازمة ذلك ينصرف عنه كيد الشيطان، ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ

(١) تفسير ابن باديس (ص: ٣٨٥– ٣٨٦).

(٢) المصدر السابق (ص: ٣٨٥).

كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦]. وكلما أراد العبد توجهًا إلى الله تعالى بقلبه جاء من الوسواس أمور أخرى؛ فإن الشيطان بمنزلة قاطع الطريق، كلما أراد العبد يسير إلى الله تعالى أراد قطع الطريق عليه"(١).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "حكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا؟ قال: أجاهده، قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده، قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده، قال: هذا يطول! أرأيت إن مررت بغنم فنبحك كلبها أو منعك من العبور ما تصنع؟ قال: أكابده وأرده جهدي، قال: هذا يطول عليك! ولكن استعن بصاحب الغنم يكفه عنك"(٢).

٢ – الإعراض عن داء الوسوسة:

سئل ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن (داء الوسوسة) هل له دواء؟ فأجاب: له دواء نافع، وهو: الإعراض عنها جملة كافية –وإن كان في النفس من التردد ما كان–؛ فإنه متى لم يلتفت لذلك لم يثبت، بل يذهب بعد زمن قليل، كما جرب ذلك الموفقون، وأما من أصغى إليها وعمل بقضيتها فإنها لا تزال تزداد به حتى تخرجه إلى حيز المجانين، بل وأقبح منهم، كما شاهدناه في كثيرين ممن ابتلوا بها، وأصغوا إليها وإلى شيطانها(٣).

٣ – مجالسة الصالحين وحضور مجالس العلماء:

ومن أعظم الوسائل لعلاج الوسوسة: مجالسة الصالحين وحضور مجالس العلم، والحذر من مجالسة أصحاب السوء، أو الانفراد والانعزال عن الناس؛ لأن النفس الإنسانية بطبيعتها إن لم تشغلها فيما ينفعها شغلت صاحبها بالباطل. والشيطان يستغل ذلك؛ لصرف النفس إلى ما يزيدها فسادًا. وفي حضور مجالس العلماء والصالحين إشغال للنفس في الخير مع ما يحصله صاحبها من العلم النافع، والتوجيهات السديدة التي تبعدها عن الشيطان، وتقربها إلى ما ينفعها.

٤ – مخالفة النفس والشيطان:

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٦٠٨).

(٢) تلبيس إبليس (ص:٣٥).

(٣) الفتاوى الفقهية الكبرى، لابن حجر الهيتمي (١/١٤٩).

من أراد أن يسلك طريق السعادة فعليه أن يخالف النفس والشيطان، وأن لا يستوحش من قلة السالكين طريق الهداية، ولا يغترَّ بكثرة المخالفين الغارقين في سبل الغواية، وما كان ذلك الابتلاء بالشيطان إلَّا تمحيصًا كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ [سبأ:٢٠-٢١].

وقد بيَّن الحقُّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حال الشيطان الذي يقتنص الفرص، ومواطن الضعف، فيأتي عدوه من أي جهة أمكنته، وحذَّرنا من متابعته، وأمرنا بمعاداته ومخالفته، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧].

وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾، أي: موحدين طائعين، مظهرين الشكر. ووصف الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

والحاصل أن تغلُّب العبد على الوسواس الذي يصيبه في عبادته وأفكاره يكون باللجوء إلى الله ﷻ، وإخلاصِ الدعاء أن يذهب عنه ما يجد من هذا المرض، والإكثار من قراءة القرآن والمحافظة على ذكر الله ﷻ -ولا سيما على الوجه الرشيد الذي يستضاء فيه بأنوار الوحي من الكتاب وصحيح السنة-، والاستعاذة بالله ﷻ من الشيطان الرجيم، والانتهاء عن الاسترسال مع خطوات الشيطان الخبيثة، فقد جاء في الحديث: ((**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا، من خلق كذا، حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته**))(١).

(١) صحيح البخاري [٣٢٧٦]، مسلم [١٣٤].

العقبة الثانية

الكفر بالله جل وعلا

أولًا: تعريف الكفر وبيان أنواعه:

١ - تعريف الكفر:

أ. الكفر لغة: مأخوذ من الستر والتغطية. وأصل الكفر: الستر والتغطية، ومنه الكافر؛ لأنه يستر الحق ويجحده، والزارع كافر؛ لأنه يستر الحب، والليل المظلم كافر؛ لأنه بظلمته يستر كل شيء(١).

ويأتي الكفر بمعنى البراءة، كقوله تعالى -حكاية عن الشيطان-: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم:٢٢]، أي: تبرأت(٢).

ب. أوجه ورود الكفر في القرآن الكريم: قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ذكر أهل التفسير أن الكفر في القرآن على خمسة أوجه:

أحدها: الكفر بالتوحيد. ومنه قوله تعالى في [البقرة:٦]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾، وفي [الحج:٢٥]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وهو الأعم في القرآن.

والثاني: كفران النعمة. ومنه قوله تعالى في [البقرة:١٥٢]: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، وفي [الشعراء:١٩]: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، وفي [النمل:٤٠]: ﴿أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

والثالث: التبري. ومنه قوله تعالى في [العنكبوت:٢٥]: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾، أي: يتبرأ بعضكم من بعض. وفي [الممتحنة:٤]: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾.

والرابع: الجحود. ومنه قوله تعالى في [البقرة:٨٩]: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾.

---

(١) انظر: تفسير النيسابوري (غرائب القرآن) (١٥١/١)، المفردات، للراغب، مادة: (كفر) (ص:٧١٤)، تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٧٢/١).

(٢) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري، مادة: (كفر) (١١١/١٠)، تفسير مقاتل بن سليمان (٥١٦/١)، (٤٠٣/٢)، تفسير البيضاوي (١٩٧/٣)، تفسير أبي السعود (٤٣/٥).

والخامس: التغطية. ومنه قوله تعالى في [الحديد:٢٠]: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾، يريد الزراع الذين يغطون الحب"(١).

ج. الكفر في الاصطلاح:

إن الكفر في الاصطلاح الشرعي يأتي في مقابل الإيمان، وبمعنى: جحود النعمة، أو في مقابل الشكر. قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الصحاح): "الكفر: ضد الإيمان. وقد كفر بالله كفرًا. وجمع الكافر: كُفَّار وكَفَرَة وكِفارٌ أيضًا، مثل: جائع وجياع، ونائم نيام. وجمع الكافِرَة: الكَوافِرُ. والكفر أيضا: جحود النعمة، وهو ضد الشكر. وقد كفره كفورًا وكفرانًا"(٢).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية، أو النبوة، أو الشريعة، أو ثلاثتها، وقد يقال: كفر لمن أخل بالشريعة، وترك ما لزمه من شكر الله ﷻ عليه"(٣).

وقال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الكفر في الشريعة: جحد الربوبية، وجحد نبوة نبي من الأنبياء صحت نبوته في القرآن، أو جحد شيء مما أتى به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما صح عند جاحده بنقل الكافة، أو عمل شيء قام البرهان بأن العمل به كفر"(٤).

وقيل: "من جحد ما يعلم من دين الإسلام ضرورة(٥) حكم بردته وكفره، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة ونحوه ممن يخفى عليه، فيعرف ذلك، فإن استمر حكم بكفره، وكذا حكم من استحل الزنى أو الخمر أو القتل أو غير ذلك من المحرمات التي يعلم تحريمها ضرورة"(٦).

---

(١) نزهة الأعين النواظر (ص: ٥١٦- ٥١٧).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (كفر) (٢/ ٨٠٧).

(٣) المفردات، للراغب، مادة: (كفر) (ص:٧١٤-٧١٥).

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/ ١١٨)، وانظر: فتاوى السبكي (٢/٥٨٦).

(٥) كالصلاة وما أشبه ذلك مما يخرج من الدين.

(٦) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١/١٥٠).

وقد اتفق الفقهاء على أنه من استخف بالقرآن، أو بالمصحف، أو بشيء منه، أو جحد حرفًا منه، أو كذب بشيء مما صرح به من حكم أو خبر، أو شك في شيء من ذلك، أو حاول إهانته بفعل معين، مثل إلقائه في القاذورات كفر بهذا الفعل(١).

قال القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أصل الكفر: الجهل بالربوبية، وأصل الكبائر: الجرأة على مخالفة أمر الله تعالى بفعل ما نهى عنه وعظمت مفسدته؛ لاستيلاء الشهوة عليه، فما كان من المعاصي مقتضيًا الجهل بالربوبية نصًّا من نحو الشرك بالله تعالى، وجحد ما علم من الدين بالضرورة، كجحد وجوب الصلاة ونحوهما، ونحو: إلقاء المصحف في القاذورات، وجحد البعث، أو النبوات، أو وصفه تعالى بكونه لا يعلم أو لا يريد أو ليس بحي ونحوه، فهو الكفر المتفق عليه"(٢).

قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن جحد الله ﷻ أو جعل له شريكًا، أو صاحبة، أو ولدًا، أو كذب الله تعالى، أو سبه، أو كذب رسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو سبه، أو جحد نبيًّا، أو جحد كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو شيئًا منه، أو جحد أحد أركان الإسلام، أو أحلَّ محرمًا ظهر الإجماع على تحريمه، فقد ارتدَّ إلا أن يكون ممن تخفى عليه الواجبات والمحرمات فيعرف ذلك، فإن لم يقبل كفر"(٣).

والحاصل أن الكفر اسم يقع على ضروب من الذنوب، منها: الشرك بالله ﷻ، ومنها: الجحد للنبوة، ومنها: استحلال ما حرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومنها: إنكار ما علم من الدين بالضرورة.

أما بيان وجه الصلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي فقد قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنما سمي كافرًا؛ لأنه ستر بكفره الإيمان"(٤). وقال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ويقال: سمي الكافر

(١) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٣/٢٥١)، جامع العلوم والحكم، لابن رجب (١/٣٢٧)، المواقف، لعضد الدين الإيجي (٣/٥٤٥- ٥٤٧)، إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد (٢/٢٧٤)، المحصول، للرازي (٤/٣٨)، إرشاد الفحول، للشوكاني (١/١٩٩).

(٢) الفروق، للقرافي (١/ ١٣٦).

(٣) عمدة الفقه (ص:١٣٩)، وانظر: العدة شرح العمدة (ص:٦١٧).

(٤) معاني القرآن وإعرابه (٢/٢٠٣).

كافرًا؛ لستره نعمة الله عليه، أو لستره على نفسه شواهد ربوبية الله ﷻ، ودلائل توحيده"[1]. وسيأتي بيان الصلة بين الكفر والشرك في (عقبة الشرك)، كما سيأتي ما يستفاد من التعريفات السابقة في النتائج.

٢ – أنواع الكفر:

قسم العلماء الكفر إلى قسمين:

أ. **الكفر الأكبر**: وهو أن يأتي المكلف بما يخرجه عن الإسلام من قول أو فعل أو اعتقاد.

ب. **الكفر الأصغر**: وهو كل معصية ورد في الشرع تسميتها كفرًا، ولم تصل إلى حد الكفر الأكبر المخرج من الملة. وقد يكون من أسباب دخول النَّار، ولكن صاحبه يبقى داخلًا تحت المشيئة.

فكل معصية ورد في الشرع أنها كفر أو أن من فعلها كفر ولم تصل إلى درجة الكفر الأكبر المخرج من الملة فهي كفر أصغر، وبعض أهل العلم يطلق عليه اسم: (كفر دون كفر)، وبعضهم يطلق عليه اسم: (كفر النعمة)، وهو تسمية له بمثال من أشهر أمثلته.

وحكم هذا الكفر: أنه محرم، وكبيرة من كبائر الذنوب؛ لأنه من أعمال الكفار التي حرمها الإسلام، ولكنه لا يخرج صاحبه من ملة الإسلام.

أ. أنواع الكفر الأكبر:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أنواع (الكفر الأكبر): "وأما الكفر الأكبر، فخمسة أنواع[2]:

(١) معالم السنن (٤/ ٣١٦).

(٢) وقيل: الكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار، وكفر جحد، وكفر عناد، وكفر نفاق. فكفر الإنكار هو أن لا يعرف الله تعالى أصلًا، أو لا يعترف به، ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد [يعني: أنه يكفر بقلبه ولسانه، فلا يعتقد الحق ولا يقر به]. وكفر الجحد: هو أن يعرف الله تعالى، ولكن يجحده، يعني: أن يعرف بقلبه ولا يقر بلسانه، ككفر إبليس. وكفر العناد: هو أن يعرف الله تعالى بقلبه، ويعترف بلسانه،=

الأول: كفر الإباء والاستكبار: نحو كفر إبليس، فإنه لم يجحد أمر الله ﷻ، ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار، ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول ﷺ، وأنه جاء بالحق من عند الله ﷻ، ولم ينقد له إباء واستكبارًا.

الثاني: كفر الإعراض: أن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول ﷺ، لا يصدقه ولا يكذبه، ولا يواليه ولا يعاديه، ولا يصغي إلى ما جاء به البتة.

الثالث: كفر الشك: أنه لا يجزم بصدقه ولا يكذبه، بل يشك في أمره، وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول ﷺ جملة، فلا يسمعها ولا يلتفت إليها، وأما مع التفاته إليها، ونظره فيها فإنه لا يبقى معه شك؛ لأنها مستلزمة للصدق، ولا سيما بمجموعها؛ فإن دلالتها على الصدق كدلالة الشمس على النهار.

الرابع: كفر النفاق: أن يظهر بلسانه الإيمان، وينطوي بقلبه على التكذيب، فهذا هو النفاق الأكبر(١).

الخامس: كفر الجحود: وهو نوعان: كفر مطلق عام، وكفر مقيد خاص. فالمطلق: أن يجحد جملة ما أنزله الله ﷻ، وإرساله الرسول ﷺ. والخاص المقيد: أن يجحد فرضًا من فروض الإسلام، أو تحريم محرم من محرماته، أو صفة وصف الله ﷻ بها نفسه، أو خبرًا أخبر الله ﷻ به، عمدًا، أو تقديمًا لقول من خالفه عليه؛ لغرض من الأغراض(٢).

=ولكن لا يدين به. وأما كفر النفاق: أن يعترف باللسان ولا يعتقد بالقلب؛ فهذه أنواع الكفر؛ فمن لقي الله تعالى بنوع منها لم يغفر له. وقد أطلق الشارع الكفر على ما سوى الأربعة، وهو: كفران الحقوق والنعم. انظر: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، للكرماني (١/١٣٧)، تفسير السمعاني (١/٤٦)، تفسير البغوي (١/٨٦). وقال العيني: و(الكفر المطلق) هو الكفر بالله ﷻ، وما دون ذلك يقرب منه، وتحقيق ذلك ما قاله الأزهري: الكفر بالله أنواع: إنكار، وجحود، وعناد، ونفاق. وهذه الأربعة من لقي الله تعالى بواحد منها لم يغفر له. انظر ذلك مفصلًا في (عمدة القاري) (١/٢٠٠)، تهذيب اللغة للأزهري، مادة: (كفر) (١٠/١١٠)، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٤/١٨٥- ١٨٦).

(١) احترز به عن (النفاق الأصغر) كما سيأتي بيانه في عقبة النفاق.

(٢) انظر ذلك مفصلًا في (مدارج السالكين) (١/٣٤٦- ٣٤٨).

ب. صور الكفر الأصغر:

الأولى: كفر النعمة والإحسان والحقوق:

قال الله ﷻ: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢]، فقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ هو من كفر النعمة[(١)].

جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أُرِيتُ النَّارَ فإذا أكثَرُ أهلهَا النِّساءُ، يَكْفُرْنَ**))، قيل: أَيَكْفُرْنَ بالله؟ قال: ((**يَكْفُرْنَ العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إِحْدَاهُنَّ الدَّهر، ثم رأت منك شيئًا، قالت: ما رأيت منك خيرًا قط**))[(٢)]. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وفيه جواز إطلاق الكفر على كفران الحقوق –وإن لم يكن ذلك الشخص كافرًا بالله تعالى–"[(٣)].

قال القاضي أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ في (شرحه): "إن الطاعات كما تسمى إيمانًا كذلك المعاصي تسمى: كفرًا، لكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد الكفر المخرج من الملة. وخص كفران العشير من بين أنواع الذنوب؛ لدقيقة بديعة وهي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**))[(٤)]، فقرن حق الزوج على الزوجة بحق الله تعالى، فإذا كفرت المرأة حق زوجها –

---

(١) قال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: "﴿تَكْفُرُونِ﴾ أي: نعمي وأيادي، وانحذفت نون الجماعة للجزم، وهذه نون المتكلم، وحذفت الياء التي بعدها تخفيفًا؛ لأنها رأس آية لتناسب الفواصل، ولو كان نهيًا عن الكفر ضد الإيمان لكان: ولا تكفروا، بغير النون". المحرر الوجيز (١/٢٢٦–٢٢٧). "أو ولا تكفروا بي". البحر المحيط، لأبي حيان (٢/٥٠).

(٢) صحيح البخاري [٢٩، ١٠٥٢، ٥١٩٧]، مسلم [٩٠٧].

(٣) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٦/٢١٣).

(٤) الحديث أخرجه غير واحد، منهم: الترمذي [١١٥٩]، وحسنه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال العراقي في (المغني عن حمل الأسفار) (ص:٤٩٨): "أخرجه الترمذي وابن حبان من حديث أبي هريرة، وكذلك رواه أبو داود من حديث قيس بن سعد، وابن ماجه من حديث عائشة، وابن حبان من حديث ابن أبي أوفى".

وقد بلغ من حقه عليها هذه الغاية- كان ذلك دليلًا على تهاونها بحق الله ﷻ، فلذلك يطلق عليها: الكفر، لكنه كفر لا يخرج عن الملة"(١).

الثانية: قتال المسلم لأخيه المسلم:

قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**))(٢). وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض**))(٣).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذا محمول على من سبَّ مسلمًا أو قاتله من غير تأويل(٤)، فقد قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حاطب: دعني أضرب عنق هذا المنافق(٥)، فلم ينكر عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتأويله"(٦).

وقال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا ترجعوا بعدى كفارًا**)) لتحريم الدماء، وحقوق الإسلام، وحرمة المؤمنين، وليس يريد الكفر الذى هو ضد الإيمان؛ لما تقدم من إجماع أهل السنة أن المعاصي غير مخرجة من الإيمان"(٧)، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى

(١) فتح الباري، لابن حجر (١/٨٣)، وانظر: عارضة الأحوذي، لابن العربي (١٠/٦١).

(٢) صحيح البخاري [٤٨، ٦٠٤٤، ٧٠٧٦]، مسلم [٦٤].

(٣) صحيح البخاري [١٢١، ١٧٣٩، ٤٤٠٣، ٤٤٠٥، ٦١٦٦، ٦٨٦٨، ٦٨٦٩، ٧٠٧٧، ٧٠٧٨، ٧٠٨٠]، مسلم [٦٥، ٦٦].

(٤) وعليه يحمل قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار))، قيل يا رسول الله: هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: ((إنه كان حريصًا على قتل صاحبه)) صحيح البخاري [٣١، ٦٨٧٥، ٧٠٨٣]، مسلم [٢٨٨٨]. فإنه محمول على ما إذا كان القتال بينهما من غير تأويل سائغ. أما ما وقع بين بعض الصحابة فقد كان عن تأويل سائغ القصد منه: إصلاح الدين والدنيا، فالمصيب منهم له أجران، والمخطئ له أجر. وهي مرحلة زمنية قد مضت، فينبغي للمسلم أن يعيش الحاضر، ويستفيد من دروس الماضي، وأن يعرف للصحابة قدرهم، ويقدر جهدهم في الإصلاح، وحرصهم على نشر الدين، وإصلاح أحوال الناس، ويتجنب الطعن أو إثارة الفتن بين المسلمين.

(٥) صحيح البخاري [٣٠٠٧، ٤٢٧٤].

(٦) كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي (١/ ٢٩٩-٣٠٠).

(٧) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٨/٤٩٧).

فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩].

وقال: "وليس معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا ترجعوا بعدي كفارًا**)): النهي عن الكفر الذي هو ضد الإيمان بالله ﷻ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما المراد بالحديث: النهي عن كفر حق المسلم الذي أمر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من التناصر والتعاضد، والكفر في لسان العرب: التغطية، وكذلك قوله: ((**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**))، يعني: قتاله كفر بحقه وترك موالاته؛ للإجماع على أن أهل المعاصي لا يكفرون بارتكابها.

وقال أبو سليمان الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: قيل: معناه لا يكفر بعضكم بعضًا فتستحلوا أن تقاتلوا ويضرب بعضكم رقاب بعض، وقيل: إنه أراد بالحديث أهل الردة، أخبرني إبراهيم بن فراس قال: سمعت موسى بن هارون يقول: هؤلاء أهل الردة قتلهم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ"(١).

وقد ذكر ابن عبد البر(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ أنه صحَّ عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**))، وقال: ((**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**))(٣)، وقال: ((**لا ترغبوا عن آبائكم، فمن رغب عن أبيه فهو كفر**))(٤)..إلى آثار مثل هذه. هذه. وذكر أنه لا يُخرِج بها العلماء المؤمنَ من الإسلام، وإن كان بفعل ذلك فاسقًا عندهم(٥).

الثالثة والرابعة: الطعن في أنساب الآخرين، والنياحة على الميِّت:

---

(١) المصدر السابق (١٠/١٨)، معالم السنن، للخطابي (٤/٣١٦)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٥٥)، فتح الباري، لابن حجر (١٢/١٩٤).

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٤/٢٣٦).

(٣) صحيح البخاري [٢٤٧٥، ٥٥٧٨، ٦٧٧٢، ٦٧٨٢، ٦٨١٠]، مسلم [٥٧].

(٤) صحيح البخاري [٦٧٦٨]، مسلم [٦٢].

(٥) صفحات مضيئة في التصور والسلوك الديني، فضيلة الشيخ إسماعيل المجذوب (ص:٦٧).

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب والنياحة على الميت**))(١).

الخامسة: انتساب الإنسان لغير أبيه:

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ليس من رجل ادعى لغير أبيه -وهو يعلمه- إلا كفر**))(٢).(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "والقصد أن المعاصي كلها من نوع الكفر الأصغر؛ فإنها ضد الشكر، الذي هو العمل بالطاعة، فالسعي إما شكر، وإما كفر، وإما ثالث، لا من هذا ولا من هذا، والله أعلم"(٤).

ثانيًا: الكفر من حيث كونه عقبة من العقبات:

تقدم أن الكافر يسمى: كافرًا؛ لأنه يستر نعم الله تعالى بكفره، ويصير في غطاء من دلائل الإسلام وبراهينه.

وإن أعظم عقبة في طريق الهداية: عقبة الكفر بالله ﷻ وبدينه ولقائه، وبصفات كماله، وبما أخبرت به رسله عنه عليهم والصلاة، وقد عدها ابن القيم ﵀ أعظم العقبات(٥) التي تعمي القلوب، وتطمس البصيرة، وتصد عن الحق.

والذي يختم على قلبه وسمعه وبصره لا يبصر الحق، ولا يسلك طريق الهداية، بسبب خبث نفسه، وفساد طويته، وغفلته عن العاقبة، فكم وكم ينبَّه وهو غارق في أوحال الضّلال! قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

(١) صحيح مسلم [٦٧].
(٢) صحيح البخاري [٣٥٠٨]، مسلم [٦١].
(٣) بتصرف عن (تسهيل العقيدة الإسلامية)، عبد الله بن عبد العزيز الجبرين (ص: ٤٤٣- ٤٤٩)، مختصر تسهيل العقيدة الإسلامية، عبد الله الجبرين (ص:١٢٦- ١٢٧).
(٤) مدارج السالكين (١/٣٤٦).
(٥) انظر: الفوائد (ص:١٢٨)، مدارج السالكين (١/٢٣٧).

﴿٧﴾ [البقرة:٦-٧]. فيعرض هؤلاء عن دلائل الهدى، لا يقع منهم الإيمان -ولو جاءتهم كل آية-..كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعام:٢٥]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس:٩٦- ٩٧]. وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في وصف المعاندين من أهل الكتاب: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة:١٤٥].

فالضَّلال الذي أصابهم، والختم الذي غطى قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وكذلك الغشاوة والميل والبعد عن الحق، كل ذلك كان بسبب الإعراض والاستكبار عن الحق.

قال الله ﷻ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٤٦]، "أي: سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوبَ المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرون على الناس بغير حقٍّ، أي: كما استكبروا بغير حقٍّ أذلهم الله بالجهل"(١).

أقول: وإذا كان الخذلان والضلال متحققًا في (الكفر الأكبر)، فلا شك أن (الكفر الأصغر) من أسباب الخذلان، وأن التحرز عنه من أسباب التوفيق وإصابة الحق.

ثالثًا: التحذير من آفة التكفير:

التكفير نسبة الرجل أخاه الى الكفر، ومن المعلوم أنَّ الكفرَ ضدُّ الايمان، ولا يمكن أن يكون الإنسان جامعًا بينه وبين الايمان، فالإنسان إمَّا أن يكون مؤمنًا، وإمَّا أن يكون كافرًا. وللمؤمن أحكام، وللكافر أحكام كذلك.

فالكافر إذا كان كفره عارضًا، أي: كان بردَّةٍ، فإنه لا يُقَرُّ على كفره.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٤٢٦).

واذا كان كفره كفرًا أصليًّا، وثبت ذلك فإنَّ الأحكام تختلف. فمنها ما يتعلَّق بالكافر الحربي، ومنها ما يتعلَّق بالكافر الذِّمي، أو المعاهد. فأنواع المتَّصفين بالكفر الأصلي ثلاثة:

١ - الكافر الحربي: وهو الذي ليس له إيمان ولا أمان، وليس بينه وبين المسلمين ذمَّة ولا عهد، وكثير من النَّاس يفهم الكافر الحربي على أنه الذي يحارب المسلمين أو يحاربه المسلمون، وهذا الفهم خاطئ.

٢ - والكافر المعاهد: وهو الذي بينه وبين المسلمينَ عهدٌ مُبْرَمٌ مع إمام المسلمين أو من ينوب عنه، فالمسلمون يسعى بذِمَّتِهم أدناهم.

٣ - والكافر الذِّمي: وهو من رعايا الدَّولة الاسلامية، ويدفع الجزية للمسلمين، وله ما لهم وعليه ما عليهم فيما يتعلق بحقوق الأرض والمواطنة. وله حق الجوار، ويجب على المسلمين الدفاع عنه اذا اعتدى عليه أحد.

وقد أحرز الذِّميُّ دمه وماله، أي: جعلهما في حرز.

أما الكافر الحربي فغير معصوم الدم ولا المال ولا العرض.

وليس معنى عدم عصمته: لزوم قتله، وأخذ ماله، أو مشروعية ذلك، كما أننا إذا قلنا: فلان معصوم فليس معنى ذلك أنه تجب في حقِّه المعصية.

بل إن ما يشرع جهاده إذا اعتدى على المسلمين، أو وقف في وجه الدعوة ومنع الناس من الاستجابة لها، وعاند بعد دعوته وإقامة الحجة عليه.

ومن هنا فإن تكفير المسلم للمسلم معناه: الحكم عليه بالكفر، وهذا قد نهى الله تعالى عنه حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:٩٤].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾، أي: الأمر المشكل، أو (تثبتوا) ولا تعجلوا، المعنيان سواء. فإن قتله أحد فقد أتى منهيًّا عنه"[١].

(١) تفسير القرطبي (٥/٣٣٩).

وهذا يقتضي أنَّ من قال: (لا اله الا الله محمد رسول الله) وقد كان كافرًا قبل ذلك فإنه يدخل في مسمى الإسلام، ويحرز دمه وماله وعرضه حتى يأتي بما يقتضي إباحة ذلك.

وقد بين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يقتضي إباحة الدم في الإسلام فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((**لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثَّيِّبُ الزَّانِي، والنَّفْسُ بِالنَّفْس، والتَّارِكُ لِدِينِه الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**))[1].[2].

ومن أعظم الآفاتِ التي قد تفشَّت في عصرنا الحاضر: انتشار ظاهرة التَّكفير بغير حجة ولا برهانٍ عندَ كثيرٍ من الجُهَّال المتصدِّرين لمنابر الدعوة، فتأمَّل كيف كان أمثالُ هؤلاءِ من الجُهَّالِ والغلاة سببًا في التَّفرق والاختلاف؟! وكم سُفِكَ بسببهم من دماء؟! وكم صدَّ الغلوُّ والتَّكفير أناسًا عن دين الله تعالى حيث عكس واقعًا مشوَّهًا مبنيًا على الجهل والتَّخلف والكراهية؟!

وتأمَّل كيف كان أمثالُ هؤلاءِ طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهِّدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب؟ ففسدت بسببهم البلاد، وهلك العباد، وشاع الجهل.

"ومن مشكلات التكفير التي تؤدي إلى سوء الخاتمة أنَّ كثيرًا من الذين يكفرون المسلمين ينطلقون من واقع الإعجاب بأنفسهم وبإيمانهم فيحصل لهم ما يحصل للمتألي على الله تعالى؛ لأن ما حملهم على ذلك أنهم يرون أنفسهم أفضل من غيرهم وأولى منهم بالإيمان، ولو راجعوا أنفسهم لوجدوا أن ما ينكرونه على أي مسلم ربما وقعوا في مثله.

وفي الصحيح: ((**إذا قال الرجل: هَلَكَ النَّاسُ فهو أَهْلَكُهُمْ**))، قال أبو إسحاق: لا أدري، (أَهْلَكَهُمْ) بالنَّصب، أو (أَهْلَكُهُمْ) بالرَّفع[3].

---

(١) صحيح البخاري [٦٨٧٨]، مسلم [١٦٧٦].

(٢) التكفير شروطه وضوابطه وأخطاره ومزالقه، للدكتور الشيخ محمد الحسن ولد الددو، بتصرف واختصار (ص:٥-٨).

(٣) صحيح مسلم [٢٦٢٣].

فرواية: (هو أَهْلَكَهُمْ) –بالفتح–، أي: هو الذي سعى لذلك؛ لأنه أراد حصول الفتنة بينهم، ورواية: (هو أَهْلَكُهُمْ) –بالضم–، أي: أشدهم هلاكًا حين قال ذلك.

وهذا الحديث مقيد بما إذا قال ذاك على سبيل التوجع على حال الأمة، فإن قاله على سبيل التوجع على حاله هو وحال الأمة فلا يكون داخلًا في الوعيد.

قال المنذري رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): وفسره مالك إذا قال ذلك معجبًا بنفسه مزدريًا بغيره فهو أشد هلاكًا منهم؛ لأنه لا يدري سرائر الله عَزَّ وَجَلَّ في خلقه.

وفي (الصحيح): عن جُنْدَبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حدَّث ((**أنَّ رجلًا قال: والله لا يغفر الله لفلان، وإنَّ الله تعالى قال: من ذا الذي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك**))(٢).

وكذلك أخرج الحاكم في (مستدركه) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من قال في مؤمن ما ليس فيه، حُبِسَ في رَدْغَةِ الْخَبَالِ حتى يَأْتِيَ بِالْمَخْرَجِ مِمَّا قال**))(٣).

وأقوال أهل العلم في هذا الباب كثيرة، منها مثلًا قول الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "رأيت للأشعري كلمة أعجبتني، وهي ثابتة رواها البيهقي، سمعت أبا حازم العبدوي، سمعت زاهر بن أحمد السرخسي يقول: لما قرب حضور أجل أبي الحسن الأشعري في داري ببغداد، دعاني فأتيته، فقال: اشهدْ عليَّ أني لا أكفِّر أحدًا من أهل القبلة؛ لأن الكل يشيرون إلى معبودٍ واحد، وإنما هذا كله اختلاف العبارات.

قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعده: وبنحو هذا أدين، وكذا كان شيخنا ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أواخر أيامه يقول: أنا لا أكفر أحدًا من الأمة، ويقول: قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**))(١)،..

---

(١) الترغيب والترهيب (٣/٣٧٤).

(٢) صحيح مسلم [٢٦٢١]. و(يتألى) يَحْلِفُ، والأَلْيَةُ اليَمِين.

(٣) أخرجه الحاكم [٢٢٢٢]، وقال: " صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (السنن الكبرى) [١١٤٤١].

..فمن لازم الصلوات بوضوء فهو مسلم"[2].

ولا شك أن آفة التكفير: الضَّلال والإضلال، فَيَضِلُّ السَّالكُ عن الحقِّ؛ لجهله المركَّب، وغروره، وبُعْدِه عن العلماء الرَّاسخين، وتَأَثُّرِه بأئمَّة الضَّلال، ويُضِلُّ غيره بالصَّدِّ والتنفير.

وواقعنا المعاصر -وللأسف- ساده الجهل والتخلف والغلو والتكفير، حيث أفل نجم الإصلاح، وتصدَّرَ الجهَّالُ منابرَ الدَّعوة، فأصاب الأمَّة ما أصابها من البلاء والركود، ونما التَّطرف إلى حدٍّ كبير.

ومن سُنَّة الله ﷻ في الأمم أنَّه لا يهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧]، يعني: مصلحون في أعمالهم وأحكامهم وسياساتهم، وهذا هو الأساس الأعظم لعلم الاجتماع في حياة الأمم وموتها وعزتها وذلها. ولكنه يهلكها وأهلها مفسدون في الأرض كما ثبت في آيات كثيرة.

وتحتاج الأمة في الفتن، عندما يلتبس الحق بالباطل أن ترجع لأهل العلم الراسخ، والنظر الثاقب، وتمكينهم؛ حتى يعلو صوت الحق، وتخمد سَوْرَةُ الباطل.

ويحرص المنهج الإسلامي في الدعوة البحث عن أدنى وسيلة لإدخال الناس في دين الله ﷻ، بينما الغلاة يبحثون للمسلم عن أدنى شبهة لإخراجه من دين الله ﷻ.

فمن شأن المسلم أن يحرص على تشجيع الناس وترغيبهم في الإسلام والتآلف والمحبة والتعاضد والتعاون، ومن شأن الغلاة البحث والتنقير عن شبهات منفرة وصادة.

وقد حذَّرَ النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تحذيرًا عامًّا من الغلوِّ مبينًا آثاره فقال: ((**إياكم والغلو في الدين؛ فإنما أهلك من كان قبلكم: الغلو في الدين**))[1].

---

(١) الحديث مروي عن ثوبان، وقد أخرجه الطيالسي [١٠٨٩]، وأحمد [٢٢٣٧٨]، والدارمي [٦٨١]، وابن ماجه [٢٧٧]، قال البوصيري (٤١/١): "هذا الحديث رجاله ثقات أثبات، إلا أنه منقطع بين سالم وثوبان، فإنه لم يسمع منه بلا خلاف، لكن له طرق أخرى متصلة". وأخرجه الروياني [٦١٤]، وابن حبان [١٠٣٧]، والطبراني [١٤٤٤]، والحاكم [٤٤٧]، والبيهقي [٣٨٤].

(٢) سير أعلام النبلاء (٨٨/١٥). التكفير شروطه وضوابطه وأخطاره ومزالقه (ص:٣٣- ٣٥).

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**صنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي: إمام ظلوم غشوم، وكل غال مارق**))[2]. روي (غالٍ) –بالتخفيف– من الغلو، و(غالٍّ) –بالتشديد– من الغلول.

والتكفير أمره عظيم، وخطره جسيم، وهو من الغلو، وقد جاء في الحديث: التَّحذير منه بخصوصه فيما رواه عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**أيما رجل قال لأخيه يا كافر، فقد باء بها أحدهما**))[3]. وفي رواية عند الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: ((**لا يرمي رجل رجلًا بالفسوق، ولا يرميه بالكفر، إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك**))[4]. وفي رواية عند الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ: ((**ومن دعا رجلًا بالكفر، أو قال: عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه**))[5].

قال الباجي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أي: إن كان المقول له كافرًا فهو كما قال، وإن لم يكن خيف على القائل أن يصير كذلك"[6].

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "((**باء بها**)) أي: احتمل وزرها، فإذا قيل للمؤمن: يا كافر فقد باء قائل ذلك بوزر الكلمة، واحتمل إثمًا مبينًا وبهتانًا عظيمًا، إلا أنه لا يكفر بذلك؛ لأن الكفر لا يكون إلا بترك ما يكون به الإيمان. وفائدة هذا الحديث: النهي عن تكفير المؤمن وتفسيقه، قال الله جَلَّ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات:١١].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [١٣٩٠٩]، وأحمد [٣٢٤٨]، وابن ماجه [٣٠٢٩]، وابن أبي عاصم في (السنة) [٩٨]، والنسائي [٣٠٥٧]، وأبو يعلى [٢٤٢٧]، وابن الجارود [٤٧٣]، وابن خزيمة [٢٨٦٧]، وابن الأعرابي [٥١٨]، وابن حبان [٣٨٧١]، والطبراني في (الكبير) [٧٤٢]، والحاكم [١٧١١]، وقال: = ="صحيح على شرط الشيخين"، وأخرجه أيضًا: البيهقي في (السنن الكبرى) [٩٥٣٤]، والضياء [٢٢].. عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) قال الهيثمي (٥/٢٣٥): "رواه الطبراني في (الكبير) و(الأوسط) ورجال الكبير ثقات".

(٣) صحيح البخاري [٦١٠٤]، مسلم [٦٠].

(٤) صحيح البخاري [٦٠٤٥].

(٥) صحيح مسلم [٦١].

(٦) المنتقى شرح الموطأ (٧/ ٣٠٨).

قال جماعة من المفسرين في هذه الآية هو قول الرجل لأخيه: يا كافر، يا فاسق. وممن قال بذلك: عكرمة والحسن وقتادة. وهو معنى قول مجاهد؛ لأنه قال هو الرجل يدعى بالكفر وهو مسلم"(١).

وقال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا وعيد عظيم لمن كَفَّرَ أحدًا من المسلمين، وليس كذلك، وهي ورطة عظيمة وقع فيها خلق كثير من المتكلمين، ومن المنسوبين إلى السنة وأهل الحديث، لما اختلفوا في العقائد فغلظوا على مخالفيهم، وحكموا بكفرهم"(٢).

وقال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من الكبائر "قول إنسان لمسلم: يا كافر أو يا عَدُوَّ الله حيث لم يُكَفِّرْهُ به بأن لم يرد به تَسْمِيَةَ الْإِسْلَامِ كُفْرًا، وإنما أراد مُجَرَّدَ السَّبِّ". ثم ذكر الحديث(٣).

وقال: "هذا وعيد شديد، وهو رجوع الكفر عليه أو عداوة الله له، وكونه كإثم القتل فلذلك كانت إحدى هاتين اللفظتين إما كفرًا بأن يسمى المسلم كافرًا أو عدو الله من جهة وصفه بالإسلام، فيكون قد سمى الإسلام كفرًا ومقتضيًا لعداوة الله، وهذا كفر، وإما كبيرة بأن لا يقصد ذلك فرجوع ذلك إليه حينئذ كناية عن شدة العذاب والإثم عليه، وهذا من أمارات الكبيرة؛ فلذا اتَّضَحَ عَدُّ هذين من الكبائر وإن لم أر من ذكره، ثم رأيت بعضهم عَدَّ من الكبائر رميَ المسلم بالكفر"(٤).

"فمن كَفَّرَ مسلمًا وحكم عليه بالردة بغير دليل فهو كمن رأى قتله بغير حقٍّ، فتأمل وعيد الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣]. وانظر ما ورد في ذلك من الوعيد في الأحاديث الواردة في سفك الدم الحرام، وراجع تشديد ابن عباس فيه، ثم اختر لدينك

---

(١) الاستذكار (٨/ ٥٤٨- ٥٤٩).

(٢) إحكام الأحكام (٢/٢١٠).

(٣) يعني: قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((ومن دعا رجلًا بالكفر، أو قال: عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه)).

(٤) الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/٢٠٥)، وانظر: التكفير شروطه وضوابطه وأخطاره ومزالقه (ص:٣١).

بعد ذلك ما شئت: التثبت والوقوف عند حدود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والورع والاحتياط، أو التهور والمغامرة باقتحام هذه المهلكات دون بصيرة أو برهان"(١).

ومن شأن المسلمين أن يكونوا متآلفين متحابين متحدين، كالجسد الواحد في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم -مهما اختلفت الرؤى، وتباينت وجهات النظر-. فما أحوجنا في هذا الزمان إلى محبة صادقة تؤلف بين القلوب، وتوحد الصفوف، فمتى قويت روابط الألفة، وتمكنت أسباب المحبة، امتد رواق السلام بين الأفراد والعشائر والأمم، وتقاربت العقول والقلوب بالتفاهم، وتشابكت الأيدي في التعاون والتآزر، وتقرر الأمن، واطرد العمران(٢).

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((لا ترجعوا بعدى كفارًا))**: "قال بعضهم: معناه: لا ترجعوا بعدي فرقًا مختلفين، يضرب بعضكم رقاب بعض فتكونوا بذلك مضاهين للكفار؛ فإن الكفار متعادون يضرب بعضهم رقاب بعض، والمسلمون متآخون يحقن بعضهم دماء بعض"(٣).

يعني هكذا ينبغي أن يكونوا، فهذه تعاليم دينهم التي انحرف بها الغلاة فأدخلوا الكثيرين في متاهات الضَّلال والتَّنافر، فضعفت شوكتهم، فطمع بهم الأعداء، فنصبوا لهم الشراك، وأذكوا نار الفرقة والاختلاف.

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبينًا خطر التكفير: **((من قذف مؤمنًا بكفر فهو كقاتله))**(٤)، وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((إنما أَتخَوَّفُ عليكم رجلًا قرأ القرآن**

(١) التكفير شروطه وضوابطه وأخطاره ومزالقه (ص:٣٢).
(٢) انظر: تفسير ابن باديس (ص:١١٣)، آثار ابن باديس (١/٢٨٢)، المحبة صورها وأحكامها (ص:١١).
(٣) معالم السنن (٤/٣١٦).
(٤) أخرجه الترمذي [٢٦٣٦]، وقال: "حسن صحيح".

حتى إذا رُئِيَ عليه بَهْجَتُه، وكان رِدْءًا للإسلام اعتزلَ إلى ما شاء الله، وخرج على جاره بسيفه، ورماه بالشِّرك))(١).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التحذير من ظاهرة التكفير: "واعلم أن مذهب أهل الحق أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب، ولا يكفر أهل الأهواء والبدع، وأن من جحد ما يعلم من دين الإسلام ضرورة حكم بردته وكفره، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة ونحوه ممن يخفى عليه، فيعرف ذلك، فإن استمر حكم بكفره، وكذا حكم من استحل الزنى أو الخمر أو القتل أو غير ذلك من المحرمات التي يعلم تحريمها ضرورة"(٢).

وقال: "مذهب أهل الحق أنه لا يكفر المسلم بالمعاصي كالقتل والزنا، وكذا قوله لأخيه: كافر من غير اعتقاد بطلان دين الإسلام"(٣).

وقال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن من أنكر طريق إثبات الشرع لم يكفر، كمن أنكر الإجماع، ومن أنكر الشرع بعد الاعتراف بطريقه كفر؛ لأنه مكذب"(٤).

وتأمل قول الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي يدل على مدى تحرز العلماء الراسخين من التكفير؛ لمجرد الشبهة أو الظن أو الهوى ما لم يقم الدليل القاطع البين، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه إلا ببرهان أوضح من شمس النهار"(٥).

---

(١) أخرجه البزار [٢٧٩٣] وقال: "وهذا الحديث بهذا اللفظ لا نعلمه يروى إلا عن حذيفة بهذا الإسناد، وإسناده حسن". قال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/١٨٨): "رواه البزار، وإسناده حسن"، وقال ابن كثير في (التفسير) (٣/٥٠٩): "هذا إسناد جيد".

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١/١٥٠).

(٣) المصدر السابق (٢/٤٩).

(٤) إحكام الأحكام (٢/٢١٢).

(٥) السيل الجرار (ص:٩٧٨).

فمن ثبت له عقد الإسلام بيقين لم يخرج منه إلا بيقين[1]. قال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والحق هو أن كل من ثبت له عقد الإسلام فإنه لا يزول عنه إلا بنص أو إجماع، وأما بالدعوى والافتراء فلا، فوجب أن لا يكفر أحد بقول قاله إلا بأن يخالف ما قد صح عنده أن الله تعالى قاله، أو أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاله، فيستجيز خلاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وخلاف رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وسواء كان ذلك في عقد دين أو في نحلة أو في فتيا، وسواء كان ما صح من ذلك عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منقولًا نقل إجماع تواترًا أو نقل آحاد"[2].

وقال الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولا نُكَفِّر أحدًا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله"[3].

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد اتفق أهل السنة والجماعة وهم أهل الفقه والأثر على أن أحدًا لا يخرجه ذنبه -وإن عظم- من الإسلام، وخالفهم أهل البدع، فالواجب في النظر أن لا يكفر إلا من اتفق الجميع على تكفيره، أو قام على تكفيره دليل لا مدفع له من كتاب أو سنة"[4].

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنَّ إدخال كافر في الملة وإخراج مسلم عنها عظيم في الدين. ونقل عن بعض المحققين يجب الاحتراز من التكفير في أهل التأويل؛ فإنَّ استباحة دماء المصلين الموحدين خطر.

والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم واحد.

وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**فإذا قالوها** -يعني: الشهادة- **عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**))"[5].

---

(١) انظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٨/٥٨٥)، فتح الباري، لابن حجر (١٢/٣٠١)، فيض القدير (٤/١٢٦)، إكفار الملحدين في ضروريات الدين، محمد أنور شاه الكشميري الهندي (ص:٢٧).

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/١٣٨).

(٣) متن الطحاوية بتعليق الألباني (ص:٣١)، وانظر: لمعة الاعتقاد، لابن قدامة (ص:٣٨)، التيسير بشرح الجامع الصغير، للمناوي (٢/٩٤)، رد المحتار على الدر المختار، لابن عابدين (٣/٤٥). التذكرة في الفقه الشافعي، لابن الملقن (ص:٨)، المنثور في القواعد الفقهية، للزركشي (٢/١٣)، (٣/٨٧).

(٤) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١٧/٢٢).

(٥) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/٥٩٥- ٥٩٦). والحديث متفق عليه.

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والذي ينبغي الاحتراز من التكفير ما وجد له سبيلًا؛ فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم"(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمبادرة إلى التكفير إنما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل"(٢).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المفهم): "باب التكفير باب خطير أقدم عليه كثير من النَّاس فسقطوا، وتوقَّف فيه الفحول فسلموا، ولا نعدل بالسلامة شيئًا"(٣).

وروى ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أبي سفيان قال: قلت لجابر: أكنتم تقولون لأحد من أهل القبلة كافر؟ قال: لا، قلت: فمشرك، قال: معاذ الله، وفزِع(٤).

ويتبين مما تقدَّم أنَّ الصَّحابة الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ومن تبعهم بإحسانٍ من العلماء العاملين قد فقهوا خطرَ التَّكفير، وآثاره على الفرد والمجتمع بما آتاهم الله تعالى من العلم والفقه والبصيرة، والتريث قبل إطلاق أي حكم، ودقَّة النَّظر، وفقه الواقع، واعتبار المآلات، والحرص على سلامة النفس والدين.

وقد وضع الشَّارع شروطًا وضوابط للمتصدرين للقضاء، ولإطلاق نحو هذه الأحكام بعد فقه الشروط والموانع والآثار؛ لأنَّ التَّكفير حكم قضائي لا إفتائي -كما سيأتي-، وتنظر تلك الأحكام مفصَّلة في مظانها.

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، للغزالي (ص:١٣٥)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (٣٠٠/١٢)، فيض القدير (١٢٦/٤).

(٢) بغية المرتاد (ص:٣٤٥).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١١١/٣).

(٤) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٢١/١٧)، وهو صحيح موقوف. ذكره الحافظ ابن حجر في (المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية) (٥٤٨/١٢)، وانظر: ترتيب الأمالي الخميسية، للشجري (٢٤/١).

رابعًا: الوقاية من الغلو في التكفير والعلاج:

والوقاية من هذا الداء خير من العلاج -ولا سيما قبل تفشي المرض واستفحاله-، فإذا تفشى عظُم خطره، وربما أصابت آثاره البلاد والعباد.

وتكون الوقاية منه بالتنوير والتبصير بآفات وأخطار هذه الظاهرة، وعدم تساهل الدولة مع من يروج لها، والاشتغال بطلب العلم والتفقه في الدين، وملازمة العلماء الربانيين، والاحتراز عن التصدر للفتوى قبل التمكن، وعدم الحكم بالتكفير من قِبَل أفراد أو مفتين دون إحالة الحكم إلى القضاء، ونشر ثقافة التعايش السلمي والمحبة بين المختلفين، ونبذ ثقافة الكراهية، والتصنيف والتضليل.

وينبغي اتخاذ كافة وسائل الوقاية من خطر هذا الداء، من خلال وسائل الإعلام، والمناهج التربوية الصحيحة والسليمة في المدارس والجامعات، واعتماد التوجيه التربوي الهادف، والرقابة التي تهدف إلى الإصلاح، ومعالجة بوادر هذا الداء وغيره من الأمراض المنتشرة في مجتمعاتنا.

وسن قوانين رادعة لمن يروج له؛ لما يترتب على ذلك من الإخلال بالأمن، والصدِّ عن الدين.

خامسًا: النتائج:

أ. إن الكفر والضلال يقابلان الإيمان والهدى، فحقيقة الكفر المخرج من الملة هو الذي يأتي في مضادة الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦].

والتكفير مرده إلى الشرع. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الكفر حق الله ثم رســـوله ... بالنص يثبت لا بقول فلان
من كان رب العالمين وعبده ... قد كفراه فذاك ذو الكفران[1]

(١) متن القصيدة النونية (ص:٢٧٧).

"فلا يمكن أن يكفر إلا من كفره الله تعالى ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أي: من جاء النص من الوحي بتكفيره؛ لأن الكفر يقابل الإيمان ونحن لا نعرف ما يدخل به الإنسان الإيمان لولا النص، فلو لم يرد عن الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحديد ما يجب الإيمان به وما يكون إيمانًا وإسلامًا لما استطعنا نحن أن نحدد ذلك بعقولنا واجتهاداتنا"(١).

يقول ابن الوزير رَحِمَهُ اللهُ: "التكفير سمعي محضٌ لا مدخل للعقل فيه"(٢).

وقد بين العلماء خطورة من يفتي الناس بغير علم ولا تبصر، وتزداد خطورة القول بلا علم أو مع الاشتباه في مسألة التكفير؛ لما يترتب على التكفير من أحكام وآثار على الفرد والمجتمع.

ب. إن لفظ الكفر يطلق على جحد النعم والستر، لكن الغالب عند مجرد الإطلاق حمله على ما يضاد الإيمان.

ج. إن من أسباب الكفر: إنكار ما علم من الدين بالضرورة.

د. إن من أسباب الكفر: استباحة محرم أجمع المسلمون على تحريمه.

هـ. إن من أسباب الكفر: سب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو الاستهزاء به، وكذا سب أي نبي من أنبياء الله تعالى، وكذا سب الدين، والطعن في الكتاب والسنة، وترك الحكم بما أنزل الله تعالى استخفافًا به، أو احتقارًا، أو اعتقادًا أن غيره أصلح منه، وأنفع للخلق أو مثله(٣).

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: "ومن لم يحكم بما أنزل الله وهو لم يستخف به، ولم يحتقره، ولم يعتقد أن غيره أصلح منه لنفسه أو نحو ذلك، فهذا ظالم وليس بكافر، وتختلف مراتب ظلمه بحسب المحكوم به، ووسائل الحكم.

ومن لم يحكم بما أنزل الله لا استخفافًا بحكم الله تعالى، ولا احتقارًا، ولا اعتقادًا أن غيره أصلح، وأنفع للخلق أو مثله، وإنما حكم بغيره محاباة للمحكوم له، أو مراعاة

---

(١) التكفير شروطه وضوابطه وأخطاره ومزالقه (ص:٤٢-٤٣).

(٢) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (١٧٨/٤).

(٣) انظر: مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (١٦١/٦).

لرشوة أو غيرها من عرض الدنيا فهذا فاسق، وليس بكافر وتختلف مراتب فسقه بحسب المحكوم به، ووسائل الحكم"[1].

وقد أخرج الحاكم بسنده عن طاوس، قال: قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إنه ليس بالكفر الذي تذهبون إليه، إنَّه ليس كفرًا ينقل عن الملة: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤] كفر دون كفر[2].

وقد أفاض الشيخ محمد الحسن ولد الددو في بيان المراد من قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة:٤٤، ٤٥، ٤٧] في كتابه: (التكفير شروطه وضوابطه وأخطاره ومزالقه)[3].

و. إن من أسباب الكفر: إلقاء المصحف في القاذورات، وكذا كتب الحديث؛ استهانة بها، واستخفافًا بما جاء فيها، ونحو ذلك.

ز. إن من أسباب الكفر: الاستخفاف باسم من أسماء الله تعالى، أو أمر من أوامره، أو نهي من نواهيه، أو وعد من وعوده[4].

ح. إن الكفر يتفاوت، فمنه: (كفر أكبر)، ومنه: (كفر أصغر).

ط. لا يصح إطلاق الحكم بالكفر قبل النظر إلى حال الجاحد، وأسباب الجحد.

ي. إنَّ التكفير حكم قضائي لا إفتائي، يحكم به القضاة الراسخون في العلم، والمعروفون بالورع والتقوى.

ك. يتعين على القاضي قبل إطلاق الحكم بالكفر على معيَّن: بيان وجه الحق، ورفع اللبس والإشكال، والاستتابة، ولا حرج من الاستعانة بالعلماء الصادقين.

---

(١) المصدر السابق (٦/١٦١).

(٢) أخرجه الحاكم [٣٢١٩] وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) انظر: التكفير شروطه وضوابطه وأخطاره ومزالقه، الشبهة الثالثة (ص:٨٧).

(٤) انظر: فقه السنة، سيد سابق (٢/٤٥٤).

ل. لا يحكم بالكفر إلا بتوفر الشروط، وانتفاء الموانع[1]، ولا يكون إلا بما اتفق على أنه مكفر[2].

م. إن من أنواع الكفر: الكفر العملي، وهو أن يقر الرجل بالوحدانية والنبوة بلسانه، ويعتقد ذلك بقلبه، لكنه يرتكب الكبائر من القتل، والسعي في الأرض بالفساد، ومنازعة الأمر أهله، وشق عصا المسلمين، ونحو ذلك، والذنوب التي وردت تسميتها في الكتاب والسنة كفرًا، وهي لا تصل إلى حد الكفر الأكبر، مثل كفر النعمة المذكور في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ [النحل:١١٢].

ن. عدم تكفير المسلم بارتكاب الكبائر والموبقات -وإن وصفت تلك الموبقات في الأحاديث بأنها كفر- ..[3] -كما تقدم-.

س. إن المسلم إذا عمل عملًا يَحْتَمِل الكفر ويَحْتَمِل غير الكفر حُمِل على أخف الاحتمالات[4].

قال في (البحر الرائق): "وفي (جامع الفصولين)[5] روى الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أصحابنا: لا يُخرِج الرجلَ من الإيمان إلا جحودُ ما أدخله فيه، ثم ما تُيُقِّنَ أنه ردة يحكم بها، وما يُشك أنه ردة لا يحكم بها؛ إذ الإسلام الثابت لا يزول بشك.

(١) فمن ذلك مثلًا: أن يكون المحكوم عليه مكلفًا مختارًا. ولا بدَّ في الحكم من ثبوت الفعل أو القول على المحكوم عليه. ولا بدَّ من إقامة الحجة على الفاعل، وأن يكون قاصدًا غير متأول. ولا بدَّ في الحكم من انتفاء الشبهة.

(٢) انظر: التكفير شروطه وضوابطه وأخطاره ومزالقه (ص:٤٤).

(٣) صفحات مضيئة في التصور والسلوك الديني، فضيلة الشيخ إسماعيل المجذوب (ص:٦٦).

(٤) المصدر السابق (ص:٦٨).

(٥) جامع الفصولين في الفروع، محمود بن إسرائيل، الشهير بابن قاضي سِماوْنَة، الحنفي، المتوفى سنة [٨٢٣هـ]، وهو كتاب، مشهور متداول في أيدي الحكام، والمفتين؛ لكونه في المعاملات خاصة. جمع فيه بين فصول العمادي، وفصول الأسروشني، وأحاط، وأجاد. انظر: كشف الظنون (٥٦٦/١)، الأعلام، للزركلي (١٦٥/٧).

وفي (الخلاصة) وغيرها إذا كان في المسألة وجوه توجب التكفير ووجه واحد يمنع التكفير فعلى المفتي أن يميل إلى الوجه الذي يمنع التكفير؛ تحسينًا للظن بالمسلم. وفي (التتارخانية): لا يكفر بالمحتمل لأن الكفر نهاية في العقوبة فيستدعي نهاية في الجناية ومع الاحتمال لا نهاية اهـ. ثم قال صاحب (البحر): "والذي تحرر أنه لا يفتى بتكفير مسلم أمكن حمل كلامه على محمل حسن أو كان في كفره اختلاف"[(١)].

ع. "لا يحكم في الأمور التي تقتضي الكفر بلا احتمال ولا خلاف فيها إذا صدرت من مسلم لا يحكم فيها بكفره إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع، فالذي نطق بكلمة الكفر بإكراه أو سبق لسان لا يُحكم بكفره؛ لوجود مانع، وعدم تحقق الشروط"[(٢)].

ف. لا تكفير باللوازم والمآلات:

لا بدَّ أن يكون المكفَّر به صريحًا، فاللوازم أو مآلات الكلام لا يكفر بها، فكثير من المقالات أيًّا كانت لو نظرت إلى لوازمها وما يترتب عليها لوجدت أنها تؤول إلى الكفر، لكن لوازمها لم تخطر على بال صاحبها ولم يقلها، ولازم القول لا يعد قولًا؛ فلذلك لا يكفر بها أصحابها.

ومن هنا قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبعض الذين ناظروه: هذا الكلام لو قلته أنا لكفرت، وأما أنت فلا تكفر به[(٣)]، أي: لأنك لا تعرف لوازمه ومآلاته وما يترتب عليه. وكثير من أقوال المبتدعة لوازمها مكفرة، ولم يكفرهم أهل العلم؛ لأن تلك اللوازم لم تخطر لهم على بال، ولم يقصدوها[(٤)].

ص. ينبغي اتخاذ كافة وسائل الوقاية من خطر هذا الداء (التكفير).

---

(١) صفحات مضيئة في التصور والسلوك الديني (ص:٧٠-٧١)، البحر الرائق شرح كنز الدقائق (١٣٤/٥-١٣٥)، وانظر: رد المحتار على الدر المختار (٢٢٣/٤- ٢٢٤)، مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر (٦٨٨/١).

(٢) صفحات مضيئة في التصور والسلوك الديني (ص:٧١).

(٣) انظر: الرد على البكري (ص:٢٥٩)، مناظرات ابن تيمية لأهل الملل والنحل (ص:٧٨).

(٤) التكفير شروطه وضوابطه وأخطاره ومزالقه (ص:٤٩ - ٥٠).

ق. إن المحبة أساس الدعوة إلى الله ﷻ ومنطلقها، فالدين محبة ورحمة ومعاملة.

والحاصل أنَّ (الكفر الأكبر) من أعظم العقبات في طريق الهداية، وقد عدَّه ابنُ القيم رحمه الله أعظمها كما تقدَّم. و(الكفر الأصغر) يعدُّ كذلك من العقبات، فهو من أسباب الخذلان كما تقدَّم. هذا ما يتعلق بكفر الشخص نفسه من حيث كونه من العقبات. أما كفر الوسط الذي يعيش فيه الإنسان فقد يكون كذلك سببًا من أسباب الضَّلال كما سيأتي بيانه في (عقبة البيئة الفاسدة والتربية السيئة).

*** ***

سادسًا: الوقاية من خطر الكفر والعلاج:

١ - التمسك بما يقابل الكفر من الإيمان والتوحيد الخالص. وسيأتيك مزيد من البيان في (الوقاية من خطر الشرك).

٢ – النظر والاستدلال الصحيح.

٣ – الاهتداءُ بنور الوحي، وقراءةُ النقل بالعقل، وتقويم العقل بالنقل، وتأملُ ما يدلُّ على صدقِ المبلِّغ، وما يتحقَّقُ به الإعجاز، وأوجهه المتعددة؛ لأن الإعجاز مما يدلُّ على صدقِ مبلِّغ الخطاب، ومما يثبت أنَّ ما جاء به الرُّسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ حقٌّ وصدقٌ ووحيٌ من عند الله ﷻ. ففي الإعجاز ما يدلُّ على إحكام آياتِ القرآن الكريم حيثُ أَعجزَ الإنسَ والجنَّ عن الإتيانِ بمثله..وتحدَّاهم مع قيام الدَّافع، وانتفاء المانع، كما أنَّه يُعَزِّزُ ثقة المخاطَب –بفتح الطاء المهملة- بالخطاب من خلال إقامةِ الحُجَّة، ودحضِ شُبَهِ المكذِّبين، مع بيان أنَّ تكذيب ما جاء به الرُّسلُ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ لا يقومُ على حُجَّةٍ، وإنما له اعتباراتٌ أخرى، وأن الباحث عن الحقيقة بموضوعية وتحرر لا بدَّ أن يبصر الحق -إن شاء الله- كما بيناه في (وسائل الإقناع)[1].

٤ - الحرص على طلب الحقِّ، واتباع السُّبل الموصلة إليه.

٥ – اتخاذ أسباب الوقاية من المضلات عن الحق، وقد جاءت في هذا المصنف متفرقة ومبينة ومفصلة.

---

(١) انظر: وسائل الإقناع في القرآن، د. عبد القادر دهمان (ص:٣٩٩) إلى (ص:٤٣٣).

٦ – التَّأكد من صحة النقل[١].

٧ – إتقان مهارة الاستماع والتَّأمل والتَّدبر، وقد جاء مبينًا في (أسباب الوقاية من خطر الإعراض عن الذِّكر والتَّذكر).

٨ — البيئة والتربية السليمة، وغرس بذور الإيمان في نفوس الأبناء من أوَّل النشأة كما جاء مجملًا في غير موضع، ومفصلًا في (الوقاية من خطر الشرك)، وفي عقبة: (البيئة الفاسدة والتربية السيئة).

٩ — ملازمة أصحاب القلوب السليمة من أهل الفضل والصلاح، ومجالسة العلماء الصادقين، والأخذ عنهم، وعدم الاكتفاء بمطالعة الكتب كما جاء مبينًا في عقبة: (الجهل)، وفي غير موضع.

١٠ – اليقظة والتبصر بآفات الكفر وآثاره.

١١ – الاعتبار بمآل الكافرين وعاقبتهم.

١٢ – مطالعة سير السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان من العلماء الصَّادقين، وكم بذلوا من الجهد في سبيل التحقق بالعلم والمعرفة؟ وكيف انعكس ذلك على سلوكهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وخوفهم من الله تعالى؟

١٣ – درء موهم التعارض بين العقل والنقل بمنهج صحيح من الإدراك، والعلم بالدِّلالات والأحوال والمقاصد[٢].

---

(١) انظر: وسائل الإقناع (ص:١١٧).

(٢) ينظر: الإرشادات المنهجية إلى تفسير الآيات الكونية، د. عبد القادر دهمان (ص:١١٦-١٢٤).

العـقـبة الثـالثة

الشرك بالله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

أولًا: تعريف الشرك:

أ. **الشرك في اللغة** يدل على المقارنة، التي هي ضد الانفراد، وهو أن يكون الشيء بين اثنين، لا ينفرد به أحدهما. يقال: (لا تشرك بالله) أي: لا تعدل به غيره فتجعله شريكًا له، فمن عدل بالله أحدًا من خلقه فقد جعله له شريكًا(١).

يقال: شَرِكْتُه في الأمر أَشْرَكُه من باب: تَعِبَ شَرِكًا وشَرِكَة، وزان كَلِم وَكَلِمَة بفتح الأول وكسر الثاني: إذا صِرْتُ له شَرِيكًا. وجمع الشَّرِيك: شُرَكَاءُ وَأَشْرَاكٌ، مثل: شريف وشرفاء وأشراف. والمرأة شريكة، والنساء شرائك. وشاركت فلانًا: صرت شريكه. واشتركنا وتشاركنا في كذا. وشركته في البيع والميراث: أَشْرَكُهُ شِرْكَةً، والاسم: الشِّرْك. والإشراك مصدر: أشرك، وهو: اتخاذ الشريك، يقال: أشرك بالله ﷻ، جعل له شريكًا في ملكه(٢).

ب. **الشرك اصطلاحًا:** إنَّ بين الشرك والكفر عموم وخصوص، من حيث المعنى الاصطلاحي، فقد تقدم أنَّ الكفر اسم يقع على ضروب من الذُّنوب، منها: الشرك بالله ﷻ، وهو اتخاذ إله مع الله ﷻ.

فالشرك ما يتعلق من الكفر بالإلهيات، أما الكفر فهو فإنه يزيد على ذلك، كإنكار معلومٍ من الدين بالضرورة، فهو أعم من الشرك، والشرك أخص، وذلك على الإطلاق العام. فعلى هذا يكون كل شرك كفرًا، وليس كل كفر شركًا إذا قصدنا بالشرك: (الشرك الأكبر) الناقل عن الملة.

---

(١) انظر: تسهيل العقيدة الإسلامية، عبد الله الجبرين (ص:١٥٠)، معجم مقاييس اللغة، مادة: (شرك) (٢٦٥/٣).

(٢) انظر: مادة: (شرك) في (الصحاح)، للجوهري (١٥٩٣/٤)، المصباح المنير (٣١١/١)، مقاييس اللغة (٢٦٥/٣)، لسان العرب (٤٤٨/١٠)، النهاية في غريب الحديث (٤٦٦/٢)، الموسوعة الفقهية الكويتية (١٥/٣٥).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشرك والكفر قد يطلقان بمعنى واحد، وهو الكفر بالله تعالى[1]، وقد يفرق بينهما فيخص الشرك بعبدة الأوثان وغيرها من المخلوقات مع اعترافهم بالله تعالى، ككفار قريش فيكون الكفر أعم من الشرك والله أعلم"[2].

"والإشراك بالله تعالى جنس تحته أنواع، وكله مذموم، وإن كان بعضه أكبر من بعض.

والشرك له مراتب، فمنه الشرك الأكبر، ومنه الأصغر، وهو الشرك الخفي؛ لأنه يخفى على بعض النَّاس.

فالشرك الأكبر: اتخاذ الشَّريك أو النِّد مع الله ﷻ في الرُّبوبيَّة أو في العبادة أو في الأسماء والصفات، وهو المراد بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وعن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله نِدًّا، وهو خلقك[3].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن الشرك نوع غير مغفور، وهو الشرك بالله في المحبة والتعظيم، بأن يحب مخلوقًا كما يحب الله تعالى. فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الشرك الذي قال الله ﷻ فيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا..﴾ [البقرة:١٦٥] الآية، وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم، وقد جمعتهم الجحيم: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء:٩٧- ٩٨]، ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه في الخلق والرزق، والإماتة والإحياء، والملك والقدرة، وإنما سووهم به في الحب والتأله، والخضوع لهم والتذلل. وهذا غاية الجهل والظلم فكيف يسوَّى من خلق من التراب، برب الأرباب؟ وكيف يسوَّى العبيد بمالك الرقاب، وكيف يسوى الفقير

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ [الكهف:٣٧ -٣٨].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٧١).

(٣) صحيح البخاري [٤٤٧٧، ٤٧٦١، ٦٠٠١، ٦٨١١، ٦٨٦١، ٧٥٢٠، ٧٥٣٢]، مسلم [٨٦]. وفي رواية عن عبد الله، قال: النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلمة وقلت أخرى، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((من مات وهو يدعو من دون الله ندًّا دخل النار)) وقلت أنا: من مات وهو لا يدعو لله ندًّا دخل الجنة. صحيح البخاري [١٢٣٨، ٤٤٩٧، ٦٦٨٣]، مسلم [٩٢].

بالذات، الضعيف بالذات، العاجز بالذات، المحتاج بالذات، الذي ليس له من ذاته إلا العدم، بالغني بالذات، القادر بالذات، الذي غناه وقدرته وملكه ووجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام، من لوازم ذاته؟ فأي ظلم أقبح من هذا، وأي حكم أشد جورًا منه؟ حيث عَدَلَ مَنْ لَا عِدْلَ لَهُ بِخَلْقِه، كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]"(١).

والشرك الأصغر هو الرياء والشرك الخفي الذي يتسلل إلى أعمال فيفسدها. وهو مراعاة غير الله تعالى في العبادة.

وقد عرفه الجرجاني رَحِمَهُٱللَّهُ بأنه: "ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه"(٢).

وفي (المصباح): الرياء هو إظهار العمل للناس؛ ليروه ويظنوا به خيرًا، فالعمل لغير الله، نعوذ بالله منه(٣).

وقيل: الفعل المقصود به رؤية الخلق غفلة عن الخالق وعماية عنه.

وقيل: ملاحظة الأشكال في الأعمال.

وقيل: سهولة الطاعة بمشهد الجماعة.

وقيل: سقوط النشاط في الخلاء، وزوال المشاق في الملأ(٤).

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُٱللَّهُ: "الرياء: طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير إلا أن الجاه والمنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات وتطلب بالعبادات، واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادة"(٥).

---

(١) الجواب الكافي (ص:١٣٢- ١٣٢)، وانظر: تفسير القاسمي (٢٢٨/٦- ٢٢٩)، الموسوعة الفقهية الكويتية، مادة: (شرك) (٥/٦-٧).

(٢) التعريفات (ص:١١٣).

(٣) المصباح المنير، مادة: (روي) (٢٤٦/١).

(٤) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص:١٨٤).

(٥) إحياء علوم الدين (٢٩٧/٣).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الرياء: "إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدوا صاحبها"(١).

وقد نهى الله ﷻ عن الإشراك في عبادته فقال سبحانه: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠].

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "نزل فيمن يقصد بعبادته وجهَ الله ﷻ وحمدَ الناس. فكن حذرًا مُتَّقِيًا من هذا الشرك، واستشعر الخجلة في قلبك إن وصفت نفسك بأنك لست من المشركين من غير براءة عن هذا الشرك؛ فإن اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه"(٢).

وقال ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يحتمل أن يريد: الشرك بالله، وهو عبادة غيره، فيكون راجعًا إلى قوله تعالى: ﴿يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، أو يريد الرياء؛ لأنه الشرك الأصغر، واللفظ يحتمل الوجهين، ولا يبعد أن يحمل على العموم في المعنيين، والله أعلم"(٣).

والنياتُ والمقاصدُ وأعمال القلوب لا يعلمها إلا الله ﷻ. والعبدُ مطالب ببذل الجهد في التخلص من الرياء، والبعد عن أسبابه، وإخلاص القصد لله ﷻ، وقد جاء في الحديث: عن أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: خرج علينا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن نتذاكر المسيح الدجال، فقال: ((**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟**))، قال: قلنا: بلى، فقال: ((**الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يصلي، فيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ؛ لما يَرَى من نَظَرِ رَجُلٍ**))(٤). فدلَّ على أن خطر الرياء أعظم من خطر المسيح الدجال.

---

(١) فتح الباري (١١/ ٣٣٦).

(٢) إحياء علوم الدين (١/١٦٧).

(٣) تفسير ابن جزي (التسهيل لعلوم التنزيل) (١/٤٧٦).

(٤) أخرجه أحمد [١١٢٥٢]، وابن ماجه [٤٢٠٤]. قال البوصيري في (زوائده) (٤/٢٣٧): "هذا إسناد حسن". وأخرجه أيضًا: الحاكم [٧٩٣٦]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٦٤١٣].

وفي رواية: خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: **((يا أيها الناس: إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ))**، قالوا: يا رسول الله وما شِرْكُ السَّرَائِرِ؟ قال: **((أَنْ يقومَ أحدُكُم يُزَيِّنُ صَلَاتَهُ جَاهِدًا لِيَنْظُرَ النَّاسُ إليه، فذلك شِرْكُ السَّرَائِرِ))**(١).

فإذا كان الناس ينظرون إلى المرائي فإنه يتقن صلاته ويحسنها، وإذا كان بعيدًا عن أعين الناس فإنه يتساهل ويتعجل.

وفي الحديث: **((إن أخوف ما أخاف عليكم: الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، يقول اللهُ ﷻ لهم يوم القيامة: إذا جُزِيَ النَّاسُ بأعمالهم: اذْهَبُوا إلى الذين كنتم تُرَاؤُونَ في الدُّنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً ؟!))**(٢).

وفي رواية عن شداد بن أوس، عن أبيه، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا نَعُدُّ على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الرِّياء: الشرك الأصغر(٣). وهو عائق بالغ الأثر في طريق الهداية –كما سيأتي بيانه–.

ومن الناس من يقصد بعبادته وجهَ الله ﷻ، وحمدَ الناس، وقد جاء التحذير من ذلك في الحديث الذي رواه أبو هريرة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي**

---

(١) الحديث مروي عن جابر وعن محمود بن لبيد. حديث جابر: أخرجه البيهقي في (السنن الكبرى) [٣٥٨٥]، وفي (شعب الإيمان) [٣١٤١]. حديث محمود بن لبيد: أخرجه ابن أبي شيبة [٨٤٠٣]، وابن خزيمة [٩٣٧]، والديلمي [٨١٦٤]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢٨٧٢].

(٢) أخرجه أحمد [٢٣٦٣٠، ٢٣٦٣٦]، والطبراني في (الكبير) [٤٣٠١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٤١٢]، قال العراقي في (المغني عن حمل الأسفار) (ص:١٢٠٣): "أخرجه أحمد والبيهقي في (الشعب من حديث محمود بن لبيد وله رواية ورجاله ثقات، ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج". وقال الحافظ المنذري (٣٤/١): "حديث محمود بن لبيد هذا رواه أحمد بإسناد جيد، وابن أبي الدنيا، والبيهقي في (الزهد) وغيره".

(٣) أخرجه البزار [٣٤٨١]، والطبراني في (مسند الشاميين) [٢١٤٦]، والحاكم [٧٩٣٧]، وصححه، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٦٤٢٤].

غيري، تركته وشركه))[1]. قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فمن عمل شيئًا لي ولغيري لم أقبله، بل أتركه لذلك الغير. والمراد أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه، ويأثم به"[2].

وعن عبد الله بن يزيد قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **((يا نَعَايَا العرب، يا نَعَايَا العرب، إن أخوف ما أخاف عليكم: الزنا، والشهوة الخفية))**[3].

وقد قيل لأبي داود السجستاني: وما الشهوة الخفية؟ قال: حب الرئاسة[4].

وعن سلمة، قال: سمعت جندبًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((من سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ به، ومن يُرَائِي يُرَائِي الله به))**[5].

وعند مسلم عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((من سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ رَاءَى رَاءَى اللهُ به))**[6].

والمعنى: من عمل لغير الله ﷻ يراءي به الناس جازاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على ذلك بأن يفضحه ويظهر ما يبطنه ويستره[7].

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال العلماء معناه: من راءى بعمله وسمعه الناس؛ ليكرموه ويعظموه ويعتقدوا خيره سَمَّعَ الله به يوم القيامة الناس وفضحه.

وقيل: معناه: من سمع بعيوب الناس وأذاعها أظهر الله ﷻ عيوبه.

وقيل: أسمعه المكروه. وقيل: أراه الله ﷻ ثواب ذلك من غير أن يعطيه إياه؛ ليكون حسرة عليه.

---

(١) صحيح مسلم [٢٩٨٥].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/١١٦).

(٣) قال الهيثمي: رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح غير عبد الله بن بديل بن ورقاء، وهو ثقة. مجمع الزوائد (٦/٢٥٥)، وقال المنذري (٣/١٨٦): "رواه الطبراني بإسنادين أحدهما صحيح". قوله: (يا نعايا العرب): كأنه يقول: قد ذهبت العرب ينعيهم.

(٤) الطيوريات (٢/٤٠٥)، مجموع الفتاوى (١٠/٢١٥).

(٥) صحيح البخاري [٦٤٩٩، ٧١٥٢].

(٦) صحيح مسلم [٢٩٨٦].

(٧) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٢/٤٧)، وانظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/٢٠٨)، (١٠/٢٠٨)، فتح الباري، لابن حجر (١١/ ٣٣٦)، عمدة القاري (٢٣/٨٦).

وقيل: معناه: من أراد بعمله الناس أسمعه الله الناس، وكان ذلك حظه منه"(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر**))(٢)، يعني: أنه إذا لم تكن الصلاة والصوم لوجه الله تعالى فلا ثواب له(٣).

ومن الأحاديث التي تنصُّ على الوعيد الشديد في حق المرائين ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: ((**إن أول الناس يُقْضَى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيء، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجْهِهِ حتى أُلْقِيَ في النار، ورجل تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار**))(٤).

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/ ١١٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه [١٦٩٠]، قال البوصيري في (زوائده) (٢/٦٩): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات".
وأخرجه أيضًا: النسائي في (الكبرى) [٣٢٣٦].

(٣) انظر: الكبائر، للذهبي (ص:١٠).

(٤) صحيح مسلم [١٩٠٥].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من تَعلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغى به وجهُ الله** ﷻ **لا يَتعَلَّمُهُ إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا، لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة**))، يعني: ريحها[1].

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**لا تَعلَّمُوا العلمَ؛ لِتُبَاهُوا به العلماء، ولا لِتُمَارُوا به السفهاء، ولا تَخيَّرُوا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار**))[2].

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما[3]. وقال سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ: الإخلاص: أن يخلص العبد دينه وعمله فلا يشرك به في دينه ولا يرائي بعمله[4].

وقال بعضُ الحُكماء: "مثلُ من يعمل رياءً وسُمعة كمثَلِ من ملأ كيسَه حصًى، ثم دخل السوق؛ ليشتري به، فإذا فتحه بين يدي البائع افتضح، وضرب به وجهه، فلم يحصل له به منفعةٌ سوى قول الناس: ما أملأَ كيسه! ولا يُعطَى به شيئًا، فكذلك مَن

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٦١٢٧]، وأحمد [٨٤٥٧]، وابن ماجه [٢٥٢]، وأبو داود [٣٦٦٤]، وأبو يعلى [٦٣٧٣]، وابن حبان [٧٨]، والحاكم [٢٨٨]، وقال: "صحيح سنده ثقات رواته على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٤]. قال الإمام النووي: "رواه أبو داود بإسناد صحيح. والأحاديث في الباب كثيرة مشهورة" رياض الصالحين (ص:٤٥٨). وقال العراقي (ص:٧٤): "أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسناد جيد".

(٢) أخرجه ابن ماجه [٢٥٤]، قال البوصيري في (زوائده) (٣٧/١): "هذا إسناد رجاله ثقات على شرط مسلم". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٧٧]، والحاكم [٢٩٠]، وتمام [٨١٢]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٥]. قال العراقي (ص:٧٢): "أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد صحيح". وقوله: (لا تعلموا) أي: لا تتعلموا بالتاءين فحذفت إحداهما. (ولا تخيروا به المجالس) أي: لا تختاروا به خيار المجالس وصدورها. قوله: (فالنار) أي: فله النار أو فيستحق النار، والنار مرفوع على الأول منصوب. حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١١١/١).

(٣) انظر: الأذكار، للإمام النووي (ص:٧)، التبيان في آداب حملة القرآن، للإمام النووي (ص:٣٢)، المجالس الوعظية، للسفيري الشافعي (١٢٥/١)، الكبائر، للذهبي (ص:١١)، الزواجر (ص:٦٩)، الرسالة القشيرية (٤١/١)، الآداب الشرعية، لابن مفلح (٢٦٦/١).

(٤) انظر: الكشف والبيان (٦/٢)، تفسير البغوي (١٧٤/١).

عمِل للرياء والسُّمعة، لا منفعةَ له في عمله سوى مقالة الناس، ولا ثوابَ له في الآخرة. قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، أي: الأعمال التي قصد بها غير الله تعالى يبطل ثوابها صارت كالهباء المنثور، وهو الغبار الذي يرى في شعاع الشمس"[1].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واعلم أن العمل لغير الله تعالى أقسام:

١ – فتارة يكون رياءً محضًا بحيث لا يراد به سوى مراءاة المخلوقين[2]؛ لغرض دنيوي، كحال المنافقين في صلاتهم، كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢]، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون:٤ – ٧]. وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة الواجبة أو الحج، وغيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

٢ – وتارة يكون العمل لله ﷻ ويشاركه الرياء فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه أيضًا وحبوطه. وفي (صحيح مسلم) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: ((**يقول الله** تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: **أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**))[3].

٣ – وأما إن كان أصل العمل لله ﷻ ثم طرأت عليه نية الرياء فلا يضره، فإن كان خاطرًا ودفعه فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه، فهل يحبط به عمله أم لا يضره ذلك ويجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى، وهو مروي عن الحسن البصري وغيره.

(١) الكبائر، للذهبي (ص:١٠)، الزواجر (١/٦٩).

(٢) قال الجوهري: "يقال: (راءى) فلان الناس يرائيهم (مراءاة)". الصحاح، مادة: (رأى) (٦/٢٣٤٩).

(٣) صحيح مسلم [٢٩٨٥].

وذكر ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا الاختلاف إنما هو في عمل يرتبط آخره بأوله، كالصلاة والصيام والحج، فأما ما لا ارتباط فيه كالقراءة والذكر وإنفاق المال ونشر العلم، فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة عليه، ويحتاج إلى تجديد نية"(١). وقد فصَّلْتُ القول في بيان خطر الرياء مع بيان سبل الوقاية منه في كتاب: (نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار).

ثانيًا: الشرك من حيث كونه عقبة في طريق الهداية:

يقال في الشرك الأكبر من حيث كونه عقبة في طريق الهداية ما قيل في عقبة الكفر؛ لما علمتَ من الصلة بينهما.

فمن أشركَ بالله ﷻ فقد ضلَّ عن الحق والهداية، وبعد عن سبيل الرشاد؛ لانغماسه في الضلال الذي أعمى بصيرته، وسلوكه سبيل الغواية، وهو ضلال بعيد يفسد العقل، ويكدِّر صفاء الروح كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦]. وأهل الشِّرك والكفر قد سدُّت بصائرهم، ولُبِّس عليهم وجه التحقيق(٢).

فالمشرك تتخطفه الشياطين والأهواء، ويهوي في مزالق الضلال كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١](٣).

والشرك كالكفر في خطورته، وهو الذنب الذي لا يغفره الله ﷻ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

قال القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله ﷻ: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:١]: "الفراق شديد، وأشده ألا يعقبه وصال، وفراق المشركين

---

(١) باختصار عن (جامع العلوم والحكم) (١/٧٩- ٨٣).

(٢) انظر: لطائف الإشارات (٣/ ٤١٣).

(٣) انظر في بيان المعنى: الكشاف، للزمخشري مع حاشية (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف)، لابن المنير الإسكندري (٣/١٥٥)، تفسير النسفي (٢/٤٤٠).

كذلك؛ لأنه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. ويقال: مَنْ مُنِيَ بفراق أحبائه فبئست صحبته"(١).

والشرك محبط للعمل كما قال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨]، وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

وفي الحديث: ((**كل ذنب عسى الله أن يغفره إلَّا من مات مشركًا، أو مؤمنًا قتل مؤمنًا متعمدًا**))(٢).

وقال العلامة المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣] يسترها بعفوه -ولو بلا توبة إذا شاء- إلا الشرك"(٣).

وقال: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أو قتل مؤمنًا متعمدًا**)) بغير حق، وهذا في الإشراك مقطوع به؛ [لقوله ﷻ:] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾، وفي القتل منزَّل على ما إذا استحل، وإلا فهو تهويل وتغليظ"(٤).

والمشرك شرُّ الخلق عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأسوأ الخلق حالًا؛ لأنَّه منكر للحق بعد معرفته وقيام الدليل عليه، فهو مهلك لنفسه، وجالب الهلاك والشرور إلى غيره، كما قال

---

(١) لطائف الإشارات (٦/٢).

(٢) الحديث مروي عن معاوية، وعن أبي الدرداء، وعن عبادة بن الصامت. حديث معاوية: أخرجه أحمد [١٦٩٠٧]، والنسائي [٤٢٧٠]، والطبراني [٨٥٨]، والحاكم [٨٠٣١]، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، كما أخرجه الديلمي [٤٧٦٠]. حديث أبي الدرداء: أخرجه أبو داود [٤٢٧٠]، والبيهقي [١٥٦٣٩]. حديث عبادة بن الصامت: أخرجه البزار [٢٧٣٠]، قال الهيثمي: "رواه البزار، ورجاله ثقات".

(٣) فيض القدير (٦/٢).

(٤) المصدر السابق (١٩/٥). قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن الزاني والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر غير الشرك لا يكفرون بذلك، بل هم مؤمنون ناقصوا الإيمان، إن تابوا سقطت عقوبتهم، وإن ماتوا مصرين على الكبائر كانوا في المشيئة، فإن شاء الله تعالى عفا عنهم وأدخلهم الجنة أولًا، وإن شاء عذبهم ثم أدخلهم الجنة" شرح النووي على صحيح مسلم (٤١/٢-٤٢).

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦].

والشرك أكبر الكبائر كما جاء في الحديث: عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه قال: قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ((**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**)) ثلاثًا، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ((**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين –وجلس وكان متكئًا فقال– ألا وقول الزور**))، قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[1].

أما (الشرك الأصغر) فإن خطره عظيم، فهو محبط للعمل الذي لابسه، وهو من العوائق التي تعرقل سير العبد إلى الله ﷻ. وقد قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٦٤]. إن القلب الصلد المغطَّى بالرياء، مثله كمثل صفوان عليه تراب، إنه حجر لا خصب فيه ولا ليونة، يغطيه تراب خفيف، يحجب صلادته عن العين، كما أن الرياء يحجب صلادة القلب الخالي من الإيمان..ثم جاء المطر الغزير فذهب بالتراب القليل! فانكشف الحجر بجدبه وقساوته، ولم ينبت زرعه، ولم يثمر ثمرة، كذلك القلب الذي أنفق ماله رئاء الناس، فلم يثمر خيرًا، ولم يعقب مثوبة.

فهذا مثل ضربه الله ﷻ لنفقة المنافق والمرائي الذي يَمُنُّ بصدقته وَيُؤْذِي، يعني: أن الناس يرون في الظاهر أنَّ لهؤلاء أعمالًا كما يُرَى التراب على هذا الصَّفْوَان، وهو الحجر الأملس القاسي، فإذا أصابه الوابلُ من المطر ذهب بما عليه من التراب، وتركه نقيًّا أجرد لا تراب عليه ولا شيء. فكذلك حال هذا المرائي، قلبه غليظ قاس بمنزلة الصفوان، وصدقته ونحوها من أعماله بمنزلة التراب الذي على الصفوان، فهي كالسراب؛ لأنَّها لم تكن لله ﷻ.

---

(١) صحيح البخاري [٢٦٥٤، ٥٩٧٦، ٦٢٧٣]، مسلم [٨٧].

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والرياء ينقسم قسمين: فإن كان الرياء في عقد الإيمان فهو كفر ونفاق، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار. وإن كان الرياء لمن سلم له عقد الإيمان من الشرك، ولحقه شيء من الرياء في بعض أعماله، فليس ذلك بمخرج من الإيمان إلا أنه مذموم فاعله؛ لأنه أشرك في بعض أعماله حَمْدَ المخلوقين مع حَمْدِ ربه، فَحُرِم ثواب عمله ذلك"(١).

وقد رُوِي أنَّ من الشرك ما هو أخفى من دبيب النمل.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولذلك عجز عن الوقوف على غوائله سماسرة العلماء فضلًا عن عامة العباد، وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها. وإنما يبتلى به العلماء والعباد المشمرون عن ساق الجد؛ لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم مهما نهروا أنفسهم وجاهدوها، وفطموها عن الشهوات، وصانوها عن الشبهات، وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح، فطلبت الاستراحة إلى الظاهر بالخير، وإظهار العمل والعلم فوجدت مخلصًا من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق، ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم، فنازعت إلى إظهار الطاعة، وتوصلت إلى إطلاع الخلق، ولم تقنع باطلاع الخالق، وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله، وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه للشهوات، وتوقيه للشبهات، وتحمله مشقات العبادات، أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء، وبالغوا في الإعزاز، ونظروا إليه بعين الاحترام، وتبركوا بلقائه، ورغبوا في بركته ودعائه وفاتحوه بالسلام والخدمة، وقدموه في المجالس والمحافل وتصاغروا له، فأصابت النفس في ذلك لذة هي من أعظم اللذات، وشهوة هي أغلب الشهوات، فاستحقرت فيه ترك المعاصي والهفوات، واستلانت خشونة المواظبة على العبادات؛ لإدراكها في الباطن لذة اللذات، وشهوة الشهوات، فهو يظن أن حياته بالله ﷻ، وبعبادته المرضية، وإنما حياته؛ لهذه الشهوة الخفية التي يعمى عن دركها إلا العقول النافذة القوية، ويرى أنه يخلص في طاعة رب العالمين، وقد أثبت اسمه في

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/١١٣).

جريدة المنافقين، وهو يظن أنه عند الله ﷻ من المقربين. وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون، ومهواة لا يرقى منها إلا المقربون"(١).

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن كان العمل موافقًا للشريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو مردود على فاعله، وهذا حال المنافقين والمرائين، كما قال سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢]، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون:٤-٧]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠]"(٢).

ثالثًا: الوقاية من خطر الشرك والعلاج:

ويقال في الوقاية من خطر (الشرك الأكبر) ما قيل في الوقاية من خطر (الكفر)؛ لما علمتَ من الصلة بينهما. واتخاذ سبل الوقاية من أخطار الشرك بشقيه يقتضي أولًا: معرفة السبب والمسبِب، وثانيًا: العلاج النافع.

والحقيقة أن أسباب الغواية والضلال والشرك كثيرة، وهي موزعة في ثنايا هذا المصنف (عقبات في طريق الهداية) فكل إنسان بحسبه، وتشخيص الداء -ولا سيما إذا لم يكن قد استفحل أمره- يعين على العلاج الناجع.

ومن أهم أسباب الوقاية من خطر الشرك الأكبر:

١ - التمسك بما يقابل الشرك من التوحيد الخالص؛ فإن التحقق بالتوحيد يقي الإنسان من مخاطر الشرك وآثاره. قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "من أسباب المغفرة: التوحيد، وهو السبب الأعظم، فمن فقده فقد المغفرة، ومن جاء به فقد أتى بأعظم أسباب

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٢٧٤- ٢٧٥)، فيض القدير (٤/ ١٧٣).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٥).

المغفرة، فمن جاء مع التوحيد بِقُرَاب الأرض -وهو مِلْؤُهَا أو ما يقارب مِلْأَهَا- خطايا، لقيه الله ﷻ بقرابها مغفرة، لكن هذا مع مشيئة الله ﷻ، فإن شاء غفر له، وإن شاء أخذه بذنوبه، ثم كان عاقبته أن لا يخلد في النار، بل يخرج منها، ثم يدخل الجنة. قال بعضهم: الموحد لا يُلْقَى في النار كما يُلْقَى الكفار، ولا يَلْقَى فيها ما يَلْقَى الكفار، ولا يبقى فيها كما يبقى الكفار، فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه لله ﷻ فيه، وقام بشروطه كلها بقلبه ولسانه وجوارحه، أو بقلبه ولسانه عند الموت، أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها، ومنعه من دخول النار بالكلية. فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه، أخرجت منه كل ما سوى الله محبةً وتعظيمًا وإجلالًا ومهابةً، وخشيةً، ورجاءً، وتوكلًا، وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياه كلها -ولو كانت مثل زبد البحر- وربما قلبتها حسنات؛ فإن هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم، فلو وضع منه ذرة على جبال الذنوب والخطايا، لقلبها حسنات"[(1)].

وتحقيق التوحيد إنما يكون بتخليصه من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدع والمعاصي، وقد أثنى الله ﷻ على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فوصفه بأنه وحده كان أمَّة، مطيعًا لله ﷻ، قائمًا بأمره، حنيفًا، أي: مائلًا عن الباطل، متَّبعا للحق، لا يفارقه ولا يحيد عنه، وما كان من المشركين، فكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنموذجًا للهداية والطاعة والشكر والإنابة لله ﷻ كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل:١٢٠-١٢٢]، فهذا نهج إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الذي يهدي إلى الحق، والذي يتعين اتباعه كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].

ومع ما كان عليه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من الاستقامة على توحيد الله ﷻ وطاعته، فقد كان عَلَيْهِ السَّلَامُ يسأل الله تعالى الثبات على صراطه المستقيم، وأن لا يحيد عنه قيد أنملة، وأن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ

(١) جامع العلوم والحكم (٢/٤١٧).

كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٦]. وإنما جعلن مضلات، لأنَّ الناس ضلوا بسببهنَّ، فكأنهنَّ أضللنهم، كما تقول: فتنتهم الدنيا وغرَّتهم، أي: افتتنوا بها واغتروا بسببها. ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، أي: فمن تبعني على ما أنا عليه من الإيمان بك، وإخلاص العبادة لك، والبعد عن عبادة الأوثان، فإنه مستنٌّ بسنتي، وجار على طريقتي. ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾: فيما دون الشرك، ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، أو ومن عصاني عصيان شرك فإنك غفور رحيم إن تاب وآمن(١). "ولم يقل: فإنك عزيز حكيم؛ لأن المقام مقام استعطاف وتعريض بالدعاء، أي: إن تغفر له وترحمه، بأن توفقه للرجوع من الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى الطاعة، كما في الحديث: ((**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**))(٢)"(٣).

فهذه وصية إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنه في قوله: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢]. فهذه وصية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، لا يرغب عنها إلا سفيه ظالم لنفسه، وهي وصية يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنه في قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٣].

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "مذهب أهل الحق وما أجمع عليه السلف أنه لا يخلد في النار أحد مات على التوحيد، والله أعلم"(٤).

٢ – اللجوء إلى الله ﷻ، والاستعاذة من الشرك –كبيره وصغيره–:

وإذا كان العبدُ يسأل اللهَ تعالى الثبات على طاعته فينبغي في المقابل أن يستعيذ بالله ﷻ من الشرك –كبيره وصغيره–، وأن يستغفر الله تعالى من الشرك الخفي المحتمل الذي يتسلل إلى أعمال فيفسدها.

---

(١) الكشاف (٢/٥٥٨)، النسفي (٢/١٧٥) بتصرف.

(٢) صحيح البخاري [٣٤٧٧، ٦٩٢٩]، مسلم [١٧٩٢].

(٣) مدارج السالكين، لابن القيم (١/٦٠).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (٣/٥٨– ٥٩).

٣ - غرس بذور الإيمان والتوحيد في الأبناء من أول النشأة، والنأي بهم عن مواطن الشبهات والمعاصي والبدع.

٤ - إخلاص العمل والقصد والنية:

قال الله ﷻ: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر:٣]. قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: إن "مما يتفرع على معنى الآية: إخلاص المؤمن الموحد في عبادة ربه، أي: أن يعبد الله لأجله، أي: طلبًا لرضاه، وامتثالًا لأمره، وهو آيل إلى أحوال النية في العبادة المشار إليها بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**))[١]. وعرف الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ الإخلاص بأنه تجريد قصد التقرب إلى الله ﷻ عن جميع الشوائب[٢].

والإخلاص في العبادة: أن يكون الداعي إلى الإتيان بالمأمور وإلى ترك المنهي: إرضاء الله تعالى، وهو معنى قولهم: لوجه الله، أي: لقصد الامتثال بحيث لا يكون الحظ الدنيوي هو الباعث على العبادة، مثل أن يعبد الله؛ ليمدحه الناس بحيث لو تعطل المدح لترك العبادة. ولذا قيل: الرياء الشرك الأصغر، أي: إذا كان هو الباعث على العمل، ومثل ذلك أن يقاتل لأجل الغنيمة فلو أيس منها ترك القتال، فأما إن كان للنفس حظ عاجل وكان حاصلًا تبعًا للعبادة وليس هو المقصود فهو مغتفر، وخاصة إذا كان ذلك لا تخلو عنه النفوس، أو كان مما يعين على الاستزادة من العبادة"[٣].

والرياء يذهب بمقاصد العبادات وغاياتها وآثارها، ويفرغها من حقيقتها وجوهرها، فتصبح من غير إخلاص جوفاء لا تحقق آثارها في القلب، ولا تدفع إلى العمل الصالح.

وقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكاية عن المخلصين في إطعامهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩]، وكما قال في الأتقى الذي ينفق ماله ابتغاء وجه ربه ﷻ، الذي ينفق ماله؛ ليتطهر بإنفاقه، لا ليرائي به ويستعلي، ينفقه

(١) صحيح البخاري [١].

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٧٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/٣١٨).

تطوعًا لا ردًّا لجميل أحد، ولا طلبًا لشكران أحد، وإنما ابتغاء وجه ربه خالصًا ربه الأعلى: ﴿الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾﴾ [الليل:١٨-٢١].

وقال ابن جزي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله ﷻ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:٥]: "الإخلاص هنا يراد به: التوحيد وترك الشرك أو ترك الرياء، وذلك أن الإخلاص مطلوب في التوحيد وفي الأعمال، وهذا الإخلاص في التوحيد من الشرك الجلي، وهذا الإخلاص في الأعمال من الشرك الخفي.

واعلم أن الأعمال ثلاثة أنواع: مأمورات ومنهيات ومباحات، فأما المأمورات فالإخلاص فيها عبارة عن خلوص النية لوجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بحيث لا يشوبها بنية أخرى، فإن كانت كذلك فالعمل خالص مقبول، وإن كانت النية لغير وجه الله تعالى، من طلب منفعة دنيوية، أو مدح أو غير ذلك فالعمل رياء محض مردود، وإن كانت النية مشتركة ففي ذلك تفصيل فيه نظر واحتمال.

وأما المنهيات فإن تركها دون نية خرج عن عهدتها، ولم يكن له أجر في تركها وإن تركها بنية وجه الله ﷻ حصل له الخروج عن عهدتها مع الأجر.

وأما المباحات كالأكل والنوم والجماع وشبه ذلك فإن فعلها بغير نية لم يكن فيها أجر، وإن فعلها بنية وجه الله ﷻ فله فيها أجر، فإن كل مباح يمكن أن يصير قربة إذا قصد به وجه الله مثل أن يقصد بالأكل: القوة على العبادة، ويقصد بالجماع: التعفف عن الحرام"(١).

٥ – اليقظة والتبصر بآفات الشرك وعواقبه ومآلاته وآثاره.

٦ – التوبة والإنابة إلى الله ﷻ.

(١) تفسير ابن جزي (٢/ ٥٠١- ٥٠٢).

٧ – التفقه في الدين، ومجالسة العلماء الصادقين، والأخذ عنهم، وعدم الاكتفاء بمطالعة الكتب كما جاء في غير موضع. قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العلماء هم الأدِلاءُ فإذا فُقِدُوا ضَلَّ السَّالِك"(١).

٨ – ملازمة أصحاب القلوب السليمة من أهل الفضل والصلاح.

٩ – الحذر من محبطات الأعمال، ومزيلات الإحسان من نحو: الألفاظ الشركية، كدعاء غير الله تعالى، والحلف بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والاستغاثة والاستعانة بالمخلوقين فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر:١٣-١٤].

---

(١) التبصرة، لابن الجوزي (٢/ ١٩٢).

العقبة الرابعة

النفاق

أولًا: تعريف النفاق:

النفاق بالكسر: فعل المنافق[(١)].

وقد اختلف علماء اللغة في أصل النفاق، فقيل: إن ذلك نسبة إلى النفق، وهو السَّرَب في الأرض؛ لأن المنافق يستر كفره ويغيبه، فتشبه بالذي يدخل النفق يستتر فيه.

وقيل: إنما سمي منافقًا؛ لأنه نافقَ كَالْيَرْبُوع له حجر يقال له: النافقاء، وآخر يقال له: القاصعاء، فإذا طُلِبَ قَصَّع فخرجَ من القاصِعاء، فهو يدخُلُ في النافِقاء ويخرج من القاصِعاء، أو يدخل في القاصِعاء ويخرج من النافِقاء، فيقال: هكذا يفعل المنافق، يدخل في الإسلام ثم يخرج منه من غير الوجه الذي دخل فيه.

وقيل: إنه سمي منافقًا؛ لإظهاره غير ما يضمر تشبيهًا باليربوع؛ لأنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض أرقَّ التراب، فإذا رابه ريب رفع ذلك التراب برأسه فخرج، فظاهر جحره تراب كالأرض وباطنه حفر، وكذلك المنافق ظاهره إيمان وباطنه كفر[(٢)].

ولعل النسبة إلى نافقاء اليربوع أرجح من النسبة إلى النفق؛ لأن النفق ليس فيه إظهار شيء، وإبطال شيء آخر، كما هو الحال في النفاق، وكونه مأخوذًا من النافقاء باعتبار أن المنافق يظهر خلاف ما يبطن، أقرب من كونه مأخوذًا منه باعتبار أنه يخرج من غير الوجه الذي دخل فيه؛ لأن الذي يتحقق فيه الشك الكامل بين النافقاء والنفاق هو إظهار شيء وإخفاء شيء آخر، إضافة إلى أن المنافق لم يدخل في الإسلام دخولًا حقيقيًّا حتى يخرج منه[(٣)].

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (نفق) (١٥٦٠/٤)، وانظر: لسان العرب (٣٥٩/١٠).

(٢) انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين، لمحمد بن فتوح الأزدي الميورقي الحميدي (ص:٤٩٢- ٤٩٣)، غريب الحديث، لأبي عبيد (١٣/٣)، تهذيب اللغة (١٥٦/٩)، لسان العرب (٣٥٩/١٠).

(٣) المنافقون في القرآن الكريم، للدكتور عبدالعزيز الحميدي (ص:١٣).

والنفاق في الاصطلاح: أن يظهر الإيمان باللسان، ويكتم الكفر بالقلب. ولا يطلق هذا الاسم على من يظهر شيئًا ويخفي غيره مما لا يختص بالعقيدة. وقد يطلق النفاق على الرياء؛ لأن كليهما إظهار غير ما في الباطن(١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن أساس النفاق الذي بني عليه الكذب، وأن يقول الرجل بلسانه ما ليس في قلبه، كما أخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم"(٢).

والنفاق يعتمد على ثلاث خصال وهي: الكذب القولي، والكذب الفعلي، وهو الخداع، ويقارن ذلك الخوف؛ لأن الكذب والخداع إنما يصدران ممن يتوقى إظهار حقيقة أمره، وذلك لا يكون إلا لخوف ضر أو لخوف إخفاق سعي، وكلاهما مؤذن بقلة الشجاعة والثبات والثقة بالنفس وبحسن السلوك(٣).

وقد حذَّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورسوله الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المؤمنين من المنافقين، وجاء في الكتاب(٤) والسنة بيان صفاتهم وأحوالهم وعاقبتهم.

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (نفق) (٩٨/٥)، لسان العرب (٣٥٩/١٠)، شرح سنن أبي داود، لبدر الدين العيني (٢٣/٣)، التعريفات (ص:٢٤٥)، الموسوعة الفقهية الكويتية (١٧٨/٦)، (١٨٦/١٣).

(٢) منهاج السنة النبوية (٤٦/٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨١/١).

(٤) انظر الآيات: البقرة [٩-٢٠]، النساء [٦١-٦٣]، [٨٨-٨٩]، [١٣٨-١٤٥]، الأنفال [٤٩]، التوبة [٤٥-٧٠]، الأحزاب [١٢-٢٠]، [٥٩-٦٢]، [٧٣]، الفتح [٦]، الحديد [١٣-١٥]، المنافقون [١-٨]..الخ.

وإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يضره كيد المنافقين وخداعهم، ولا يضر المؤمنين أن يظهر المنافقون الإيمان، فتسلم بذلك أموالهم، وتحقن دماؤهم[1]؛ لأن كيدهم يعود عليهم بالخزي والفضيحة في الدنيا، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة. ثم في الآخرة لهم العذاب الأليم بسبب كذبهم وكفرهم وفجورهم.

وكما أن النفاق من أعظم الذنوب فهو كذلك أكبر خطر يهدد وحدة المسلمين. ويعظم الخطر إذا تصدَّر المنافقون منابرَ الدَّعوة والإعلام، وتبوؤا المناصب العالية، فأشاعوا الباطل وروجوا له، وأخمدوا صوت الحق، فاغتر بهم خلق كثير، فضلوا وأضلوا، وقد حذَّرنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ داعية يظهر خلاف ما يبطن، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((**إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان**))[2] كما سيأتي بيانه في عقبة (سوء التبليغ)، وعقبة (اشتباه الحقيقة).

ثانيًا: النفاق الأكبر والنفاق الأصغر من حيث كونهما من العقبات:

النفاق كالكفر والشرك درجات ومراتب؛ منها ما هو مخرج من الإسلام، ومنها غير مخرج منه. والنفاق في الشرع ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: النفاق الأكبر:

وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن الكفر، وقد نزل القرآن بذم أهله.

---

(١) المنافق إذا لم يظهر ما في باطنه من مخالفة الدين، وأظهر الأعمال الظاهرة من الإسلام؛ فهو في الظاهر مسلم، وتجري عليه أحكام الإسلام الظاهرة في الدنيا، ويعامل معاملة المسلمين؛ لأننا لم نؤمر بالشق عن ما في القلوب، فلا اطلاع لنا على دخيلة الأنفس.

(٢) أخرجه أحمد [١٤٣]، وابن حميد [١١]، والبزار [٣٠٥]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٤١]، قال الهيثمي (١/١٨٧): "رواه البزار وأحمد وأبو يعلى، ورجاله موثقون". وأخرجه البزار [٣٥١٤]، والطبراني في (الكبير) [٥٩٣]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٩] عن عبد الله بن بريدة، عن عمران بن حصين. قال الهيثمي (١/١٨٧): "رواه الطبراني في (الكبير) والبزار، ورجاله رجال الصحيح".

ويترتب على هذا النوع ما يترتب على الكفر الأكبر؛ من حيث انتفاء الإيمان عن صاحبه، وخلوده في جهنم؛ لكن المنافق أشد عذابًا من الكافر؛ كما أخبر الحق سبحانه أن المنافقين في الدرك الأسفل من النَّار، ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٤٦].

والنفاق: إذا أطلق ذكره في القرآن؛ فإن المراد به النفاق الأكبر المنافي للإيمان.

والثاني: النفاق الأصغر:

وهو نفاق العمل، وهو أن يظهر الإنسان علانية صالحة، ويبطن ما يخالف ذلك. وأصول هذا النفاق ترجع إلى الخصال المذكورة في هذه الأحاديث، وهي خمسة:

أحدها: أن يحدث بحديث لمن يصدقه به وهو كاذب له.

والثاني: إذا وعد أخلف.

والثالث: إذا خاصم فجر، ويعني بالفجور: أن يخرج عن الحق عمدًا حتى يصير الحق باطلًا والباطل حقًّا.

الرابع: إذا عاهد غدر، ولم يف بالعهد.

الخامس: الخيانة في الأمانة، فإذا أؤتمن الرجل أمانة، فالواجب عليه أن يؤديها(١).

والحاصل أن النفاق الأصغر هو نفاق الأعمال ونحوها، للحديث المشهور عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إذا حَدَّث كَذَب، وإذا وَعَدَ أَخْلَف، وإذا اؤْتُمِنَ خَان**))(٢)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أربعٌ من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خَصْلَةٌ منهُنَّ كانت فيه خَصْلَةٌ من النِّفاق حتى يَدَعَهَا: إذا أُؤْتُمِنَ خَان، وإذا حدَّث كَذَب، وإذا عاهدَ غَدَر، وإذا خاصم فَجَر**))(٣).

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (٢/٤٨١- ٤٨٨).

(٢) صحيح البخاري [٣٣، ٢٦٨٢، ٢٧٤٩، ٦٠٩٥]، مسلم [٥٩].

(٣) صحيح البخاري [٣٤، ٢٤٥٩، ٣١٧٨]، مسلم [٥٨].

وفي رواية مسلم: ((**إذا وعدَ أخلفَ**)) بدل ((**وإذا ائتُمِن خان**))(١).

ويسميه بعض أهل العلم: (النفاق العملي)؛ لأنه يتعلق بالأعمال، وليس في الاعتقاد، وأطلق عليه بعض أهل العلم أيضًا: (نفاقًا دون نفاق). وحكم هذا النفاق أنه محرم، وكبيرة من كبائر الذنوب، ومن فعل خصلة من خصاله فقد تشبه بالمنافقين، ولكنه لا يخرج من ملة الإسلام بإجماع أهل العلم(٢).

قال الإمام أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "النفاق هو إظهار القول باللسان أو الفعل بخلاف ما في القلب من القول والاعتقاد.

أصوله وهي قسمان: أحدهما: أن يكون الخبر أو الفعل في توحيد الله وتصديقه، أو يكون في الأعمال، فإن كان في التوحيد كان صريحًا، وإن كان في الأعمال كانت معصية، وكان نفاقًا دون نفاق كما تقدم القول في كفر دون كفر"(٣).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "النفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي، وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب"(٤).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن بعض النفاق كفر دون بعض، والنفاق لغة: مخالفة الباطن للظاهر، فإن كان في اعتقاد الإيمان فهو نفاق الكفر، وإلا فهو نفاق العمل، ويدخل فيه: الفعل والترك، وتتفاوت مراتبه"(٥).

وقد توعد الله تعالى المنافقين –النفاق الأكبر– بالعذاب في الآخرة فقال: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٣٨]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠]، وقال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٤٥]، وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [التوبة:٦٨]، وقال: ﴿لِيُعَذِّبَ

(١) صحيح مسلم [٥٨].

(٢) انظر: الجواهر المضية (ص:١٣)، تسهيل العقيدة الإسلامية، عبد الله الجبرين (ص:٤٥٣).

(٣) عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي (١٠/٩٧).

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ١٧٦).

(٥) فتح الباري (١/٨٩).

اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب:٧٣]، وقال: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح:٦]، وقال: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد:١٣-١٥]، وقال: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون:٦].

ويقال في النفاق الأكبر من حيث كونه عقبة في طريق الهداية ما قيل في عقبة الكفر الأكبر، وعقبة الشرك الأكبر من حيث الضَّلال والإضلال، بل ربما يكون إضلال المنافق أعظم أثرًا؛ لما فيه من الخداع والكيد والمكر.

ويقال كذلك في النفاق الأصغر ما قيل في سابقيه من حيث كونه من أسباب الخذلان وعدم التوفيق، والاستدراج إلى الغواية، وأنه يجر إلى مفاسد عظيمة.

ثالثًا: الوقاية من خطر النفاق والعلاج:

يقال في الوقاية من خطر النفاق الأكبر ما قيل في أسباب الوقاية من الكفر الأكبر، وكذلك ما قيل في أسباب الوقاية من الشرك الأكبر.

ويقال كذلك في أسباب الوقاية من (النفاق الأصغر) ما قيل في أسباب الوقاية من الكفر الأصغر، وكذلك ما قيل في أسباب الوقاية من الشرك الأصغر.

ومن أسباب الوقاية من خطر النفاق:

١ - إعداد الأجيال على أسس سليمة من التربية المبينة على العقيدة الصحيحة، وما ينبثق عنها من القيم والأخلاق الفاضلة كالصدق والوفاء وحسن المعاملة.. الخ.

٢ – سلوك نهج الأبرار في صفاتهم وأعمالهم، والتخلق بأخلاقهم، والبعد عن صفات أهل النفاق.

قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إخلاف الوعد والكذب من خصال النفاق، فيكون الوفاء والصدق من شعب الإيمان"(١).

فمن صفات الأبرار: الصدق، والوفاء، والإخلاص، وغيرها من الصفات الفاضلة والنبيلة. ومن صفات المنافقين: الكذب، والغدر، والخيانة، والكيد، والخداع، والإفساد، وإظهار السوء وإشاعته في قالب النصح، والقصد إلى إظهار الجميل مع قبح النية وفساد الطوية، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، ومن صفاتهم كذلك: أنهم يقبضون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله ﷻ، ويتركون أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والقيام بطاعته حتى يصير عندهم بمنزلة المنسي. ومن صفاتهم: التولي والإعراض عن حكم الله تعالى ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والاستهزاء بالدين وأهله، والسخرية من المؤمنين، والميل إلى أعداء الدين ومظاهرتهم ومناصرتهم على المسلمين، وبغض الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبغض ما جاء به، وكراهية ظهور الإسلام، وإفساد الحرث والنسل، وكثرة الحلف كذبًا، والتكاسل عن الصلاة، وقلة ذكر الله ﷻ، والاستكبار عن قبول الحق، وتقاعسهم عن الجهاد، وارتيابهم كما أخبر الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم في نحو قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة:٤٥]، وقوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب:١٢].. إلى غير ذلك من الصفات القبيحة والمذمومة.

ومن السور التي فضحت المنافقين مبينة صفاتهم وأحوالهم: (سورة التوبة)، وكذلك (سورة الأحزاب)، و(سورة المنافقين).

---

(١) الإكليل (ص:١٤٣).

٣ – الجهاد في سبيل الله ﷻ:

جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**من مات ولم يَغْزُ، ولم يُحَدِّثْ به نفسه، مات على شُعْبَة مِنْ نِفَاق**))[1]، أي: نوع من أنواع النفاق؛ أي: من مات على هذا فقد أشبه المنافقين والمتخلفين عن الجهاد، ومن تشبه بقوم فهو منهم.

قال الإمام النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: "المراد أن من فعل هذا فقد أشبه المنافقين المتخلِّفين عن الجهاد في هذا الوصف؛ فإن ترك الجهاد أحد شعب النفاق. وفي هذا الحديث: أن من نوى فعل عبادة فمات قبل فعلها لا يتوجَّه عليه من الذم ما يتوجَّه على من مات ولم ينوها"[2].

٤ – الإخلاص في العمل، والبعد عن الرياء:

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء:١٤٢].

٥ – الحرص على أداء الصلاة بأركانها وشروطها وآدابها، والقيام إلى الصلاة بهمَّةٍ ونشاطٍ ورغبة:

قال الله ﷻ عن المؤمنين: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣]، وقال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ [النساء:١٤٢]، ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة:٥٨]، ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ [التوبة:٥٤]، أي: يصلون مراءاة وهم متكاسلون متثاقلون، لا يرجون ثوابًا ولا يعتقدون على تركها عقابًا[3].

---

(١) صحيح مسلم [١٩١٠].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/ ٥٦)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٦/٢٤٧٠).

(٣) تفسير القرطبي (٥/٤٢٢).

وجميع الصلوات ثقيلة على المنافقين، والعشاء والفجر أثقل عليهم من سائر الصلوات، كما جاء في الحديث: ((**إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء، وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا..**))(١).

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن كثيرا من المصلين لا يعرفون فائدة الصلاة حقيقة، ولا يقدرونها حق قدرها؛ ولذلك ثقلت الصلاة عليهم، ولم تكن قرة لأعينهم، ولا راحة لأنفسهم، ولا نورًا لقلوبهم. ترى كثيرًا منهم ينقرون الصلاة نقر الغراب لا يطمئنون فيها، ولا يذكرون الله تعالى فيها إلا قليلًا، وهؤلاء لا صلاة لهم، ولو صلوا ألف مرة؛ لأن الطمأنينة في الصلاة ركن من أركانها؛ ولذلك قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للرجل الذي كان لا يطمئن في صلاته: ((**ارْجِعْ فَصَلِّ فإنَّكَ لم تُصَلِّ**))(٢)، فصلى عدة مرات، وكل مرة يقول له النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ارْجِعْ فَصَلِّ فإنَّكَ لم تُصَلِّ**))، حتى علَّمه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمره بالطمأنينة"(٣).

وقد جاء في الحديث: عن العلاء بن عبد الرحمن أنه دخل على أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في داره بالبصرة، حين انصرف من الظهر، وداره بجنب المسجد، فلما دخلنا عليه، قال: أصليتم العصر؟ فقلنا له: إنما انصرفنا الساعة من الظهر، قال: فصلوا العصر، فقمنا، فصلينا، فلما انصرفنا، قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**تلك صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يجلس يَرْقُبُ الشَّمس حتى إذا كانت بين قَرْنَي الشَّيطان، قامَ فَنَقَرَهَا أربَعًا، لا يذكرُ الله فيها إلَّا قليلًا**))(٤).

وعن أبي عبد الله الأشعري قال: صلَّى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصحابه، ثم جلس في طائفة منهم، فدخل رجل، فقام يصلي، فجعل يركع وينقر في سجوده، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أترون هذا، من مات على هذا مات على غير ملة محمد، ينقر صلاته كما يَنْقُرُ الْغُرَابُ الدَّمَ، إنما مثل الذي يركع وينقر في سجوده كالجائع لا**

---

(١) صحيح مسلم [٦٥١].
(٢) الحديث في (صحيح البخاري) [٧٥٧، ٧٩٣، ٦٢٥١، ٦٦٦٧]، و(صحيح مسلم) [٣٩٧].
(٣) الضياء اللامع (ص:١٣٢-١٣٣).
(٤) صحيح مسلم [٦٢٢].

يأكل إلا التمرة والتمرتين، فماذا تغنيان عنه، فأسبغوا الوضوء، ويل للأعقاب من النار، أتموا الركوع والسجود))، قال أبو صالح: فقلت لأبي عبد الله الأشعري: من حدثك بهذا الحديث؟ فقال: أمراء الأجناد: عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، كل هؤلاء سمعوه من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١).

٦ - كثرة الذكر والدعاء والتأمل والتدبر لآيات الله تعالى:

قال الله ﷻ عن المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٩١].

وقال عن المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن كثرة ذكر الله ﷻ أمان من النفاق؛ فإن المنافقين قليلوا الذكر لله ﷻ. وقال كعب: من أكثر ذكر الله ﷻ برئ من النفاق؛ ولهذا -والله أعلم- ختم الله تعالى سورة المنافقين بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩]. فإن في ذلك تحذيرًا من فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر الله ﷻ فوقعوا في النفاق. والله ﷻ أكرم من أن يبتلي قلبًا ذاكرًا بالنفاق، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله ﷻ"(٢).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "فمن أكثر ذكر الله، فقد باينهم في أوصافهم؛ ولهذا ختمت سورة المنافقين بالأمر بذكر الله ﷻ، وأن لا يلهي المؤمن عن ذلك مال ولا ولد، وأن من ألهاه ذلك عن ذكر الله ﷻ، فهو من الخاسرين"(٣).

ومن أسباب الوقاية من خطر النفاق: الدعاء، فقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيذ بالله ﷻ من النفاق، كما جاء في الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في دعائه: **((اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والبخل**

---

(١) أخرجه البخاري في (التاريخ الكبير) (٤/٢٤٧)، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٤٩٤]، وابن خزيمة [٦٦٥]، والبيهقي [٢٥٧٣]، وابن عساكر (٦٥/٢٣٩).

(٢) باختصار من الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص:٨٠-٨١).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/٥١٦).

والهرم، والقسوة والغفلة، والذِّلَّة والْمَسْكَنَة، وأعوذ بك من الفقر والكفر، والشرك والنفاق، والسمعة والرياء، وأعوذ بك من الصَّمَم والْبَكَم، والجنون، والبرص والجذام، وسَيِّيء الأسقام))[1].

وقد روي عن جبير بن نُفَيْرٍ، قال: دخلت على أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منزله بحمص فإذا هو قائم يصلي في مسجده، فلما جلس يتشهد جعل يَتَعَوَّذُ بالله من النفاق، فلما انصرف قلت: غفر الله لك يا أبا الدرداء ما أنت والنفاق؟ قال: اللهم غفرًا –ثلاثًا– من يأمنُ البلاء؟ من يأمنُ البلاء؟ والله إن الرجل ليفتتن في ساعة فينقلب عن دينه[2].

٧ – أن لا يوافق الكافرين والمنافقين وأهل البدع والشِّقاق، وأن يَعِظَهم ويزجرهم:

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب:١]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب:٤٨]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء:٦٣].

وقد نهى الله ﷻ عن الركون إلى المنافقين وموالاتهم. قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران:١١٨]، ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود:١١٣].

ومن الركون إليهم: تسويدهم، كما جاء في الحديث: عن عبد الله بن بُرَيْدَة عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((لا تقولوا للمنافق: سَيِّدٌ؛ فإنَّهُ إن يَكُ سَيِّدًا فقد أسخطتم ربَّكم عزَّ وجَلَّ))**[3].

---

(١) أخرجه ابن حبان [١٠٢٣]، والطبراني في (الصغير) [٣١٦]، والحاكم [١٩٤٤] وقال: "صحيح على شرط الشيخين". وأخرجه أيضًا: الضياء [٢٣٧٠]. قال الهيثمي (١٠/١٤٣): "قلت: في الصحيح بعضه. رواه الطبراني في الصغير، ورجاله رجال الصحيح".

(٢) شعب الإيمان [٨٣١]، صفة النفاق وذم المنافقين، للفريابي [٦٩].

(٣) أخرجه أحمد [٢٢٩٣٩]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٧٦٠]، وأبو داود [٤٩٧٧]، والبزار [٤٣٨٢]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٠٠٢]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤٥٤٢]. قال الإمام النووي: "رواه=

٨ - التنبه لخطرهم وعدم الاغترار بصفاتهم وأحوالهم:

ينبغي على المكلف أن لا يغتر بقول المنافقين أو صفاتهم، وأن يتنبه لخطرهم، ويكون على حيطة وحذر منهم. قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون:٤].

ومن أسباب الوقاية من خطر النفاق: أن يحذر المكلف أهل البدع، قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "البدع مظان النفاق كما أن السنن شعائر الإيمان"(١).

وينبغي على المسلمين أخذ الحيطة والحذر حتى يأمنوا شرَّ المنافقين، ويسلموا مما يكيدون ويمكرون؛ فإن المنافقين وإن كانوا يبطنون خلاف ما يظهرون، لكن قد يعلم من أحوالهم وصفاتهم ما يرشد إلى ضرورة التنبه والتتبع إلى أن يتبين أمرهم.

٩ - مجاهدة المنافقين بالعلم والبيان، وعدم المجادلة أو الدفاع عنهم:

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣].

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أما مجاهدة الغير فإنها تنقسم إلى قسمين: قسم بالعلم والبيان، وقسم بالسلاح.

أما من مجاهدته بالعلم والبيان فهو الذي يتسمى بالإسلام وليس من المسلمين؛ مثل المنافقين وأهل البدع المكفرة وما أشبه ذلك، فإن هؤلاء لا يمكن أن نجاهدهم بالسلاح؛ لأنهم يتظاهرون بالإسلام وأنهم معنا، ولكننا نجاهدهم بالعلم والبيان، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣]، فجاهد الكفار يكون بالسلاح، وجهاد المنافقين يكون بالعلم والبيان.

=أبو داود بإسنادٍ صحيح" رياض الصالحين (ص:٤٦٤). وقال المنذري (٣/٣٥٩): "رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح".

(١) مجموع الفتاوى (٢/٢٦٩).

ولهذا كان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم بأن في أصحابه منافقين، ويعلمهم بأعيانهم، ولكنه لا يقتلهم، واستؤذن في قتلهم فقال: ((**لا يتحدث الناس بأن محمدًا يقتل أصحابه**))(١)، فكذلك الذين ينضوون تحت لواء الإسلام من أهل البدع لا نقاتلهم بالسلاح، لكننا نقاتلهم بالعلم والبيان"(٢).

قال العز بن عبد السلام رَحِمَهُ اللهُ: "الغلظة على أهل الإيمان وفي غير مظانها قبيحة، كما أنها على أهل النفاق والكفر في مظانها حسنة"(٣).

والمطلوب أن يجاهدهم بالعلم والبيان في مظانِّه التي يُرجى فيها النَّفعُ، وأن يحذر الداعية الجدل المذموم، ونصرة الباطل، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء:١٠٧]، أي: يخونونها بالمعصية. وإنما قال: ﴿يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ -وإن كانوا ما خانوا أنفسهم-؛ لأن مضرة خيانتهم راجعة إليهم، كما يقال فيمن ظلم غيره: ما ظلم إلا نفسه. وهذا يشمل النهي عن المجادلة، عن من أذنب وتوجه عليه عقوبة من حد أو تعزير، فإنه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة، أو بدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية.

١٠ - محبة الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ:

إنَّ من عقائد أهل السنة والجماعة: وجوب محبة أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتعظيمهم والاقتداء بهم؛ لما شرفهم الله ﷻ به من صحبة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والجهاد معه؛ لنصرة دين الإسلام، والهجرة في سبيله.

وقد دلت النصوص الصحيحة الصريحة على هذا المعتقد في كثير من الآيات والأحاديث(٤).

ولا شك أن من الخذلان الكبير وعدم التوفيق من الله ﷻ للعبد: أن يجعل من نهجه وسعيه الوقوع في صحابة خير الخلق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورضي عنهم، نصروا الدين

(١) صحيح البخاري [٤٩٠٥، ٤٩٠٧]، مسلم [٢٥٨٤].
(٢) شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح العثيمين (٢/٥٥).
(٣) شجرة المعارف والأحوال (ص:٩٩).
(٤) انظر: المحبة صورها وأحكامها، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان (ص:١٥٣).

ونشروه، وهم الذين قاتلوا المشركين، ونقلوا القرآن والسنَّة والأحكام، وبذلوا أنفسهم ودماءهم وأموالهم في سبيل الله ﷻ، وقد اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يسبهم ولا يبغضهم إلا منافق.

وقد جاء في الحديث: ((**آية الإيمان: حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار**))(١). ((**الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله**))(٢).

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "وكذلك حب المهاجرين -الذين هم أفضل من الأنصار- من الإيمان"(٣).

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إنه لعهد النبي الأمي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلي: أن لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق(٤).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومعنى هذه الأحاديث أن من عرف مرتبة الأنصار وما كان منهم في نصرة دين الإسلام، والسعي في إظهاره، وإيواء المسلمين، وقيامهم في مهمات دين الإسلام حق القيام، وحبهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحبه إياهم، وبذلهم أموالهم وأنفسهم بين يديه، وقتالهم ومعاداتهم سائر الناس؛ إيثارًا للإسلام، وعرف من علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قربه من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له، وما كان منه في نصرة الإسلام، وسوابقه فيه، ثم أحب الأنصار وعليًا؛ لهذا، كان ذلك من دلائل صحة إيمانه، وصدقه في إسلامه؛ لسروره بظهور الإسلام، والقيام بما

---

(١) صحيح البخاري [١٧، ٣٧٨٤]، مسلم [٧٤].

(٢) صحيح البخاري [٣٧٨٣]، مسلم [٧٥].

(٣) فتح الباري، لابن رجب (١/٦٥). فضَّل الله ﷻ المهاجرين على الأنصار، فقد بدأ بهم في قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة:١١٧]، وقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر:٨]، ثم قال في الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر:٩]، وقد ذكر الله ﷻ المهاجرين قبل الأنصار؛ لأن المهاجرين تركوا ديارهم وأموالهم وبيوتهم، وخرجوا طاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أما الأنصار فهم في بلدهم، في بيوتهم، وفي أموالهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا.

(٤) صحيح مسلم [٧٨].

يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن أبغضهم كان بضد ذلك، واستدل به على نفاقه وفساد سريرته -والله أعلم-"[1].

قال بعض السلف: حب أبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا إيمان، وبغضهما نفاق، وحب بني هاشم إيمان، وبغضهم نفاق[2].

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن انتقص أحدًا منهم فهو مبتدع مخالف للسنة والسلف الصالح، وأخاف أن لا يصعد له عمل إلى السماء حتى يحبهم جميعًا، ويكون قلبه سليمًا"[3].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن القدح في خير القرون الذين صحبوا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدح في الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال مالك وغيره من أئمة العلم: هؤلاء طعنوا في أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما طعنوا في أصحابه؛ ليقول القائل: رجل سوء كان له أصحاب سوء، ولو كان رجلًا صالحًا لكان أصحابه صالحين"[4].

١١ - المحافظة على عبادة الخفاء:

إن من أسباب الوقاية من آفات الشرك الأصغر: المحافظة على عبادة الخفاء، وهي من علامات محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للعبد، كما جاء في الحديث: ((**إن الله يُحِبُّ العبدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ**))[5]، والمراد بالغنى إما غنى النفس، وهو الغنى المحبوب، أو غنى المال. والمال غير محذور لعينه، بل لكونه يَعُوق ويَشْغَلُ العبد عن الله ﷻ، فكم من غنيٍّ لم يشغلْه غناهُ عن الله ﷻ؟ وكم من فقير شَغَلَه فقره عن الله ﷻ؟ فالتحقيق أنه لا يطلق القول بتفضيل الغني على الفقير وعكسه.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٦٤).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٤/٤٣٥).
(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/١٢١).
(٤) مجموع الفتاوى (٤/٤٢٩).
(٥) أخرجه مسلم في (صحيحه) [٢٩٦٥].

و(الخفي) -بخاء معجمة- أي: الخامل الذكر المعتزل عن الناس الذي يخفي عليهم مكانه؛ ليتفرغ للتعبد[1]. ففي الحديث إشارة إلى أن أحب العمل: ما كان خالصًا لله ﷻ، وبعيدًا عن الرياء، وأن عبادة الخفاء فيها طهارة للقلب من النفاق، حيث يغيب الخلق، ولا يشهد على عمله إلا الخالق سبحانه.

والشارع يُرغِّب في عبادة الخفاء كصلاة المرءِ النافلةَ في بيته بالإضافة إلى العبادات الظاهرة، كصلاة الجماعة؛ ليكون العبد مخلصًا في سائر عباداته وأحواله.

ومن الترغيب في عبادة الخفاء ما جاء في (الصحيح) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله**))، وذكر منهم: ((**ورجل تصدق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه**))[2].

وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [البقرة:٢٧١].

كما حثَّ الشارع على صلاة النافلة في البيت، كما جاء في الحديث: ((**صلوا أيها الناس في بيوتكم، فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة**))[3].

وقد نُقل عن الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: خيرُ العمل أخْفاه، أمْنَعُه من الشيطان، وأبعدُه من الرِّياء[4].

١٢ - ترك البدع:

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "البدع مظان النفاق كما أن السنن شعائر الإيمان"[5].

١٣ – الاحتراز عن الذنوب، وترك الشبهات:

(١) انظر: فيض القدير (٢/٢٨٨)، فتح الباري، لابن حجر (١١/٢٧٦).
(٢) صحيح البخاري [٦٦٠، ١٤٢٣]، مسلم [١٠٣١].
(٣) صحيح البخاري [٧٣١، ٦١١٣، ٧٢٩٠]، مسلم [٧٨١].
(٤) انظر: تاريخ دمشق (٤٨/ ٤٠٤)، سير السلف الصالحين، لإسماعيل الأصبهاني (ص:١٠٣٦).
(٥) مجموع الفتاوى (٢/٢٦٩).

ومن الذنوب التي تورث النفاق: اعتياد سماع المعازف والأغاني(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اعلم أن للغناء خواصَّ لها تأثير في صبغ القلب بالنفاق، ونباته فيه كنبات الزرع بالماء. فمن خواصه: أنه يُلهي القلب ويصده عن فهم القرآن وتدبره، والعمل بما فيه، فإن الغناء والقرآن لا يجتمعان في القلب أبدًا؛ لما بينهما من التضاد؛ فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى، ويأمر بالعفة، ومجانبة شهوات النفوس، وأسباب الغيِّ، وينهى عن اتباع خطوات الشيطان، والغناء يأمر بضد ذلك كله، ويحسنه، ويهيِّج النفوس إلى شهوات الغيِّ، فيثير كامنها، ويزعج قاطنها، ويحركها إلى كل قبيح، ويسوقها إلى وصْل كل مليحة ومليح، فهو والخمر رضيعا لبان، وفي تهييجهما على القبائح فرسا رهان...الخ.

ويقول أيضا: فمن علامات النفاق: قلة ذكر الله ﷻ، والكسل عند القيام إلى الصلاة، ونقر الصلاة، وقل أن تجد مفتونًا بالغناء إلا وهذا وصفه.

وأيضًا: فإن النفاق مؤسس على الكذب، والغناء من أكذب الشعر، فإنه يحسن القبيح ويزينه، ويأمر به، ويقبح الحسن ويزهد فيه، وذلك عين النفاق.

وأيضاً، فإن النفاق غش ومكر وخداع، والغناء مؤسس على ذلك.

وأيضا: فإن المنافق يفسد من حيث يظن أنه يصلح، كما أخبر الله سبحانه بذلك عن المنافقين، وصاحب السماع يفسد قلبه وحاله من حيث يظن أنه يصلحه. والمغنى يدعو القلوب إلى فتنة الشهوات، والمنافق يدعوها إلى فتنة الشبهات.

وقد كتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى مؤدب ولده: ليكن أول ما يعتقدون من أدبك: بغض الملاهي، التي بدؤها من الشيطان، وعاقبتها سخط الرحمن؛ فإنه بلغني عن الثقات من أهل العلم: أن صوت المعازف، واستماع الأغاني، واللهج بها ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشب على الماء اهـ. فالغناء يفسد القلب، وإذا فسد القلب هاج فيه النفاق(٢).

---

(١) إغاثة اللهفان (١/٢٤٨-٢٥٠)، انظر: مدارج السالكين (١/ ٤٨٣- ٤٨٤).

(٢) انظر: إغاثة اللهفان (١/٢٤٨-٢٥١)، انظر: مدارج السالكين (١/٤٨٣- ٤٨٤).

وإن من أعظم صفات المنافقين أنهم يتبعون الشبهات كما أخبر الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:٧](١).

١٤ - مجالسة العلماء والصالحين، ومطالعة سير السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان من العلماء الأبرار:

وقد كان السلف يخافون الله ﷻ، ويخشون أن لا تقبل منهم أعمالهم. قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر): قال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبًا. وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل . ويذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق. وما يحذر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥](٢).

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما هذا، والله أعلم؛ لأنهم طالت أعمارهم حتى رأوا من التغيير ما لم يعهدوه، ولم يقدروا على إنكاره، فخشوا على أنفسهم أن يكونوا فى حيز من داهن ونافق"(٣).

وخوفهم إنما كان من النفاق الأصغر لا الأكبر؛ لأنه لا يعقل أن يكون النفاق الذي خافه أولئك الصحابة هو إبطان الكفر؛ فإنهم يعلمون من أنفسهم أنهم لا يبطنون كفرًا، وقد زكاهم الله ﷻ وأثنى عليهم، فهم يعلمون براءتهم من هذا النفاق.

(١) انظر: خطورة الشبهات في عقبة: (اشتباه الحقيقة).
(٢) صحيح البخاري (١/ ١٨).
(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/١٠٩).

العقبة الخامسة

البدعة

أولًا: تعريف البدعة:

أ. البدعة لغة: كل عَمَل عُمِل على غير مثال سبق، يقال: أبدعت الشيء: اخترعته لا على مثال(١)، قال الخليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "البَدْع: إحداث شيء لم يكن له من قبل خلق ولا ذكر ولا معرفة"(٢).

البدعة والبِدْع معناهما في اللغة: الأمر الجديد الذي لم يكن معهودًا في الماضي، وقد قال الله ﷻ: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩]، أي: ما كنت أوَّل رسولٍ جاء بالوحي من عند الله تعالى، وتشريع الشرائع، بل أرسل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الرُّسل عليهم السلام قبلي مبشرين ومنذرين، فأنا على هداهم، فلا وجه لاستبعادكم رسالتي، واستنكاركم إياها.

والبدعة تطلق في الاستعمال اللغوي الشائع على الابتكار والإبداع الحسن المرضي، وتطلق على ما كان مذمومًا سيئًا، كمختلقات العرب التي اختلقوها وفيها: شرك ومعصية وفيها: جهالة.

ب. أما في الاصطلاح فقد تعددت تعريفات البدعة وتنوعت؛ لاختلاف أنظار العلماء في مفهومها ومدلولها(٣)، وقد صنفت في ذلك المصنفات والأبحاث الكثيرة قديمًا

---

(١) انظر: الكليات (ص:٢٢٦)، الاعتصام ، للشاطبي (ص:٤٩)، المطلع على ألفاظ المقنع (ص: ٤٠٦)، وانظر: مادة: (بدع) في (الصحاح)، للجوهري (١١٨٣/٣)، (لسان العرب) (٦/٨).

(٢) العين، مادة: (بدع) (٢/ ٥٤).

(٣) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٢١/٨) فما بعد. وقد اختلف أهل العلم في تعريف البدعة؛ لأن حديث العرباض بن سارية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يصلها بالشأن السياسي؛ لأنه ذكر طاعة الأئمة، وحذر من البدعة في مقابل ذلك، فارتبطت في أذهان كثير من الناس بالخروج على الأئمة. ولها إطلاق غير هذا مثل قول حسان بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

إن الذوائب من فـهر وإخوتهم ... قـد بينوا سـنَّة للنـاس تتَّبـع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإلـه وبالأمر الذي شرعوا
قومٌ إذا حـاربوا ضروا عدوهـم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيـهم غير محـدثة ... إن الخلائق فاعـلم شرُّها البـدعُ

ديوان حسان بن ثابت (ص:١٥٢)، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٤هـ].=

وحديثًا؛ ولذلك فإنَّ التوسع في ذلك، والنظر في التعريفات والتفريعات الفقهية إنما يكون في مظانه من كتب الفقه والأصول. وما يعنينا هنا: التنبيه إلى خطر الابتداع الذي يُعَدُّ عقبةً في طريق الهداية، وهو "التعبد لله ﷻ بغير ما شرعه من عقيدة أو قول أو فعل"[1].

فالبدعة الحقيقة[2] أن يحدث الإنسان حَدَثًا لم يأت به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقصد أن يتمم به الدين، وكأن في الدين نقصًا وهو جاء يجبر ذلك النقص، فيكون

=فهذا إطلاق لغوي، ولكنه جعلها في مقابل السنة، فيمكن أن يتلمس منه الاصطلاح، ومنذ ذلك الوقت أصبحت البدعة مقابلة للسنة، فعلى هذا تكون ضدًّا لها، والسنة تدخل في العقائد وفي السلوك والهَدِي وفي العبادة، وعليه تكون البدعة في مقابلها..وقد عرَّفها عدد من المتأخرين منهم الشاطبي في (الاعتصام) (ص:٥٠) بأنها طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وهذا على رأي من لا يدخل العادات في معنى البدعة، وإنما يخصها بالعبادات، وأما على رأي من أدخل الأعمال العادية في معنى البدعة، فيقول: البدعة: طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية اهـ. قوله: (طريقة في الدين) حصر للدين في جانب العقائد والعبادات، ويدخل مع ذلك جانب الخلق الذي هو من العبادات، وما عدا ذلك من المعاملات فلا يدخلها الابتداع إلا بالتبع كما في الطلاق البدعي؛ لأن في النكاح جانبًا تعبديًّا؛ فلذلك تدخل فيه البدعة، فطلاق الرجل امرأته في الحيض أو في طهر مسَّها فيه أو طلاقه لها ثلاثًا أو اثنتان في مجلس واحد، وفي مقابله طلاق السنة، وهو أن يطلقها طلقة واحدة في طهر لم يمسها فيه، وهذا الوحيد الذي يدخل في المعاملات من إطلاق البدعة. وقد صرَّح بأن العادات والمعاملات لا تدخلها البدع إلا من قبل التبع. وقول الشاطبي: (تضاهي الشرعية) يرجع إلى اعتقاد الإنسان الراجح بأن المراد قصد التعبد، والإنسان قد يخطئ فيفعل فعلًا يظن أنه تعبد لله ﷻ وليس كذلك، ولا يكون مبتدعًا. وكذلك فإن الذي يترجح أن من حصلت منه بدعة واحدة لا يكون مبتدعًا حتى تتكرر؛ لأن الوصف الذي يمكن تكراره لا يحصل إلا بمرتين أو ثلاثة على خلاف. أفاده الشيخ محمد الحسن الددو الشنقيطي مع بعض التصرف.

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح العثيمين (٢/ ٣٢٨).

(٢) قسَّم الشَّاطبي البدعة إلى قسمين: الأول: البدعة الحقيقية. والثاني: البدعة الإضافية. أما البدعة الحقيقية فهي التي لم يدل عليها دليل شرعي، لا من كتاب، ولا سُنَّة، ولا إجماع، ولا قياس، ولا استدلال معتبر عند أهل العلم، لا في الجملة، ولا في التفصيل. انظر: الاعتصام، للشاطبي (ص:٣٦٧). والبدعة الإضافية: أن الأمر يكون مشروعًا في الأصل، وتتناوله العموميات، وليس فيه إحداث عبادة جديدة، وقامت الأدلة على مشروعيته، ولكن الكيفية أو الهيئة التي يؤدى بها ليست مشروعة؛ لأنها لم تتخلص لأحد الطرفين المخالفة الصريحة، أو الموافقة الصريحة. انظر ذلك في (الاعتصام) (ص:٣٦٧- ٣٦٨)، اتباع لا ابتداع (٧٥-٧٧). فالبدعة الإضافية تخصص ما ورد في الشرع بكيفية أو هيئة أو زمان، ولم يرد ذلك في أصل=

مكذِّبًا لقول الله ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

ثانيًا: الابتداع عقبة في طريق الهداية:

إن البدع من المضلات عن الهداية، حيث يَضل المبتدع عن الحق، ويُضل غيره. وقد عدَّ ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (الابتداع) العقبة الثانية في طريق الهداية بعد الكفر بالله ﷻ؛ لعظم خطره. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العقبة الثانية: وهي عقبة البدعة، إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله ﷻ به رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنزل به كتابه، وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله ﷻ من الأوضاع والرسوم المحدثة في الدين، التي لا يقبل الله منها شيئًا، والبدعتان في الغالب متلازمتان، قل أن تنفك إحداهما عن الأخرى، كما قال بعضهم: تَزَوَّجَتْ بِدَعَةُ الأقوال ببدعة الأعمال، فاشتغل الزوجان بالعرس، فلم يَفْجَأْهُمْ إلا وأولاد الزنا يعيثون في بلاد الإسلام، تَضِجُّ منهم العباد والبلاد إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وقال شيخنا: تَزَوَّجَتْ الحقيقة الكافرة، بالبدعة الفاجرة، فتولد بينهما خسران الدنيا والآخرة.

فإن قطع هذه العقبة، وخلص منها بنور السُّنَّة، واعتصم منها بحقيقة المتابعة، وما مضى عليه السلف الأخيار، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهيهات أن تسمح الأعصار المتأخرة بواحد من هذا الضرب! فإن سمحت به نصب له أهلُ البدع الْحَبَائِل، وبغوه الغَوَائِل(١)، وقالوا: مبتدع محدث"(٢).

=النص. وهل يدخل هذا النوع في البدع المذمومة؟ خلاف بين العلماء؛ فالشاطبي وعدد كبير من أهل العلم يرون أنه داخل في عموم قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كل بدعة ضلالة). ويرى العز بن عبد السلام والقرافي رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ وعدد آخر من العلماء أنه لا يدخل. أفاده الشيخ محمد الحسن الددو الشنقيطي مع بعض التصرف. ولكل وجهة.

(١) "الغوائل: جمع غائلة، وهي الخصلة التي تغول، أي: تهلك في خفية". التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٥٤). و(الغوائل) الدواهي. و(بغى يبغي بغيًا): إذا تعدى وظلم.

(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٣٧- ٢٣٨).

قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فقد -والله- عم الفساد، وظهرت البدع، وخفيت السنن، وقل القوال بالحق، بل لو نطق العالم بصدق وإخلاص لعارضه عدة من علماء الوقت، ولمقتوه وجهلوه -فلا حول ولا قوة إلا بالله-"(١).

وقد جاء في باب التحريض على لزوم السنة، والترغيب في ذلك، والتحذير من البدعة، وبيان كونها من المضلات: عن العرباض بن سارية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: وعظنا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع؟ فماذا تعهد إلينا؟ فقال: ((**أوصيكم بالسمع والطاعة؛ فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**))(٢).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يقول في خطبته: ((**أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**))(٣).

ومن الأدلة كذلك على ذم البدع، وبيان أنها تُضِلُّ عن الحقِّ قوله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣]، قال بعض السلف في قوله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾، قال: السبل: البدع والشبهات ذكره مجاهد وغيره(٤).

---

(١) سير أعلام النبلاء (١١/١٠٢).

(٢) أخرجه أحمد [١٧١٤٥]، والدارمي [٩٦]، وابن ماجه [٤٣]، وأبو داود [٤٦٠٧]، والترمذي [٢٦٧٦] وقال: "حسن صحيح"، كما أخرجه البزار [٤٢٠١]، وابن حبان [٥]، والطبراني في (الكبير) [٦١٨]، والحاكم [٣٢٩]، وقال: "صحيح ليس له علة"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (السنن) [٢٠٣٣٨].

(٣) صحيح مسلم [٨٦٧].

(٤) انظر: تفسير مجاهد (ص:٣٣١)، تفسير الطبري (١٢/٢٢٩)، تفسير ابن أبي حاتم (٥/١٤٢٢)، زاد المسير (٢/٩٣)، تفسير القرطبي (٧/١٣٨)، ذم الكلام وأهله (٤/٣١٨)، الباعث على إنكار البدع والحوادث، لأبي شامة (ص:١١)، الاعتصام (ص:٧٧).

وفي الحديث: "خط رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطًّا، وخطَّ عن يمين ذلك الخط وعن شماله خطًّا، ثم قال: ((**هذا صراط ربك مستقيمًا، وهذه السبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**)) ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾"(١).

فتبين أن من أهم أسباب التفرق والاختلاف والضلال: الابتداع في الدين، والتعصب للأهواء المتباينة، وقد قال الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥]. روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن معنى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾، قال: هو الأهواء المختلفة(٢). وعلى هذا يكون معنى قوله ﷻ: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، أي: تكفير البعض للبعض حتى يتقاتلوا. وقيل: معنى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام:٦٥]: ما فيه إلباس من الاختلاف(٣).

قال القاضي رَحِمَهُ اللَّهُ(٤): "ظاهر القرآن يدل على أن كل من ابتدع في الدين بدعة من الخوارج وغيرهم؛ فهو داخل في هذه الآية؛ لأنهم إذا ابتدعوا تجادلوا وتخاصموا وتفرقوا وكانوا شيعًا"(٥).

---

(١) أخرجه الطيالسي [٢٤١]، وأحمد [٤١٤٢]، وعبد بن حميد [١١٤١]، والدارمي [٢٠٨]، وابن ماجه [١١]، والبزار [١٦٧٧]، والنسائي في (الكبرى) [١١١٠٩]، وابن حبان [٦]، والحاكم [٢٩٣٨]، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

(٢) قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أخرج ابن جرير [١٣٣٥٦]، وابن المنذر، وابن أبي حاتم [٧٤١٢] عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾، قال: يعني: من أمرائكم، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، يعني: سفلتكم، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾، يعني: بالشيع الأهواء المختلفة..". الدر المنثور (٣/٢٨٣). وقال الواحدي في (الوسيط) (٢/٢٨٤): "قال ابن عباس، ومجاهد، ومقاتل، والسدي: يبث فيكم الأهواء المختلفة فتصيرون فرقا يقاتل بعضكم بعضًا، ويخالف بعضكم بعضًا، وهو معنى قوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، أي: بالخلاف والقتال".

(٣) انظر: الاعتصام (ص:٨١-٨٢).

(٤) هو القاضي إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الجهضمي الأزدي، المتوفى سنة [٢٨٢هـ]. انظر: الأعلام (١/٣١٠). ومن كتبه: (أحكام القرآن)، وهو مطبوع في (دار ابن حزم).

(٥) الاعتصام (ص:٨١).

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال في تفسير قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران:١٠٥- ١٠٦]: "تبيض وجوه أهل السنة، وتسود وجوه أهل البدعة"(١).

وقد أوجز الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (مخاطر الابتداع في الدين) فقال: "وليعلم أن الإنسان المبتدع يقع في محاذير كثيرة:

منها: أن ما ابتدعه فهو ضلال بنص القرآن والسنة، وذلك أن ما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو الحق، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس:٣٢]، هذا دليل القرآن. ودليل السنة قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**كل بدعة ضلالة**))، ومعلوم أن المؤمن لا يختار أن يتبع طريق الضالين الذين يتبرأ منهم المصلي في كل صلاة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة:٦-٧].

ومنها: أن في البدعة خروجًا عن اتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يشرعها، فيكون خارجًا عن شرعة الله ﷻ فيما ابتدعه(٢).

ومنها: أن البدعة التي ابتدعها تنافي تحقيق شهادة: أن محمدًا رسول الله؛ لأن من حقق شهادة أن محمدًا رسول الله فإنه لا يخرج عن التعبد بما جاء به، بل يلتزم شريعته ولا يتجاوزها ولا يقصر عنها.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٧٢٩/٣). قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أخرجه ابن أبي حاتم وأبو نصر في (الإبانة) والخطيب في (تاريخه)، واللالكائي في (السنة)". الدر المنثور (٢٩١/٢)، وانظر: تفسير ابن كثير (٧٩/٢)، الكشف والبيان (١٢٤/٣)، تفسير البغوي (٤٨٩/١)، الخازن (٢٨٢/١)، زاد المسير (٣١٣/١).

(٢) والمحبة تقتضي الاتباع وليس الإحداث والابتداع كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران:٣١-٣٢].

ومنها: أن مضمون البدعة: الطعن في الإسلام؛ فإن الذي يبتدع تتضمن بدعته أن الإسلام لم يكمل، وأنه كمَّل الإسلام بهذه البدعة، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، فأين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم أين الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن هذه العبادة التي ابتدعها؟ أهم في جهل منها؟ أم في تقصير عنها؟

ومنها: أن الابتداع يتضمن الطعن في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن هذه البدعة التي زعمت أنها عبادة إما أن يكون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يعلم بها، وحينئذ يكون جاهلًا، وإما أن يكون قد علم بها ولكنه كتمها، وحينئذ يكون كاتمًا للرسالة أو بعضها، وهذا خطير جدًّا.

وقد ذكر الشَّاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في (الاعتصام) عن ابن الماجشون قال: سمعت مالكًا رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: مَنْ ابتدعَ في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أنَّ محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خان الرِّسالة؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، فما لم يكن يومئذ دينًا فلا يكون اليوم دينًا"[(١)].

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كل عبادة لم يتعبد بها أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا تتعبدوا بها؛ فإن الأول لم يدع للآخر مقالًا[(٢)].

وقال أبو عثمان النيسابوري رَحِمَهُ اللَّهُ: "من أَمَّرَ السُّنَّةَ على نفسه قولًا وفعلًا نَطَقَ بالحكمة، ومن أَمَّرَ الهوى على نفسه قولًا وفعلًا نَطَقَ بالبدعة، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور:٥٤]"[(٣)].

وقال سهل بن عبد الله التستري رَحِمَهُ اللَّهُ: "ما أحدثَ أحدٌ في العلم شيئًا إلَّا سُئل عنه يوم القيامة، فإن وافق السُّنَّة سَلِم، وإلَّا فلا"[(٤)].

---

(١) الاعتصام (ص:٦٤- ٦٥).

(٢) انظر: الاعتصام (ص:٦٣٠)، الحوادث والبدع (ص:١٤٩)، حقيقه السنة والبدعة (ص:٧٧).

(٣) انظر: حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني (١٣/٢٤٤)، الاعتصام، للشاطبي (ص:١٢٨)، شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي (ص:٥٠٤).

(٤) فتح الباري، لابن حجر (١٣/٢٩٠).

وروي عن محمد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: إنَّ قومًا تركوا طلب العلم، ومجالسة العلماء، وأخذوا في الصلاة والصيام حتى يبس جلد أحدهم على عظمه، ثم خالفوا السنة فهلكوا، وسفكوا دماء المسلمين، فوالذي لا إله غيره ما عمل أحد عملًا على جهل إلا كان يفسد أكثر مما يصلح(1).

ومنها: أن البدعة تتضمن تفريق الأمة الإسلامية؛ لأن الأمة الإسلامية إذا فتح الباب لها في البدع صار هذا يبتدع شيئًا، وهذا يبتدع شيئًا، وهذا يبتدع شيئًا، كما هو الواقع الآن، فتكون الأمة الإسلامية كل حزب منها بما لديه فرح، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣٢]، كل حزب يقول الحق معي، والضلال مع الآخر، وقد قال الله تعالى لنبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٩]، فإذا صار الناس يبتدعون تفرقوا، وصار كل واحد يقول: الحق معي، وفلان ضال مقصر، ويرميه بالكذب والبهتان وسوء القصد، وما أشبه ذلك.

ومنها: أن البدعة إذا انتشرت في الأمة اضمحلت السنة؛ ولهذا قال بعض السلف: ما ابتدع قوم بدعة إلا أضاعوا من السنة مثلها أو أشد.

ومنها: أن المبتدع لا يحكم الكتاب والسنة؛ وإنما يحكم هواه"(2).

ومن مخاطر ومفاسد الابتداع: أن المبتدعة لا يقتصر ضلالهم على أنفسهم، وإنما يشيعونه بين الناس، ويدعون إليه قولًا وعملًا، فيتحملون إثمهم وآثام من عمل بهذه البدعة إلى يوم القيامة دون أن ينقص من آثام المتبعين لهم شيئًا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥].

فكم أساء المبتدعة إلى صورة الإسلام؟! وقد تلقفت ذلك وسائل الإعلام، التي تعمل في دأب وعناء على توجيه سهامها إلى الإسلام، وهي تعكس ما آل إليه واقعنا المعاصر من الجهل والتخلف، حتى يظن من لا يعرف حقيقة الإسلام أنه مجموعة من

(١) الاستذكار، لابن عبد البر (٨/٦١٦).

(٢) بتصرف عن (شرح رياض الصالحين)، محمد بن صالح العثيمين (٢/٣٢٨ -٣٣١).

الخرافات والطقوس الفارغة، فينصرف الناس عنه، بل ويحاربونه. وذلك بسبب أن الجهال أو غير المتأهلين قد أدخلوا في هذا الدين ما ليس منه، أو حرفوا المفاهيم عن مقاصدها.

ولكونها -أي: البدع- من المضلات، ولعظم أثرها فإنها أحب إلى الشيطان من الفسوق والمعاصي؛ لأن ضررها في الدين؛ ولهذا قال بعض السلف: "البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأنَّ المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها"(١).

فعقبة البدعة أحب إلى الشيطان من الفسوق والمعاصي الأخرى؛ "لمناقضتها الدين، ودفعها لما بعث الله ﷻ به رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصاحبها لا يتوب منها، ولا يرجع عنها، بل يدعو الخلق إليها، ولتضمنها: القول على الله ﷻ بلا علم، ومعاداة صريح السنة، ومعاداة أهلها، والاجتهاد على إطفاء نور السنة، وتولية من عزله الله ورسوله، وعزل من ولاه الله ورسوله، واعتبار ما رده الله ورسوله، ورد ما اعتبره، وموالاة من عاداه، ومعاداة من والاه، وإثبات ما نفاه، ونفي ما أثبته، وتكذيب الصادق، وتصديق الكاذب، ومعارضة الحق بالباطل، وقلب الحقائق بجعل الحق باطلًا، والباطل حقًّا، والإلحاد في دين الله ﷻ، وتعمية الحق على القلوب، وطلب العوج لصراط الله المستقيم، وفتح باب تبديل الدين جملة؛ فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها، حتى ينسلخ صاحبها من الدين، كما تنسل الشعرة من العجين، فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر، والعميان ضالون في ظلمة العمى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠]"(٢).

ولكن هل يصح إطلاق القول بأن البدع شرٌّ من المعصية؟ الجواب أن البدعة من المعصية، فهي قسم من أقسام المعصية، والمعاصي تشمل الشرك، ومنها: الكبائر الموبقات والبدع، ومنها: صغائر، ومنها: ما هو محل خلاف.

---

(١) انظر: مدارج السالكين (١/٣٣٢)، الجواب الكافي (ص:١٤٥)، ذم الكلام وأهله (٥/١٢١)، الحجة في بيان المحجة (٢/٤٠٧)، شرح السنة، للبغوي (١/ ٢١٦)، شعب الإيمان [٩٠٠٩]. وسيأتيك الحديث عن توبة المبتدع.

(٢) مدارج السالكين (١/٢٣٨).

فالقول بأن البدعة شرٌّ من المعصية ليس على إطلاقه، وإنما يقصد منه أن البدعة المكفرة شر من المعصية التي لا تكفر، فأقوال أهل العلم تحمل على هذا، ويحمل متشابهها على محكمها.

والبدع المكفرة قطعًا شرٌّ من البدع التي لا تكفر، لكن المعاصي المكفرة أو كبائر المعاصي أكبر بكثير من البدع غير المكفرة، وشرٌّ منها.

وقد ورد في الابتداع والإحداث والتبديل: الوعيد الشديد؛ ففي الحديث: ((**لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ ناس من أصحابي الحوض، حتى عرفتهم اخْتُلِجُوا دوني، فأقول: أصحابي، فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك**))(١). وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة**))(٢).

وعن يحيى بن أبي عمرو الشيباني، قال: كان يقال: يأبى الله لصاحب بدعة بتوبة، وما انتقل صاحب بدعة؛ إلَّا إلى أشر منها(٣).

"ومعنى ذلك: أن الإنسان إذا كان مبتدعًا فقد يستمر على بدعته إلى أن يموت عليها، ولا تحصل له التوبة؛ لأنه يظن نفسه على حق، وأما إذا كان صاحب معصية ويعرف أن هذا ذنب، وأنه عاص لله ﷻ فيه فهذا هو الذي يرجى له التوبة؛ لأنه يشعر بالخطأ، ويشعر بالتقصير، وأما ذاك فإنه لا يشعر بالتقصير، بل يظن أنه على حق، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر:٨]، فهو يبقى على باطله. فإذا كان لديه علم ومعرفة فإنه يكون أشد ضررًا على نفسه وعلى غيره، أما على نفسه

(١) صحيح البخاري [٦٥٨٢، ٧٠٤٩]، مسلم [٢٣٠٤]. و(اختلجوا) بالخاء المعجمة والجيم، أي: جذبوا، من الخلج وهو النزع والجذب.

(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه في (مسنده) [٣٩٨]، وابن أبي عاصم في (السنة) [٣٧]، والطبراني في (الأوسط) [٤٢٠٢]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٠١١]. قال الهيثمي في (المجمع) (١٠/١٨٩): "رواه الطبراني في (الأوسط)، ورجاله رجال الصحيح غير هارون بن موسى الفروي، وهو ثقة". قال المنذري: "رواه الطبراني، وإسناده حسن" الترغيب والترهيب [٨٧].

(٣) انظر: الاعتصام (ص:١٦٢).

فبابتعاده عن التوبة، وأنه قد يموت على بدعته، وأما على غيره فباغترار الناس به؛ فإنهم يظنون أن مقالته تلك قالها بناء على علم"(١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومعنى قولهم: (إن البدعة لا يتاب منها): أن المبتدع الذي يتخذ دينًا لم يشرعه الله ﷻ، ولا رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قد زين له سوء عمله فرآه حسنًا، فهو لا يتوب ما دام يراه حسنًا؛ لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيءٌ؛ ليتوب منه، أو بأنه ترك حسنًا مأمورًا به أمر إيجاب أو استحباب؛ ليتوب ويفعله. فما دام يرى فعله حسنًا وهو سيء في نفس الأمر فإنه لا يتوب. ولكن التوبة منه ممكنة وواقعة بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق كما هدى سبحانه وتعالى من هدى من الكفار والمنافقين وطوائف من أهل البدع والضلال.."(٢).

فيرى أن الغالب في كثير من المبتدعة أنهم يتعصبون لآرائهم، وليس معنى ذلك أن الله ﷻ لا يقبل توبتهم إن تابوا، فقد تقوم الحجة على المبتدع فيهتدي ويتوب. ويقصد من كلام الشيباني أن التجاسر على الله تعالى يقطع في الغالب الحبل فلا يُهتدى للتوبة، وهذا حال كثير من أصحاب المعاصي.

ومن كان مبتدعًا، داعيًا إلى بدعته، مظهرًا لها، فلا يجالس وقت بدعته ودعوته، ولا يسمع منه إلا إذا كان في حال الذِّكرى والمناقشة والمناورة والبحث عن الحقِّ؛ لأن مجالسته –والحالة هذه– بمثابة التشريع له، كما قال الله ﷻ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨].

(١) من كلام الشيخ عبد المحسن العباد البدر من شرحه للأربعين النووية.

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/١٠)، التحفة العراقية (ص:٣٨)، أمراض القلب (ص:٣٨).

فقوله تعالى: ﴿بَعْدَ الذِّكْرَى﴾، أي: بعد أن تذكر النهي. "فتعم الآية كل ظالم، فلا تجوز لأحد مجالستهم مع ترك النكير عليهم، ولا يكفي أن ينكر ويجلس؛ لأنه يكون ببقائه معهم قد أظهر ما يدل على الرضا بفعلهم، ونقض بالفعل إنكاره عليهم بالقول"(١).

ثالثًا: الوقاية من آفة الابتداع والعلاج:

وتكون الوقاية من آفة الابتداع بالرد إلى كتاب الله ﷻ، وسنة رسوله ﷺ، وإحياء السنن، وإماتة البدع، ولا يكون ذلك إلا بالرجوع إلى العلماء الراسخين، والبناء على أساس سليم، والتصدي للمبتدعة بالعلم الصحيح، والرأي السديد، والتوجيه والإرشاد.

وقد أمر الله ﷻ عند الاختلاف بالرد إلى كتابه وسنة رسوله ﷺ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣].

قال أبو شامة رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال إمامنا أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب: (الرسالة)، يعني: -والله أعلم-: إلى ما قال الله ﷻ والرسول ﷺ. وروينا عن أبي عبد الله ميمون بن مهران الحرومي -وهو من فقهاء التابعين- قال في هذه الآية: الرد إلى الله ﷻ، الرد إلى كتابه، والرد إلى رسوله ﷺ، إذا قبض إلى سنته(٢).

فالرد إلى كتاب الله ﷻ، والتمسك بسنة رسوله ﷺ هو السبيل الحق، وما سواه مائل عن الحق، وصاد عن الهداية، كما قال سبحانه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ

(١) تفسير ابن باديس (ص:٢٣١).

(٢) الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص:١١)، الرسالة، للإمام الشافعي (ص:٧٩).

وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ﴾ [النحل:٩]، فالسبيل القصد هو طريق الحق، وما سواه جائر عن الحق، أي: منحرف عنه إلى طرق البدع والضلالات والمعاصي[(١)].

وفي الحديث: ((**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه، فهو رد**))[(٢)]. وفي رواية: ((**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**))[(٣)]. "وهذه الرواية عند مسلم أعم من الرواية الأخرى؛ لأنها تشمل من أحدث البدعة ومن تابع من أحدثها، وهو دليل على أحد شرطي قبول العمل، وهو اتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن كل عمل يتقرب به إلى الله ﷻ لا يكون مقبولًا عند الله إلا إذا توفر فيه شرطان: أحدهما: تجريد الإخلاص لله وحده، وهو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله.

والثاني: تجريد المتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو مقتضى شهادة أن محمدًا رسول الله"[(٤)].

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك:٢]: أي: أخلصه وأصوبه، والخالص: إذا كان لله ﷻ، والصَّواب: إذا كان على السنَّة[(٥)].

"فإن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله ﷻ، والصواب: أن يكون على السنة"[(٦)]. وذلك تحقيق قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا

---

(١) انظر: الاعتصام (ص:٧٨)، فتح البيان في مقاصد القرآن، محمد صديق خان (٢١٤/٧).

(٢) صحيح البخاري [٢٦٩٧]، مسلم [١٧١٨].

(٣) صحيح مسلم [١٧١٨].

(٤) الحث على اتباع السنة والتحذير من البدع وبيان خطرها، عبد المحسن العباد البدر (ص:٢٦).

(٥) انظر: تفسير الثعلبي (الكشف والبيان) (٣٥٦/٩)، الكشاف (٥٧٥/٤)، تفسير النسفي (٥١٠/٣-٥١١)، تفسير البغوي (١٢٤/٥- ١٢٥)، الخازن (٣١٨/٤)، السراج المنير، للخطيب الشربيني (٣٣٨/٤)، جامع العلوم والحكم، لابن رجب (٧٢/١)، اقتضاء الصراط (٢/ ٣٧٣)، الاستقامة (٢٤٩/١)، مجموع الفتاوى (٣٣٣/١). وقد ذكره أبو نعيم في (الحلية) (٩٥/٨) عن إبراهيم بن الأشعث أنه سمع الفضيل يقول ذلك.

(٦) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (٧٢/١).

صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠][(١)]. قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾، أي: ما كان موافقًا لشرع الله تعالى، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، وهو الذي يراد به وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصًا لله تعالى، صوابًا على شريعة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[(٢)].

فلا يزال أهل الحق والعدل متمسكين بكتاب الله ﷻ، وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يضرهم من خالفهم كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، فجعل أهل الحق مستثنين من الاختلاف.

وفي الحديث: ((**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**))[(٣)].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون، وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**))[(٤)].

"ومن اتباع سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسنة خلفائه الراشدين: إنكار المنكر، وإحياء السنن، وإماتة البدع، ففي ذلك أفضل أجر وأجمل ذكر"[(٥)].

وتكون الوقاية من هذا الداء والمرض بالتنوير والتبصير بآفاته وأخطاره على الفرد والمجتمع، وسن قوانين رادعة لمن يروج له؛ لما يترتب على ذلك من الإخلال بالأمن، والصدِّ عن الدين.

(١) مجموع الفتاوى (٣٣٣/١).

(٢) تفسير ابن كثير (٢٠٥/٥)، الحث على اتباع السنة والتحذير من البدع وبيان خطرها، عبد المحسن العباد البدر (ص:٢٦-٢٧).

(٣) صحيح البخاري [٧١، ٣١١٦، ٣٦٤١، ٧٤٦٠]، مسلم [١٩٢٠، ١٩٢٤].

(٤) صحيح مسلم [٥٠].

(٥) الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص:١٧).

وينبغي تسخير وسائل الإعلام، والمناهج التربوية؛ لبناء الأجيال بناء سليمًا.

"والمبتدعة إنما يكثرون ويظهرون، إذا قلّ العلم، وفشا الجهل. وفيهم يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن هذا الصنف يكثرون ويظهرون إذا كثرت الجاهلية وأهلها، ولم يكن هناك من أهل العلم بالنبوة والمتابعة لها من يظهر أنوارها الماحية لظلمة الضلال، ويكشف ما في خلافها من الإفك والشرك والمحال اهـ(١). فإذا اشتد ساعدك في العلم، فاقمع المبتدع وبدعته بلسان الحجة والبيان"(٢).

قال شيخنا إسماعيل المجذوب حفظه الله: "من أسباب العافية في ديننا وآخرتنا أن نحذر من البدع، ونرغب في الابتعاد عنها"(٣).

"إن الناظر في أدلة الشرع يدرك أن المحدثات ليست على درجة واحدة، فبعضها محرم، وبعضها مكروه. كما أن بعض المحدثات لا حرج على المسلم فيها؛ لدخولها تحت قواعد المباح، أو تحت مسمى: البدعة اللغوية(٤).

---

(١) منهاج السنة النبوية (١/٦).

(٢) حلية طالب العلم (ص:١٧١).

(٣) صفحات مضيئة في التصور والسلوك الديني، فضيلة الشيخ إسماعيل المجذوب (ص:١١٣).

(٤) ذكر جمع من العلماء أن من (البدعة اللغوية) ما أخرجه البخاري في (صحيحه) [٢٠١٠] عن عبد الرحمن بن عبد القاري، أنه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ليلة في رمضان إلى المسجد، فإذا الناس أوزاع متفرقون، يصلي الرجل لنفسه، ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط، فقال عمر: (إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد، لكان أمثل) ثم عزم، فجمعهم على أبي بن كعب، ثم خرجت معه ليلة أخرى، والناس يصلون بصلاة قارئهم، قال عمر: (نعم البدعة هذه، والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون) يريد آخر الليل، وكان الناس يقومون أوله. قال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قول عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في التراويح: (نعمت البدعة هي) أراد البدعة اللغوية، وهو ما فعل على غير مثال كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩]، وليست بدعة شرعًا؛ فإن البدعة الشرعية ضلالة كما قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ". الفتاوى الحديثية (ص:٢٠٠). وتبعه في ذلك جمع من العلماء؛ واستدلوا بما جاء في الحثِّ على قيام رمضان، وبأن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صلى بالناس بعض الليالي في آخر الشهر، ولكنه ترك ذلك خشية أن تفرض عليهم، ولما توفي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وزال هذا الذي يخشى، ولم يعد هناك إيجاب ولا تشريع؛ لأن الشريعة استقرت بوفاة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جمع عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الناس على إمام واحد، وصلى الناس التراويح جماعة. فصلاة التراويح ليست محدثة في الدين، بل هي موجودة في الدين؛ لأن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صلى بالناس قيام رمضان في بعض الليالي، ولكنه ترك ذلك خشية أن يفرض=

ويدرك أيضًا أن بعض المحدثات تتفق في حكمه أنظار أهل العلم، وتختلف في بعضها. فيجب أن يكون موقف المسلم من تلك المحدثات مبنيًا على الأسس العلمية التي يعين على تحصيلها الرجوع إلى كلام الراسخين في العلم الذين يجب رد الأمر إليهم عندما تلتبس الأمور على غيرهم"(١).

"إن من التقوى: أن ينتبه أكثر المتكلمين والكاتبين في شأن البدعة الحسنة والبدعة السيئة، وأن لا يتسرعوا، وأن يرجعوا في ذلك إلى أسس العلم، وإلى ما يراه الراسخون في العلم؛ لأن معظم مسائل البدعة تدخل في مسائل الاجتهاد التي لا يسهل على غير العلماء التكلم فيها.

وقد نتج عن التكلم فيها من غير المتأهلين: الوقوع في الإثم بسبب إفتائهم بغير علم، حيث يُقِرُّ أحدهم ما لا يصح إقراره، وينكر بعضهم ما ليس منكرًا في ميزان أهل البصائر.

ونتج بالإضافة إلى الإثم آثارٌ من الصراع والخلاف غير المنضبط بالأسس والآداب الشرعية، مما أدى إلى عداوات وخصومات لا يرضى الله تعالى بها.

والمسلم كما يُسأل عن أقواله وأفعاله يُسأل أيضًا عن الآثار التي تتركها آراؤه وأقواله وأفعاله، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس:١٢]"(٢).

=عليهم، وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحيا ذلك وأعاده، فإطلاق البدعة عليه من حيث اللغة، وليس من حيث الشرع؛ لأن له أساسًا في الشرع من فعل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو خليفة راشد، وقد أمرنا باتباع سنته، فهي سنة نبوية وثابتة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنما أظهرها، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يستمر عليها خشية أن تفرض كما بين ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. بتصرف عن (شرح الأربعين النووية)، للشيخ عبد المحسن العباد البدر.

(١) صفحات مضيئة في التصور والسلوك الديني (ص:١١٣).

(٢) المصدر السابق (ص:١١٤-١١٥).

العقبة السادسة

اتباع الهوى

أولًا: تعريف الهوى:

الهوى: ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع[(١)].

وقيل: "نزوع النَّفس لسفل شهواتها؛ لباعث انبساطها، ويكون ذلك في مقابلة معتلى الروح"[(٢)].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه"[(٣)].

وقيل: "الهوى: ميل النفس إلى ما تحبه أو تحب أن تفعله دون أن يقتضيه العقل السليم الحكيم؛ ولذلك يختلف الناس في الهوى ولا يختلفون في الحق، وقد يحب المرء الحق والصواب. فالمراد بالهوى إذا أطلق أنه الهوى المجرد عن الدليل"[(٤)]. فأصل الهوى: الميل، سمي بذلك؛ لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية؛ ولذلك لا يستعمل غالبًا إلا فيما لا خير فيه[(٥)].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلًا -وإن كانت سببًا للألم والأذى في العاجل ومنع لذات في الآجل-، فأما العاقل فإنه ينهى نفسه عن لذة تُعَقِّبُ ألما، وشهوة تورث ندمًا، وكفى بهذا القدر مدحًا للعقل وذمًّا للهوى..ألا ترى أنَّ الطفل يؤثر ما يهوى -وإن أداه إلى التلف-، فَيَفْضُلُ العاقل عليه بمنع نفسه من ذلك، وقد يقع التساوي بينهما في الميل بالهوى.

---

(١) انظر: التعريفات، للجرجاني (ص:٢٥٧)، التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي (ص:٣٤٤)، الكليات، لأبي البقاء الكفوي (ص:٩٦٢)، دستور العلماء (٣/٣٣١)، وبصائر ذوي التمييز، مادة: (هوي) (٥/٣٥٩)، كشف الأسرار على أصول البزدوي (١/٧)، قواعد الفقه، محمد عميم الإحسان البركتي (ص:٥٥٣). وقيل: "ميل النفس إلى ما تهوى من غير تقييد بالشريعة" انظر: البحر المديد (٧/٢٣٣).

(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي (ص:٣٤٤).

(٣) ذم الهوى، لابن الجوزي (ص:١٢).

(٤) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/ ٩٣).

(٥) انظر: تفسير الثعلبي (٨/٣٦٢)، الدر المصون (١/٤٩٩)، المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص:٨٤٩)، تفسير الرازي (١٢/٤١١)، تفسير القرطبي (٢/٢٥)، (١٦/١٦٧- ١٦٨)، ابن عادل (٢/٢٦٧)، (٧/٤٦٧)، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن القيم (١/٢٢).

وبهذا القدر فُضِّلَ الآدمي على البهائم -أعني: مَلَكَةَ الإرادة-؛ لأنَّ البهائم واقفة مع طباعها، لا نظر لها إلى عاقبة، ولا فكر في مآل، فهي تتناول ما يدعوها إليه الطبع من الغذاء إذا حضر، وتفعل ما تحتاج إليه من الروث والبول أيَّ وقت اتفق، والآدمي يمتنع عن ذلك بقهر عقله لطبعه"(١).

ثانيًا: المفاسد المترتبة على اتباع الهوى:

١ - اتباع الهوى مفسدٌ للقلب وصادٌّ عن الهداية:

إنَّ هناكَ من العلل ما يصيبُ القلوب، كما أنَّ هناك عللًا تصيبُ البدن. وإنَّ من أشدِّ الأمراض التي تصيب القلوب، وتكون حائلًا دون الهداية: (اتباع الهوى).

وقد جاء النهي عن اتباع الهوى؛ لكونه يضل صاحبه، ويكون سببًا في إضلال غيره، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧].

وقد نهى الله ﷻ عن اتباع من ضل بسبب اتباعه للهوى، وكان غافلًا عن طاعة الله ﷻ، وعن المآل في الآخرة، فقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:٤٩]، ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه:١٦]، ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]، ويقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى:١٥].

---

(١) ذم الهوى، لابن الجوزي (ص:١٢-١٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإذا أراد العبد أن يقتديَ برجل فلينظر هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة كان أمره فرطًا"(١).

إنَّ اتباع الهوى سبب للإعراض وتكذيب الآيات البينة، والحجج الظاهرة، والمواعظ الزاجرة كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القمر:٢-٣].

وقد حذَّرنا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من اتباع الهوى، وأوضح أنه من المضلات عن الهداية، حيث قال: فقال: ((**إن مما أخشى عليكم: شهوات الغيِّ في بطونكم وفروجكم، ومضلات الهوى**))(٢).

وفي رواية: ((**ومضلات الفتن**))(٣).

وفي المقابل فإنَّ مخالفة الهوى سبيل الفلاح كما قال الله ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ۝﴾ [النازعات:٤٠-٤١].

وربما يكون اتباعُ الهوى موافقًا لما أدى إليه العلم بصحيح الفكر، وصريح العقل، ولكنه في الغالب مضلٌ ومختلط؛ ولذلك جاء التَّحذير من الاقتداء بأصحاب الأهواء ومتابعتهم حيث قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام:١١٩]، أي: يضلون فيحرِّمون ويحللون بأهوائهم وشهواتهم، من غير تعلق بشريعة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾، أي: المتجاوزين لحدود الحقِّ إلى الباطل، والحلال إلى الحرام.

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص:٤١).

(٢) أخرجه أحمد [١٩٧٧٣]، والبزار [٣٨٤٤]، والطبراني في (الصغير) [٥١١]. قال المنذري (٣/١٠١): "بعض أسانيدهم رجاله ثقات". وقال الهيثمي (١/١٨٨): "رجاله رجال الصحيح؛ لأن أبا الحكم البناني الراوي عن أبي برزة بينه الطبراني فقال: عن أبي الحكم هو الحارث بن الحكم، وقد روى له البخاري وأصحاب السنن". كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٢/٣٢)، والبيهقي في (الزهد الكبير) [٣٧١].

(٣) أخرجه أحمد [١٩٧٧٢]. قال الهيثمي (٧/ ٣٠٥-٣٠٦): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح".

وقد نهى الحقُّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى عن اتِّباع أهلِ الأهواء فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٠]، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية:١٨]. فهذه الآيات نص في التحذير من اتباع أهل الأهواء.

وقد بين الحقُّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أنَّ اتباع الهوى مرضٌ سببه الركونُ إلى الدنيا، والغفلةُ عن الآخرة، والانشغال بما يفنى، وإيثاره على ما يبقى، قال الله ﷻ: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠]. قال القرطبي رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ: قوله ﷻ: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾، "أي: وكلهم إلى أنفسهم، وجمع عليهم هموم الدنيا، فلم يتفرغوا من ذلك إلى اهتمام بالدين"(١).

إنَّ الهوى إلهٌ يعبدُ من دون الله ﷻ، وما ترك الطريق المستقيم من تركه إلَّا لأنه قد اتبع هواه.

ويتصور بعض الناس أنَّ الإيمان بالله ﷻ وما يقتضيه هذا الإيمانُ من التزامٍ بالدين إنما هو تكبيلٌ للنفس، وتقييدٌ لها، وأنَّ الناس وجدوا ليكونوا أحرارًا، ولينطلقوا في الحياة على طبيعتهم، فيشبعوا رغباتهم وأهوائهم، فهل سدَّ الدينُ منافذَ الحرية أمام الإنسان المكلف؟!

والجواب أنَّ العقل البشري لا يمكن أن يخلو من الشَّيء وضدِّه أو ما يقابله، فإذا خلا من الإيمان بالله ﷻ اشتغل تلقائيًّا بالإيمان بسواه، سيؤمن بهواه فيتبعه على نحو بهيميٍّ ليس له ضابط، يقول الله ﷻ: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣]، وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣]. سيؤمن –مثلًا– بالمال فيجري لاهثًا خلفه، طالبًا للزيادة، فلا يؤدي حقًّا، ولا يبالي من أي مصدر حصل عليه.. سيؤمن باللذة فيشرب ويزني ويفسق

(١) تفسير القرطبي (١/١٩٧).

ويتحلل، فتضيع شخصيته، ويصبح مصدرَ خطرٍ على مجتمعه. يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**تعس عبد الدينار، والدرهم، والقطيفة، والخميصة**))[1].

والقرآن يشير إلى هذا المعنى في قوله ﷻ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس:٣٢]، أي: أنَّه لا فراغ، ولا يمكن أن يرتفع النقيضان. إما إيمان بالله ﷻ أو إيمان بسواه. وقد قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**))[2]. ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في (النونية):

هربوا من الرّق الذي خلقوا له ... فبلوا برقّ النّفس والشّيطان
لا ترض ما اختاروه هم لنفوسهم ... فقد ارتضوا بالذل والحرمان
لو ساوت الدنيا جناح بعوضة ... لم يسق منها الرب ذا الكفران[3]

إنَّ الإنسان إن لم يكن مستجيبًا لله ﷻ ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو متبعٌ للهوى، وليس هناك منزلة بين المنزلتين، ولا طريقٌ بين الطريقين. فإمَّا أن تتبعَ الحقَّ، أو تتبعَ الهوى، فقد جعل الله ﷻ الخطأ واتباع الهوى قرينين، وجعل الصواب ومخالفة الهوى قرينين.

وأحد الأمرين يرفع صاحبه، والآخر يهوي به -كما قال الله ﷻ:- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف:١٧٦].

إنَّ اتباع الهوى يتناقض مع سلوك طريق الحق والعدل؛ فإن أساس العدل: اتباع الحق، وهو سببٌ لمحبة الله ﷻ؛ فإنه سبحانه يحبُّ المقسطين. وفي المقابل فإنَّ اتباع الهوى سببٌ للضلال عن سبيل الله ﷻ، والضلالُ سببٌ في العذاب الشديد يوم القيامة. يقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦]، وقال الله ﷻ: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء:١٣٥].

---

(١) صحيح البخاري [٢٨٨٦، ٢٨٨٧].
(٢) صحيح مسلم [٥٥٦].
(٣) متن القصيدة النونية (ص:٣٠٨).

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فاتباع الهوى يحمل على الشهادة بغير الحق، وعلى الجور في الحكم، إلى غير ذلك"(١).

إنَّ اتباع الهوى مفسدٌ للقلب، وصادٌّ عن الهداية والحقِّ، ومورِّثٌ لقبيح الأخلاق.

قال الإمام الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما الهوى فهو عن الخير صَادٌّ، وللعقل مُضَادٌّ؛ لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها، ويظهر من الأفعال فضائحها، ويجعل ستر المروءة مهتوكًا، ومدخل الشَّر مسلوكًا"(٢).

إنَّ اتباع الهوى داءٌ عظيم، وشرُّ داءٍ خالط القلب، وأقبحُ صفةٍ ظهرت على السلوك، إذا تمكَّن من المرء أذهب عقلَهُ، فلا يعرف من الموازين العقلية، والضوابط الفكريةِ إلَّا ما وافق هواه، فلا يُبْصِرُ بعينيه إلَّا ما يهوى، ولا يسمعُ بأذنيه إلَّا ما يحب، فيُعميه الهوى عن استبصارِ الحق، والنظرِ في العواقب، ويُصِمُّهُ عن سماع الخير، والإذعانِ للحقِّ.

ومتى ملأ قلبَهُ الهوى، فملكَ جوارحَهُ قلَّ حياؤه من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فأقحم نفسه في معاصيه، فلا يُميِّزُ بين حلالٍ أو حرام، ولا يفرِّقُ بين حقٍّ أو باطل. وكثرتْ مع ذلك جُرْأتُهُ مع عباد الله ﷻ، فلا يبالي بأعراض النَّاس وحقوقهم، فيطعنُ في هذا، ويشتمُ هذا، ويأكلُ مال هذا، وينطلقُ في الحياة كالمسعور لا يلوي على شيء إلَّا ما كان منفعةً له، بإكثار ماله، أو راحة نفسه. فأما دينُ الله تعالى، وحدودُهُ، ومحارمُهُ فآخرُ ما يفكِّرُ فيه، وأما حقوقُ الناس، وأعراضُهُم، وحرماتُهُم، فلا يكترث لها، ولا تخطُرُ له ببال، فلا حقًّا اتبع، ولا باطلًا اجتنب، ولا خيرًا فعل، ولا شرًّا ترك، ولا معروفًا أسْدى، ولا منكرًا أنكر. وإنَّ من أشدِّ أنواع الاستبداد: استبدادَ الهوى على العقل، والجهل على العلم.

واتباع الهوى من أمراض القلوب، ومفسدات الأعمال، وما خالط الهوى شيئًا إلَّا أفسده، فإذا خالط العلمَ أخرجه من الاتباع إلى الابتداع والضلالة، وصار صاحبه من أهل الأهواء، وإن وقع في العبادة أخرجها إلى الرياء ومخالفة السنة، وإن وقع في الحكم

---

(١) تفسير القرطبي (٥/٤١٣).

(٢) أدب الدنيا والدين (ص:٢٩).

أخرجه إلى الظلم والجور والصدِّ عن سبيل الله ﷻ..إلى غير ذلك. فإن اتبعتَ الحق أوصلك إلى الجنة، وإن اتبعت الهوى أوصلك إلى النار.

٢ - المعاصي والكفر:

إنما تنشأ المعاصي من تقديم هوى النفس على محبَّة الله ﷻ ورسوله ﷺ، وقد يؤول ذلك إلى الانحراف التام، والكفر البواح.

٣ - الفساد العظيم والبلاء العام:

إنَّ اتباع الهوى يؤدي إلى فسادٍ عظيم، وبلاءٍ عام، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١].

"قال مجاهد، وأبو صالح والسدي: الحق هو الله ﷻ، والمراد: لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك، ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾، أي: لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبر عنهم في قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، ثم قال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣١- ٣٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء:١٠٠]، وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء:٥٣]. ففي هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، وتدبيره لخلقه، تعالى وتقدس، فلا إله غيره، ولا رب سواه"[1]. فالحقُّ واحدٌ ثابت، والأهواء كثيرة متقلبة. وبالحقّ الواحد يدبَّر الكون كله، فلا ينحرف ناموسه؛ لهوى عارض، ولا تتخلف سنته؛ لرغبة طارئة. ولو خضع الكون للأهواء العارضة، والرغبات الطارئة لفسد كله، ولفسد الناس معه، ولفسدت القيم والأوضاع، واختلت الموازين والمقاييس وتأرجحت كلها بين الغضب والرضى، والكره والبغض، والرغبة والرهبة، والنشاط والخمول..وسائر ما يعرض من الأهواء والمواجد والانفعالات والتأثرات.. وبناء الكون المادي واتجاهه إلى غايته كلاهما في حاجة إلى الثبات والاستقرار والاطراد، على

(١) تفسير ابن كثير (٥/٤٨٤- ٤٨٥).

قاعدة ثابتة، ونهج مرسوم، لا يتخلف ولا يتأرجح ولا يحيد. ومن هذه القاعدة الكبرى في بناء الكون وتدبيره، جعل الإسلام التشريع للحياة البشرية جزءًا من الناموس الكوني، تتولاه اليد التي تدبر الكون كله، وتنسق أجزاءه جميعًا. والبشر جزء من هذا الكون خاضع لناموسه الكبير فأولى أن يشرع لهذا الجزء من يشرع للكون كله، ويدبره في تناسق عجيب. بذلك لا يخضع نظام البشر للأهواء فيفسد ويختل، إنما يخضع للحق الكلي، ولتدبير صاحب التدبير.

٤ – ظهور الاختلاف المذموم بين المسلمين:

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "فكل مسألة حدثت في الإسلام فاختلف الناس فيها، ولم يورث ذلك الاختلاف بينهم عداوة ولا بغضاء ولا فرقة، علمنا أنها من مسائل الإسلام، وكل مسألة طرأت فأوجبت العداوة والتنافر والتنابز والقطيعة، علمنا أنها ليست من أمر الدين في شيء، فيجب على كل ذي دين وعقل أن يجتنبها. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران:١٠٣]، فإذا اختلفوا وتقاطعوا، كان ذلك لحدث أحدثوه من اتباع الهوى"[(١)]. وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الأنعام:١٥٩]. قال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذه الآية تعمُّ أهل الأهواء والبدع والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، هذه كلها عرضة للزلل، ومظنة لسوء المعتقد"[(٢)].

٥ – اتباع المتشابه:

إن اتباع المتشابه من نصوص الشرع من المفاسد المترتبة على اتباع الهوى، وهو من أسباب الزيغ عن الحقِّ، كما قال الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران:٧].

٦ – الحرمان من العون والتأييد الإلهي والتوفيق.

---

(١) بتصرف عن (الموافقات) (٥/١٦٣– ١٦٤)، و(الاعتصام) (ص:٧٣٤– ٧٣٥).

(٢) المحرر الوجيز، لابن عطية (٢/٣٦٤).

٧ – متبع الهوى يصاب بمرض القلب ثم قسوته وموته.

٨ – متبع الهوى يصاب بالانحراف في الفكر والسلوك.

٩ – الاستهانة بالذنوب والمعاصي.

١٠ – متبع الهوى يصاب بالعجب وغرور العلم، فلا يجدي معه النصح والإرشاد.

١١ – متبع الهوى يفتح على نفسه مداخل الشيطان.

١٢ – اتباع الهوى مدخل إلى الابتداع في دين الله ﷻ.

١٣ – متبع الهوى يصاب بالتخبط وعدم الهداية إلى الطريق المستقيم.

١٤ – متبع الهوى يعمل على إضلال الآخرين، وإبعادهم عن الطريق.

١٥ – سوء الخاتمة.

١٦ – سوء العاقبة في الآخرة.

ثالثًا: أسباب الإذعان للهوى:

إنَّ معرفة سبب الإذعان للهوى من الخطوات التمهيدية الأولى لعلاج هذا الداء، فهي تفيد تشخيص المرض، ثم النظر في آليات العلاج.

وتكون الوقاية من هذا الداء بمعالجة دوافع الإذعان للهوى، وأسبابه.

ومن هذه الأسباب:

١ – ضعف الوازع الديني، والذي ينشأ عن الجهل بالله ﷻ، وعدم الاكتراث للمآل في الآخرة.

٢ – فراغ القلب عن محبة الله ﷻ ورسوله ﷺ:

وسيأتي بيان ذلك في عقبة: (فَقْد محبَّة الله تعالى ورسوله ﷺ أو ضعفها أو تأخُّرها).

٣ – مجالسة أهل الأهواء والجور والخيانة:

وسيأتي بيان ذلك في (صحبة أهل الباطل).

٤ – البعد عن مجالسة العلماء والصالحين وأهل العدل والخير والاستقامة.

٥ - الجهل بآثار الهوى ومآلاته.

٦ - الكبر والعجب والزهو والمراء والمجادلة بالباطل:

وسيأتي بيان ذلك في (العجب والكِبْر).

٧ - سوء التربية الأولى:

إن التربية الأولى لها أثرٌ في صياغة شخصية الإنسان وأخلاقه في بيته ومجتمعه. وبسوء التربية تألفُ النَّفس المعاصي، وتنساق وراء العواطف والرغائب. وسيأتي بيان ذلك في (البيئة والتربية).

٨ - الانحراف الفكري:

ويكون البناء على مقدمات فاسدة تتضمن اختلالًا وانحرافًا عن الحق، ثم ترسخ تلك المبادئ في النفس، ويصعب التَّحرُّر منها.

٩ - عدم الاصطبار على مشاق التحصيل:

قال الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومخالفة الهوى للحق في العلم والاعتقاد قد تكون لمشقة تحصيلية؛ فإنَّه يحتاج إلى البحث والنظر، وفي ذلك مشقة ويحتاج إلى سؤال العلماء والاستفادة منهم. ويحتاج إلى لزوم التقوى طلبًا للتوفيق والهدى، وفي ذلك ما فيه من المشقة"(١).

١٠ - عدم الاصطبار على مشاق التكليف:

ولا بد في التكليف من الاصطبار -ولا سيما في بداية الأمر قبل أن يعتاده-(٢) كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه:١٣٢]، وقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**))(٣). قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معناه: أن كل مؤمن مسجون ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة، مكلف بفعل الطاعات الشاقة، فإذا مات استراح من هذا، وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له من النعيم الدائم، والراحة الخالصة من النقصان. وأما الكافر فإنما له من ذلك ما

---

(١) القائد إلى تصحيح العقائد (ص:١٢-١٣).

(٢) سيأتي بيان ذلك.

(٣) صحيح مسلم [٢٩٥٦].

حصل في الدنيا -مع قلته وتكديره بالمنغصات- فإذا مات صار إلى العذاب الدائم، وشقاء الأبد"(١).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الدنيا وضعت للبلاء، فمن الجهل أن يخفى على الإنسان مراد التكليف؛ فإنه موضوع على عكس الأغراض، فينبغي للعاقل أن يأنس بانعكاس الأغراض، فإن دعا، وسأل بلوغ غرض، تعبد الله بالدعاء: فإن أعطي مراده شكر، وإن لم ينل مراده فلا ينبغي أن يلح في الطلب؛ لأن الدنيا ليست لبلوغ الأغراض، وليقل لنفسه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].

ومن أعظم الجهل: أن يمتعض في باطنه لانعكاس أغراضه، وربما اعترض في الباطن، أو ربما قال: حصول غرضي لا يضر، ودعائي لم يستجب!"(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ برحمته عليه الملائكة تؤزُّه إليها أزًا، وتحرضه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها.

ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها، حتى يرسل الله ﷻ إليه الشياطين، فتؤزه إليها أزًا.

فالأول قويٌّ جنَّدَ الطَّاعَةَ بالمدد، فكانوا من أكبر أعوانه، وهذا قوي جنَّدَ المعصية بالمدد فكانوا أعوانًا عليه"(٣). فلا بد من حمل النفس على ما فيه صلاحها وسعادتها بسلوك طريق الاستقامة ومخالفة الهوى، والمضي بها إلى ما يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وترويضها على الطاعة والصبر والتقوى.

١١ - صعوبة الاعتراف بالخطأ:

---

(١) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٨/٩٣).

(٢) صيد الخاطر (ص:٣٩٩). وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي)) صحيح البخاري [٦٣٤٠]. وعند مسلم [٢٧٣٥]: ((لا يزال يستجاب للعبد، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل)) قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال: يقول: ((قد دعوت وقد دعوت، فلم أر يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء)).

(٣) الجواب الكافي (ص:٥٦).

وسيأتي بيان ذلك في عقبة: (عدم الاعتراف بالخطأ).

١٢ – الغفلة عن العاقبة:

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن مطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلًا وإن كانت سببًا للألم والأذى في العاجل، ومنع لذات في الآجل، فأما العاقل فإنه ينهى نفسه عن لذة تُعقِّبُ ألما وشهوة تُورِّثُ ندمًا، وكفى بهذا القدر مدحًا للعقل وذمًّا للهوى"(١).

رابعًا: سبل الوقاية من هذا الداء والعلاج:

١ – صلاح القلب وامتلاؤه بمحبة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ورسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ:

إنَّ من أهمِّ أسباب الوقاية من آفات هذا الداء: صلاح القلب، وامتلاؤه بمحبة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ورسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ فهي أساس الاتباع والهداية: قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩]. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فهذا هو السليم من الآفات التي تعتري القلوب المريضة من مرض الشبهة التي توجب اتباع الظن، ومرض الشهوة التي توجب اتباع ما تهوى الأنفس، فالقلب السليم الذي سلم من هذا وهذا"(٢).

٢ – مجالسة العلماء والصالحين وأهل العدل والخير والاستقامة.

٣ – الأخذ عن العلماء الربانيين المعروفين بالعلم والتقوى؛ فإن الأخذ عنهم يورث استقامة في الفكر والسلوك.

٤ – الاعتبار بالعاقبة، ومعرفة الضرر والآثار؛ لأنَّ السَّعيد من اعتبر بغيره، والشَّقيُّ من اعتبر به غيره. ويستفادُ من قصص من وقف عند حدود الله ﷻ، وأخذ بأحكام دينه، ومن أخبار الذين تعدَّوا حدوده، واتبعوا أهوائهم، ونبذوا أحكام دينه ظهريًّا: الاعتبارُ بالعاقبة والمآل، فيكون ذلك دافعًا لاختيار طريق المحسنين، ونبذ طريق المفسدين؛

---

(١) ذم الهوى (ص:١٢-١٣).

(٢) كتاب الروح، لابن القيم (ص:٢٤٤).

فمما يعين على ترك طريق الهوى: ملاحظة العاقبة، والاعتبار بالمآل. يقول الله ﷻ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٧]. واتباع الهوى ينقل الإنسان من حفرة إلى حفرة، ومن بلاء إلى بلاء، ومن خطر إلى خطر، حتى ينتهي به إلى الشقاء الأبدي.

٥ - مخالفة النفس والهوى والشيطان، واتباع منهج الله ﷻ القويم:

فلا ينبغي للمسلم أن يسترسل في اتباع رغبات النفس؛ فإن الاسترسال في متابعة النفس والهوى له مضار ظاهرة وباطنة وحسية ومعنوية وفردية واجتماعية.

ومن أراد أن يسلك طريق السعادة فعليه أن يخالف النفس والهوى والشيطان، وأن يتبع منهج الله ﷻ القويم، وشِرعته المباركة، التي أنزلها ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، فذلك السبيل الذي ينجو به الناس من الغواية، وسلطان الهوى، فلا سبيل إلا بالاتباع، ولا نجاة إلَّا بالانقياد. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "سمعت شيخنا -يعني: ابن تيمية- يقول: جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين؛ فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولًا حتى يخرج إليهم"(١). "فمن قهر هواه عز وساد، ومن قهره هواه ذل وهان وهلك وباد"(٢).

قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

ومجاهدة النفس والهوى تقرِّب العبدَ إلى الله تعالى، فيكون في حفظ الله تعالى ورعايته. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مخالفة الهوى تقيم العبد في مقام من لو أقسم على الله لأبره، فيقضي له من الحوائج أضعاف أضعاف ما فاته من هواه". وقال: "إذا تأملت

(١) روضة المحبين (ص:٤٧٨).

(٢) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، للسفاريني الحنبلي (٢/ ٤٥٨).

السبعة الذين يظلهم الله ﷻ في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى"[1].

٦ – النصيحة والتواصي بالحق والتذكير بعواقب اتباع الهوى.

٧ – التذكير بحقيقة الدنيا.

٨ – التعود على كبح جماح النفس من النشأة الأولى.

٩ – التذكير بسير الصالحين؛ فإنه محفز على الاقتداء والتأسي بهم، والسير على نهجهم.

١٠ – توطين النفس على طلب الحق مهما كانت العقبات، واتباعه مهما كانت التبعات.

١١ – الإيمان بالجنة والنار والبعث والحساب.

١٢ – ملاحظة مشاهدة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعباده، واطلاعه على أعمالهم، ومجازاتهم عليها، وعدم الغفلة عن ذلك.

١٣ – إيثار لذَّة القرب من الله ﷻ وطاعته، فذلك أصلح وأنفع من متابعة الهوى.

١٤ – إيثار العفَّة وعزها على لذَّة المعصية وذلها.

١٥ – فرحه بغلبة عدوه (الشيطان)، وقهره له، وردِّه خائبًا بغيظه وغمه وهمِّه، حيث لم ينلْ أمنيته.

١٦ – التفكير في أنَّه لم يخلق للهوى، وإنما هيئ لأمر عظيم لا يَناله إلا بمعصية الهوى.

١٧ – أن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهر عدوِّه (الشيطان)، فإنَّ الشيطان إذا رأى من العبد ضعفَ عزيمة، وسقوط همة، وميلًا إلى هواه، طمع فيه وصرعه وألجمه بلجام الهوى، وساقه حيث أراد، ومتى أحسَّ منه بقوَّة عزم، وشرف نفس، وعلو همَّة، لم يطمع فيه إلا اختلاسًا وسرقة.

---

(١) روضة المحبين (١/٤٨٤-٤٨٥).

١٨ – أن يعلم أنَّ الهوى ما خالط شيئًا إلا أفسده، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة، وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصَدَّه عن الحق، وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قِسْمة الجَوْر.. إلى غير ذلك.

١٩ – أن يعلم أنَّ الشيطان ليس له مدخل على ابن آدم إلا من باب هواه، فإنَّه يطيف به ليعرف أين يدخل عليه حتى يفسد قلبه وأعماله، فلا يجد مَدْخلًا إلا من باب الهوى فيَسْري منه سَرَيان السُّمِّ في الأعضاء.

٢٠ – أن يتذكَّر أنَّ مخالفة الهوى تُورث العبدَ قُوَّة وعفَّة في بدنه ولسانه.

٢١ – أن يتصوَّر العاقل انقضاء غرضه ممن يهواه، ثم يتصوَّر حاله بعد قضاء الوطر، وما فاته، وما حصل له[1].

---

(١) من [١٣] إلى [١٢]، محمد الغزالي، مجلة منبر الإسلام، السنة الثالثة عشرة، رجب [١٣٧٥]، العدد [٢٠]، بتصرف.

العقبة السابعة

الذُّنوب والمعاصي

أولًا: تعريف المعاصي وبيان أقسامها:

المعصية لغة: خِلافُ الطَّاعَة. يقال: عَصى العبدُ رَبَّهُ إذا خالَف أَمْرَه، وَعَصَى فُلاَنٌ أَميرَه يَعْصِيه عَصْيًا وعِصْيانًا ومَعْصِيَةً إذا لَمْ يُطِعْه(١).

والمعصية اصطلاحًا: هي مخالفة الأمر قصدًا(٢).

وقيل: الطاعة موافقة الأمر، أي: فعل المأمور به على وِفَاقِ الأمر به. والمعصية مخالفته، أي: مخالفة الأمر بارتكاب ضِدِّ ما كُلِّفَ به(٣).

"وقد اختلف الناس هل المعاصي منقسمة إلى صغائر وكبائر أم هي قسم واحد؟

١ – فذهب الجمهور إلى أنها منقسمة إلى صغائر وكبائر، ويدل على ذلك قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء:٣١]، وقوله: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات:٧]، ويدل عليه ما ثبت عن النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من تخصيص بعض الذنوب باسم الكبائر وبعضها بأكبر الكبائر.

٢ – وذهب جماعة إلى أن المعاصي قسم واحد ومنهم الأستاذ أبو إسحاق، والجويني وابن فورك، ومن تابعهم قالوا: إن المعاصي كلها كبائر. وإنما يقال لبعضها صغيرة بالنسبة إلى ما هو أكبر كما يقال: الزنا صغيرة بالنسبة إلى الكفر، والقبلة المحرمة صغيرة بالنسبة إلى الزنا، وكلها كبائر. قالوا: ومعنى قوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾: إن تجتنبوا الكفر كفرت عنكم سيئاتكم التي هي دون الكفر، والقول الأول راجح.

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (عصا) (٦/٢٤٢٩)، لسان العرب (١٥/٦٧).

(٢) التعريفات، للجرجاني (ص:٢٢٢)، الحدود الأنيقة (ص:٧٧).

(٣) انظر: شرح الكوكب المنير (١/٣٨٥)، العدة في أصول الفقه (١/١٦٣)، المسودة في أصول الفقه (ص:٤٤)، شرح مختصر ابن الحاجب (١/٣٩٤)، البحر المحيط في أصول الفقه (١/٣٩٠)، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ص:١٥٣).

٣ - وههنا مذهب ثالث ذهب إليه الحَلِيمي[(١)] فقال: إن المعاصي تنقسم إلى ثلاثة أقسام: صغيرة، وكبيرة، وفاحشة؛ فقتل النفس بغير حق كبيرة، فإن قتل ذا رحم له ففاحشة، فأما الخدشة والضربة مرة أو مرتين فصغيرة وجعل سائر الذنوب هكذا"[(٢)].

والكبائر ما ترتب عليها حد، أو وعيد بالنار، أو لعنة، أو غضب، أو ما اتفقت الشرائع على تحريمه، على اختلاف بين العلماء في تحديدها.

والصغائر ما لم يقترن بالنهي عنها وعيد أو لعن أو غضب أو عقوبة.

والحاصل أن المعصية أعم من الصغائر والكبائر. قال القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الصغيرة والكبيرة في المعاصي ليس من جهة من عصى بل من جهة المفسدة الكائنة في ذلك الفعل فالكبيرة ما عظمت مفسدتها، والصغيرة ما قلت مفسدتها، ورتب المفاسد مختلفة، وأدنى رتب المفاسد يترتب عليها الكراهة ثم كلما ارتقت المفسدة عظمت الكراهة حتى تكون أعلى رتب المكروهات تليها أدنى رتب المحرمات ثم ترتقي رتب المحرمات حتى تكون أعلى رتب الصغائر يليه أدنى الكبائر ثم ترتقي رتب الكبائر بعظم المفسدة حتى تكون أعلى رتب الكبائر يليها الكفر إذا تقرر هذا"[(٣)].

والبدعة أعم من المعصية، حيث تشمل المعصية، كالبدعة المحرمة والمكروهة كراهة تحريم، وغير المعصية كالواجبة والمستحبة والمباحة[(٤)].

وقال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المنكر أعم من المعصية؛ إذ من رأى صبيًا أو مجنونًا يشرب الخمر فعليه أن يريق خمره ويمنعه، وكذا إن رأى مجنونًا يزني بمجنونة أو بهيمة فعليه أن يمنعه منه، وهذا لا يسمى معصية في حق المجنون.."[(٥)].

---

(١) وهو الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الجرجاني، أبو عبد الله: فقيه شافعي، قاض. كان رئيس أهل الحديث في ما وراء النهر. توفي سنة [٤٠٣هـ]. انظر: الأعلام (٢/٢٣٥)، وانظر: تذكرة الحفاظ (٣/١٥٦)، سير أعلام النبلاء (١٧/٢٣١)، طبقات الشافعية الكبرى (٤/٣٣٣).

(٢) إرشاد الفحول (١/١٤٥)، بتصرف يسير، وانظر: البحر المحيط في أصول الفقه (٦/١٥٢).

(٣) الفروق، للقرافي (٤/٦٦).

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٨/٢٥).

(٥) إحياء علوم الدين (٢/٣٢٤).

ثانيًا: خطر المعاصي وآثارها على القلب والبدن:

إن للمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلَّا الله ﷻ، فمنها:

١ - حرمان العلم:

إن العلم نور يقذفه الله ﷻ في القلب كما روي عن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]، والمعصية تطفئ ذلك النور.

وقال الإمام مالك للإمام الشافعي ﷺ أول ما لقيه: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا فلا تطفئه بظلمة المعصية، وقد قال سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩].

ومن الفرقان: النُّور الذي يُفرِّقُ به العبد بين الحق والباطل. وكلما كان قلبه أقرب إلى الله ﷻ كان فرقانه أتم[٢].

وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال: اعلم بأن العلم نور ... ونور الله لا يؤتاه عاصي[٣]

قال عليُّ بن خشرم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ما رأيت بيد وكيع كتابًا قط، إنما هو حفظ، فسألته عن أدوية الحفظ، فقال: إن علمتك الدواء، استعملته؟ قلت: إي والله. قال: ترك المعاصي، ما جربت مثله للحفظ"[٤].

٢ – ظلمة القلب:

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم، وابن عدي عن مالك بن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: إن العلم ليس بكثرة الرواية، إنما العلم نور يقذفه الله في القلب. الدر المنثور (٧/٢٠). تفسير ابن أبي حاتم (١٠/٣١٨٠).

(٢) إعلام الموقعين (٤/٢٨٤).

(٣) الجواب الكافي (ص:٣٥)، وانظر: كتاب العلم، محمد بن صالح العثيمين (ص:٤٤، ١٢٢، ٢٠٢).

(٤) سير أعلام النبلاء (٩/١٥١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كما أن الإنسان يغمض عينيه فلا يرى شيئًا -وإن لم يكن أعمى- فكذلك القلب بما يغشاه من رَيْن الذُّنوب لا يبصر الحقَّ -وإن لم يكن أعمى كعمى الكافر-"(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإنَّ الطاعة نور، والمعصية ظلمة. وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة -وهو لا يشعر-، كأعمى أخرج في ظلمة الليل يمشي وحده"(٢).

وإذا تكاثرت الذنوب طبع على قلب صاحبها، فكان من الغافلين. كما قال بعض السلف في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]، قال: هو الذَّنب بعد الذَّنب. وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو الذَّنب على الذَّنب، حتى يُعْمِيَ القلب. وقال غيره: لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم.

وأصل هذا أنَّ القلب يصدأ من المعصية، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير رانًا، ثم يغلب حتى يصير طبعًا وقُفْلًا وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انعكس فصار أعلاه أسفله(٣)، فحينئذ يتولَّاهُ عدوه ويسوقه حيث أراد"(٤).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: "الذنب بمنزلة شرب السم، والتوبة ترياقه ودواؤه، والطاعة هي الصحة والعافية، وصحة وعافية مستمرة خير من صحة تخللها مرض وشرب سم أفاق منه، وربما أديا به إلى التلف أو المرض أبدًا"(٥).

قال بعض المتقدمين من أئمة الطب: "من أراد عافية الجسم فليقلل من الطعام والشراب، ومن أراد عافية القلب فليترك الآثام. وقال ثابت بن قرة: راحة الجسم في قلة

(١) مجموع الفتاوى (٧/٣٢).
(٢) الجواب الكافي (ص:٣٥).
(٣) ما يقابل الهدى والبصيرة: الضلال والعمى.
(٤) الجواب الكافي (ص: ٥٨-٦٠).
(٥) مدارج السالكين (١/ ٣٠٤).

الطعام، وراحة الروح في قلة الآثام، وراحة اللسان في قلة الكلام. والذنوب للقلب بمنزلة السموم، إن لم تهلكه أضعفته ولا بدَّ، وإذا ضعفت قوته لم يقدر على مقاومة الأمراض.

وقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها؟[(١)]

فالهوى أكبر أدوائها، ومخالفته أعظم أدويتها، والنفس في الأصل خلقت جاهلة ظالمة، فهي لجهلها تظن شفاءها في اتباع هواها، وإنما فيه تلفها وعطبها، ولظلمها لا تقبل من الطبيب الناصح، بل تضع الداء موضع الدواء فتعتمده، وتضع الدواء موضع الداء فتجتنبه، فيتولد من بين إيثارها للداء، واجتنابها للدواء أنواع من الأسقام والعلل التي تعيي الأطباء، ويتعذر معها الشفاء"[(٢)].

يقول الله ﷻ: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٨١]. "ومعنى إحاطة الخطيئة هو حصرها لصاحبها، وأخذها بجوانب إحساسه ووجدانه، كأنه محبوس فيها لا يجد لنفسه مخرجًا منها، يرى نفسه حرًّا مطلقًا، وهو أسير الشهوات، وسجين الموبقات، ورهين الظلمات، وإنما تكون الإحاطة بالاسترسال في الذنوب، والتمادي على الإصرار، قال الله ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، أي: من الخطايا والسيئات. ففي كلمة: (يكسبون) معنى: الاسترسال والاستمرار. و(ران عليه): غطَّاه وستره، أي: أنَّ قلوبهم قد أصبحت في غُلُفٍ من ظلمات المعاصي، حتى لم يبق مَنْفَذٌ للنور يدخل إليها منه، ومن أحدث لكل سيئة يقع فيها توبة نصوحًا وإقلاعًا صحيحًا، لا تحيط به الخطايا، ولا ترِينُ على قلبه السيئات"[(٣)].

(١) ديوان عبد الله بن المبارك (ص:٦٧).

(٢) زاد المعاد (٤/ ١٨٦)، وانظر: مدارج السالكين (٣/٢٤٧)، الآداب الشرعية، لابن مفلح (١/١٤٤).

(٣) تفسير المنار (١/٣٠٠-٣٠١).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: ((**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل**[1] **قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله** ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾))[2].

٣ – نقصان العقل:

"ومن عقوباتها أنها تؤثر بالخاصة في نقصان العقل، فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله ﷻ، والآخر عاص إلَّا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل، وفكره أصح، ورأيه أسد، والصواب قرينه؛ ولهذا تجد خطاب القرآن إنما هو مع أولي الألباب والعقول كقوله ﷻ: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:١٩٧]، وقوله ﷻ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [المائدة:١٠٠]، وقوله ﷻ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩]، ونظائر ذلك كثيرة"[3].

ولما كان أهل القرون المفضلة أتقى لله ﷻ، وأبعد عن الذنوب، فإن من بعدهم كان دونهم في تحقيق العلم، وإصابة الحق.

قال الشاطبي رَحِمَهُٱللَّهُ: "فأعمال المتقدمين في إصلاح دنياهم ودينهم على خلاف أعمال المتأخرين، وعلومهم في التحقيق أقعد، فتحقُّق الصحابة بعلوم الشريعة ليس

---

(١) وعند الترمذي: "سقل". قال الخليل رَحِمَهُٱللَّهُ: "السَّقْل: الصَّقْل، لغة فيه". العين، مادة: (سقل) (٥/٧٨). قال في (القاموس) "السقل: الصقل، وقال فيه: صقله: جلاه، فهو مصقول وصقيل"، القاموس المحيط (ص:١٠٢٢)، وانظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (صقل) (٥/١٧٤٤). والمعنى نظف وصفى مرآة قلبه؛ لأن التوبة بمنزلة المصقلة تمحو وسخ القلب وسواده حقيقيًّا أو تمثيليًّا، وإن عاد، أي: العبد في الذنب والخطيئة زيد فيها، أي: في النكتة السوداء حتى تعلو، أي: للنكت قلبه، أي: تطفئ نور قلبه فتعمي بصيرته. (فذلكم) الأثر المستقبح المستعلي هو (الران الذي ذكر الله)، أي: في كتابه. انظر: مرعاة المفاتيح (٨/٤٢)، تحفة الأحوذي (٩/١٧٨).

(٢) أخرجه أحمد [٧٩٥٢]، وابن ماجه [٤٢٤٤]، والترمذي [٣٣٣٤]، وقال: "حسن صحيح"، كما أخرجه ابن أبي الدنيا في (التوبة) [١٩٨]، والبزار [٨٩٣٤]، والنسائي في (الكبرى) [١١٥٩٤]، وابن حبان [٢٧٨٧]، والحاكم [٦]، والبيهقي في (السنن) [٢٠٧٦٣].

(٣) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص:٨١).

كتحقُّقِ التابعين، والتابعون ليسوا كتابعيهم، وهكذا إلى الآن، ومن طالع سيرهم، وأقوالهم، وحكاياتهم؛ أبصر العجب في هذا المعنى"(١).

وقال المروذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "سمعت أحمد بن حنبل يقول: عبد الوهاب الوراق رجل صالح، مثله يوفق لإصابة الحق"(٢).

وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "من عمل بما يعلم، كفي ما لم يعلم"(٣).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب: سلب الهدى والعلم النافع كقوله ﷻ: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء:١٥٥]، وقال ﷻ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة:٨٨]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١٠٩- ١١٠]، وقال ﷻ: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠]، وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]"(٤).

وقال: "وأما (العلم اللدني) فلا ريب أن الله ﷻ يفتح على قلوب أوليائه المتقين وعباده الصالحين بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه، واتباعهم ما يحبه، ما لا يفتح به على غيرهم..يقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء:٦٦- ٦٨] فقد أخبر أنه من فعل ما يؤمر به يهديه الله ﷻ صراطًا مستقيمًا. وقال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة:١٦]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:١٧]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف:١٣]، وقال سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]،

---

(١) الموافقات (١/١٤٩)، وانظر: الصوارف عن الحق (ص:٥١- ٥٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/٣٢٣- ٣٢٤)، تذكرة الحفاظ (٢/٨٣)، تهذيب التهذيب (٦/٣٩٧)، تهذيب الكمال (١٨/٤٩٨)، صفة الصفوة (٢/٣٦٩)، طبقات الحنابلة (١/٢١١).

(٣) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٦٧- ٤٦٨).

(٤) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٥٢).

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية:٢٠]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٣]، وأخبر أن اتباع ما يكرهه يصرف عن العلم والهدى.."(١). كما تقدم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المعاصي تفسد العقل؛ فإن للعقل نورًا، والمعصية تطفئ نور العقل ولا بُدَّ، وإذا طُفِئَ نُورُهُ ضَعُفَ وَنَقَصَ.

وقال بعض السَّلف: ما عصى الله ﷻ أحدٌ حتى يَغِيبَ عَقْلُهُ، وهذا ظاهر؛ فإنه لو حضر عقله لحجزه عن المعصية وهو في قبضة الرب تعالى، أو تحت قهره، وهو مطلع عليه، وفي داره على بساطه وملائكته شهود عليه ناظرون إليه، وواعظ القرآن ينهاه، وواعظ الموت ينهاه، وواعظ النار ينهاه، والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله، والاستخفاف به ذو عقل سليم؟

٤ – تزيين الباطل:

إن الذنوب من مداخل الشيطان، فهو يزين كبائرها للإنسان، ويحسنها في عينه، ويفتح له باب الإرجاء، ويقول له: الإيمان هو نفس التصديق، فلا تقدح فيه الأعمال، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق، وهي قوله: (لا يضر مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع مع الشرك حسنة).

أما الصغائر فإنه يزينها كذلك له ويقول: ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمم، أوما علمت بأنها تكفر باجتناب الكبائر وبالحسنات؟ ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يصرَّ عليها، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالًا منه، فالإصرار على الذنب أقبح منه، ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار"(٢).

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٤٥)، الصواف عن الحق (ص:٥٣).

(٢) بتصرف عن (مدارج السالكين) (١/ ٢٣٩).

والحاصل أن التقوى ومجاهدة النفس والشيطان والهوى، والبعد عن المعاصي سبيل إلى العلم والإخلاص والظفر بالحق، والتأثير في المدعوين، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٢٩]؛ فإن لسان العمل أبلغ من لسان القول بالنسبة للمدعوين، والأعمال أعلى صوتًا من الأقوال، ولا خير في قول لا يصدقه العمل.

ثالثًا: الإصرار على الصغائر:

ويدخل في هذا الباب: الإصرار على الصغائر؛ فإنَّ الإصرارَ على فعلها، والاستهانة بمجاوزة الحدود مما يفضي إلى الانتكاس، وقد يهوّن الكفر؛ لأنَّ الصغائر وسائل إلى الكبائر، والإصرار عليها موصل لعظائم المنكرات. وقد حكى الله ﷻ عن أقوام جرَّأهم الإقدام على المعاصي على الكفر بالله ﷻ، وقتل أنبيائه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فقال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة:٦١]، قال المفسرون: أي: ذلك كائن بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على الاستمرار؛ فإنَّ الإصرار على الصغائر يفضي إلى مباشرة الكبائر، والاستمرار عليها قد يؤدي إلى الكفر؛ لأن المعاصي بريد الكفر، والعياذ بالله(١).

وقيل: "وهذا نشر على ترتيب اللف، فكفرهم بالآيات سببه: العصيان، وقتلهم الأنبياء سببه: الاعتداء"(٢)؛ ولهذا قال بعض أهل العلم وأرباب المعاملات: من ابتلي

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٢/٧٢)، السراج المنير، للخطيب الشربيني (١/٢٤٠)، البحر المديد (١/٣٩٦)، البيضاوي (٢/٣٣).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٤/٥٧).

بترك الآداب وقع في ترك السنن، ومن ابتلي بترك السنن وقع في ترك الفرائض، ومن ابتلي بترك الفرائض وقع في استحقار الشريعة، ومن ابتلي بذلك وقع في الكفر(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول في سجوده: ((**اللهم اغفر لي ذنبي كله، دِقَّهُ، وَجِلَّهُ، وأوله وآخره، وعلانيته وسره**))(٢).

قوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: (**دقه**): بالكسر، أي: دقيقه وصغيره. (**وجله**): بكسر الجيم، وقد تضم، أي: جليله وكبيره. وفسرهما الإمام النووي بالقليل والكثير(٣). قيل: إنما قُدِّمَ الدِّقُّ على الجِلِّ؛ لأن السائل يتصاعد في مسألته، أي: يَتَرَقَّى؛ ولأن الكبائر تنشأ غالبًا من الإصرار على الصغائر وعدم المبالاة بها، فكأنها وسائل إلى الكبائر، ومن حقِّ الوسيلة أن تُقَدَّمَ إثباتًا ورفعًا(٤).

وقال الله ﷻ في وصف المؤمنين الناجين المسارعين إلى الجنة: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥]. فقوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ من السيئات الكبار، ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، أي: بأي نوع من الذنوب، ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾، أي: تذكروا حقه وعهده، فاستحيوا منه وخافوا عقابه، ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾، أي: لأجلها بالتوبة والإنابة إليه تعالى(٥). وقوله ﷻ: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أي: لم يَدِيمُوا ولم يستمروا على ما فعلوا من الذنوب؛ فإن الإصرار على الصغائر يؤدي إلى الكبائر، فمعناه: أن كل ما وقع منهم زَلَّةٌ صَدَرَ عَنْهُمْ تَوْبَةٌ.

---

(١) انظر: تفسير الرازي (٨/٣٣٠)، نظم الدرر، للبقاعي (٥/٣٠)، تفسير القاسمي (٢/٣٨٨).

(٢) صحيح مسلم [٤٨٣].

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٤/٢٠١).

(٤) انظر: مرقاة المفاتيح مصابيح (٢/٧٢١)، مرعاة المفاتيح (٣/٢١٠)، عون المعبود (٣/٩٣).

(٥) انظر: نظم الدرر، للبقاعي (٥/٧٤)، تفسير القاسمي (٢/٤١٤).

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حال من يُصِرُّوا، أي: ولم يُصِرُّوا على قبيح فعلهم عالمين به، أو يعلمون جزاء الإصرار، أو ثواب الاستغفار، أو صفة ربهم العزيز الغفار"[1].

"ولما كان طلب الصفح عن المؤاخذة بالذنب لا يصدر إلَّا عن ندامة، ونية إقلاع عن الذنب، وعدم العودة إليه، كان الاستغفار في لسان الشارع بمعنى: التوبة؛ إذ كيف يطلب العفو عن الذنب من هو مستمر عليه، أو عازم على معاودته؟! ولو طلب ذلك في تلك الحالة لكان أكثر إساءة من الذنب؛ فلذلك عد الاستغفار هنا رتبة من مراتب التقوى. وليس الاستغفار مجرد قول: (أستغفر الله) باللسان، والقائل ملتبس بالذنوب"[2].

يقول الله ﷻ: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٣٩].

وفي (صحيح البخاري): "باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر: وقال إبراهيم التيمي: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مُكَذِّبًا[3].

وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل.

---

(١) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ٩٨٨- ٩٨٩)، وانظر: تفسير البيضاوي (٢/٣٩)، السراج المنير، للخطيب الشربيني (١/٢٤٨)، نواهد الأبكار وشوارد الأفكار، للسيوطي (٣/٦٠).

(٢) التحرير والتنوير (٤/٩٢-٩٣).

(٣) (مُكَذِّبًا) روي بفتح الذال المشددة، أي: يكذبني من رأى عملي مخالفًا لقولي فيقول: لو كنتَ صادقًا ما فعلتَ خلاف ما تقول، وإنما قال ذلك؛ لأنه كان يعظ الناس. ويروى بكسر الذال، وهي رواية الأكثر، ومعناه: أنه مع وعظه الناس لم يبلغ غاية العمل. وقد ذمَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقصر في العمل فقال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٣] فخشي أن يكون مكذبًا، أي: مشابها للمكذبين. فتح الباري، للحافظ ابن حجر (١/١١٠)، عمدة القاري، للإمام العيني (١/٢٧٥).

ويذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن ولا أَمِنَهُ إلا منافق. وما يُحْذَرُ من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة؛ لقول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾"[1].

قال ابن رجب رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ: "مراده أن الإصرار على المعاصي وشعب النفاق من غير توبة يخشى منها أن يعاقب صاحبها بسلب الإيمان بالكلية، وبالوصول إلى النفاق الخالص، وإلى سوء الخاتمة، نعوذ بالله من ذلك، كما يقال: إن المعاصي بريد الكفر.

وفي (مسند الإمام أحمد) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ‌ٱللَّهُ‌عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى‌ٱللَّهُ‌عَلَيْهِ‌وَسَلَّمَ قال: ((**ويل لِأَقْمَاع القول، ويل للذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون**))[2].

وقد وصف الله ﷻ أهل النار بالإصرار على الكبائر فقال: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٤٦]، والمراد بالحنث: الذنب الموقع في الحنث، وهو الإثم"[3]، أي: وكانوا يقيمون على الذنب العظيم، فلا يتوبون ولا يستغفرون.

---

(١) صحيح البخاري (١/١٨).

(٢) أخرجه أحمد [٦٥٤١]، وعبد بن حميد [٣٢٠]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٣٨٠]، والطبراني في (الشاميين) [١٠٥٥]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٨٤٤]. قال الهيثمي (١٠/١٩١): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير حبان بن يزيد الشرعي، ووثقه ابن حبان، ورواه الطبراني كذلك". وقال المناوي (١/٤٧٤): "قال الزين العراقي كالمنذري: إسناده جيد". "و(أقماع القول): الذين آذانهم كالقمع يدخل فيه سماع الحق من جانب ويخرج من جانب آخر لا يستقر فيه". فتح الباري، لابن رجب (١/١٩٧)، وانظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٢/٢٥٤). قوله "(ويل لأقماع القول)، أي: شدة هلكة لمن لا يعي أوامر الشرع، ولم يتأدب بآدابه. و(الأقماع) بفتح الهمزة، جمع: قمع، بكسر القاف وفتح الميم كضِلَع، وتسكن: الإناء الذي يجعل في رأس الظرف؛ ليملأ بالمائع، شبه أسماع الذين يستمعون القول ولا يعونه ويحفظونه ويعملون به بالأقماع التي لا تعي شيئًا مما يفرغ فيها، فكأنه يمر عليها مجازًا، كما يمر الشراب في الأقماع اجتيازًا". فيض القدير (١/٤٧٤)، أساس البلاغة، للزمخشري، مادة: (قمع) (٢/١٠٢)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/١٠٩).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب (١/١٩٧).

رابعًا: نماذج من الإصرار على الصغائر:

وقد أورد العلماء نماذج من الإصرار على الصغائر مع بيان أنها تفضي إلى الكبائر، ومن ذلك: (النظر بشهوة إلى ما حرم الله ﷻ)، ويدخل فيه: النظر المباشر، وكذلك العكوف أمام شاشات التلفاز أو المواقع التي سفك فيها دمُ الحياء، ووئدتْ فيها الفضيلةُ..

فهل أنتجت مشاهدُ الإثارة ولقطات التَّهييج وصورُ العريّ إلا خرق سياج العفَّة والشَّرف؟ وشيوع الجريمة الأخلاقيَّة؟ وفقدان الأمن وانتشار الاعتداءات المروِّعة؟ وهل يحمل الإلحاح الغريزيُّ الجامح، والسُّعَار الجنسيُّ الهائج إلَّا على السَّفَه والخفَّة وركوب الشرِّ؟ وما عساه يُجنَى من أفلامٍ ومجلاتٍ وقصصٍ وروايات وأطباقٍ وقنواتٍ ومواقعَ جعلت الإثارةَ إحدى ركائزها، وتأجيجَ الغرائزِ أساس قيامها، ومحاربة العفَّة والطَّهارة من أولويات أهدافها؟! فأيُّ خطر يهدد القيم الأخلاقية أعظم من هذا؟! فما الذي يردع تلك الشرائح التي لا تقلد الغرب إلا في هذا، ويعدون ذلك من التقدم والحرية؟! فما يزيدهم ذلك إلَّا انحرافًا وتخلفًا..وليتهم نظروا إلى مواضع الخلل، وأحسنوا الاقتداء بالآخرين بما ينفعهم في دنياهم.

وقد جاء التحذير الشديد من جميع أسباب الزنا ومقدماته، كالنظر إلى المرأة الأجنبية، والحديث إليها، وسماع حديثها، ولمسها بشهوة؛ فإن ذلك محرَّم –وإن كان من الصغائر–، وقد سماه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: زنًا؛ تنبيهًا على خطورته؛ لأنه يؤدي إلى الزنا، ويسوق إليه(١).

---

(١) انظر: منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٥/٢٦١). جاء في الحديث: ((إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه)). صحيح البخاري [٦٢٤٣، ٦٦١٢]، مسلم [٢٦٥٧]. (حظه)، أي: نصيبه. (أدرك ذلك لا محالة) لا حيلة له ولا خلاص من الوقوع فيما كتب عليه وقدر له. وقوله: (فزنا العين النظر) يعني: إلى العورات والنساء الأجنبيات. (وزنا اللسان المنطق) يعني: النطق بالفحش وما يتعلق بالفجور. (والنفس تمنى) تسول لصاحبها وتحركه. (والفرج) الذي هو آلة الزنا الحقيقي. (يصدق ذلك) بفعل ما تمنته النفس. (ويكذبه) بالترك والبعد عن الفواحش ومقدماتها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فالنظرة تولد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولا بد، ما لم يمنع منه مانع. وفي هذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والنظرة تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرَّمِيَّة، فإن لم تقتله جرحته، وهي بمنزلة الشرارة من النار ترمى في الحشيش اليابس، فإن لم تحرقه كله أحرقت بعضه، كما قيل:

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر(٢)

وقد حذرنا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الاستهانة بصغائر الذنوب، فقال: **((إياكم ومُحَقَّرَات الذنوب؛ فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود، ثم حملوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ متى يُؤْخَذْ بها صَاحِبُهَا تُهْلِكْه))**(٣).

(١) الجواب الكافي (ص:١٥٣).

(٢) روضة المحبين (ص:٩٧).

(٣) الحديث مروي عن سهل بن سعد، وعن عبد الله بن مسعود بألفاظ متقاربة. حديث سهل: أخرجه أحمد [٢٢٨٠٨]، والروياني [١٠٦٥]، والطبراني في (الكبير) [٥٨٧٢]، و(الأوسط) [٧٣٢٣]، و(الصغير) [٩٠٤]، والرامهرمزي في (أمثال الحديث) (ص:١٠٥)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٨٨١]. قال الهيثمي: (١٠/١٩٠): "رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين، ورجال إحداهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن عبد الحكم وهو ثقة". حديث ابن مسعود: أخرجه الطيالسي [٤٠٠]، وأحمد [٣٨١٨]، والطبراني في (الكبير) [١٠٥٠٠]، وفي (الأوسط) [٢٥٢٩]، وأبو الشيخ [٣١٩]، والبيهقي في (الكبرى) [٢٠٧٦٢]، و(شعب الإيمان) [٢٨١]. وقال المناوي: "قال الحافظ العراقي: إسناده جيد، وقال العلائي: حديث جيد على شرط الشيخين". فيض القدير (١٢٨/٣). قال الهيثمي (١٠/١٨٩): "رواه أحمد، والطبراني في الأوسط، ورجالهما رجال الصحيح غير عمران بن داود القطان، وقد وثق". وقال ابن حجر: التعبير بالمحقرات وقع في حديث سهل بن سعد رفعه..وقد أخرجه أحمد بسند حسن، ونحوه عند أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود. وعند النسائي=

فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إياكم ومُحقَّرات الذنوب**)) "أي: صغائرها؛ لأن صغارها أسباب تؤدي إلى ارتكاب كبارها، كما أن صغار الطاعات أسباب مؤدية إلى تحري كبارها"(١). فالصغائر إذا اجتمعت ولم تُكفَّر -بأن لم يوجد لها مكفرًا- أهلكت؛ لمصيرها كبائر بالإصرار"(٢).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "صغائر المعاصي يجر بعضها إلى بعض حتى تفوت أهل السعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة"(٣).

وفي (الصحيح): عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ((**إنكم لتعملون أعمالًا، هي أدَقُّ في أعيُنِكُم من الشَّعَر، إن كنَّا لنعدُّها على عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الموبقات**)). قال أبو عبد الله: "يعني بذلك: المهلكات"(٤).

وقد قيل:

خَلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماشٍ فوق أر ض الشَّوك يحذر ما يرى
لا تَحْقِرَنَّ صغيرة إنَّ الجبال من الحصا(٥)

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "كثيرٌ من الناس يتسامحون في أمور يظنونها قريبة، كإطلاق البصر؛ هوانًا بتلك الخطيئة، وكفتوى من لا يعلم؛ لئلَّا يقال: هو جاهل، ونحو ذلك مما يظنه صغيرًا، وهو عظيم"(٦).

=وابن ماجه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لها: ((يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب؛ فإن لها من الله طالبًا)). وصححه ابن حبان" فتح الباري، لابن حجر (١١/٣٢٩).

(١) فيض القدير (٣/ ١٢٧)

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير (١/٤٠٥).

(٣) إحياء علوم الدين (٣/٦٠).

(٤) صحيح البخاري [٦٤٩٢].

(٥) انظر: الكشف والبيان (١/١٤٢)، تفسير القرطبي (١/١٦٢)، تفسير ابن كثير (١/١٦٤)، غرائب القرآن (١/١٣٨- ١٣٩)، جامع العلوم والحكم (١/٤٠٢)، التبصرة، لابن الجوزي (ص: ٣٤١).

(٦) صيد الخاطر (ص:١٤٩) بتصرف. وقد حدَّث النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذنوبٍ يظنُّ البعض أنها هينة، ولكنها ليست كذلك، فقد مرَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحائط من حيطان المدينة، أو مكة، فسمع صوت إنسانين=

خامسًا: الإصرار على تعاطي الشبهات:

ومما يدخل في هذا الباب: (الإصرار على تعاطي الشبهات)، والوقوع فيها مرة بعد مرة.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام**))(١): "يحتمل وجهين، أحدهما: أنه من كثرة تعاطيه الشبهات يصادف الحرام -وإن لم يتعمده-، وقد يأثم بذلك إذا نسب إلى تقصير. والثاني: أنه يعتاد التساهل ويتمرن عليه ويجسر على شبهة ثم شبهة أغلظ منها، ثم أخرى أغلظ، وهكذا حتى يقع في الحرام عمدًا، وهذا نحو قول السلف: المعاصي بريد الكفر، أي: تسوق إليه عافانا الله تعالى من الشر"(٢)؛ لأنَّ النفسَ إذا وقعت في المخالفة تدرَّجت من مفسدة إلى أخرى أكبر منها. قيل: وإليه الإشارة بقوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة:٦١]، يريد أنَّهم تدرَّجوا بالمعاصي إلى قتل الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كما تقدم بيانه.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "فالذُّنوب مثل السموم مضرة بالذات، فإن تداركها من سَقْيٍ بالأدوية المقاومة لها، وإلا قهرت القوةَ الإيمانية، وكان الهلاك، كما قال بعض السلف: المعاصي بريد الكفر، كما أن الحُمَّى بريد الموت"(٣). أراد أنها رسولُ الموت تُنْذِرُ به(٤).

=يعذبان في قبورهما، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((يعذبان، وما يعذبان في كبير))، ثم قال: ((بلى، كان أحدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة)) صحيح البخاري [٢١٦، ٢١٨، ١٣٦١، ٦٠٥٢، ٦٠٥٥]، مسلم [٢٩٢]. قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وما يعذبان في كبير) ذكر العلماء فيه تأويلين أحدهما: أنه ليس بكبير في زعمهما، والثاني: أنه ليس بكبير تركه عليهما. وحكى القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ تأويلًا ثالثًا، أي: ليس بأكبر الكبائر. شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٣/٢٠١)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (٢/٦٤).

(١) صحيح البخاري [٥٢]، صحيح مسلم [١٥٩٩]، وقد بينا معناه في (اشتباه الحقيقة).

(٢) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١١/٢٩).

(٣) مدارج السالكين (١/٤٢٥).

(٤) انظر: العين، مادة: (برد) (٨/٢٩)، تهذيب اللغة (١٤/٧٥)، لسان العرب (٢/٨٦).

سادسًا: الوقاية من خطر الذنوب والمعاصي والعلاج:

١ - أن يعقد العزم على ترك المعاصي، وأن يمسي على نية صالحة، وأن يصبح على نية صالحة:

فمن أنفع الأسباب التي تجنب الإنسان خطر الذنوب والمعاصي والعقاب في الآخرة: أن يجلس المرء عندما يريدُ النومَ لله تعالى ساعةً يحاسبُ نفسه فيها، ثم يجدِّدُ توبةً بينه وبين الله تعالى، فينامُ على تلك التوبة، ويعزم أن لا يعاودَ الذَّنبَ إذا استيقظ، ويفعلُ هذا كلَّ ليلة، فإذا ماتَ من ليلته مات على توبة، وإن استيقظَ استقبلَ يومَه بنيةٍ صالحة. وليس للعبد أنفع من هذه النومة، ولا سيما إذا أكثَرَ من ذكرِ الله تعالى، واستعملَ السنن الواردة قبل النوم، فمن أراد الله تعالى به خيرًا وفَّقه لذلك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الذنب بمنزلة شرب السم، والتوبة ترياقه ودواؤه، والطاعة هي الصحة والعافية"(١).

٢ - مراقبة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في السِّر والعلن، والمحافظة على قراءة القرآن، ونوافلِ الصلواتِ، والصَّومِ، وغيرِهما، والتعويل على الله تعالى في كلِّ أمر، والتفويض إليه في كل حال.

وإنما تضعف المراقبة في قلب العبد إذا لم يوقِّر الله تعالى، ولم يعظمه كما يجب، ولذا قيل: من راقب الله في خواطره، عصمه في حركات جوارحه(٢)، فعلى المسلم إذا حدثته نفسه بمعصية أن يتقي الله، وأن يشعر أن الله ينظر إليه، ويطلع على حاله، فلا يجعل الله أهون الناظرين إليه، وكيف يستحي من الناس ولا يستحي من الله؟! ويخشى الناس ولا يخاف من الله؟!

فمن راقب الله ﷻ حسن عمله. وقد قيل: "شجرة المعرفة تُسْقَى بماء الفكرة وشجرة الغفلة تسقى بماء الجهل، وشجرة التوبة تسقى بماء الندامة، وشجرة المحبة تسقى

(١) مدارج السالكين (١/٣٠٤).

(٢) قاله أبو العباس بن مسروق. انظر: ذم الهوى، لابن الجوزي (ص:١٤٥)، صفة الصفوة (٢/٣١٩)، مدارج السالكين (٢/ ٦٥).

بماء الإنفاق والموافقة والإيثار، ومتى طَمِعْتَ في المعرفة ولم تُحْكِمْ قبلها مدارج الإرادة فأنت في جهل، ومتى ما طلبت الإرادة قبل تصحيح مقام التوبة فأنت في غفلة مما تطلبه"(١).

٣ - الابتعاد عن مواطن الفتن والشُّبهات، وأسباب الشَّرِّ، ودواعي المعصية، وعن المفسدين والغلاة:

لقد وردت الأحاديث التي تحثُّ المسلم على مفارقة الأرض التي يعمل فيها بالمعاصي إلى أرض يطاع الله ﷻ فيها؛ لأنه إذا بقي في أرض السوء ربما فعل ما يفعله أهلها، لأن الغالب أن الإنسان يتأثر بمن حوله وبما عليه أهل البلد من عقائد وأخلاق وعادات كما بيناه في عقبة: (البيئة الفاسدة والتربية السيئة)(٢).

وفي (الصحيح) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة**))(٣).

---

(١) قاله أبو العباس بن مسروق كما في (حلية الأولياء)، لأبي نعيم (١٣/٢١٤).

(٢) ينظر حكم الهجرة من بلد تجترح فيها المعاصي في (الموسوعة الفقهية الكويتية) (٤٢/١٩٠-١٩١).

(٣) صحيح البخاري [٣٤٧٠]، مسلم، واللفظ له [٢٧٦٦].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفيه فضل التحول من الأرض التي يصيب الإنسان فيها المعصية لما يغلب بحكم العادة على مثل ذلك إما لِتَذَكُّرِهِ لأفعاله الصادرة قبل ذلك والفتنة بها وإما لوجود من كان يعينه على ذلك ويَحُضُّهُ عليه؛ ولهذا قال له الأخير: (ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء) ففيه إشارة إلى أن التائب ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمن المعصية والتحول منها كلها"(١).

وقد أوجب الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الهجرة -على القادر- من البلد الذي يفتن فيه المسلم في دينه، ولا يَتَسَنَّى له إقامة الشعائر الإسلامية. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:٩٧].

قال البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "في الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن فيه الرجل من إقامة دينه"(٢).

فقوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾، يعني: من أرض الكفر إلى بلد أخرى كما فعل غيركم من المهاجرين إلى المدينة والحبشة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، أي: لتركهم هذا الواجب مع تمكنهم منه. وفي الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن الرجل فيه من إقامة دينه -كما تقدم-. ثم استثنى أهل العذر منهم فقال: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾، أي: لا قوّة لهم على الهجرة ولا نفقة لهم. ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٩٨]، أي: طريقًا إلى أرض الهجرة.

قال الإمام السيوطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الإكليل): "استدل بالآية على وجوب الهجرة من دار الكفر، إلَّا على من لم يطقها. وعن مالك: الآية تقتضي أن كل من كان في بلد تغيَّر فيه السنن، فينبغي أن يخرج منه"(٣).

---

(١) فتح الباري (٦/ ٥١٨).

(٢) تفسير البيضاوي (٢/٩٢)، وانظر: السراج المنير، للخطيب الشربيني (١/٣٢٦)، تفسير النسفي (١/٣٨٨)، البحر المحيط في التفسير (٤/٤١).

(٣) الإكليل في استنباط التنزيل (ص:٩٩).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "في هذه الآيات دليل على هجران الأرض التي يعمل فيها بالمعاصي. وقال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا عمل بالمعاصي في أرض فاخرج منها. وتلا: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾. وقال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذه الآيات دالة على أنه ليس لأحد المقام في أرض يُسبُّ فيها السلف، ويعمل فيها بغير الحق"(١).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واستنبط سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذه الآية: وجوب الهجرة من الأرض التي يعمل فيها بالمعصية"(٢).

"ولذلك كان من مسائل الإجماع: وجوب الهجرة على المسلم من المكان الذي يخاف فيه من إظهار دينه، ويضطر فيه إلى التقية، ومن علامة المؤمن الكامل ألا يخاف في الله ﷻ لومة لائم. قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤]، وقال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]. وكان النبي ﷺ وأصحابه يتحملون الأذى في ذات الله ﷻ ويصبرون. وأما المدارة فيما لا يهدم حقًّا، ولا يبني باطلًا فهي كَيَاسَةٌ(٣) مستحبة، يقتضيها: أدبُ المجالسة، ما لم تنته إلى حدِّ النفاق، ويُستَجزَ فيها: الدهان والاختلاق، وتكون مؤكدة في خطاب السفهاء؛ تَصَوُّنًا من سفههم، واتقاءً لفحشهم"(٤).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الفتح): "الهجرة: الترك. والهجرة إلى الشيء: الانتقال إليه عن غيره. وفي الشرع: ترك ما نهى الله عنه"(٥). قال الشيخ جمال الدين القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد وقعت في الإسلام على وجهين:

الأول: الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن. كما في هجرتي: الحبشة، وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة.

---

(١) تفسير القرطبي (٥/٣٤٦).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (٨/٢٦٣).

(٣) (الكَيْس) –بوزن الكيل– ضد الحمق، والرجل (كَيِّسٌ مُكَيَّس)، أي: ظريف، وبابه: باع. و(كِيَاسَة) أيضا: بالكسر. انظر: مختار الصحاح، مادة: (كيس) (ص:٢٧٦)، الصحاح، للجوهري (٣/٩٧٢).

(٤) تفسير المنار (٣/٢٣١).

(٥) فتح الباري (١/١٦)، وانظر: عمدة القاري (١/٢٣)، نيل الأوطار، للشوكاني (١/١٧٠).

الثاني: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان. وذلك بعد أن استقرَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة، وهاجر إليه من أمكنه ذلك من المسلمين. وكانت الهجرة إذ ذاك تختص بالمدينة إلى أن فتحت مكة، فانقطع الاختصاص، وبقي عموم الانتقال من دار الكفر لمن قدر عليه باقيًا"(١).

وقد ذكر القاضي أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ الهجرة تنقسم إلى ستة أقسام:

"**الأول**: الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام.

الثاني: الخروج من أرض البدعة، قال ابن القاسم: سمعت مالكًا يقول: لا يحل لأحدٍ أن يقيم ببلد يُسب فيها السلف. وهذا صحيح؛ فإن المنكر إذا لم يُقدر على تغييره نزل عنه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨].

الثالث: الخروج عن أرض غلب عليها الحرام؛ فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم.

الرابع: الفرار من الأذية في البدن، وذلك فَضْلٌ من الله عَزَّ وَجَلَّ أَرْخَصَ فيه، فإذا خشي المرء على نفسه في موضع فقد أذن الله سبحانه له في الخروج عنه والفرار بنفسه؛ لِيُخَلِّصَهَا من ذلك المحذور. وأول من حَفِظْنَاهُ فيه الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما خاف من قومه قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت:٢٦]، وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:٩٩]، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيه: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:٢١].

الخامس: خوف المرض في البلاد الْوَخِمَةِ، والخروج منها إلى الأرض النَّزِهَة، وقد أذن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلرِّعَاءِ حين اسْتَوْخَمُوا الْمَدِينَةَ أن يَتَنَزَّهُوا إلى الْمَسْرَحِ، فيكونوا فيه

(١) تفسير القاسمي (محاسن التأويل) (٣/٢٩٢).

حتى يَصِحُّوا[(١)]. وقد استثنى من ذلك الخروج من الطاعون؛ فمنع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منه بالحديث الصحيح عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٢)]. بيد أني رأيت علماءنا قالوا: هو مكروه.

السادس: الفرار خوف الأذية في المال؛ فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه، والأهل مثله أو آكد"[(٣)].

٤ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وقد جاء مبينًا في غير موضع؛ لمكانته وأهميته؛ إذ لولاه لفشت الضلالة، وشاعت الجهالة واستشرى الفساد، وعمَّ البلاء.

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: كان يقال: إن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يعذب العامَّة بذنب الخاصَّة. ولكن إذا عمل المنكر جهارًا استحقوا العقوبة كلهم[(٤)].

وفي الحديث: ((**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب**))[(٥)].

---

(١) يعني: حديث عكل وعرينة لما قدموا المدينة على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتكلموا بالإسلام، فقالوا يا نبي الله: إنا كنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذود وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها. الحديث. صحيح البخاري [٤١٩٢، ٥٧٢٧]، أي: أن يخرجوا خارج البلد مع الإبل فيشربوا من ألبانها وأبوالها حتى يصحوا.

(٢) يعني: قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها)) صحيح البخاري [٣٤٧٣، ٥٧٢٨، ٥٧٢٩، ٥٧٣٠، ٦٩٧٣]، مسلم [٢٢١٨، ٢٢١٩].

(٣) بتصرف واختصار عن (أحكام القرآن)، لابن العربي (٦١١/١) ونقل قوله القرطبي في (تفسيره) (٣٥٠/٥)، وابن عادل (٥٩٩/٦).

(٤) أخرجه مالك في (الموطأ) [٣٦٣٦]، وابن المبارك في (الزهد) [١٣٥١]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢٩٨/٥)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧١٩٧]، والحميدي [٢٧١].

(٥) أخرجه أحمد [٢٩]، وابن حميد [١]، وأبو داود [٤٣٣٨]، والترمذي [٢١٦٨]، والبزار [٦٥]، وابن حبان [٣٠٤]، والبيهقي [٢٠١٨٩]، والحميدي [٣]. قال الإمام النووي: "إسناده صحيح". رياض الصالحين (ص:٩٧)، الأذكار (ص:٣٣١).

وفي رواية: ((**إذا رأوا المنكر**))(١).

وفي رواية: ((**ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا، ثم لا يغيروا، إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب**))(٢).

عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**))(٣).

قال القاضي أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذا الفقه عظيم، وهو أن الذنوب منها ما يعجل الله عقوبته، ومنها ما يمهل بها إلى الآخرة، والسكوت عن المنكر تتعجل عقوبته في الدنيا بنقص الأموال والأنفس والثمرات، وركوب الذل من الظلمة للخلق..."(٤).

وقد أخبرنا الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن هلاك بعض الأمم بسبب المعاصي وكفران النعم فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦]. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢].

فقد يحرم المرء الرزق بالمعصية يرتكبها، أو قد يحرم البركة في الرزق فيكون لديه المال الوفير ولا يحسن الانتفاع به، فيضيع المال في غير مصلحة، ويذهب من غير فائدة. قال الله ﷻ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَارًا ۝﴾ [نوح:١٠-١٢].

---

(١) أخرجه أحمد [١، ١٦، ٥٣]، وابن ماجه [٤٠٠٥]، والنسائي في (الكبرى) [١١٠٩٢]، وأبو يعلى [١٢٨]، وابن حبان [٣٠٥]، والضياء [٥٨].

(٢) أخرجه أبو داود [٤٣٣٨]، والبيهقي [٢٠١٩١].

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [٢١٦٩]، وأحمد [٢٩]، والترمذي [٢١٦٩]، وقال: " هذا حديث حسن".

(٤) عارضة الأحوذي (٩/١٥).

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الحذر الحذر من المعاصي فكم سلبت من نعم؟! وكم جلبت من نقم؟! وكم خربت من ديار؟!"(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المعاصي تُزِيلُ النِّعَم، ومن عقوباتها أنها تُزِيلُ النِّعَمَ الحاضرة، وتَقْطَعُ النِّعَمَ الواصِلَة، فتُزِيلُ الحاصِل، وتَمْنَعُ الواصِل فَإِنَّ نِعَمَ اللهِ مَا حُفِظَ مَوْجُودُهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، وَلَا اسْتُجْلِبَ مَفْقُودُهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ؛ فإن ما عنده لا ينال إلا بطاعته، وقد جَعَلَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لكل شيء سببًا وآفة، سَبَبًا يَجْلِبُهُ، وَآفَةً تُبْطِلُهُ، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته، وآفاتها المانعة منها معصيته، فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها"(٢).

٥ – أن يدرك العبد أن الله تعالى غنيٌّ عن العبادة والطاعة.

٦ – أن يدرك العبد أنه لن يطيع الله تعالى إلا بفضله وتوفيقه، ولن يحجم عن المعصية إلا بإعانته.

٧ – الإكثار من ذكر الله تعالى ومن الدعاء والاستغفار:

إن كثرة ذكر الله ﷻ من أعظم أسباب الحفظ من المعصية؛ لأن الذِّكرَ يُذَكِّرُ العبدَ بالله تعالى وصفاته، وعظمته، فيكون حاضرًا مع الله تعالى، ومستحضرًا لما يعتقده عن الله، فيحجزه ذلك عن المعصية.

٨ – الإكثار من ذكر الموت، وسماع المواعظ التي ترغب في الآخرة.

٩ – اختيار الأخلاء والأصدقاء الصالحين الذين يذكِّرونَ الإنسانَ كلما غَفَل، ويعينونه على طاعة الله تعالى، والتفقه في دينه، وعلى تحري الحلال، واجتناب الحرام.

١٠ – البيئة الصالحة في البيت والحي والمدرسة والمسجد.

١١ – مجاهدة النفس والهوى والشيطان.

١٢ – أن يحذر السالك خطوات الشيطان وتزينه للمعاصي.

١٣ – أن يتفكر في آثار المعصية، وما يترتب عليها من العقاب في الآخرة.

---

(١) لطائف المعارف (ص:١٤٦– ١٤٧).

(٢) الجواب الكافي (ص:١٠٦).

١٤ - أن يتخير العلاج المناسب لكل ما يعتلج في نفسه من محفزات الشهوة، والبواعث على المعصية.

العقبة الثامنة

الإعراض عن الهدى

أولًا: تعريف الإعراض:

١ – الإعراض لغة: قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "الإِعْرَاضُ عن الشَّيء: الصَّدُّ عنه"(١).

٢ – بيان المعنى الاصطلاحي: قال الكفوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الإعراض: الانصراف عن الشيء بالقلب"(٢).

قال الطَّبري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه:١٢٤]: "الذي أُذَكِّرُه به فَتَوَلَّى عنه ولم يقبله ولم يستجب له، ولم يَتَّعِظْ به فينزجر عَمَّا هو عليه مقيم من مخالفة أمر ربِّه"(٣).

وقال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الإعراض: الإضراب عن الشيء، وحقيقته: جعل الهمزة للصيرورة، أي: أخذت عرضًا، أي: جانبًا غير الجانب الذي هو فيه. وأعرض الشيء بدا عرضه، ومنه: عَرَضْتُ العُودَ على الإناء، واعترض الشيء في حلقه: وقف فيه بالعرض، وأعرضه أظهر عرضه، أي: ناحيته"(٤).

ثانيًا: مظاهر الإعراض عن الحق وبيان كونه من العقبات:

للإعراض مظاهر عديدة أكثرها مذموم، ومنها أيضًا ما هو محمود،

* فمن المذموم:

١ – الإعراض عن الطَّاعات وكفران النعم:

إنَّ من أعظم مظاهرِ الإعراض المذموم: الإعراضُ عن شرع الله تعالى، فمن النَّاس من يذعن بقلبه ولسانه لشرع الله تعالى، ولكنَّه يعرض عن بعض الأحكام إمَّا جهلًا، أو تهاونًا، أو لهوى في نفسه، أو تقليدًا لأهل الجهل والهوى، وقد حذَّرنا الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من مخالفة أمره فقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

---

(١) الصحاح، مادة: (عرض) (٣/١٠٨٤).

(٢) الكليات (ص:٢٨).

(٣) تفسير الطبري (١٨/ ٣٩٠).

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٥٦).

والإعراضُ بغضًا لشعيرةٍ من الشَّعائر، أو لطاعةٍ مما يتعبَّد به النَّاس في دين الإسلام محبطٌ للعمل كما قال ﷺ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:٩].

ولا شكَّ أنَّ الشَّرع فيه تكاليف، وفيه ما يَشُقُّ على النُّفوس، وهذا هو السَّبب في تسمية الأحكام بالتَّكليف؛ لأنَّ الجنة حُفَّت بالمكاره، وقد يكون ذلك في بداية الأمر، فإذا اعتاده وأدرك ما فيه من المصلحة والصِّلة والمقصد فإنَّه يتلذَّذ بالطَّاعة.

وقد حذَّر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى من الإعراض عن طاعته، وكفران نِعَمِه، وبيَّن عاقبةَ المعرضين، وذكَرَ نِعَمَه على عبيده في آياتٍ كثيرة، فمن ذلك: نعمتُه عليهم في حفظِه لهم بالليل والنَّهار، وكِلَاءَتِهِ وحِرَاسَتِهِ لهم بعينه التي لا تنام، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٤٢]، لا يعترفون بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [التوبة:٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ [الإسراء:٨٣].

قال القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إذا نزعنا عنه موجبات الخوف، وأرخينا له حبلَ الإمهال، وهيَّأنا له أسباب الرَّفاهية اعترته مغاليط النِّسيان، واستولت عليه دواعي العصيان، فأعرض عن الشُّكر، وتباعد عن بساط الوفاق"(١).

قال الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإذا أنعمنا على الإنسان بالصِّحة والسَّعة أعرض عن ذِكْرِ الله تعالى، كأنَّه مستغنٍ عنه، مستبد بنفسه. ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ تأكيد للإعراض؛ لأنَّ الإعراض عن الشَّيء أن يوليه عرض وجهه. والنأى بالجانب: أن يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره"(٢). ويجوز أن يكون كناية عن الاستكبار؛ لأنه من عادة المستكبرين(٣).

وقال تعالى في بيان عاقبة الإعراض عن طاعته وكفران نعمه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي

---

(١) لطائف الإشارات (٢/٣٦٦).
(٢) الكشاف (٢/٦٩٠).
(٣) انظر: تفسير البيضاوي (٣/٢٦٥).

مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ:١٥- ١٧]، أي: فأعرضوا عن طاعةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وشكره، واتِّباعِ أوامر رسله، فأرسلنا عليهم السَّيل المدمِّر المخرب الذي لا يطاق لشدَّته وكثرته، فغرقت بساتينهم ودورهم.

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: "فلمَّا كفروا بالله تعالى بعد الدَّعوة للتوحيد قدَّر الله لهم عقابًا، بأن قدر أسباب انهدام السَّدِّ فاندفع ما فيه من الماء، فكان لهم غرقًا وإتلافًا للأنعام والأشجار، ثم أعقبه جفاف باختلال نظام تساقط الأمطار، وانعدام الماء وقت الحاجة إليه، وهذا جزاء على إعراضهم وشركهم"(١).

فمن سنن الله تعالى الكونيَّة التي لا تتبدل ولا تتغير أنَّ العصيان يجلب الانتقام، وأنَّ الطَّاعة تجلب الرَّحمة والرِّضوان، وأنَّ من أكبر أسباب زوال النعمة: كفرانها، قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧]، ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق:٨-٩]، ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ [الحاقة:١٠].

٢ – الإعراض عن الله ﷻ، وعن كلامه، وعما بلَّغته الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ:

ومن أعظم مظاهرِ الإعراضِ وأسبابِ الضَّلال خطرًا: الإعراضُ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعن كلامه، وعما بلَّغته الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من شرعه، ولاسيما بعد قيام الحجَّة، وارتفاع الجهل. يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [الأنعام:٤-٥].

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٦٩).

قال الزَّمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "يعني: وما يظهر لهم دليلٍ قط من الأدلَّة التي يجب فيها النَّظر والاستدلال والاعتبار إلا كانوا عنه معرضين: تاركين للنَّظر، لا يلتفتون إليه، ولا يرفعون به رأسًا"(١).

وقال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذه الآية تدلُّ على أنَّ التَّقليد باطلٌ، والتَّأمل في الدَّلائل واجبٌ، ولولا ذلك لما ذمَّ الله تعالى المعرضين عن الدَّلائل. وقال: اعلم أنَّه تعالى رتَّب أحوال هؤلاء الكفار على ثلاث مراتب، فالمرتبة الأولى: كونهم معرضين عن التَّأمل في الدَّلائل، والتَّفكر في البيِّنات. والمرتبة الثانية: كونهم مكذِّبين بها، وهذه المرتبة أزيد مما قبلها؛ لأنَّ المعرض عن الشَّيء قد لا يكون مكذِّبًا به، بل يكون غافلًا عنه غير متعرض له، فإذا صار مكذبًا به فقد زاد على الإعراض. والمرتبة الثالثة: كونهم مستهزئين بها؛ لأنَّ المكذِّب بالشَّيء قد لا يبلغ تكذيبه به إلى حدِّ الاستهزاء، فإذا بلغ إلى هذا الحدِّ فقد بلغ الغاية القصوى في الإنكار، فبيَّن تعالى أنَّ أولئك الكفَّار وصلوا إلى هذه المراتب الثَّلاثة على هذا التَّرتيب"(٢).

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأصل الإعراض: صرف الوجه عن النَّظر في الشيء، وهو هنا مجاز في إباء المعرفة، فيشمل المعنى الحقيقي بالنسبة إلى الآيات المبصرات كانشقاق القمر، ويشمل ترك الاستماع للقرآن، ويشمل المكابرة عن الاعتراف بإعجازه وكونه حقًّا بالنسبة للذين يستمعون القرآن ويكابرونه"(٣).

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾ [ص:٦٧-٦٨]. ورد عن السدي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾، قال: القرآن. وقوله: ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ يقول: أنتم عنه منصرفون لا تعملون به، ولا تصدِّقون بما فيه من حجج الله وآياته(٤). وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "أي: هذا الذي

(١) الكشاف (٢/٥).
(٢) مفاتيح الغيب (١٢/٤٨٣).
(٣) التحرير والتنوير (٧/١٣٥).
(٤) انظر: تفسير الطبري (٢١/٢٣٦).

أنبأتكم به من كوني رسولًا منذرًا، وأنَّ الله واحدٌ لا شريك له: نبأٌ عظيمٌ لا يعرض عن مثله إلَّا غافل شديدُ الغفلة"(١).

فمن أسباب الإعراض: الغفلة عن التَّذكر والتَّدبر: قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء:٥]، ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر:٤٩].

٣ – الإعراض عن سماع المواعظ وعن العلم والتبصر:

إنَّ من أصنافِ النَّاس من يشمئزُّ من سماع المواعظ، ولا يحبُّ الاستماع إليها، وهذا في قلبه مرضٌ، وفيه شَبَهٌ بالمشركين والمنافقين، ويُخشَى عليه من سوء العاقبة، وسوء الخاتمة، وقد وصف الله ﷻ المشركين بقوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الزمر:٤٥].

ووصف المنافقين بقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:١٢٧]. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا إخبارٌ عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾، أي: تلفتوا، ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾، أي: تولوا عن الحقِّ وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدِّين لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يقيمونه كما قال الله ﷻ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ۝٥١﴾ [المدثر:٤٩-٥١]، وقال تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧﴾ [المعارج:٣٦-٣٧]"(٢)، أي: ما بال أولئك الكفار المنصرفين عنك متفرقين، يهربون من الحقِّ، ويذهبون إلى الباطل.

---

(١) الكشاف (٤/١٠٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٢٤٠).

وقال الله ﷻ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ [هود:٥]، أي: "يزورُّون عن الحقِّ وينحرفون عنه؛ لأنَّ من أقبل على الشَّيء استقبله بصدره، ومن ازورَّ عنه وانحرف ثنى عنه صدره، وطوى عنه كشحه"(١).

وبيَّن الحقُّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنَّ الإعراضَ عن التَّذكر من أسبابِ الضَّلال، وظلمةِ القلب والبصيرة في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾ [يس:٩-١١]. وبالمقابل فإنَّ التَّذكر والخشية من أسباب الهداية.

وفي الحديث: عن أبي واقد الليثي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فأما أحدهما: فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر: فجلس خلفهم، وأما الثالث: فأدبر ذاهبًا، فلمَّا فرغ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: ((**ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه**))(٢).

قال ابن بطال رَحِمَهُٱللَّهُ: "فيه أن من قصد العلم ومجالسه، ثم أعرض عنها، فإن الله يعرض عنه، ومن أعرض الله عنه فقد تعرض لسخطه، ألا ترى قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَاتْلُ

---

(١) الكشاف (٢/٣٧٨). يقال: (ازْوَرَّ) عن الشيء (ازْوِرَارًا)، أي: عدل وأعرض عنه وانحرف. انظر: الفائق في غريب الحديث والأثر (٢/ ١٣٢)، الصحاح، للجوهري، مادة: (زور) (٢/٦٧٣). و(الْكَشْحُ) مثال فَلْس، وهو الخصر، ما بين الْخَاصِرَة إلى الضِّلَع الْخَلْف. و(الكاشح): العدوُّ الذي يُضْمِر عداوته ويطوي عليها كَشْحَه، أي: باطنه. ويقال: "وطوى فلان عنِّي كَشْحَه، إذا قَطَعَك. وطويتُ كَشْحي على الأمر، إذا أضمرته وسترته". انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (كشح) (١/٣٩٩).

(٢) صحيح البخاري [٦٦، ٤٧٤]، مسلم [٢١٧٦].

عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف:١٧٥]، وهذا انسلخ من إيواء الله بإعراضه عنه"(١).

٤ – الإعراض عن العاقبة وعن الحساب في الآخرة:

قال الله تعالى في بيان عاقبة المعرضين: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٥٧]، ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [طه:٩٩-١٠١].

وقال الله ﷻ في بيان عاقبة الغافلين عن ذكره: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾﴾ [طه:١٢٤-١٢٦].

قال القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الكافر إذا أعرض عن ذكره بالكلية فله المعيشة الضنك في الدنيا، وفي القبر، وفي النَّار، وبالقلب من حيث وحشة الكفر، وبالوقت من حيث انغلاق الأمور. ويقال: من أعرض عن الانخراط في قضايا الوفاق انثالت(٢) عليه فنون الخذلان، ومن أعرض عن استدامة ذكره سبحانه بالقلب توالت عليه من تفرقة القلب ما يسلب عنه كلَّ روح.

ومن أعرض عن الاستئناس بذكره انفتحت عليه وساوس الشَّيطان وهواجس النَّفس بما يوجب له وحشة الضمير، وانسداد أبواب الراحة والبسط. ويقال: من أعرض عن ذكر الله فى الخلوة قيَّض الله له فى الظَّاهر من القرين السوء ما توجب رؤيته له قبض القلوب، واستيلاء الوحشة"(٣).

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/١٤٩).

(٢) أي: انصبت، يقال: انثال عليه التراب، أي: انصبَّ. وانْثالَ عليه الناس من كلِّ وجه، أي: انصبُّوا. انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (ثول) (٤/١٦٤٩).

(٣) لطائف الإشارات (٢/٤٨٦).

وقال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن الذنوبَ تتبعُها ولا بدَّ من الهموم والآلام وضيق الصدر والنَّكد، وظلمة القلب، وقسوته أضعاف أضعاف ما فيها من اللذة، ويفوت بها من حلاوة الطَّاعات، وأنوار الإيمان، وسرور القلب ببهجةِ الحقائق والمعارف، ما لا يُوازي الذرةَ منه جميعُ لذاتِ الدنيا، فيحصلُ لصاحب المعصيةِ العيشةُ الضنكُ، وتفوتُهُ الحياة الطيبة، فينعكسُ قصدُهُ بارتكابِ المعصيةِ، فإنَّ اللهَ ضمِنَ لأهلِ الطَّاعةِ الحياةَ الطيبة، ولأهل المعصيةِ العيشةَ الضنك"(1). فالآيات ناطقة بأنَّ دينَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الحق يورث أهلَه العاملينَ سعادةَ الدُّنيا والآخرة.

وقال تعالى في عاقبة الغافلين عن الحساب في الآخرة مبينًا سبب تلك الغفلة: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء:١-٣].

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أيضًا في بيان عاقبة المعرضين: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١٣]، ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ۝١٦ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝١٧﴾ [الجن:١٦-١٧].

٥ - الإعراضُ عن ذِكْر الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه:١٢٤]. وقد تقدم بيان عاقبة الغافلين عن ذكره.

كما بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كذلك أنَّ من أسباب الضَّلال: الإعراض عن ذكره تعالى، قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ۝٣٧﴾ [الزخرف:٣٦-٣٧].

قال ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يعش من قولك: عَشِيَ الرَّجلُ إذا أظلم بصره، والمراد به هنا: ظلمة القلب والبصيرة.

---

(١) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب، رسالة في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨] (٢/٨٠٠- ٨٠١).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يعشى بفتح الشين: إذا حصلت الآفة في عينيه، ويعشو بضم الشين: إذا نظر نظرة الأعشى، وليس به آفة، فالفرق بينهما كالفرق بين قولك: عمي وتعامى، فمعنى القراءة بالضم: يتجاهل ويجحد معرفته بالحقِّ، والظَّاهر أنَّ ذلك عبارة عن الغفلة وإهمال النَّظر، وذكر الرَّحمن.

وقال الزَّمخشري: يريد به القرآن.

وقال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يريد به ما ذَكَّرَ الله به عباده من المواعظ، فالمصدر مضاف إلى الفاعل.

وقال ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويحتمل عندي أن يريد ذكرَ العبدِ لله، ومعنى الآية: أنَّ من غفل عن ذكر الله ﷻ قيَّضَ الله له شيطانًا يكون له قرينًا، فتلك عقوبة على الغفلة عن الذِّكر بتسليط الشَّيطان، كما أنَّ من داومَ على الذِّكر تباعد عنه الشَّيطان"[1].

وقال الرَّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمراد منه: التَّنبيه على آفاتِ الدُّنيا، وذلك أنَّ من فاز بالمال والجاه صار كالأعشى عن ذكر الله، ومن صار كذلك صار من جلساء الشَّياطين الضَّالين المضلِّين"[2]، أي: "يتعام ويعرض عنه[3]؛ لفرط اشتغاله بالمحسوسات، وانهماكه في الشَّهوات"[4].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ من ابتلاه بقرينه من الشَّياطين وضلاله به إنما كان بسبب إعراضه وعشوه عن ذكره الذي أنزله على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان عقوبة هذا الأعراض أن قيَّضَ له شيطانًا يقارنه، فيصده عن سبيل ربِّه، وطريق فلاحه.

وهو يحسب أنه مهتد، حتى إذا وافى ربَّه يوم القيامة مع قرينة، وعاين هلاكه وإفلاسه. قال: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف:٣٨].

---

(١) تفسير ابن جزي (٢/٢٥٨- ٢٥٩)، الكشاف (٤/٢٥٠- ٢٥٢)، المحرر الوجيز (٥/٥٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/٦٣٢).

(٣) أي: عن ذكر الرحمن.

(٤) تفسير البيضاوي (٥/٩١).

وكل من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكر الله فلا بد أن يقول هذا يوم القيامة.

فإن قيل: فهل لهذا عذر في ضلاله؟ إذ كان يحسب أنه على هدى، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٣٧].

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله من الضَّلال الذين منشأ ضلالهم: الإعراض عن الوحي الذي جاء به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –ولو ظن أنه مهتد–؛ فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعي الهدى. فإذا ضل فإنما أُتِيَ من تفريطه وإعراضه. وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة، وعجزه عن الوصول إليها. فذاك له حكم آخر. والوعيد في القرآن إنما يتناول الأول.

وأما الثاني: فإن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد إقامة الحجة عليه، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، وقال تعالى في أهل النَّار: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦]. وقال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر:٥٦- ٥٩]، وهذا كثير في القرآن"[١].

وإذا كان الإعراض عن ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ من أسباب الضَّلال فإنَّ ذكرَ الله تعالى على الدَّوام من أسباب الهداية والتوفيق، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف:٢٣-٢٤].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/٤٤).

٦ – الإعراضُ عن النَّظر في آياتِ الله تعالى الكونيَّة:

يطلق النظر على كلٍّ من التفكر والتذكر، ويقال: نظر فيه أي: فكَّر وتذَّكر؛ لأن النظر في الشيء يحتاج إلى إحضار القلب والتفاته إلى المنظور فيه(١).

ولما كان التأمل فى ملكوت السموات والأرض يعين على التفكير السليم، وعلى استعمال العقل فيما يهدى إلى الحق والخير فقد أمر الله ﷻ الناس بالنظر والاعتبار والتفكر في السموات وما تشتمل، والأرض وما تشتمل. فقال سبحانه: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١]، يعني: تفكروا؛ فإن هذا التفكر يهدي أصحاب العقول السليمة إلى أن هذا الكون إلهًا واحدًا عليمًا قديرًا، هو وحده المستحق للعبادة والطاعة. ثم ذكر في آية أخرى ما يدل على أن ذلك النظر مع لزومه يجب معه النظر في اقتراب الأجل، فقد يقترب أجله، ويضيع عليه أجر الامتثال بمعالجة الموت، وذلك في قوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف:١٨٥]، إذ المعنى: أو لم ينظروا في أنه عسى أن يكون أجلهم قد اقترب، فيضيع عليهم الأجر بعدم المبادرة قبل الموت. فينبغي على كلِّ باحث عن الحقِّ: النَّظرُ في دلائل الوحدانية والإرشاد إلى تحصيل أسباب الإيمان، ودفع غشاوات الكفر، وإرشاد الناس إلى النظر والاستدلال بما هو حول الإنسان من أحوال الموجودات وتصاريفها الدالة على الوحدانية، مثل: أجرام الكواكب، وتقادير مسيرها، وأحوال النور والظلمة، والرياح والسحاب والمطر، وكذلك البحار والجبال.

ومن الآيات التي تحثُّ على النظر والتأمل في آيات الخلق قولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية:١٧-٢٠].

ويقول الله ﷻ في التَّحذير من الغفلة والإعراض، والحثِّ على النَّظر والتأمل: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس:٩٢]. ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي

(١) انظر: وسائل الإقناع في القرآن، د. عبد القادر دهمان (ص:٨٥- ٨٧).

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الحجر:٨١]، ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء:٣٠-٣٣]، ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف:٣]، وقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ [القمر:١-٢]. ففي الآيات توبيخ للغافلين عن النظر السليم الذي يؤدي إلى الهداية.

*وللإعراض صور أخرى محمودة منها: الإعراض عن بهتان المشركين، وعدم الاكتراث بأقوالهم. قال تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٠٦]، ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ [المائدة:٤٢].

والمعنى: لا تبالي بما يقولون فيك ويتهمونك، وليس المراد الإعراض عن مخاطبتهم مجادلتهم ودعوتهم. قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمراد بالإعراض عن المشركين: الإعراض عن مُكَابَرَتِهِمْ وَأَذَاهُمْ، لا الإعراض عن دعوتهم، فإن الله تعالى لم يأمر رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقطع الدعوة لأي صنف من الناس، وكل آية فيها الأمر بالإعراض عن المشركين فإنما هو إعراض عن أقوالهم وأذاهم، ألا ترى كل آية من هذه الآيات قد تلتها آيات كثيرة تدعو المشركين إلى الإسلام والإقلاع عن الشرك كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء:٦٣]"(١). وقال في موضع آخر: "ليس المقصود من الإعراض: ترك الدعوة، بل المقصود: الإغضاء عن سبابهم وبذيء أقوالهم مع الدوام على متابعة الدعوة"(٢).

---

(١) التحرير والتنوير (٧/٤٢٥).

(٢) المصدر السابق (٧/ ٤٢٧).

"والوعظ: الأمر بفعل الخير وترك الشر بطريقة فيها تخويف وترقيق يحملان على الامتثال، فهذا الإعراضُ إعْرَاضُ صفْح أو إعْرَاضُ عَدَمِ الْحُزْن من صُدُودِهِمْ عَنْكَ، أي: لا تَهْتَمَّ بِصُدُودِهِمْ، فَإِنَّ اللهَ مُجازِيهِم، بدليل قوله: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾، وذلك إِبْلَاغٌ لهم في الْمَعْذِرَة، ورَجَاءٌ لِصَلَاح حالهم، شَأْنَ النَّاصح السَّاعِي بِكُلِّ وسيلة إلى الإرشاد والهدى"(١).

ونحوه قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

ومن ذلك: الإعراض عن اللغو: قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥].

والمعنى: "وإذا مر أهل المروءة على أصحاب اللغو تنزهوا عن مشاركتهم وتجاوزوا ناديهم فكانوا في حال كرامة، وهذا ثناء على المؤمنين بترفعهم على ما كانوا عليه في الجاهلية كقوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [الأنعام:٧٠]"(٢). وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:٣]، وقال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢]، "أي: إذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به مروا معرضين عنهم، كرامًا مُكْرِمِينَ أَنْفُسَهُمْ عن الخوض معهم في لغوهم، وهو كل كلام لا خير فيه"(٣). فلا يحضرون محاضر الباطل التي كان يحضرها المشركون، وهي مجالس اللهو والغناء والغيبة ونحوها.

وقد نهى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كذلك نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن مجالسة الخائضين في آياته، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ الآية [الأنعام:٦٨]. "ولم يبين كيفية خوضهم فيها، التي هي سبب منع مجالستهم، ولم يذكر حكم مجالستهم هنا، وبين ذلك كله في موضع آخر، فبين أن خوضهم فيها بالكفر والاستهزاء بقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ

(١) المصدر السابق (٥/١٠٨).
(٢) المصدر السابق (١٩/٧٩).
(٣) أضواء البيان (٦/ ٧٩).

آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ الآية [النساء:١٤٠]. وبين أن من جالسهم في وقت خوضهم فيها مثلهم في الإثم، بقوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾، وبين حكم من جالسهم ناسيًا، ثم تذكر بقوله هنا: ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨]"(١).

ثالثًا: حكم الإعراض عن الحقِّ:

الإعراض عن الحقِّ عدَّه الإمام ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الكبائر، وهي من كبائر الباطن التي يذمُّ العبدُ عليها أعظم ممَّا يذمُّ على السَّرقة والزِّنا ونحوها من كبائر البدن؛ وذلك لعظم مفسدتها، وسوء أثرها ودوامه(٢).

رابعًا: إجمال أسباب الإعراض:

١ – الكبر والتكذيب:

إنَّ الإعراض قد يكون بسبب الكبر، وقد يصحب الإعراض تكذيب، وقد يصحب الإعراض والتكذيب استهزاء وإيذاء.

٢ – الجحود:

ومن الإعراض ما يكون جحودًا(٣)، بسبب الكبر أو الخوف على الزَّعامة أو المصالح أو الحسد ونحو ذلك كما أخبر الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن أهل الكتاب: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦]، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا

(١) المصدر السابق (١/٤٨٥).

(٢) انظر: نضرة النعيم (٩/٣٩١٣- ٣٩١٤)، الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيتمي (ص:١٣١).

(٣) يقال: (جحد الأمر): أنكره مع علمه به.

يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤].

وقد دلَّ كذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٣٧] على أنَّ الإعراض يكون معاندة. وقد فصَّلت القول في ذلك في (عقبة العجب والكِبْر).

٣ – الشَّك والحيرة والتَّردد:

وقد يكون الإعراض بسبب الشَّك والحيرة والتَّردد مع قصورٍ في البحث والنَّظر، قال الله ﷻ: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل:٦٦].

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "فإن قلت: هذه الإضرابات الثلاثة ما معناها؟ قلت: ما هي إلا تنزيل لأحوالهم: وصفهم أولًا بأنهم لا يشعرون وقت البعث. ثم بأنهم لا يعملون أن القيامة كائنة. ثم بأنهم يخبطون في شك ومرية، فلا يزيلونه، والإزالة مستطاعة. ألا ترى أن من لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أربابها بعضهم لبعض، كان أمره أهون ممن سمع بها وهو جاثم، لا يشخص به طلب التمييز بين الحق والباطل؟ ثم بما هو أسوأ حالًا، وهو العمى وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه، لا يخطر بباله حق ولا باطل، ولا يفكر في عاقبة. وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه. فلذلك عداه بـ (من) دون (عن)؛ لأن الكفر بالعاقبة والجزاء، هو الذي جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون"[1].

وقال تعالى: ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص:٨].

ومما يدل على أنَّ إعراضهم كان بسبب قصورٍ في البحث والنَّظر أنَّ الشَّك جاء في مقابل آياتٍ بيناتٍ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ

(١) الكشاف (٣/ ٣٨٠)، وانظر: التحرير والتنوير (٢٠/٢٣).

يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [غافر:٣٤]، "أي: ولقد جاء آباءكم يوسف من قبل موسى بالآيات الواضحات، والمعجزات الباهرات، فلم يزالوا في ريب من أمره، وشك من صدقه، فلم يؤمنوا به، حتى إذا مات قالوا: لن يبعث الله رسولًا من بعده يدعو إليه، ويحذِّر بأسه، ويخوِّف من عقابه، فالتكذيب متوارث، والعناد قديم، والريب دأب آبائكم الغابرين.

ثم بين أنه لا عجب في تكذيبهم فقد طمس الله بصائرهم، وران على قلوبهم، حين دسُّوا أنفسهم بقبيح الخصال، وعظيم الآثام.

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾، أي: مثل هذا الضّلال الواضح، يضل الله ويصد عن سبيل الحق، وقصد السبيل من هو مسرف في معاصيه مستكثر منها، شاك في وحدانيته ووعده ووعيده، لغلبة الوهم عليه، وانهماكه في التقليد. ثم بين هؤلاء المسرفين المرتابين فقال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ [غافر:٣٥]، أي: إن المسرفين المرتابين هم الدين يخاصمون في حجج الله التي أتتهم بها رسله؛ ليدحضوها بالباطل من الحجج التي لا مستساغ لها من عقل ولا نقل، فيتمسكون بتقليد الآباء والأجداد، ويتمسكون بترّهات الأباطيل التي لا يتقبلها ذوو الحصافة والرأي"(١).

وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق:٥].

قوله تعالى: ﴿مَرِيجٍ﴾، "أي: مختلط. وقال بعضهم: مختلف، والمعنى واحد"(٢).

قال القشيري رَحِمَهُ اللَّهُ: "أي: مختلط وملتبس فهم يتردَّدون في ظلمات تحيرهم، ويضطربون في شكِّهم"(٣).

٤ - العجب والغرور:

وقد يكون سبب الإعراض: العجب والغرور، ولا سيما (غرور العلم)، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر:٨٣]. وسيأتي بيانه في (عقبة الغرور).

---

(١) تفسير المراغي (٢٤/ ٦٩) بتصرف.

(٢) أضواء البيان (٧/٤٣٨).

(٣) لطائف الإشارات (٣/ ٤٤٨).

٥ - اتباعُ الظنِّ المنهي عنه:

وقد يكون سبب الإعراض: اتباعُ الظنِّ المنهي عنه مع قصور في البحث والنَّظر، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [فصلت:٥٠]. وقد فصَّلت القول في ذلك في (عقبة اتباع الظن المنهي عنه).

٦ — الغفلة:

ومن أسباب الإعراض: الغفلةُ عن النظر في آياتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكونية، وعن العاقبة وعن الحساب في الآخرة، وعن نِعَم الله تعالى، وعن التذكر والتدبر -كما تقدم-. وسيأتي مزيد من البيان في عقبة: (الغفلة).

٧ - اتِّباعُ الهوى:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:٧١]. وقد جاء مبينًا في (عقبة اتباع الهوى).

٨ — الجهل والتقليد:

ومن الإعراض ما يكون تقليدًا أو جهلًا أو سوء فهم: قال تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٢٤]. قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون الصَّواب فيما يقولون ولا فيما يأتون ويذرون، فهم معرضون عن الحقِّ جهلًا منهم به، وقلَّة فهم"(١). وقال القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "دلت الآية على فساد القول بالتقليد، ووجوب إقامة الحجة والدليل"(٢). وقد جاء بيان ذلك في (عقبة التقليد الأعمى).

(١) تفسير الطبري (١٨/ ٤٢٧).

(٢) لطائف الإشارات (٢/٤٩٨).

والآيات الدَّالة على أنَّ الجهل سببٌ للإعراض كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨]، وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٥٥]، ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠]، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٣٨]، وقد فصَّلتُ القول في (عقبة الجهل).

ومن أوجه الإعراض المذمومة: ما له صلة بقصورٍ في البحث قد يؤول إلى جهلٍ مركب، فمن أوجه القصور: الإعراض عن حجج الآخرين، والنَّظر فيها ممن يملك أهلية البحث والنَّظر، ويأمن على نفسه من الزَّيغ والضَّلال، وقد بيَّناه في شروط من يتعاطى مثل هذه العلوم، في (عقبة المجادلة بالباطل)، وفي (عقبة الافتتان بعلوم الفلسفة).

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه؛ لأنَّه قد يتنبَّه بالاستماع لترك الغفلة، ويزدادُ به تثبيتًا فيما اعتقده من الصواب"(١).

وقد يكون الإعراض نتيجة لإعلاء العصبية القبليَّة، أو لغلو العاطفة، والبعد عن التأمل والروية.

فصاحب العاطفة الجامحة لا يبحث عن الحقيقة، ولكنه يؤمن بما يؤمن به مسبقًا، ويحاول تبرير ذلك بالمسوغات؛ لإقناع نفسه أو من وافقه بأنه على المحجة(٢)، وأن من خالفه على باطل، وذلك بصرف النَّظر عن مناهج الآخرين وحججهم.

وهذا ما كان عليه حال كفار قريش الذين صمُّوا آذانهم عن سماع الآيات البيانات، وتواصوا بالشَّغب أثناء السَّماع، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].

---

(١) الرسالة، للإمام الشافعي (ص:٥٠٩).

(٢) أي: الطريق المستقيم.

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذا من شأن دعاة الضَّلال والباطل أن يكُمُّوا أفواه الناطقين بالحقِّ والحجة بما يستطيعون من تخويف وتسويل، وترهيب وترغيب، ولا يَدعوا النَّاس يتجادلون بالحجة، ويتراجعون بالأدلة؛ لأنهم يوقنون أنَّ حجة خصومهم أنْهَضُ، فهم يستروها ويدافعوها لا بمثلها، ولكن بأساليب من البهتان والتضليل، فإذا أعيتهم الحِيَل ورأوا بوارق الحق تخفق خَشُوا أن يعُمَّ نورُها الناسَ الذين فيهم بقية من خير ورشد عدلوا إلى لغو الكلام، ونفخوا في أبواق اللغو والجعجعة؛ لعلهم يغلبون بذلك على حجج الحق، ويغمرون الكلام القول الصالح باللغو، وكذلك شأن هؤلاء"(١).

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "من الناس من لا يعرف مذاهب أهل العلم، وقد نشأ على قول لا يعرف غيره"(٢).

٩ - التَّعارض مع المصالح والأهواء والمنافع:

قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٣٤]، ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [النور:٤٨-٤٩].

١٠ - متابعة أهل الباطل:

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة:١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة:١١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة:١٠٤].

١١ - ضعف الحجة والبرهان في مقابل قوة حجج المخالف:

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٧٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/٣٥).

إن من أسباب الإعراض: ضعف الحجة والبرهان في مقابل قوة حجج المخالف، فإنَّ أكثر المعرضين إنما أعرضوا عن الله تعالى بعد قيام الحجَّة عليهم، وارتفاع الجهل عنهم -كما تقدم-، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:١١١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [الأنعام:٤-٥]، وقال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٢٤]، ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:٦٤]، ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص:٧٥].

خامسًا: إجمال مضارِّ الإعراض:

١ - دليل نقص الإيمان وسفاهة الأحلام.

٢ - يوصل إلى النَّار.

٣ - البعد عن الله ﷻ وعن النَّاس.

٤ - المعرض عن الحقِّ واقعٌ في الضَّلال بذنبه.

٥ - دليل الكبر والحسد وهما الدّافعان إليه في العادة"[(١)].

٦ - الإعراض عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سببٌ للجهل به سبحانه، وسبب للجهل بسبل النَّجاة، ومقوّمات السَّعادة.

٧ - الإعراض سببٌ للغفلة عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعن آياته، وعن التذكر والتدبر والعاقبة.

---

(١) نضرة النعيم (٣٩٢٦/٩).

سادسًا: الوقاية من خطر الإعراض والعلاج:

إنَّ من أسباب الوقاية من خطر الإعراض:

١ - إتقان مهارة الاستماع والتَّأمل والتَّدبر:

إنَّ مهارة الاستماع وحسن الإنصات والتَّأمل والتَّدبر من طرق الإقناع والاستجابة، كما أنَّ الوصول إلى نتيجة مع من لا يريد أن يستمع ممتنعة، والمحاورة أو الجدل أو الموعظة في هذه الحالة لا تفيد.

وقراءةُ النَّقل بالعقل وتقويم العقل بالنقل يقتضي حسنَ الاستماع والتَّأمل والنَّظر. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦]. وقد فصَّل الله ﷻ الآيات وبيَّنها لقوم يعقلونها، ومع ذلك أعرض من أعرض، وأصمَّ أذنيه عن السَّماع، وقلبه عن التَّعقل. قال الله ﷻ: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝﴾ [فصلت:٣-٥].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]. فمن هم أمثالُ هؤلاء من حيث الخَلق، والتَّمكن من السَّماع قد استجابوا، وهؤلاء أعرضوا، فمن استجاب فقد انتفع، ومن أعرض كان كالأنعام، بل هو أضلُّ منها؛ لتمكنه من السَّماع والفهم. قال الله ﷻ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝﴾ [الأنفال:٢٠-٢٤]، ﴿أَمْ

تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤].

وقد كان المشركون يتواصون بالشَّغب أثناء السَّماع كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].

فأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المسلمين حالة أداء الوحي أن يكونوا على خلاف هذه الحالة، وأن يستمعوا، ومدح الله ﷻ الجنَّ على ذلك فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩].

"ويدل على ذلك أنَّ الله تعالى أمرَ بالاستماع، وأمرَ بالإنصات بعده، فلا يخفى على عاقل أنَّ الإنصاتَ للاستماع، وإنما يجبُ الاستماع متى وجب الإسماع والتبليغ، وإنما وجب ذلك فيما ذكرناه من تبليغ الوحي، فأما ما يقرؤه الإنسان لنفسه، فلا تعلق له بذلك"(١).

"فترى بعضهم ينهى بعضًا عن سماعه، ويأمرهم باللغو فيه، كالصِّياح والتَّصفيق المانع من السَّماع؛ لكراهتهم للحقِّ، ومحاولتهم أن يغلبوا الحقَّ بالباطل. وهذه الآية الكريمة سؤال معروف وهو أن يقال: قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون:٧٠] يفهم من مفهوم مخالفته أنَّ قليلًا من الكفَّار، ليسوا كارهين للحقِّ. وهذا السُّؤال وارد أيضًا على آية الزُّخرف، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف:٧٨].

والجواب عن هذا السُّؤال: هو ما أجاب به بعض أهل العلم بأنَّ قليلًا من الكفَّار كانوا لا يكرهون الحقّ، وسبب امتناعهم عن الإيمان بالله ﷻ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس هو كراهيتهم للحقِّ، ولكن سببه: الأنفةُ والاستنكافُ من توبيخ قومهم، وأن يقولوا: صبأوا وفارقوا دين آبائهم، ومن أمثلة من وقع له هذا: أبو طالب، فإنَّه لا يكره الحقَّ الذي جاء به النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد كان يشدُّ عضده في تبليغه رسالته"(٢).

(١) أحكام القرآن، للكيا الهراسي (١٤٤/٣).
(٢) أضواء البيان (٣٤١/٥).

فلذلك كان الاستماع والإنصات والتَّدبر هو السَّبيل إلى الإبصار والبعد عن الغفلة.

وليس مجرَّد السَّماع موصل إلى الهداية، وإنما سماع التَّأمل والتَّبصر والفهم مع التَّجرد للحق، والحرص على الانتفاع، فقد يكون الإعراض عن الحقِّ بعد التَّعقل لآفات تكون سببًا للإعراض، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

وإنما ينتفع بالآيات الذين يسمعون سماع التَّأمل والتَّبصر مع الحرص على اتِّباع الحق كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس:٦٧]، ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل:٦٥]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم:٢٣]، ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة:٢٦].

وقد ذكر الله ﷻ حال قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من حيث الإعراض عن آيات الله تعالى فقال ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح:٥-٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ [هود:٥].

والسَّمع والفهم يقتضي الاستجابة والانتفاع، قال الله ﷻ: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة:٩٣]، "فالسمع بمعنى الإجابة، ومنه قولهم: (سمعًا وطاعة)، أي: إجابة وطاعة. ومنه: (سمع الله لمن حمده في الصلاة)، أي: أجاب دعاء من حمده، ويشهد لهذا المعنى قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور:٥١]، وقوله ﷻ: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ

رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥].

وهذا قول الجمهور. وقيل: إن المراد بقوله: ﴿وَاسْمَعُوا﴾، أي: بآذنكم، ولا تمتنعوا من أصل الاستماع.

ويدل لهذا الوجه: أنَّ بعض الكفَّار ربما امتنع من أصل الاستماع؛ خوف أن يسمع كلام الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كما في قوله تعالى عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح:٧].

وقوله عن قوم نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [الحج:٧٢]، وقوله ﷻ: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة:٩٣]؛ لأنَّ السَّمع الذي لا ينافي العصيان هو السَّمع بالآذان دون السَّمع بمعنى الإجابة"[1]. وقوله ﷻ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن:١٦]؛ فالمراد الحثُّ على سمعٍ يُنتفع به، ولا يرتدُّ على صاحبه من بعد ما تبينَ له الحق، وانكشفَ له زيف السُّبل الأخرى، وتهافت ما قامت عليه. يقول الله ﷻ: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا النساء﴾ [النساء:٤٦]. ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٤٧]، ويقول: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور:٥١-٥٢].

---

(١) أضواء البيان (١/٤٠).

والنَّص ينهج أساليب حكيمة، ومنها: التشويق الذي يدفعُ إلى الاستماع والتَّأمل والاستجابة، ومنها: الترغيب والترهيب والاعتبار إلى غير ذلك(١).

واتِّباع الأساليب الحكيمة في الدَّعوة إلى الله ﷻ هو منهجُ العلماء المصلحين، قال الله ﷻ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

والحاصل أن من أسباب الوقاية من خطر الإعراض: التَّفكر في آياتِ الله تعالى في الأنفس وفي الآفاق، وتدبر كلام الله تعالى المنزَّل لقوم يعقلونه بعقولهم كما قال تعالى في محكم التَّنزيل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢]، وقال: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النُّور:٦١].

٢ – تحرير العقل من التَّبعية والتَّقليد المذموم، وإخلاص النِّية في البحث والطلب مع التَّجرد للحقِّ، وتحرير العقل من الأوهام والخرافات، والحرص على تكميل النفس بالعلم والمعرفة، والتَّفقه في الدين، ومن ذلك: (فقه العقبات التي تصدُّ عن الهداية)، وتكون سببًا في الإعراض عن الحقِّ، من نحو: الغفلة والتَّقليد المذموم، واتباع الظَّنِّ المنهي عنه إلى غير ذلك؛ لاجتنابها، والتحذيرِ منها، والتَّبصُّرِ بمآلاتها.

٣ – مجالسة العلماء وصحبة الصَّالحين.

٤ – الاعتصام بكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وسنَّة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهما يعصمان من الزَّيغ والضَّلال.

٥ – الاحتراز عن الطُّرق الملتوية التي تُضلُّ الباحثَ عن الحقِّ، وتستنفذُ الطَّاقة والجهد، وتُضيِّع العمر.

٦ – إدراكُ الغاية من الخلق، وأنَّ الدُّنيا زائلة، وأنَّ الآخرة خيرٌ وأبقى.

---

(١) وقد بيَّنتُ تنوع أساليب الخطاب في القرآن الكريم في كتابي: (أساليب الخطاب في القرآن لكريم).

٧ - ذكر الله تعالى على الدَّوام، وشكره على نعمه بالقول والفعل، ومحبَّته وخشيته، والإكثار من الدُّعاء فهو بابُ الله تعالى الأعظمُ المفتوحُ بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبدُ بغفلته[1].

٨ - الاعتبار بالعاقبة.

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٣٩٦).

العقبة التاسعة

الشَّك والحَيْرَة

أولًا: تعريف الشك:

١ – الشك لغة: الارتياب، وهو خلاف اليقين، فقولهم: خلاف اليقين هو التردد بين شيئين سواء استوى طرفاه، أو رجح أحدهما على الآخر[١].

ومنهم من فرَّق بين الشك والريب، قال العسكري في (الفروق): "الشك: هو تردد الذهن بين أمرين على حد سواء. وأما الريب فهو شك مع تهمة[٢]. ودلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣]. فإنَّ المشركين –مع شكهم في القرآن– كانوا يتهمون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه هو الذي افتراه وأعانه عليه قوم آخرون! ويقرب منه: (المرية)"[٣].

وقال بعضهم: "الشك: ما استوى فيه اعتقادان أو لم يستويا، ولكن لم ينته أحدهما إلى درجة الظهور الذي يبني عليه العاقل الأمور المعتبرة.

والريب: ما لم يبلغ درجة اليقين –وإن ظهر نوع ظهور–، ويقال: شك مريب، ولا يقال: ريب مشكك. ويقال أيضًا: رابني أمر كذا، ولا يقال: شكني.

والشك سبب الريب كأنه شك أولًا فيوقعه شكه في الريب، فالشك مبدأ الريب، كما أن العلم مبدأ اليقين. والريب قد يجيء بمعنى القلق والاضطراب، والحديث: ((**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**))[٤]؛ فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة، ومنه: (ريب الدهر)؛

---

(١) انظر: المصباح المنير، مادة: (شكك) (٣٢٠/١).

(٢) ونحوه قول السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الريب أخص من الشك". انظر: نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (٢٧٥/١).
قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: "قد يفسرون الشيء بما يقاربه، أو يلازمه. وإن كان بينهما فرق، كتفسيرهم (الريب) بالشك في قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢] مع أن (الريب) أخص من مطلق الشك؛ لأنه شك مع قلق؛ وقد أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة (أصول التفسير)". تفسير الفاتحة والبقرة (٣١٩/١). ونص قول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومن قال: ﴿لَا رَيْبَ﴾: لا شك، فهذا تقريب، وإلا فالريب فيه اضطراب وحركة". مقدمة في أصول التفسير (ص:١٨).

(٣) معجم الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري (ص:٢٦٤)، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي.

(٤) رواه جمع من الصحابة منهم: الحسن بن علي رضي الله عنهما. أخرجه عنه: الطيالسي [١٢٧٤]، وعبد الرزاق في (مصنفه) [٤٩٨٤]، وأحمد [١٧٢٣]، والدارمي [٢٥٧٤]، والترمذي [٢٥١٨]، وقال: "حديث صحيح". كما أخرجه البزار [١٣٣٦]، والنسائي [٥٧١١]، وأبو يعلى [٦٧٦٢]، وابن خزيمة [٢٣٤٨]، وابن حبان [٧٢٢]، والطبراني في (الكبير) [٢٧٠٨]، والحاكم [٢١٦٩]، وقال: "صحيح=

لنوائبه، فيوصف به الشَّك كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود:١١٠]، والمرية: التردد في المتقابلين"(١).

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشَّكُّ: اعتدال النّقيضين عند الإنسان وتساويهما، وذلك قد يكون؛ لوجود أمارتين متساويتين عند النّقيضين، أو لعدم الأمارة فيهما، والشَّكُّ ربّما كان في الشيء هل هو موجود أو غير موجود؟ وربّما كان في جنسه، من أيّ جنس هو؟ وربّما كان في بعض صفاته، وربّما كان في الغرض الذي لأجله أوجد.

والشَّكُّ: ضرب من الجهل، وهو أخصُّ منه، لأنَّ الجهل قد يكون عدم العلم بالنّقيضين رأسًا، فكلُّ شَكٍّ جهل، وليس كلُّ جهل شكًّا. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود:١١٠]، ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان:٩]، ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ [يونس:٩٤].

واشتقاقه إما من: شَكَكْت الشيء، أي: خرقته، قال:

وشككت بالرُّمح الأصمِّ ثيابَهُ ... ليس الكريم على الْقَنَا بِمُحَرَّمِ(٢)

فكأنّ الشَّكَّ الخرق في الشيء، وكونه بحيث لا يجد الرأي مستقرّا يثبت فيه ويعتمد عليه.

ويصح أن يكون مستعارا من الشَّكِّ، وهو لصوق العضد بالجنب، وذلك أن يتلاصق النّقيضان فلا مدخل للفهم والرّأي، لتخلّل ما بينهما، ويشهد لهذا قولهم: التبس الأمر، واختلط، وأشكل، ونحو ذلك من الاستعارات. والشِّكَّة: السِّلاح الذي به يشكُّ، أي: يفصل"(٣).

=الإسناد"، ووافقه الذهبي. كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٨/٢٦٤)، والبيهقي في (الكبرى) [١٠٨١٩].

(١) الكليات، لأبي البقاء الكفوي (ص:٥٢٨)، وانظر: روح المعاني (١/١٠٩)، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (١/١٨٩)، نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (١/٢٧٥).

(٢) قاله عنترة. وهو في (ديوانه) (ص:٢٦). يريد: وشككت بالرمح جسمه: طعنته، فليس المراد من (الثياب) معناها الحقيقي، بقرينة قوله: (شككت)؛ إذ المراد بالشك: الطعن، وهو إنما يكون في الأجسام، لا في الثياب، فهو إذن مجاز مرسل علاقته: المجاورة التامة.

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة: (شكك) (ص:٤٦١).

٢ – تعريف الشك عند الفقهاء: قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هو التردد بين وجود الشيء وعدمه، سواء كان الطرفان في التردد سواء، أو أحدهما راجحًا، فهذا معناه في استعمال الفقهاء في كتب الفقه"(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "حيث أطلق الفقهاء لفظ: (الشك) فمرادهم به: التردد بين وجود الشيء وعدمه سواء تساوى الاحتمالان، أو رجح أحدهما، كقولهم: إذا شك في نجاسة الماء أو طهارته، أو انتقاض الطهارة أو حصولها، أو فعل ركن في الصلاة، أو شك هل طلق واحدة أو أكثر؟ أو شك هل غربت الشمس أم لا؟ ونحو ذلك بنى على اليقين"(٢).

٣ – تعريف الشك عند الأصوليين: قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما أصحاب الأصول ففرقوا بينهما فقالوا: التردد بين الطرفين، إن كان على السواء فهو الشك(٣)، وإلا فالراجح ظن، والمرجوح وهم(٤).

وبناء على ما تقدم فإن الشَّك يتفاوت أثره من حيث اختلاف الموضوع، فقد يكون في الإيمان والعقائد، وقد يكون في قضايا اجتهادية فرعيَّة تختلف فيها النتائج باختلاف وجهات النظر، وآليات البحث.

وما يعنينا هنا: الشَّك الذي يكون عقبة من العقبات في طريق الهداية، وهو الشَّك الذي يعدُّ ضربًا من الجهل، وموردًا للحيرة والتردد في الإيمان والعقائد، وهو يقابل اليقين والقطع، فهو من مسالك الغواية التي تُضلُّ عن الحقِّ. وسببه: تعارض الأدلة عند الشَّاك.

(١) المجموع شرح المهذب (١/١٦٨)، وانظر: دقائق المنهاج، للإمام النووي (ص:٣٣).

(٢) بدائع الفوائد، لابن القيم (٤/٢٦)، وانظر: الكليات، لأبي البقاء الكفوي (ص:٥٩٣).

(٣) وقال الحنفية كذلك: "الشك: استواء الأمرين". انظر: رد المحتار على الدر المختار (٦/٣٦٧).

(٤) المجموع شرح المهذب (١/١٦٨-١٦٩)، وانظر: دقائق المنهاج، للإمام النووي (ص:٣٣)، غمز عيون البصائر (١/٢٠٤)، المطلع على ألفاظ المقنع (ص:٤٢)، أسنى المطالب في شرح روض الطالب (١/٢٦)، الغرر البهية (١/٧٣)، معجم الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري (ص:٣٠٤)، التعريفات، للجرجاني (ص:١٢٨)، قواعد الفقه، محمد عميم الإحسان (ص:٣٤١)، التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٠٧)، مرعاة المفاتيح (٣/٣٩٩).

ولا ريب أنَّ بعضها موصل إلى اليقين، وما يقابلها متهافت لو أنه تأمل أو أعاد النظر على أساس سليم من البحث، أو ردَّ ما أشكل عليه إلى الرَّاسخين في العلم، كما سيأتي بيانه في أسباب الوقاية والعافية من هذا البلاء.

ثانيًا: الشك من حيث كونه عقبة من العقبات:

ينبغي -بادئ ذي بدء- التَّأسيس لذلك بإثبات أنَّ العقلَ قادرٌ على بناءٍ نسقٍ سليمٍ من التفكير ينتهي إلى القطع واليقين؛ فإنَّ الشَّك في قدرة العقل على الوصول إلى الحقِّ عقبة في طريق الهداية، وهو أسباب العمى والضلال.

وقد جعل الله تعالى المنزَّل لقوم يعقلونه، وأمر بالنظر والاستدلال؛ للوصول إلى الحق والهداية.

لكن العقل لن يهتدي إلَّا بالشَّرع كما في (معارج القدس) الَّذي ينسب للإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أنَّ العقل لن يهتدي إلَّا بالشَّرع، والشَّرع لم يتبيَّن إلَّا بالعقل. فالعقل كالأسِّ، والشَّرع كالبناء، ولن ينفع أسٌّ ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناءٌ ما لم يكن أسٌّ. وأيضًا فالعقل كالبصر، والشَّرع كالشُّعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشُّعاع ما لم يكن بصرٌ، فالشَّرع عقلٌ من خارج، والعقلُ شرعٌ من داخل، وهما متعاضدان، بل متَّحدان. ولكون الشَّرع عقلًا من خارج سلب الله تعالى اسم العقل من الكافر في غير موضع من القرآن، نحو قوله ﷻ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]. ولكون العقل شرعًا من داخل قال ﷻ في صفة العقل: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم:٣٠]، فسمَّى العقلَ دينًا. ولكونهما متَّحدين قال: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النُّور:٣٥]، أي: نور العقل ونور الشَّرع.

ثمَّ قال: ﴿يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، فجعلها نورًا واحدًا. فالشَّرع إذا فُقد العقل لم يظهر به شيء، وصار ضائعًا ضياع الشُّعاع عند فقد نور البصر، والعقل إذا فُقد الشَّرع عجز عن أكثرِ الأمور، عجز العين عند فقد النُّور"(١).

وفي (الإحياء) يُقرِّر الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه لا غنى بالشرع عن العقل، ولا بالعقل عن الشرع، فيقول: "فإن العلوم العقلية كالأغذية، والعلوم الشرعية كالأدوية، والشخص المريض يستضرُّ بالغذاء متى فاته الدواء". ويُنكر على مَن يظن أن العلوم العقلية مُناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينهما غير مُمكن، وهو في رأيه ظن صادر عن عمىً في عين البصيرة(٢).

ويرى الراغب أنَّ الشرعيات كالأغذية، والمعقولات كالأدوية، باعتبار آخر فيقول تحت عنوان: (تعذر إدراك العلوم النبوية على من لم يتهذب في العلوم العقلية): "المعقولات تجري مجرى الأدوية الجالية للصحة، والشرعيات تجري مجرى الأغذية الحافظة للصحة، وكما أن الجسم متى كان مريضًا لم ينتفع بالأغذية، ولم يستفد بها، بل يتضرر بها، كذلك من كان مريض النفس كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة:١٠]، لم ينتفع بسماع القرآن الذي هو موضوع الشَّرعيات، بل صار ذلك ضارًّا له مضرة الغذاء للمريض؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥].

ويقول: "الجهل بالمعقولات جارٍ مجرى ستر مرخي على البصر، وغشاء على القلب، ووقر في الأذن، والقرآن لا تُدرك حقائقه إلا لمن كشف غطاؤه، ورفع غشاؤه، وأزيل وقره، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء:٤٥].."(٣).

(١) معارج القدس (ص:٥٧ – ٥٩).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/١٧).

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص: ١٥٨).

ويؤكد ابن رشد رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذه العلاقة بين العقل والنقل وأنها قائمة على التآخي، وعلى قراءة النقل بالعقل حيث يقول: "فإنا معشر المسلمين، نعلم على القطع أنه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع؛ فإن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له.

وإذا كان هذا هكذا، فإن أدى النظر البرهاني إلى نحو ما من المعرفة بموجود ما، فلا يخلو ذلك الموجود أن يكون قد سكت عنه في الشرع أو عرف به. فإن كان مما قد سكت عنه فلا تعارض هنالك، هو بمنزلة ما سكت عنه من الأحكام، فاستنبطها الفقيه بالقياس الشرعي، وإن كانت الشريعة نطقت به، فلا يخلو ظاهر النطق أن يكون موافقًا لما أدى إليه البرهان فيه أو مخالفًا؛ فإن كان موافقًا فلا قول هنالك، وإن كان مخالفًا طلب هنالك تأويله"(١).

ويقول الشيخ محمد عبده رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إذا قدرنا عقل البشر قدره وجدنا غاية ما ينتهي إليه كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الإدراك الإنساني حِسًّا كان، أو وجدانًا أو تعقلًا، ثم التوصل بذلك إلى معرفة مناشئها، وتحصيل كليات لأنواعها، والإحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها، أما الوصول إلى كنه حقيقة ما فمما لا تبلغه قوته"(٢).

وفي (المنار): "إنه ليس في عقائد الإسلام شيء يحكم العقل باستحالته، وإنما فيه أخبار عن عالم الغيب لا يستقل العقل بمعرفتها؛ لعدم الاطلاع على ذلك العالم، ولكنها كلها من الممكنات أخبر بها الوحي، فصدقناه، فالإسلام لا يكلف أحدًا أن يأخذ بالمحال"(٣).

---

(١) فصل المقال، لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد (ص:٣١- ٣٢).

(٢) رسالة التوحيد (ص:٢٥).

(٣) المنار (٦/٢٧). وقد فصلتُ القول في ذلك في كتاب: (الإرشادات المنهجية إلى تفسير الآيات الكونية (ص:٨٢).

والفلسفة الوضعية ترى أن العالم وحده مصدر للمعرفة، والعقل والتجربة فقط هي سبل المعرفة، أما الإسلام الدين الخاتم فيرى الشيخ محمد عبده رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن مصادر المعرفة: العقل، والنقل، والتجربة، والوجدان -القلب-، وهي التي يسميها: الهدايات الأربع -كما تقدم-.

فتبين أن من أسباب الهداية التي تقطع الشك، وتكشف الحق: إعمال العقل، والاهتداء بأنوار الوحي.

ومن معاني الضَّلال التي توثق الصِّلة بينه وبين الشَّك: الحيرةُ والعدول عن الصَّواب. يقال: ضَلَّ يَضِلُّ ويَضَلُّ، لغتان. وكل جائر عن القصد ضال(١). والضلال: فقد ما يوصل إلى المطلوب، وهو ضد الهدى والرشاد(٢). وقيل: سلوك طريق لا يوصل إلى المطلوب. وقيل: فقدان الطريق السوي، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى:٧](٣).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الضلال: العدول عن الطريق المستقيم، ويضاده الهداية. ويقال: الضلال لكل عدول عن المنهج عمدًا أو سهوًا، قليلًا أو كثيرًا"(٤). ويتبين مما تقدم مدى التلازم بين الشَّك والضَّلال.

قال الله ﷻ في وصف المؤمنين المخلصين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥]، فلم يحصل لهم ريب عند المحن التي تُقَلْقِلُ الإيمان في القلوب.

ويذكر ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فرقًا دقيقًا بين الشك والريب فيقول: "الريب يكون في علم القلب وفي عمل القلب؛ بخلاف الشك فإنه لا يكون إلا في العلم؛ ولهذا لا يوصف

---

(١) انظر: نزهة الأعين النواظر (ص:٤٠٦)، وانظر: مادة: (ضل) في (العين)، (٧/٨)، مقاييس اللغة (٣/٣٥٦)، أساس البلاغة (١/٥٨٥)، المغرب (ص:٢٨٤).

(٢) التعريفات، للجرجاني (ص:١٣٨)، التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٢٣)، معجم مقاليد العلوم، للسيوطي (ص:٧٦)، تاج العروس، مادة: (ضلل) (٢٩/٣٤٣).

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٢٣).

(٤) المفردات، مادة: (ضل) (ص:٥٠٩)، وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٢٣)، الكليات (ص:٥٧٦).

باليقين إلا من اطمأن قلبه علمًا وعملًا؛ وإلا فإذا كان عالما بالحق؛ ولكن المصيبة أو الخوف أورثه جزعًا عظيمًا لم يكن صاحب يقين. قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:١١]"(١).

فالشك في مجال الإيمان والعقائد من المضلات إذا لم يتب منه، ويهتدي إلى الحق؛ لظهور الأدلة ووضوحها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟ وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل(٢)

ومعلوم أن وجود الرّب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أظهر للعقول والفطر من وجود النهار، ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فليتهمهما"(٣).

قال الله ﷻ: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:١٠].

أدخلت همزة الإنكار على الظرف؛ لأن الكلام ليس في الشك، إنما هو في المشكوك فيه، وأنه لا يحتمل الشك؛ لظهور الأدلة وشهادتها عليه(٤).

وفي الحديث: **((ثلاثة لا يُسْأَلُ عنهم: رَجُلٌ نَازَعَ اللَّهَ رِدَاءَه؛ فإنَّ رِدَاءَهُ الْكِبْرِيَاءُ، وَإِزَارَهُ عِزَّهُ، ورجل شكَّ في أمر الله، والقنوط من رحمة الله))**(٥).

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/٢٨١).

(٢) ديوان المتنبي (ص:٣٤٣)، لكنها في الديوان: (وليس يصح في الأفهام..). يقول: من احتاج إلى أن يعلم النهار بدليل يدله عليه لم يصح في فهمه شيء؛ لأنه لا فهم له ،كذلك كلامي كان واضحًا، فمن لم يفهمه كان كمن لا يعلم النهار نهارًا. أفاده الواحدي في شرحه للديوان. "والنهار لا تطلب الأدلة عليه، ولا يمكن أحد المخالفة فيه، وهذا كقولهم: من شك في المشاهدات فليس بكامل العقل". شرح ديوان المتنبي، لأبي البقاء العكبري (٣/٩١).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٨٢- ٨٣).

(٤) الكشاف (٢/٥٤٢)، تفسير البيضاوي (٣/١٩٤)، تفسير النسفي (٢/١٦٤).

(٥) أخرجه أحمد [٢٣٩٤٣]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٥٩٠]، والبزار [٣٧٤٩]، وابن حبان [٤٥٥٩]، والطبراني في (الكبير) [٧٨٩]. قال الهيثمي (١/٩٩): "رواه الطبراني في (الكبير). ورواه البزار مطولًا، ورجاله ثقات". قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فإن رداءه الكبرياء وإزاره العز) فمن تكبر من المخلوقين أو تعزز=

وقد أخبر الحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أن الركون إلى الشك مضل عن الحق، وموقع في الضلال، كشأن من ركن إلى ادعاء قتل المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وصلبه. يقول سبحانه: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء:١٥٧].

"وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ من أهل الكتاب في شك من حقيقة أمره، أي: في حيرة، وتردد ما لهم به من علم ثابت قطعي، لكنهم يتبعون الظن، أي: القرائن التي ترجح بعض الآراء الخلافية على بعض. فالشك الذي هو التردد بين أمرين شامل لمجموعهم، لا لكل فرد من أفرادهم، هذا إذا كان كما يقول علماء المنطق لا يستعمل إلا فيما تساوى طرفاه بحيث لا يترجح أحدهما على الآخر، والذين يتبعون الظن في أمره هم أفراد رجحوا بعض ما وقع الاختلاف فيه على بعض، بالقرائن أو بالهوى والميل. والصواب أن هذا معنى اصطلاحي للشك، وأما معناه في أصل اللغة، فهو نحو من معنى الجهل، وعدم استبانة ما يجول في الذهن من الأمر، قال الركاض الدبيري:

يشك عليك الأمر ما دام مقبلا ... وتعرف ما فيه إذا هو أدبرا[1]

فجعل المعرفة في مقابلة الشك. وقال ابن الأحمر:

وأشياء مما يعطف المرء ذا النهى ... تشك على قلبي فما أستبينها[2]

وفي (لسان العرب)[3] أن الشك ضد اليقين. فهو إذن يشمل الظن في اصطلاح أهل المنطق، وهو ما ترجح أحد طرفيه. فالشك في صلب المسيح هو التردد فيه، أكان هو المصلوب أم غيره! فبعض المختلفين في أمره الشاكين فيه يقول: إنه هو، وبعضهم يقول: إنه غيره، وما لأحد منهما علم يقيني بذلك، وإنما يتبعون الظن.

=فقد نازع الخالق سُبْحَانَهُوَتَعَالَى رداءه وإزاره الخاصين به، فله في الدنيا الذل والصغار، وفي الآخرة عذاب النار". فيض القدير (٣/٣٢٥).

(١) انظر: أساس البلاغة، للزمخشري، مادة: (شكك) (١/ ٥١٧).

(٢) انظر: المصدر السابق، مادة: (شكك) (١/ ٥١٧).

(٣) تقدم بيانه.

وفي الأناجيل المعتمدة عند النصارى، أن المسيح قال لتلاميذه: (كلكم تشكون، فيَّ، في هذه الليلة) أي: التي يطلب فيها للقتل[1] فإذا كانت أناجيلهم لا تزال ناطقة بأنه أخبر أن تلاميذه وأعرف الناس به يشكون فيه في ذلك الوقت، وخبره صادق قطعًا، فهل يستغرب اشتباه غيرهم، وشك من دونهم في أمره، وقد صارت قصته رواية تاريخية منقطعة الإسناد؟!"[2].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في بيان أن الشك من المضلات عن الهداية: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة:٤٥]، أي: شكوا في دينهم، واضطربوا في عقيدتهم. ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾: يتحيرون؛ لأنَّ التردد ديدن المتحير، كما أن الثبات والاستقرار ديدن المستبصر[3]. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾، "أي: يتحيرون، يقدمون رجلًا ويؤخرون أخرى، وليست لهم قدم ثابتة في شيء، فهم قوم حيارى هلكى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلًا"[4].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا..﴾ [النور:٤٨-٥٠]، وقال سبحانه: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد:٢٠].

والشك مرض من أمراض القلوب: قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:١٠]، وقال أيضًا: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال:٤٩]، وقال: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾

---

(١) متى (٢٦:٣١)، ومرقس (١٤:٢٧).

(٢) تفسير المنار (٦/١٦-١٧).

(٣) انظر: الكشاف (٢/ ٢٧٥)، تفسير النسفي (١/٦٨٣)، تفسير أبي السعود (٤/٧٠).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٩).

[الأحزاب:١٢]. فالمرض هنا: الشك والنفاق. وقال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ [المائدة:٥٢].

وهو من أبرز مداخل الشيطان؛ لإيقاع العبد في الحيرة والاضطراب. قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [الحج:٥٣].

وقد أرشدنا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الوقاية من خطر الاسترسال مع هذه الوساوس فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا، من خلق كذا، حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته**))(١).

وقد جاء التحذير من عاقبة الشك في قوله ﷻ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد:١٣-١٥].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كانوا في شك من أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وعلى خدعة من الشيطان، والله مازالوا عليها حتى قذفهم الله في النار"(٢).

وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:١٠]، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٥].

---

(١) صحيح البخاري [٣٢٧٦]، مسلم [١٣٤].

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٨٥/٢٣)، الدر المنثور، للسيوطي (٥٦/٨)، الهداية إلى بلوغ النهاية، لأبي محمد مكي بن أبي طالب (٧٣١٩/١١)، الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، أ.د حكمت بن بشير بن ياسين (٤٤٧/٤).

ثالثًا: الوقاية من هذا الداء والعلاج:

١ - التنبيه على مخاطر الشك.

٢ - إعمال العقل بالنَّظر والتَّفكر والتَّدبر والتَّأمل مع سلامة البحث والنَّظر من الآفات.

٣ - ردُّ ما أوقع في الشك، ولم تزل آثاره حتى بعد البحث والنظر إلى العلماء الراسخين في العلم. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مجالسة العارف تدعوك من ست إلى ست: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الطوية إلى النصيحة"(١).

٤ - النظر في آيات صدق الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنها مستلزمة للصدق، ولا سيما بمجموعها؛ فإن دلالتها على الصدق كدلالة الشمس على النهار، وقد تقدم ذلك في (كفر الشك).

٥ - الاستعاذة بالله ﷻ من وساوس الشيطان، والانتهاء عن الاسترسال مع وساوسه -كما تقدم-.

٦ - التمسك بالعقيدة، والرجوع إلى الثوابت، والتفقه في الدين؛ فإنه ينير بصيرة المؤمن، ويقطع الشكوك التي تشتت فكره.

٧ - البعد عن التوغل في علوم الفلسفة والافتتان بها، ولا سيما لمن لا يأمن على نفسه من الانحراف والضلال كما جاء مبينًا في عقبة: (الافتتان بعلوم الفلسفة).

٨ - معالجة من أصيب بداء الشك، وتهيئة الفرصة الكافية له؛ للتحرر من الشبهات والشكوك والأوهام، وأن تقدم له الأدلة والبراهين التي تُعَبِّدُ طريق الايمان إلى القلب، واليقين إلى النفس، وتريح ما علق بالوجدان من ريب وشكوك.

---

(١) مدارج السالكين (٣/٣٢٢).

٩ – درء موهم التعارض بين العقل والنقل: ولا بدَّ من بيان أن قضيَّة التَّقابل بين السَّمع والعقل، أو التقابل بين النقل والحقائق العلميَّة هي في الحقيقة قضيَّةٌ مصطنعةٌ في الفكرِ الإسلاميِّ(١).

وقد عُلم أنَّ المنَزَّل لقوم يعقلونه، وأنَّ الله ﷻ لا يكلِّف نفسًا إلَّا ما آتاها، وما خالفَ العقلَ إدراكُه خارجٌ عن الوُسع، ومخالفٌ للنُّصوص. والحاصل أنا نقول باستحالة وجود تعارض بين العقل والنقل، أو بين الآيات القرآنية والحقائق العلميَّة، ومن قال بذلك فهو إمَّا جاهل بالآية، أو جاهل بالحقيقة العلميَّة.

١٠ – سلامة النقل والمنقول، والتدليل على صدق المتكلم، فلا بد له من اتباع الخطوات التالية:

أ. التأكد من صحة النقل.

ب. إقامة الحجة على صدق المبلغ مع نصب القرائن في نسبة الألفاظ ودلالتها على المتكلم.

ج. درء موهم التعارض بين العقل والنقل.

د. قراءة النقل بالعقل.

هـ. تقويم العقل بالنقل.

وبيان ذلك أن يقال: إن للعقل دورًا فيما كان من المنقول دعوة للتأمل والنظر والاستنباط، أما ما يتعلق منه بالغيبيات كذات الله ﷻ، أو السمعيات التي وردت بطريق النقل فإن الشارع منع العقل من اقتحام أسوار الغيبيَّات؛ صونًا له من التَّخبط فيما لا يستقل بمعرفته، ولا يملك في ذلك وسيلة آمنة.

١١ – الاهتداء بنور القرآن الكريم: قال الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت:٤٤]. فقوله: ﴿هُدًى﴾ إرشاد إلى الحق، ﴿وَشِفَاءٌ﴾ لما في الصدور من الظن والشك؛ إذ الشك مرض(٢).

---

(١) وينظر في هذا كتاب: (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، فإنه فريد في بابه.

(٢) انظر: تفسير النسفي (٣/٢٣٩– ٢٤٠)، الكشاف (٤/٢٠٣)، البحر المحيط في التفسير (٩/٣١٣).

١٢ - الإعراض عن الشك والريبة كما جاء في الحديث: ((**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**)) وقد تقدم، والحذر من التردد بسبب الشك مع قصور في البحث والنظر؛ فإنه من أبواب الفشل، وهو داء دواؤه العزيمة والتوكُّل. قال الله ﷻ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. والعزم: إمضاء الرأي وعدم التردد بعد تبيين الصواب.

١٣ – عدم الاسترسال مع وساوس الشياطين وإغلاق الباب في وجه شبهاتهم.

العقبة العاشرة

حب الدُّنيا

والتَّنازع على حطامها

أولًا: تعريف الحياة الدنيا:

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الحياة ضِدُّ الموت، والحيُّ ضِدُّ الميِّت"(١)، وجمع الحيِّ: أحياء، والحيوان اسم يقع على كل شيء حي. وسمى الله ﷻ الآخرة حيوانًا فقال: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:٦٤](٢).

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما وصفت بذلك لمصيرها آخِرةً لأولى كانت قبلها، كما تقول للرجل:"أنعمتُ عليك مرَّة بعد أخرى، فلم تشكر لي الأولى ولا الآخرة"، وإنما صارت آخرة للأولى، لتقدُّم الأولى أمامها. فكذلك الدارُ الآخرة، سُمِّيت آخرةً لتقدُّم الدار الأولى أمامها، فصارت التاليةُ لها آخرةً"(٣).

وقيل: "وسُمِّيت الدُّنيا؛ لأنَّها دَنَتْ، وتأخَّرتِ الآخِرةُ، وكذلك السَّماءُ الدُّنيا هي القُرْبَى إلينا"(٤).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذِهِ فيها ازدراء للدنيا وتصغير لأمرها، وكيف لا يصغرها وهي لا تزن عنده جناح بعوضة؟ يريد: ما هي -لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها- إلا كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون"(٥). ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:٦٤](٦)، أي: الحياة المستمرة الدائمة.

---

(١) الصحاح، مادة: (حيا) (٦/٢٣٢٣).

(٢) تهذيب اللغة، للأزهري (٥/١٨٦).

(٣) تفسير الطبري (١/٢٤٥).

(٤) انظر: العين، للخليل (٨/٧٥)، وانظر: تهذيب اللغة (١٤/١٣٣).

(٥) الكشاف (٣/٤٦٣).

(٦) الحيوان: جنس الحي، وأصله: حييان، فقلبت الياء التي هي لام واوا استكراها لتوالي الياءين ليختلف الحرفان، هذا مذهب الخليل وسيبويه. وذهب أبو عثمان إلى أن الحيوان غير مبدل الواو، وأن الواو فيه أصل وإن لم يكن منه فعل، وَشَبَّهَ هذا بقولهم: فَاظَ المَيِّتَ يَفِيظُ فَيْظًا وفَوْظًا، وَإِن لم يَسْتَعْمِلُوا من فَوْظٍ فِعْلا، كذلك الحيوان عنده مصدر لم يشتق منه فعل. المحكم والمحيط الأعظم (٣/٣٩٧). وقيل: هي الحياة التي لا يعقبها موت. وقيل: الحيوان هنا مبالغة في الحياة، كما قيل للموت الكثير: موتان. المصباح المنير (١/١٦٠).

وقال القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الدنيا كالأحلام، وعند الخروج منها انتباه من النوم. والآخرة هنالك العيش بكماله، والتخلص من الوحشة بتمامه ودوامه"(١). والعاقل يؤثر ما يبقى على ما يفنى.

وقد قيل: الدنيا أو الحياة الدنيا هي ذلك الحيز المكاني والزّماني منذ خلق الله تعالى الكون وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهي بالنسبة للآدمي أو جنس الإنسان تمتد منذ خلق الله آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وإلى أن تقوم الساعة، أما بالنسبة للأفراد أو الأشخاص فهي لا تعدو تلك الفترة الزمنية التي تمتد من لحظة الميلاد إلى لحظة الوفاة. والمقصود بها هنا: الزمن الذي يحدث فيه الابتلاء، أما مكانه فهو الأرض التي نحيا عليها(٢).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الحياة تستعمل على أوجه:

الأوّل: للقوّة النّامية الموجودة في النّبات والحيوان، ومنه قيل: نبات حَيٌّ، قال ﷻ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠].

الثانية: للقوّة الحسّاسة، وبه سمِّي الحيوان حيوانًا، قال ﷻ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى﴾ [فصلت:٣٩]، فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْياها﴾ إشارة إلى القوّة النّامية، وقوله: ﴿لَمُحْيِ الْمَوْتى﴾ إشارة إلى القوّة الحسّاسة.

الثالثة: للقوّة العالِمة العاقلة، كقوله ﷻ: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام:١٢٢]"(٣).

وقد وصفت الحياة الدنيا بأنها: ذات عمر قصير ومتاع قليل، وبأنها: دار لهو ولعب وزينة وتفاخر، وبأنها: دار غرور، وبأنها: دار ترف واستمتاع، وبأنها: دار إغواء، وبأنها:

(١) لطائف الإشارات (٣/١٠٥).
(٢) نضرة النعيم (١/٢)، وانظر: فلسفة التربية الإسلامية، لماجد كيلاني (ص:١٦٨).
(٣) المفردات في غريب القرآن (ص:٢٦٨)، بصائر ذوي التمييز (٢/٥١٢).

دار ضلال وطغيان لمن يفتن بها، وبأنها: دار خزي ولعنة للمعاندين، وبأنها: دار لاكتساب الحسنات والمعيشة الطيبة لمن آمن وعمل صالحًا، وبأنها: دار ابتلاء(١).

ثانيًا: التنازع على حطام الدنيا من معوقات الهداية:

إنَّ من أسباب الغفلة، ومعوقات الهداية: التنازع على حطام الدنيا، وما فيها من ملك وخزائن؛ فإنه ضياع للعمر، وإتلاف للأوقات. ولذلك حذَّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه وأمته من التنافس المذموم، وبيَّن عاقبته ومآله كما في الحديث: عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج يومًا، فصلَّى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر، فقال: ((**إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض -أو مفاتيح الأرض- وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها**))(٢).

أي: ولكنني أخشى أن يحملكم التنافس على المال والجاه على التنازع فيما بينكم، فيودي بكم ذلك إلى العداوة والبغضاء، والتقاتل على الدنيا، والغفلة عن الآخرة. وفي الحديث الآخر: ((**ولا تنافسوا**))(٣)، أي: لا ترغبوا في الدنيا، ولا تفتتنوا بها؛ لأن المنافسة فيها تؤدي إلى قسوة القلب، وإلى الغفلة.

كما أنَّ حبَّ الدنيا والطمعَ فيها، والحرصَ على ما فيها من متاعٍ زائل يورثُ الهموم والأحزان. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "وإنما تحصل الهموم والغموم والأحزان من

---

(١) انظر ذلك في (نضرة النعيم) (١/٢-٣).

(٢) صحيح البخاري [١٣٤٤، ٣٥٩٦، ٤٠٨٥، ٦٤٢٦، ٦٥٩٠]، مسلم [٢٢٩٦]. أصله: أن تتنافسوا، فحذفت إحدى التائين، من التنافس، وهو الرغبة في الشيء والانفراد به، وكذلك المنافسة. ونافسته منافسة إذا رغبت فيما رغب فيه. وقيل: معنى الحديث: التباري في الرغبة في الدنيا وأسبابها وحظوظها.

(٣) صحيح مسلم [٢٥٦٣].

جهتين، إحداهما: الرغبة في الدنيا، والحرص عليها، والثاني: التقصير في أعمال البرِّ والطاعة"(١).

وفي رواية: ((**أَخْوَفُ ما أَخَافُ عليكم ما يُخْرِجُ الله لكم من زهرة الدنيا**))، قالوا: وما زهرة الدنيا؟ يا رسول الله، قال: ((**بركات الأرض**))(٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيه التحذير من الاغترار بالدنيا، والنظر إليها، والمفاخرة بها"(٣).

ومتى خرجت الدنيا عن كونها وسيلة تحولت إلى لهوٍ ولعب، وفقدت القيم الأخلاقية والإنسانية. يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت:٦٤].

كما أنَّ حبَّ الدنيا من أسباب انحطاط الهمم عن طلب الهداية، وقد بيَّن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن حبَّ الدنيا والتنافس عليها من أسباب الضعف، والاختلاف، والتَّفرق، وضياع العمر. وحذَّرنا من هذا المرض الخطير الذي يصيب الأفراد والجماعات حيث قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ((**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**))، فقال قائل: ومن قلَّة نحن يومئذ؟ قال: ((**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن**))، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: ((**حبُّ الدنيا، وكراهية الموت**))(٤).

والوهن هو الضعف، وهو لفظ عام -كما تقدم-، وقد فسَّره النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما يوجبه من حبِّ الدنيا، وكراهية الموت، وهما متلازمان، ويلزم من حبِّ الدنيا وكراهية

---

(١) عدة الصابرين (ص:٢٥٦).

(٢) صحيح البخاري [٦٤٢٧]، مسلم [١٠٥٢] واللفظ له.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤١/٧).

(٤) أخرجه الطيالسي [١٠٨٥]، وسعيد بن منصور في (سننه) [٢٨٩٧]، وابن أبي شيبة [٣٧٢٤٧]، وأحمد [٢٢٣٩٧]، وأبو داود [٤٢٩٧]، والروياني [٦٥٤]، وابن الأعرابي [٢١٧٠]، والطبراني في (مسند الشاميين) [٦٠٠]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٨٢/١)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٨٨٧]، والديلمي [٨٩٧٧].

الموات إعطاء الدنية في الدين، والانشغال بملذات الدنيا وشهواتها عن طلب الهداية، والغفلة عن الآخرة، وتعرض الجسد للتلف والدَّنَفُ، والقلب للموت، والعقل للضلال، والحياة للضياع.

وهو عامٌّ كذلك -كما تقدم- من حيث (المـا صدق) فيصدق على الفرد كما يصدق على الجماعات.

فمن أسباب الوهن: التَّفرُّق والاختلاف، والبعد عن كتاب الله ﷻ، وسنة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

وإنَّ من الثَّابت المقرَّر في النواميس الطبيعيةِ أنَّ الإفراطَ في حبِّ الدنيا، والتهافتَ على شهواتِها، يحرمان الإنسان من التمتع بها كما أنَّ الغلوَّ في المحافظةِ على الحياة تكون عاقبتُه زيادة التَّعرضِ للهلاك. وأيُّ هلاكٍ أعظمُ من خسران الدنيا والآخرة؟!

والأحاديث الدالةُ على التقلل من الدنيا والزهد بها[(١)] كثيرة فمنها: قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء**))[(٢)].

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله، وما والاه، أو عالما، أو متعلمًا**))[(٣)].

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**))[(٤)].

وقال الله ﷻ في بيان حقيقة الحياة الدنيا، وتصغير شأنها، وتحقير أمرها: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥]، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ

---

(١) يعني: من حيث اعتبار ما يصيبه المكلف منها بسبب جعله إياها غاية، يتبع فيها هواه وشهواته.

(٢) صحيح مسلم [٢٧٤٢].

(٣) أخرجه ابن ماجه [٤١١٢]، والترمذي [٢٣٢٢]، وقال: "حديث حسن غريب"، وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [١٥٨٠].

(٤) أخرجه الترمذي [٢٣٢٠] وصححه، وأبو نعيم في (الحلية) (٣/٢٥٣).

الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى:١٦-١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص:٦٠]. وفي الحديث: ((**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه –وأشار يحيى بالسَّبَّابة– في اليمّ، فلينظر بم ترجع؟**))[١].

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في بيان حال كثيرٍ من النَّاس الذين يقدِّمونَ الحياةَ الدُّنيا على الآخرة، ويؤثرونَ متاعها العاجل على ما فيه نفعهم وصلاحهم في معاشهم ومعادهم: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى:١٦-١٧]، "أي: ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى، فإن الدنيا دنية فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريبا، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد؟!"[٢].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهي إنما تذم إذا أعقبت ألما أعظم منها، أو منعت لذة خيرًا منها، وتحمد إذا أعانت على اللذة الدائمة المستقرة، وهي لذة الدار الآخرة ونعيمها الذي هو أفضل نعيم وأجله كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف:٥٦-٥٧]، وقال ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل:٣٠]، وقال ﷻ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى:١٦-١٧]، وقال ﷻ: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤]، وقال العارفون بتفاوت ما بين الأمرين لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾﴾ [طه:٧٢-٧٣]. والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إنما خلق الخلق لدار القرار، وجعل اللذة كلها بأسرها فيها كما قال الله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف:٧١]، وقال ﷻ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾

(١) صحيح مسلم [٢٨٥٨].

(٢) تفسير ابن كثير (٣٨٢/٨).

[السجدة:١٧]. وقال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ((**يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**))[١]، بله ما اطلعتم، أي: غير ما اطلعتم عليه، وهذا هو الذي قصده الناصح لقومه الشفيق عليهم حيث قال: ﴿وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِىَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر:٣٨-٣٩]، فأخبرهم أن الدنيا متاع يتمتع بها إلى غيرها، والآخرة هي المستقر والغاية"[٢].

إنَّ إيثار الحياة الدُّنيا، والاغترار بها، والركون إليها من العوامل الأساسيَّة التي تدعو إلى التَّكاثر في المال والجاه وغيرهما من مجالات التَّكاثر، ويظلُّ حبُّ الدُّنيا ملازمًا للإنسان حتى مع كبر سنِّه، واقتراب نُذُر الموت منه كما قال عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: ((**لا يزال قلب الكبير شابًّا في اثنتين: في حب الدنيا وطول الأمل**))[٣].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: "المراد بالأمل هنا: محبة طول العمر، فسره حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ الذي بعده في آخر الباب"[٤]، يعني: قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ((**يَكْبَرُ ابْنُ آدَمَ ويَكْبَرُ معه اثنان: حُبُّ المَالِ، وطُولُ العُمُرِ**))[٥].

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ أيضًا: "وفي الأمل سر لطيف؛ لأنه لولا الأمل ما تهنى أحد بعيش ولا طابت نفسه أن يشرع في عمل من أعمال الدنيا، وإنما المذموم منه: الاسترسال فيه وعدم الاستعداد لأمر الآخرة"[٦].

وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم جملة من الشهوات والملذات التي يستمتع بها الناس في حياتهم الدنيا، وتتطلبها الغرائز الإنسانية على سبيل الامتنان والتذكير بها، إلَّا

---

(١) صحيح البخاري [٣٢٤٤، ٤٧٧٩، ٤٧٨٠، ٧٤٩٨]، مسلم [٢٨٢٤].

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص:١٥٦- ١٥٧).

(٣) صحيح البخاري [٦٤٢٠]. قوله: (قلب الكبير)، أي: الشيخ. (في اثنتين)، أي: في خصلتين. (شابًّا) سماه شابًّا؛ لقوة استحكامه في محبة المال. (وطول الأمل) المراد بالأمل هنا: طول العمر.

(٤) فتح الباري (١١/ ٢٤٠).

(٥) صحيح البخاري [٦٤٢١].

(٦) فتح الباري (١١/ ٢٣٧).

أنه بين أن هناك ما هو أولى منها، وهو ما عند الله تعالى في الآخرة؛ حثًّا للإنسان على عدم الاسترسال والإغراق في هذه الشهوات التي تحول بينه وبين ما هو أولى، كما أن الاسترسال في الشهوات له مضار ظاهرة وباطنة وحسية ومعنوية وفردية واجتماعية، فلا ينبغي لهم أن يجعلوا كل همهم في هذا المتاع القريب العاجل، بحيث يشغلهم عن الاستعداد لما هو خير منه في الآجل. قال عزَّ من قائل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران:١٤-١٥].

فهذا بيان لما فطر عليه الناس من حبِّ هذه الشهوات وتزينها في نفوسهم. وتمهيد لتذكيرهم بما هو خير منها، لا لبيان ذمها في نفسها كما قد يتوهم؛ فإن الله ﷻ ما فطر الناس على شيء مذموم، ولا جعل دينه مخالفًا لفطرته، بل موافقًا لها كما قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠].

وقد جعل الله ﷻ الارتباط بين الزوجين من آياته الدَّالة على حكمته ورحمته، كما قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:٢١].

وجعل المال قوامًا للأمم، ومعززًا للدين، ووسيلة لإقامة ركنين من أركانه(١)، ومن أعظم أسباب التقرب إليه.

و(حب المال والولد) من الغرائز التي يعرض للنَّاس فيها الإسراف والإفراط إذا لم تُهذَّبْ بهداية الدين، ولم تُشَذَّبْ(٢) بحسن التربية والتعليم، قال الله ﷻ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:٢٨].

---

(١) يعني: الزكاة والحج.

(٢) أصله من النَّخلة الطَّويلة التي شُذِّبَ عنها جريدها، أي: قطع وفرق، فهو تشبيه بما يشذَّب من الشّجر؛ لأنَّه يطول بذلك ويسرع في شطاطه. و(الشطط) –بفتحتين– مجاوزة القدر في كل شيء.

وقد شاءت إرادة الله ﷻ أن يجعل الإنسان خليفة في الأرض؛ ليقوم بعمارتها، وأعطاه من النِّعم ما يعينه على القيام بهذه المهمة. وحيث إنَّ الإنسان مدنيٌّ بالطَّبع لا يستطيع أن يعيش وحده، ولا بدَّ له من معاملة غيره، فقد أعطاه الله ﷻ نعمة المال، يتبادل بواسطته المنافع، ويقضي الحوائج.

ولأن كل شيء -من النعم والمتاع- ابتلاء واختبار من الله ﷻ، فقد جعل الله ﷻ المال من أعظم أنواع الابتلاء؛ وذلك لما يحقق من المصالح.

وفي الحديث: عن ابن كعب بن مالك الأنصاري، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: **((ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه))**(١).

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ، فأعطاني، ثم سألته، فأعطاني، ثم سألته، فأعطاني ثم قال: **((يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى))**(٢).

قال العلماء: "إشراف النفس: تطلعها إليه، وتعرضها له، وطمعها فيه. وأما طيب النفس فذكر القاضي فيه احتمالين؛ أظهرهما: أنه عائد على الآخذ، ومعناه: من أخذه بغير سؤال ولا إشراف وتطلع بورك له فيه. والثاني: أنه عائد إلى الدافع، ومعناه: من أخذه ممن يدفع منشرحًا بدفعه إليه طيب النفس لا بسؤال اضطره إليه أو نحوه مما لا

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٣٧٦]، وأحمد [١٥٧٨٤]، والدارمي [٢٧٧٢]، والترمذي [٢٣٧٦]، وقال: "حسن صحيح"، وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٣٢٢٨]، والطبراني [١٨٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٧٨٣]. قوله: (بأفسد لها)، أي: بأكثر فسادًا للغنم. (والشرف) أي: الجاه، معطوف على المال. واللام في قوله: (لدينه) لام البيان، نحو قوله تعالى: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣]، كأنه قيل لمن؟ قال: لمن أراد. وكذا هنا، كأنه قيل: بأفسد لأي شيء؟ فقيل: لدينه. ولا يصح جعلها متعلقة بأفسد؛ لأنه لا يجوز تعلق حرفي جرٍّ بلفظ واحد، ومعنى واحد بعامل واحد إلا على سبل البدل". انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، لابن علان البكري الشافعي (٤/٤١٩- ٤٢٠). وفيه مبالغة في الذم لمن جعل المال والجاه غاية.

(٢) صحيح البخاري [١٤٧٢،٢٧٥٠، ٣١٤٣]، مسلم [١٠٣٥].

تطيب معه نفس الدافع. وأما قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**كالذي يأكل ولا يشبع**)) فقيل: هو الذي به داء لا يشبع بسببه. وقيل: يحتمل أن المراد التشبيه بالبهيمة الراعية. وفي هذا الحديث وما قبله وما بعده: الحث على التعفف والقناعة والرضا بما تيسر في عفاف -وإن كان قليلًا- والإجمال في الكسب، وأنه لا يغتر الإنسان بكثرة ما يحصل له بإشراف ونحوه؛ فإنه لا يبارك له فيه، وهو قريب من قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة:٢٧٦]"(١).

فالمال وسيلة وليس غاية؛ لأنه متى أصبح غاية قضى على صاحبه؛ لأنه سيعيش لاهثًا خلفه، طالبًا للزيادة، خائفًا من زواله، فيورث صاحبه من الهموم والغموم والأحزان، وتنفتح أمامه أبواب الفتن والفساد بسبب المال..فمهما كان غنيًا فإن فقره بين عينيه، والآفات محدقة بماله، وبجسده من المرض إلى الموت..

فعلى المؤمن المتقي ألا يفتَنَ بهذه الشهوات، ويجعلَها أكبرَ همه، والشاغلَ له عن آخرته، فإذا اتقى ذلك، واستمتع بها بالقصد والاعتدال، والوقوف عند حدود الله ﷻ، فهو السعيد في الدارين.. قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝٢٠١ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة:٢٠١-٢٠٢](٢)، وقال ﷻ: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧].

ثالثًا: الوقاية من آفات التنازع على حطام الدنيا والعلاج:

١ - البصيرة التامة بحقيقة الدنيا، وأنها ليست غاية أو هدفًا، وإنما هي وسيلة لغاية وهدف، ومعبر للدار الآخرة.

٢ - البصيرة التامة بحقيقة الإنسان ومدى ضعفه وحاجته.

٣ - رسوخ الإيمان بقضاءِ الله ﷻ وقَدَرِه في النَّفس، وإيثار القناعة والصبر والرضا، وعدم الالتفات إلى ما خُصَّ به الغير من أمور الدنيا الفانية، والإيمان بأن الأرزاق

---

(١) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٢٦/٧)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (٢٩٨/٣).

(٢) بتصرف عن (تفسير المنار) (٢٠٢/٣).

وحظوظ الدنيا إنما تجري بالمقادير، وأن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، وأن ما قُدِّر للإنسان لا بدَّ أن يأتيه. قال الله ﷻ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف:٣٢].

وقد جاء في الحديث: ((**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا، فَسَلَّطَهُ على هلكته في الحقِّ، ورجل آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها**))(١).

وفي رواية: ((**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل، وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالًا، فهو ينفقه آناء الليل، وآناء النهار**))(٢).

وحقيقة الزهد في الإسلام هي في زهد المستغْني، وهو مقام في حقيقته نفسيٌّ لا ظاهر. قال الله ﷻ:﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة:٢٧٣].

وقال النبي ﷺ: ((**لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ**))(٣).

و(كثرة العرض) ما يصيبه من حطام الدنيا ومتاعها، أو من حظوظ الدنيا. ومعنى الحديث أن الغنى المحمود هو غنى النفس وشبعها وقلة حرصها، لا كثرة المال مع الحرص على الزيادة.

وفي الحديث: ((**قد أفلح من هدي إلى الإسلام، ورزق الكفاف، وقنع به**))(٤).

ومن دعائه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((**ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا**))(٥).

---

(١) صحيح البخاري [٧٣، ١٤٠٩، ٧١٤١]، مسلم [٨١٦].

(٢) صحيح البخاري [٧٥٢٩]، مسلم [٨١٥].

(٣) أخرجه البخاري في (صحيحه) [٦٠٨١]، ومسلم [٢٤٦٧].

(٤) أخرجه ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو بن العاص [٤١٣٨]. كما أخرجه عن فضالة بن عبيد كل من الطبراني [٧٨٧]، والحاكم [٧١٤٤] وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [٤٣١]، والترمذي [٣٥٠٢]، وقال: "حسن غريب". وأخرجه أيضًا: الحاكم [١٩٣٤]، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه". وسكت عنه الذهبي. وأخرجه=

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن صاحب القناعة هو الغني وليس بالكثير المال؛ فإن الغنى غنى النفس"[1].

وقد قيل في تفسير قول الله ﷻ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]: الحياة الطيبة: القناعة[2].

والأحاديث في فضل القناعة والكفاف وعدم التبسط في ملاذ الدنيا كثيرة.

٤ – حضور مجالس العلماء، والإكثار من سماع المواعظ التي ترغب في الآخرة.

٥ – أن يتذكر الإنسان كيف يكون حاله عند المرض، والكِبر، وعند مفارقة الدنيا، وعند دخوله قبره، وعند السؤال، وعند البعث والنشور، وعند الحشر والعرض على الله تعالى.

٦ – صحبة الصالحين:

"قال رجل لداود الطائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أوصني، قال: اصحب أهل التقوى؛ فإنهم أيسر أهل الدنيا عليك مؤونة، وأكثرهم لك معونة"[3].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مجالسة العارف تدعوك من ست إلى ست: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الطوية إلى النصيحة"[4].

٧ – الاحتراز عن أسباب الغفلة، واتخاذ أسباب الوقاية من آفاتها.

٨ – التبصر بالآثار المترتبة على التنازع على حطام الدنيا.

=أيضًا: النسائي في (الكبرى) [١٠٢٣٤]، والديلمي [١٩٨١]. قال العلامة المناوي (٢/١٣٣): "فيه عبيد الله بن زحر ضعفوه"، قال في (المنار): "فالحديث لأجله حسن لا صحيح".

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين (١/٢٤٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٧/٢٩٠)، النكت والعيون (٣/٢١٢)، الدر المنثور (٥/ ١٦٥– ١٦٦).

(٣) موسوعة ابن أبي الدنيا (١/٦٢).

(٤) مدارج السالكين (٣/٣٢٢).

٩ – التقلل من الدنيا، ويحصل بسد باب التوسعات، والاقتصار على ما لا بدَّ منه مأكلًا ومشربًا ومسكنًا وملبسًا، ونحو ذلك، والإنفاق في سبيل الله تعالى، وإعانة الفقراء والمحتاجين.

١٠ – المبادرة إلى الطاعات، وإمعان النظر والفكر في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقراءة كتب السيرة، والنظر في سير السلف الصالح والعلماء:

ومن يتأمل حال الصَّحابة والسَّلف الصَّالح وما كانوا عليه من شدة العيش يعلم أن ذلك لم يمنعهم من المسارعة إلى الطاعات، ولم يمنعهم من السؤال عن كل ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ويقربهم من الله عَزَّ وَجَلَّ.

١١ – مجاهدة النفس وتطهيرها من آفات حبِّ الدنيا والتنازع على حطامها.

١٢ – مراقبة الله عَزَّ وَجَلَّ في جميع الأحوال.

العقبة الحادية عشرة

رفقاء السوء

أولًا: تعريف الصداقة:

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الصَّدَاقة و(المصَادَقَة): الْمُخَالَّة. والرَّجل صَدِيقٌ، والأنثى صَدِيقَة، والجمع: أصدقاء. وقد يقال للواحد والجمع والمؤنَّث: صَدِيق، و(الصِّدِّيق): الدَّائِم التَّصْدِيق. وهو أيضًا الذي يُصَدِّقُ قولَهُ بالعمل"(١).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والصِّدِّيق: من كثر منه الصِّدق. وقيل: بل يقال لمن لا يكذب قط. وقيل: بل لمن لا يتأتَّى منه الكذب؛ لتعوُّده الصِّدق. وقيل: بل لمن صدق بقوله واعتقاده، وحقَّق صدقه بفعله.."(٢).

وقالوا: الصَّدِيق: الْمُصَادِقُ لك، وهو بَيِّنُ الصَّداقة، والجمع: صُدَقاء، وصُدْقان، وأصدقاء وأصادِق. واشتقاق الصداقة من الصِّدْق في الْوُدِّ والنُّصْح(٣).

وقال الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والصديق الحميم هو القريب المشفق"(٤).

وقال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الصَّدَاقة: محبَّة صادقة لا يشوبها غرض، يريد له ما يُريده لنفسه، ويؤثره على نفسه في الخيرات"(٥). وقال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "سميت الصداقة: ألفة؛ لتوافق الطباع فيها والقلوب"(٦). وقال: "الصداقة: صدق الاعتقاد في المودة، وذلك يختص بالإنسان دون غيره"(٧).

---

(١) الصحاح، مادة: (صدق) (٤/١٥٠٦).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (صدق) (ص:٤٧٩).

(٣) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، مادة: (صدق) (٦/١٩٠)، لسان العرب (١٠/١٩٤)، المصباح المنير (١/٣٣٥).

(٤) التعريفات (ص:٥٢).

(٥) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (ص:٢٠٨).

(٦) التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٨٩).

(٧) المصدر السابق (ص: ٢١٣)، وهو قول الكفوي في (الكليات) (ص:٥٥٧).

والخُلَّة: الصَّداقة. والخلال أيضًا: الْمُخَالَّة والمصَادقة، والخليل: الصديق، فعيل بمعنى مفعول من الخُلَّة -بضم الخاء- وهي الصداقة التي تخللت القلب، فصارت خلاله، أي: باطنه. ويجوز أن يكون بمعنى مفعول من الخَلَّة أي: الحاجة[1].

قال الأصمعي رَحِمَهُ اللَّهُ: فلان كريم الخُلَّة، أي: كريم الإخاء والمصادقة[2].

والصداقة من العلاقات الاجتماعية التي تنشأ بين شخصين أو أكثر على أساس من المودة والتعاون المشترك، ويختلف مقدار تأثيرها في المشاعر والاعتقاد والسلوك باختلاف الميل والقرب والمحبة.

وقد قيل: الصديق: من لا يكون إلا صادقًا في قول، أو فعل، أو صحبة، وبناء على ذلك فإنَّ الصُّحبة أعم من الصداقة، فقد تكون الصُّحبة لمصالحَ أو لأجلِ تحقيقِ رغباتٍ مشتركة، وقد تكون صالحة ونافعة كما قد تكون غير صالحة ومضرة.

ثانيًا: أهمية الصحبة الصالحة ومخاطر رفقاء السوء:

إنَّ صحبة أرباب العزائم والهمم، ومشاركة المجدين تبعث في النفس الهمة، وتولد الحرارة والشوق لتقليدهم والتشبه بهم، وهي من أسباب النجاة والرفعة، كما أن صحبة أهل الباطل تؤثِّر في الصدِّ عن الحق، وتورد صاحبها المهالك.

والصَّداقة إذا كانت مرتبطة بالعقيدة فإنها تثمر ثمارًا طيبة، وترقى إلى محبَّةٍ منبثقة من العقيدة، متأثرة بأخلاقها وآدابها..فهي محبَّةٌ خالصة لله ﷻ.

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (خلل) (١٦٨٨/٤)، تهذيب اللغة، للأزهري (٣٠٢/٦)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٧٢/٢)، المطلع على ألفاظ المقنع (ص:٥١٦)، لسان العرب (٢١٧/١١). وانظر ما ذكره العسكري في (الفروق) من الفرق بين بين الصداقة والخلة، وبين الصداقة والمحبة. الفروق (ص:٣١٠-٣١١)، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي.

(٢) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري (٣٠١/٦)، مشارق الأنوار، للقاضي عياض (٢٣٧/١).

وقد ذكر النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ من السَّبعة الذين يظلُّهم الله ﷻ في ظلِّه يوم لا ظل إلَّا ظله: ((**ورجلان تَحابَّا في الله، اجتمعا عليه، وتَفرَّقَا عليه**))[1]. معناه: اجتمعا على حبِّ الله ﷻ، وافترقا على حبِّ الله ﷻ، أي: كان سبب اجتماعهما: حب الله ﷻ، واستمرا على ذلك حتى تفرَّقا من مجلسهما، وهما صادقان في حبِّ كلِّ واحد منهما صاحبه لله تعالى حال اجتماعهما وافتراقهما.

وقد يكون للصداقة من الأثر في المنهج والسلوك ما يفوق أيَّ عاطفة أخرى، فإن كان الصديق صالحًا كريم الخلق غدا القرين بعد المخالطة نظيرًا له في الصلاح والكرم، وإن كان سيء الخلق لئيمًا اقتفى أثره، وسار على نهجه.

قال الشاعر:

عن المرء لا تَسْأَلْ وسَلْ عن قَرِينه ... فكُلُّ قرينٍ بالمقارِن يقتدي[2]

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الإخوان ثلاثة: أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه، والآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت، والثالث مثله مثل الداء لا يحتاج إليه قط، ولكن العبد قد يبتلي به وهو الذي لا أنس فيه ولا نفع"[3]. قال العلامة المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا تجب مداراته إلى الخلاص منه[4]. قال تعالى: ﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج:١٣].

وفي الحديث: ((**مثل الجليس الصالح والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يحذيك**[5]**، وإما أن تبتاع منه**[6]**، وإما أن تجد منه ريحًا**

---

(١) صحيح البخاري [٦٦٠، ١٤٢٣، ٦٨٠٦]، مسلم [١٠٣١].

(٢) ديوان طرفة بن العبد (ص:٣٢).

(٣) إحياء علوم الدين (١٧٢/٢).

(٤)انظر: فيض القدير (٥١٩/٥).

(٥) معنى: (يحذيك): يعطيك وزنا ومعنى، وهو بالحاء المهملة والذال.

(٦) مضارع من باب الافتعال للمبالغة، أي: تطلب البيع.

طيبة، ونافخ الكير[(١)]**: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحًا خبيثة))**[(٢)]. فالصديق إذا كان صالحًا وصاحب همة نهض بحال صاحبه.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفيه: فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر، وأهل البدع، ومن يغتاب الناس، أو يكثر فجره[(٣)] وبطالته، ونحو ذلك من الأنواع المذمومة"[(٤)].

وقال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والقصد به: النهي عن مخالطة من تؤذي مجالسته في دين أو دنيا، والترغيب في مجالسة من تنفع فيهما"[(٥)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مجالسة العارف تدعوك من ست إلى ست: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الطوية إلى النصيحة"[(٦)].

ولقد حذَّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من صحبة أهل الشر والفساد، وأمر بصحبة أهل الفضل والرَّشاد والصَّلاح، فقال عزَّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]؛ فإن الإنسان يتأثر بمن يخالطه، وقال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

---

(١) هو بكسر الكاف وسكون التحتية. قال ابن الأثير: "كير الحداد، وهو المبني من الطين. وقيل: الزق الذي ينفخ به النار، والمبني: الكور". النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (كير) (٤/٢١٧)، وانظر: المحكم والمحيط الأعظم (٧/١٠٨)، المخصص، لابن سيده (٣/٤٣٦)، وانظر ذلك مفصلًا في (فتح الباري)، للحافظ ابن حجر (٤/٨٨).

(٢) صحيح البخاري [٢١٠١، ٥٥٣٤]، مسلم [٢٦٢٨].

(٣) يقال: (فجر): إذا كذب، وأصله: الميل. و(الفاجر): المائل.

(٤) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٦/١٧٨).

(٥) التيسير بشرح الجامع الصغير (١/ ٣٦٤).

(٦) مدارج السالكين (٣/٣٢٢).

وفي الحديث: ((**لا تصاحب إلَّا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلَّا تقي**))(١).

وأخبر الله تعالى عن ندم أهل النَّار؛ بسبب صحبتهم لأهل الفساد، فقال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩]، ويقول الله ﷻ: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات:٥٠-٦١]، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨]. فهذا تنفيرٌ من صحبة أهل السوء والباطل.

يقول الشيخ العلامة محمد خضر حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "سألني بعض من له دراية بعلوم الفلسفة، فقال: إنَّ الحكماء يقولون: إنَّ الصداقة لا تدوم إلَّا بين الفضلاء، فهل يوجد هذا المعنى في القرآن؟ فقلت له: يقول الله ﷻ: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧]، فهذا يدل على أنَّ الفضلاء يستمرون على صداقتهم -ولو مع الأهوال العظيمة-"(٢).

وفي المقابل يتحسَّرُ أهلُ النَّار؛ لفقدهم في الدنيا: الصديقَ الصالح والناصح، كما أخبرَ سبحانه عنهم بقوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا

---

(١) أخرجه ابن المبارك [٣٦٤]، والطيالسي [٢٣٢٧]، وأحمد [١١٣٣٧]، والدارمي [٢١٠١]، وأبو داود [٤٨٣٢]، والترمذي [٢٣٩٥]، وقال: "حسن". كما أخرجه: أبو يعلى [١٣١٥]، وابن حبان [٥٥٤]، والطبراني في (الأوسط) [٣١٣٦]، والحاكم [٧١٦٩]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٨٩٣٧].

(٢) موسوعة الأعمال الكاملة، للعلامة محمد الخضر حسين (٥٠٩/١).

صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ [الشعراء:٩٩-١٠١]. وفي ذلك دليل على أن "الصديق هو الذي يهتم بك، وأنَّ الاهتمام حقيقة الصداقة"(١).

فينبغي أن يكون الصديق وفيًّا لصاحبه، معينًا له على البرِّ والتقوى، وأن لا ينساق المسلم وراء صداقة مزيفة، تنحرف به إلى مزالق خطيرة، وتصل به إلى الهاوية، بل يحرص على صحبة من ينهض بحاله إلى الكمال، ويدله على الله ﷻ مقاله، ويحذر من صحبة ضعاف الهمم، وأهل الفسق والمعاصي.

وإنَّ رؤية المجدين تبعث في النفس الهمة لتقليدهم والتشبه بهم، والسير على نهجهم. وبالمقابل فإن صحبة أهل السوء قد تثير في النفس الشبه والشكوك، وتحرض النفس على متابعتهم واقتفاء أثرهم؛ فإنَّ الصاحب ساحب، والمرء على دين خليله، وكل قرينٍ بالمقَارن يقتدي.

ولكن الإنسان قد يفتقر في بعض الأحيان إلى الصحبة الصالحة، ففي هذه الحالة عليه أن ينهض بهمته من بين الأموات، ولا يغفل عن طلب الهداية..يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإذا عَظُمَ المطلوب، وأعْوَزَكَ الرفيقُ الناصحُ العليم فارحل(٢) بهمَّتك من بين الأموات، وعليك بمعلِّم إبراهيم -يعني: الله تعالى-"(٣).

كما أن الإنسان قد لا يعلم حقيقة من حوله، أو قل: من اتخذه خليلًا، فيكشف له السفر -مثلًا- أو ما يقع من البلايا والفتن حقيقة حاله.

فينبغي أن يثق بالله ﷻ وأن يكون أنسه به؛ فمن تعلَّق بالمخلوقين ورجاهم وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة أو يدفعوا عنه ضرًّا، فإنه قد يخذل من جهتهم، ولا يتحقق مقصوده، أما إذا توجه إلى الله ﷻ بصدق الافتقار إليه فإنَّ الله ﷻ يكون معه.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة، وأنزلت من محنة، وعطَّلت من منحة، وأحلَّت من رَزِيَّةٍ، وأوقعت في بليَّةٍ؟ وهل آفة الناس

---

(١) انظر: قوت القلوب في معاملة المحبوب (٢/٣٦٠).

(٢) في نسخة: (فترحل). انظر: مفتاح دار السعادة، طبعة عالم الفوائد (١/٨٧) من مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي، جدة.

(٣) مفتاح دار السعادة (١/٣٢).

إلَّا الناس؟ وهل كان على أبي طالب عند الوفاة أضر من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد. وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا، وقضاء وطر بعضهم من بعض، تنقلب إذا حقت الحقائق عداوة، ويعض المخلط[1] عليها يديه ندمًا"[2].

"وأما الصديق فهو الصادق في ودادك، الذي يهمه ما يهمك فأعز من بيض الأَنُوقُ[3].

والأخوَّة الحقيقيَّة هي التي تقوم على الإيمان والمحبة في الله ﷻ ولله، والصِّدق والإخلاص، وليس من أجل منفعةٍ دنيويَّة، أو مصلحةٍ شخصيَّة، أو عصبيَّة قبليَّة، أو غير ذلك من الماديَّات، فما كان لله ﷻ دام واتَّصل، وما كان لغيره انقطع وانفصل.

وقد قيل: إنَّ الكلمة منفردة وحيدة لا تعدو أن تكون رسمًا، قد تُفهمك معنى، ولكن فيضَ معانيها ، وجمال قدرها لا يدرك إلَّا باتساقها مع غيرها من الكلمات، وكذلك هو حال المؤمن مع إخوانه وأحبابه.

---

(١) الذي يخالط قرناء السوء.

(٢) مدارج السالكين (١/٤٥٥).

(٣) (الأنوق): كصبُور: العُقاب أو الرَّخَمَة؛ لأنها تبيض في مواضع عالية لا يصل إليها أحد. قيل: ذات اسمين؛ لأنها تسمى: الرخمة، والأنوق. وفي المثل: (هو أعز من بيض الأنوق)؛ لأنها تحرزه فلا يكاد يظفر به؛ لأن أوكارها في رؤوس الجبال، والأماكن الصعبة البعيدة. انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (أنق) (١٤٤٧/٤).

ثالثًا: الوقاية من آفات رفقاء السوء والعلاج:

١ – البصيرة التامة بمخاطر رفقاء السوء.

٢ – البصيرة التامة بأهمية الصحبة الصالحة وآثارها وفوائدها.

٣ – العناية في اختيار الصديق، وتكون باجتماع صفاتٍ ومقومات تؤهِّلُه للصُّحبة من التَّقوى، والاستقامة، والأمانة، والصدق، والخُلق الحسن..الخ.

٤ – الحرص على مجالسة الصالحين، ولا سيما في حلقات طلب العلم.

٥ – التَّخلق بصفات الصَّالحين، والحرص على أعمالٍ تحفظُ الودَّ، كالإحسان، وإخلاص النُّصح، والكلمة الطيبة، والتواضع، ولين الكلام، والتماس الأعذار، والتعاون على البر والتقوى، والتحلي بالأخلاق التي تورث المحبة(١).

٦ – الحرص على الالتزام بالآداب العامة في الخطاب والمعاملة.

٧ – أن تكون الصداقة قائمة على المحبة والإيثار.

٨ – البحث عن المحاضن التربوية؛ لتكون نعم العون على التبصر وإخلاص العمل لله ﷻ.

٩ – الإعراض عن الجاهلين، وأهل الباطل، وأصدقاء السوء.

١٠ – النَّأي بالأولاد عن مجالسة رفقاء السُّوء، والتَّحذير من مخاطرهم في الحيِّ والمدرسة والجامعة.

١١ – الحذرُ من صحبة تُورِّثُ آفاتٍ في السلوك والتربية.

---

(١) تنظر الأخلاق التي تورث المحبة في كتاب: (المحبة صورها وأحكامها)، د. عبد القادر دهمان من (ص:١٧٣) إلى (ص:١٨٨).

العقبة الثانية عشرة

الجهل

أولًا: تعريف الجهل وبيان أقسامه:

١ – الجهل في اللغة: خلاف العلم. وقد جَهِلَ فلانٌ جهلًا وجهالة. تجَاهَلَ، أي: أَرَى من نَفْسِه ذلك وليس به. واسْتَجْهَلَه: عَدَّه جاهلًا، واسْتَخَفَّه أيضًا.

والجهالة لغة: من جهلت الشيء خلاف علمته: ومثلها: الجهل، والجهالة أن تفعل فعلًا بغير العلم[1]. وجهَّلته: نسبتُه إلى الجهل، واستجهَلْتُه: وجدتُه جَاهِلًا، وأجهلْتُه: جعلتُه جَاهِلًا، قَالَ: وأما الاستجهال بمعنى: الحمل على الجهل[2].

و(التَّجْهِيل): النِّسْبة إلى الجهل. و(الْمَجْهَلَة) بوزن الْمَرْحَلَة: الأمرُ الَّذي يحمل على الجهل، ومنه قولهم: الولد مَجْهَلَة[3]. وفي الحديث: **((إن الولد مبخلة مجهلة مجبنة))**[4].

٢ – الجهل في الاصطلاح وبيان أنواعه:

يقول الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الجهل على ثلاثة أضرب:

الأول: خلو النفس من العلم.

الثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه.

الثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل سواء اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا، كمن يترك الصلاة متعمدًا، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة:٦٧]. فجعل فعل الهزو جهلًا، وقال ﷻ: ﴿فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الحجرات:٦].

---

(١) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، مادة: (جهل) (١٦/١٩٧)، لسان العرب (١١/١٢٩).

(٢) تهذيب اللغة (٦/٣٨).

(٣) الصحاح، للجوهري، مادة: (جهل) (٤/١٦٦٣)، وانظر: لسان العرب (١١/١٢٩).

(٤) أخرجه البزار [١٨٩١]، والحاكم [٥٢٨٤]. قال الهيثمي (٨/١٥٥): "رواه البزار، ورجاله ثقات"، وصححه كذلك العراقي في (المغني عن حمل الأسفار) (ص:١١٦٨). قوله: ((إن الولد مبخلة)) بالمال عن إنفاقه في وجوه القرب. ((مجبنة)) عن الهجرة والجهاد. ((مجهلة))؛ لكونه يحمل على ترك الرحلة في طلب العلم والجد في تحصيله؛ لاهتمامه بتحصيل المال له. ((محزنة)) يحمل أبويه على كثرة الحزن؛ لكونه إن مرض حزنا، وإن طلب شيئًا لا قدرة لهما عليه حزنا، فأكثر ما يفوت أبويه من الفلاح والصلاح بسببه. فإن شبَّ وعقَّ فذلك الحزن الدائم، والهم السرمدي اللازم. فيض القدير (٢/٤٠٣).

والجاهل تارة يذكر على سبيل الذم، وهو الأكثر، وتارة لا على سبيل الذم، نحو: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة:٢٧٣]، أي: من لا يعرف حالهم، وليس المراد المتَّصف بالجهل المذموم"(١).

وقال الجرجاني رَحِمَهُ اللَّهُ: "الجهل: اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه، واعترضوا عليه بأن الجهل قد يكون بالمعدوم، وهو ليس بشيء، والجواب عنه: إنه شيء في الذهن.

ثم ذكر تعريف كل من الجهل البسيط، والجهل المركب، فقال:

الجهل البسيط: هو عدم العلم عما من شأنه أن يكون عالما.

الجهل المركب: هو عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق للواقع"(٢).

والفرق بين الجهل البسيط والجهل المركب أنَّ صاحب الجهل البسيط يعلم أنه جاهل، ولا يزعم أنه عالم، بخلاف صاحب الجهل المركب فإنه مع جهله يظن أنه عالم، فجهله مركب من جهلين: الجهل بالشيء، والجهل بأنه جاهل به.

"والجهل البسيط يزول بسرعة وسهولة بالتعليم والتعريف. وأما الجهل المركب فلا يزول إلا بصعوبة ومهلة، بل المشهور أن الجهل المركب لا يقبل العلاج"(٣).

وقال العضد الإيجي رَحِمَهُ اللَّهُ: "والجهل البسيط أصحابه كالأنعام؛ لفقدهم ما به يمتاز الإنسان عنها، بل هم أضل؛ لتوجهها نحو كمالاتها، ويعالج بملازمة العلماء؛ ليظهر له نقصه عند محاوراتهم. والجهل المركب إن قَبِلَ العلاج فبملازمة الرياضات؛ ليطعم لذة اليقين، ثم التنبيه على مُقَدِّمةٍ مُقَدِّمةٍ بالتدريج"(٤).

وقد قيل: فساد النظر يؤدي إلى الجهل المركب الذي هو أشد خطرًا من الجهل البسيط، والبلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء(٥).

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (جهل) (ص:٢٠٩)، بصائر ذوي التمييز (٢/ ٤٠٤).

(٢) التعريفات (ص:٢٥٩).

(٣) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون (١/٢٨٨).

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف (ص:١٣٣).

(٥) انظر: المواقف، لعضد الدين الإيجي (١/١٦٢- ١٦٣)، وانظر: جواهر القرآن، لأبي حامد الغزالي (ص:٦١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الجهل المركب هو جهل أرباب الاعتقادات الباطلة. والجهل البسيط يطلب صاحبه العلم، أما صاحب الجهل المركب فلا يطلبه"(١).

وقال الكفوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الجهل: يقال للبسيط، وهو عدم العلم عما من شأنه أن يكون عالما، ويقال أيضًا للمركب، وهو عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق، سمي به؛ لأنه يعتقد الشيء على خلاف ما هو عليه، فهذا جهل آخر قد تركبا معًا.

ويقرب من البسيط: السهو، وسببه: عدم استثبات التصور، فيثبت مرة ويزول أخرى، ويثبت بدله تصور آخر، فيشتبه أحدهما بالآخر اشتباها غير مستقر، حتى إذا نبه بأدنى تنبه عاد إلى التصور الأول.

ويقرب من الجهل أيضًا: الغفلة، ويفهم منها عدم التصور مع وجود ما يقتضيه.

كذلك يقرب منه الذهول، وسببه: عدم استثبات التصور حيرة ودهشًا.

والجهل يقال اعتبارًا بالاعتقاد، والغي يقال اعتبارًا بالأفعال؛ ولهذا قيل: زوال الجهل بالعلم، وزوال الغي بالرشد، ويقال لمن أصاب: رشد؛ ولمن أخطأ: غوى.

والجهل أنواع:

باطل لا يصلح عذرًا، وهو جهل الكافر بصفات الله وأحكامه، وكذا جهل الباغي، وجهل من خالف في اجتهاده الكتاب والسنة، كالفتوى ببيع أمهات الأولاد، بخلاف الجهل في موضع الاجتهاد فإنه يصلح عذرًا، وهو الصحيح، وكذا الجهل في موضع الشبهة.

وأما جهل ذوي الهوى بالأحكام المتعلقة بالآخرة، كعذاب القبر والرؤية والشفاعة لأهل الكبائر، وعفو ما دون الكفر، وعدم خلود الفساق في النار، فلم يكن هذا الجهل عذرًا؛ لكونه مخالفًا للدليل الواضح في الكتاب والسنة والمعقول، لكنه لما نشأ من التأويل للأدلة كان دون جهل الكافر.

وجهل مسلم في دار الحرب لم يهاجر إلينا بالشرائع كلها يكون عذرًا حتى لو مكث ثمة مدة ولم يُصَلِّ ولم يَصُم ولم يعلم أنهما واجبان عليه، لا يجب القضاء بعد العلم

(١) انظر: بدائع الفوائد (٤/٢٠٩).

بالوجوب، خلافًا لزفر؛ لأن الخطاب النازل خفي في حقِّه، فيصير الجهل به عذرًا؛ لأنه غير مقصر، وإنما جاء الجهل من قبل خفاء الدليل"[1]. ويلحق بهذا الجهل: مسائل في الفقه تذكر في مظانها[2].

وإعذار الجاهل من باب التخفيف، لا من حيث جهله. ولهذا قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: لو عُذِرَ الْجاهِل، لأجل جهله لكان الجهلُ خيرًا من العلم؛ إذ كان يَحُطُّ عن العبد أعباء التَّكليف، ويُرِيح قَلْبَهُ من ضُرُوب التَّعْنِيف، فلا حُجَّة للعبد في جهله بالحُكْمِ بعد التَّبْلِيغ والتَّمْكِين، [قال تعالى:] ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥][3].

ويستفاد مما قرره الفقهاء في باب الجهل أنه لا تقبل دعوى الجهل، والاعتذار به في الأمور المشتهرة بين الناس، بخلاف ما لا يعرفه إلا الخواص.

والعذر بالجهل كما هو معلوم له حالات، فهو يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص والمسائل، والأشخاص يختلفون فمنهم من قامت عليه الحجة، ومنهم من لم تقم عليه باعتباره -مثلًا- حديث عهد بإسلام أو نشأ ببادية بعيدة، وكذلك الجهل يختلف إن كان جهلًا بما هو معلوم من الدين بالضرورة أو ما دون ذلك..

قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ: "كل من جهل تحريم شيء مما يشترك فيه غالب الناس. لم يقبل، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة يخفى فيها مثل ذلك. كتحريم الزنى، والقتل، والسرقة، والخمر، والكلام في الصلاة، والأكل في الصوم.."[4].

---

(١) الكليات (ص:٣٥٠)، وانظر: الأشباه والنظائر، لابن نجيم (ص:٢٦١)، المواقف، لعضد الدين الإيجي (٢/٦٥).

(٢) والتقسيم الآنف الذكر هو تقسيم الأصوليين من الحنفية. انظر: الأشباه والنظائر، لابن نجيم (ص:٢٦١)، غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر (٣/٣٠١)، تيسير التحرير (٤/٢١١)، التقرير والتحبير (١/٤١- ٤٣)، وانظر: الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (١/ ٢٥٦).

(٣) المنثور في القواعد الفقهية، للزركشي (٢/١٧).

(٤) الأشباه والنظائر، للسيوطي (ص:٢٠٠)، وانظر: المنثور في القواعد الفقهية (٢/١٥).

وقال علاء الدين البعلي رَحِمَهُ اللَّهُ: والجاهل في الحكم غيرُ العالم بما كلف به إذا لم يقصر ولم يفرط في تعلم الحكم يعذر، أما إذا قصر أو فرط فلا يعذر"(١).

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: "الجهل نوعان: جهل يعذر فيه الإنسان، وجهل لا يعذر فيه. فما كان ناشئًا عن تفريط وإهمال مع قيام المقتضي للتعلم؛ فإنه لا يعذر فيه، سواء في الكفر أو في المعاصي. وما كان ناشئًا عن خلاف ذلك، أي أنه لم يهمل ولم يفرط ولم يقم المقتضي للتعلم بأن كان لم يطرأ على باله أن هذا الشيء حرام؛ فإنه يعذر فيه"(٢).

وفي المسألة بحث طويل ينظر في مظانه، وسيأتي مزيد من البيان في عقبة: (التفريط في تحري الحق).

والجهل قد يكون جهل علم، وقد يكون جهل عمل. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "والجهل نوعان: جهل علم ومعرفة. وجهل عَمَلٍ وَغيٍّ. وكلاهما له ظلمة ووحشة في القلب، وكما أن العلم يوجب نورًا وأُنسًا فَضِدُّهُ يوجب ظلمة ويوقع وحشة. وقد سمى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العلم الذي بعث به رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نورًا وهدى وحياة. وسمى ضده: ظلمة وموتًا وضلالًا. قال الله ﷻ: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقال ﷻ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، وقال ﷻ: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، وقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٧٤]، وقال ﷻ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وقال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا

---

(١) القواعد والفوائد الأصولية (ص:٨٧).

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد (١/ ١٧٣- ١٧٤).

الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢]. فجعله روحًا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، ونورًا لما يحصل به من الهدى والرشاد"(١).

وقال في موضع آخر: "الجهل نوعان: عدم العلم بالحقِّ النَّافع، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه، فكلاهما جهل لغةً وعرفًا وشرعًا وحقيقة، قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة:٦٧] لما قال له قومه: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة:٦٧]، أي: من المستهزئين، وقال يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣]، أي: من مرتكبي ما حرمت عليهم، وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء: ١٧]. قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: أجمع أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن كل ما عصي الله ﷻ به فهو جهالة، وقال غيره: أجمع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن كل من عصى الله ﷻ فهو جاهل. وسمي عدم مراعاة العلم: جهلًا؛ إما لأنه لم ينتفع به، فنزل منزلة الجهل، وإما لجهله بسوء ما تجني عواقب فعله"(٢).

وقد أمر الله ﷻ النَّاس بالنَّظر والتَّفكر في السَّموات وما تشتمل، والأرض وما تشتمل. فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يعني: تفكروا؛ فإن هذا التفكر يهدي أصحاب العقول السليمة إلى الحق. قال ابن السمعاني: "الحق عند الله واحد، والناس بطلبه مكلفون إصابته، فإذا اجتهدوا وأصابوا حمدوا وأجروا. وإن أخطأوا عذروا ولم يأثموا. إلا أن يقصروا في أسباب الطلب. وهذا هو مذهب الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو الحق، وما سواه باطل. ثم يقول: إنه مأجور في الطلب إذا لم يقصر وإن أخطأ الحق، ومعذور على خطئه وعدم إصابته للحق. وقد يوجد للشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في بعض كلامه ومناظراته مع خصومه أن المجتهد إذا اجتهد فقد أصاب. وتأويله أنه أصاب عن نفسه بأنه بلغ عند نفسه مبلغ الصواب، وإن لم يكن أصاب عين الحق"(٣).

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٥٤- ١٥٥).

(٢) المصدر السابق (١/ ٤٦٧).

(٣) قواطع الأدلة في الأصول (٢/ ٣١٠)، وانظر: البحر المحيط في أصول الفقه (٨/ ٢٩٣).

وسيأتيك بيان درجات النَّاس في معرفة الحقِّ والعمل به في عقبة: (التفريط في تحري الحق).

ومن الألفاظ ذات الصلة بالجهل: (الجاهلية) وهي الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشرائع الدِّين، ومن المفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر ونحو ذلك، ومنه ما ورد في الحديث: ((**إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّة**..))[1]، أي: فيك خلق من أخلاقهم، وينبغي للمسلم أن لا يكون فيه شيء من أخلاقهم.

ومن الألفاظ ذات الصلة: (الجهالة) وهي أن تفعل فعلا بغير العلم كما تقدم. "وأما في الاصطلاح: فإن استعمال الفقهاء لهذين اللفظين يشعر بالتفريق بينهما، فيستعملون الجهل -غالبًا- في حالة ما إذا كان الإنسان موصوفًا به في اعتقاده أو قوله أو فعله.

أما إذا كان الجهل متعلقًا بخارج عن الإنسان كمبيع ومشترى وإجارة وإعارة وغيرها، وكذا أركانها وشروطها، فإنهم في هذه الحالة غلبوا جانب الخارج، وهو الشيء المجهول، فوصفوه بالجهالة، وإن كان الإنسان متصفًا بالجهالة أيضًا"[2].

ويقابل الجهل: العلم فإنه: إدراك الشيء إدراكًا جازمًا مطابقًا، فعدم الإدراك: جهل، والإدراك على وجه لا جزم فيه: شك، والإدراك على وجه جازم غير مطابق: جهل مركب —كما تقدم-.

ويتبين مما تقدَّم:

أ. أن من المعنى الاصطلاحي ما يوافق المعنى اللغوي.

ب. أن الجهل إنما يذكر في الغالب على سبيل الذَّم.

ج. أن الجهل يكون بسيطًا ويكون مركبًا.

د. أن الجهل البسيط يزول بسرعة وسهولة، ويعالج بالتعليم والتعريف.

---

(١) صحيح البخاري [٣٠، ٦٠٥٠]، مسلم [١٦٦١].

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، مادة: (جهل) (١٩٧/١٦).

هـ. أن الجهل المركب يعسر علاجه، وهو أشد خطرًا من البسيط.

و. أن فساد النَّظر يؤدي إلى الجهل المركب.

ز. أن من الجهل ما لا يصلح عذرًا، ومنه ما قد يصلح.

ح. أن الجهل قد يكون جهل علم، وقد يكون جهل عمل.

ط. لا يُعْذَر جاهلٌ مُقَصِّرٌ ومفرِّطٌ في تحرِّي الحق ومعرفة الحقوق والواجبات مع إمكان ذلك.

ي. النَّاس مكلَّفون بطلب الهداية، والتَّحرر من الجهل الذي لا يعذر صاحبُه به.

ك. لا ينبغي للمسلمٍ أن لا يكون فيه شيءٌ من أخلاق الجاهلية.

ثانيًا: خطورة الجهل:

إنَّ من أهم ما يصرف عن الحق: الجهل، والبعد عن العلم.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وإنما جاء خلاف من خالف؛ لقلة معرفتهم بما جاء عن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقلة معرفتهم بصحيحها من سقيمها[(١)].

وقال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أما إذا كان هذا المتبع ناظرًا في العلم، ومتبصرًا فيما يلقى إليه، كأهل العلم في زماننا، فإن توصله إلى الحق سهل"[(٢)]. وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والجهل والظلم هما أصل كل شر"[(٣)].

فلذلك يروج الباطل على من لا علم عنده ولا معرفة، ولا اعتناء له بنصوص الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين.

روي عن محمد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: إنَّ قومًا تركوا طلب العلم، ومجالسة العلماء، وأخذوا في الصلاة والصيام حتى يبس جلد أحدهم على عظمه، ثم خالفوا

---

(١) إعلام الموقعين (١/٤٤)، الفقيه والمتفقه، للخطيب (٢/٣٣٢)، إيقاظ همم أولي الأبصار (ص:١١٩).

(٢) الاعتصام (٢/٣٤٤).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١/١٤٨).

السنة فهلكوا، وسفكوا دماء المسلمين، فوالذي لا إله غيره ما عمل أحد عملًا على جهل إلا كان يفسد أكثر مما يصلح(١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فالحق يعرفه كل أحد؛ فإن الحق الذي بعث الله به الرسل لا يشتبه بغيره على العارف، كما لا يشتبه الذهب الخالص بالمغشوش على الناقد"(٢)؛ فإنَّ (الحق أَبْلَجُ لَا تَخْفَى مَعالِمُه، كالشَّمْسِ تَظْهَرُ فِي نورٍ وإبْلاج). والبُلُوجُ: الإشراقُ. وصُبْحٌ أَبْلَجُ: بَيِّنُ البَلَجِ، أَي: مَشْرِقٌ مُضِيء. وقد قيل: (الحقُّ أَبْلَج، والباطل لَجْلَج)، أي: الحق واضح، والباطل مختلط، أي: يتردد فيه صاحبه فلا يصيب مخرجًا.

يقول الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣]. وفي الحديث: "خطَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطًّا وخطَّ عن يمين ذلك الخط وعن شماله خطًّا، ثم قال: ((**هذا صراط ربك مستقيمًا، وهذه السبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**))، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾))(٣). فالحق طريقه واضح وبين وميسر كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧]. وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات**))(٤).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وبذلك يتبين أن الشارع نصَّ على كل ما يعصم من المهالك نصًّا قاطعًا للعذر"(٥).

وقال: "وكثيرًا ما يضيع الحقُّ بين الجهال الأميين وبين المحرفين للكلم الذين فيهم شعبة نفاق، كما أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن أهل الكتاب حيث قال: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا

---

(١) الاستذكار، لابن عبد البر (٨/٦١٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٧/٣١٥).

(٣) أخرجه الطيالسي [٢٤١]، وسعيد بن منصور في (سننه) [٩٣٥]، وأحمد [٤١٤٢]، وعبد بن حميد [١١٤١]، والدارمي [٢٠٨]، وابن ماجه [١١]، والبزار [١٦٧٧]، والنسائي في (الكبرى) [١١١٠٩] وابن حبان [٦]، والحاكم [٢٩٣٨]، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي. كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٦/٢٦٣).

(٤) صحيح البخاري [٥٢، ١٩٤٦]، مسلم [٤١٨١].

(٥) درء تعارض العقل والنقل (١/٤٢).

لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥] إلى قوله ﷻ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ الآية [البقرة: ٧٨](١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والأسباب المانعة من قبول الحق كثيرة جدًّا، فمنها: الجهل به، وهذا السبب هو الغالب على أكثر النفوس؛ فإن من جهل شيئًا عاداه وعادى أهله"(٢).

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قد لا يعذر الإنسان بالجهل، وذلك إذا كان بإمكانه أن يتعلم ولم يفعل، مع قيام الشبهة عنده، كرجل قيل له: هذا محرم، وكان يعتقد الحل، فسوف تكون عنده شبهة على الأقل، فعندئذٍ يلزمه أن يتعلم؛ ليصل إلى الحكم بيقين. فهذا ربما لا نعذره بجهله؛ لأنه فرط في التعليم، والتفريط يسقط العذر، لكن من كان جاهلًا، ولم يكن عنده أي شبهة، ويعتقد أن ما هو عليه حق، أو يقول هذا على أنه الحق، فهذا لا شك أنه لا يريد المخالفة ولم يرد المعصية والكفر، فلا يمكن أن نكفره -حتى ولو كان جاهلًا بأصل من أصول الدين-"(٣).

والجهل من أسباب وقوع الاختلاف، ومخالفة الحق المبين؛ فكلما ضعف علم الإنسان كثر جهله. فينبغي أن نحرص على العلم؛ حتى نُوفق للتمسك بالحق.

يقول العلامة محمد الخضر حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (رسائل الإصلاح): "من تكلّم في العلم بغير أمانة فقد مسَّ العلم بقرحة، ووضع في سبيل فلاح الأمة حجر عثرة(٤). إذا تكلمنا في العلم بغير أمانة ابتعدنا عن فلاح هذه الأمة، وعن تحقق عزها ومجدها"(٥).

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٥/١٢٩).

(٢) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (ص:١٦).

(٣) الشرح الممتع (٦/١٩٣- ١٩٤).

(٤) أي: عائق وعقبة.

(٥) رسائل الإصلاح (١/ ١٣) .

والسكوت خير من الحديث بغير علم. قال الحافظ أبو الحجاج المزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولو سكت من لا يدري لاستراح وأراح، وقلَّ الخطأ، وكثر الصواب"[(١)].

قال الإمام عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا خطورة الجهالات وضررها: "أقبحُ الجهالات: جهالةُ الإنسانِ بالملك الدَّيان، وبأحكامِ القرآن، وبما أعدَّه اللهُ تعالى في الجِنَان لأهلِ الطَّاعة والإيمان، وبما أعدَّه من النِّيران لأهلِ الجهل والعصيان، فالجهل بالله ﷻ مثمر لأضداد ثمار العرفان؛ فإنَّه مفضٍ إلى خلود النِّيران، وسخط الرَّحمن، والجهل ببعض الصِّفات مثمر لأضداد ثمار معرفة تلك الصِّفات من خير الدُّنيا والآخرة، والجهل بالأحكام مثمر لاكتساب الآثام، وأكل الحرام، وظلم الأنام، وإضاعة الصَّلاة والصِّيام، والجهل بخساسة هذه الدَّار مثمر للإخلاد إليها، والجهل بنفاسة دار القرار مثمر لإيثار هذه الدُّنيا عليها، والجهل بأيام الله مثمر للغفلة والاغترار، والجرأة على معصية الجبار"[(٢)].

ومن علامات الساعة: أن يقبض العلم بقبض العلماء، فيبقى ناسٌ جُهَّال يُسْتَفْتُونَ فَيُفْتُونَ برأيهم من غير علم ولا هدى، فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ كما جاء في الحديث: ((**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**))[(٣)].

والأمم عندما يرتفع منها العلم: يفشو الجهل، وتنتشر فيها الفوضى بأنواعها، فتتخذ رؤوسًا جُهَّالًا لأمور دينها وأمور دنياها، فيقودونها بغير علم، فَيَضلون ويُضلون، ويَهلكون ويُهلكون، ويفسدون ولا يصلحون.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي هذا الحديث: الحثُّ على حفظ العلم، والتحذير من تَرْئِيس الجهلة، وفيه أن الفتوى هي الرِّيَاسَة الحقيقية، وذَمُّ من يُقْدِمُ عليها بغير علم"[(٤)].

---

(١) تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٤/٣٦٢).

(٢) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال، عز الدين بن عبد السلام (ص:١٧).

(٣) صحيح البخاري [١٠٠]، مسلم [٢٦٧٣].

(٤) فتح الباري، لابن حجر (١/ ١٩٥)، وانظر: فيض القدير (٢/٢٧٣).

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قد أعلم رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن آفةَ العلم: ذهابُ أهله، وانتحالُ الجُهَّال وَتَرَؤُسُهُمْ على النَّاس باسمه. وَحَذَّرَ النَّاسَ أن يقتدوا بمن كان من أهل هذه الصِّفة، وأخبر أنهم ضُلَّالٌ مُضِلُّونَ، وأَنْذَرَ به صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في حديث آخر عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: "لَأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثًا لا يُحَدِّثُكُمْ أَحَدٌ بعدي سَمِعَه، سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقول: ((**إن من أشراط الساعة: أن يرفع العلم ويظهر الجهل**))[1]. قال أبو سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يريد -والله أعلم-: ظهور الجُهَّالَ الْمُنْتَحِلِينَ لِلْعِلْمِ الْمُتَرَئِسِينَ على الناس به قبل أن يَتَفَقَّهُوا في الدِّينِ وَيَرْسَخُوا في عِلْمِه"[2]. وسيأتي مزيد من البيان في عقبة: (سوء التبليغ)، وعقبة: (القدوة السيئة).

ويتبين مما تقدَّم أنَّ الجهل سبب في الإعراض عن الحقِّ والضَّلال والإضلال، كما أنه سببٌ في ضعف الإيمان، وقد يكون سببًا في موت صاحبه.

والجهل يمنعُ صاحبه من إتقانِ العمل والتقرب به بالصُّورة الصَّحيحة والسَّليمة، وقد يكون سببًا في الاشتغال بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، أو التوسع في النوافل والمندوبات وترك الفرائض والواجبات، أو الوقوع في بعض البدع مع الاعتقاد بأنها من الأعمال الصالحة.

ثالثًا: الجهل بحقيقة الباطل وأهله:

ويتفرع عن الجهل: (عدم تصور الباطل على ما هو عليه)، ومرد ذلك إلى الضعف في التحقيق، والنظر السطحي إلى النصوص دون أن يدرك المقاصد من المعاني. وقد وصف الله ﷻ أهل الباطل بأنهم لم يفقهوا المعاني ولم يعقلوها على حقيقتها كما قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]. فلذلك كانوا في غفلة واختلاف وريبة وتردد كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ

(١) صحيح البخاري [٨١، ٦٨٠٨]، مسلم [٢٦٧١].

(٢) العزلة، لأبي سليمان الخطابي (ص:٨٢)، وانظر: بدائع السلك في طبائع الملك (٢/٤٥١).

بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]، ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة:٤٥]، ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ [الذاريات:٨- ٩].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولهذا قال طائفة من العقلاء: إن عامة مقالات الناس يمكن تصورها إلَّا مقالة النصارى، وذلك أن الذين وضعوها لم يتصوروا ما قالوا، بل تكلموا بجهل وجمعوا في كلامهم بين النقيضين؛ ولهذا قال بعضهم: لو اجتمع عشرة نصارى لتفرقوا عن أحد عشر قولًا. وقال آخر: لو سألت بعض النصارى وامرأته وابنه عن توحيدهم لقال الرجل قولًا، وامرأته قولًا آخر، وابنه قولًا ثالثًا"(١).

يقول الله ﷻ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، أي: من كان ميتًا بالكفر والجهل فأحييناه بالإيمان والعلم، وجعلنا له نُورًا في قلبه، أي: نور الإيمان والعلم، والهداية بالآيات، المؤيدة بالحجة والبرهان، ﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ على بصيرة من أمره في دينه وآدابه ومعاملاته للناس، كمن مثله المبين لحقيقة حاله كمثل السائر في ظلمات بعضها فوق بعض. والعبرة في هذا المثل: الحث على أن يكون المسلم على بصيرة في دينه وأعماله وحسن سيرته في الناس، وقدوة لهم في الفضائل والخيرات، وحجة على فضل دينه على جميع الأديان، وعلو آدابه على جميع الآداب.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كان مَيْتًا بالكفر والجهل، فأحياه الله بالإيمان والعلم. وجعل له بالقرآن والإيمان نُورًا يستضيء به في الناس على قَصْد السَّبيل، ويمشي به في الظُّلَم. والله أعلم"(٢).

ولقد أحسن القائل:

وفي الْجَهْلِ قَبْلَ الْمَوْتِ مَوْتٌ لِأَهْلِهِ ... وأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ الْقُبُورِ قُبُورُ

---

(١) الجواب الصحيح (٣/٢٩٩).

(٢) مدارج السالكين (٢/٤٥٥). و(قصد السبيل): بمعنى: تبيين الطريق المستقيم وسلامته من العقبات والآفات والاعوجاج.

وأَرْوَاحُهُمْ في وَحْشَـةٍ من جُسُومِهِمْ   فَلَيْسَ لَهُمْ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورُ(١)

فمن الجهل الصارف عن الهداية: عدم الاطلاع على حقيقة الباطل، وعلة تمسك أهله به، والجهل بحجج الخصم، والعجز عن بيان وجه تهافتها.

قال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: "قد علمت متى تهلك العرب -ورب الكعبة-، إذا ولي أمرهم من لم يصحب الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولم يعالج أمر الجاهلية"(٢).

ويقول حذيفة بن اليمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: "كان الناس يسألون رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني"(٣).

يقول ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ: "إن (الضد يظهر حسنه الضد)، وكل من كان بالباطل أعلم كان للحق أشدَّ تعظيمًا، وبقدره أعرف إذا هدي إليه"(٤).

فمن شأن دعاة الباطل: التلبيس على الناس، وإظهار الباطل في صورة الحقِّ، ومَزْجُ الحقِّ بالباطل بالكتمان والتعمية، لكن منهج أهل الحقِّ: العمل على بيانه وتمييزه عن الباطل، هذا هو منهجهم في تشخيص المرض، ثم المعالجة بالدواء الشافي؛ حيث يردون المخالف إلى أدلة واضحة، وحجج قاطعة، ومقدمات مسلمة. وأساس ذلك رسوخ العقيدة التي تحمل الباحث على الصدق والموضوعية والإنصاف وعموم الأخلاق الفاضلة، وعلى الالتزام بآداب الخطاب والمناظرة. وتحارب الغش والخداع والتزوير والتغرير والمكر والتلبيس والخيانة، وهذه الأوصاف القبيحة لا تكون خُلُقًا للمسلم بحالٍ؛ لأنَّ طهارة نفسِه المكتسبة من الإيمان والعمل الصالح تأبى أن تتجانسَ مع هذه الأخلاق الذَّميمة.

---

(١) انظر: أدب الدنيا والدين (ص:٣٧)، مدارج السالكين (٣/٢٤٥)، إغاثة اللهفان (١/٢٣)، مفتاح دار السعادة (ص:٤٨)، نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف (ص:١٦١).

(٢) أخرجه ابن الجعد في (مسنده) [٢٣٦٨]، وابن أبي شيبة [٣٢٤٧٢]، والحاكم [٨٣١٨]، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٧١١٩]، وأبو نعيم في (الحلية) (٧/٢٤٣).

(٣) صحيح البخاري [٣٤١١، ٦٦٧٣]، مسلم [٤٨٩٠].

(٤) مجموع الفتاوى (٥/١١٨).

فينبغي على الباحث أن يفقه أدلة المخالف، ومذهبه، وتصوره للنصوص، ومقصده من التأويل من واقع فكره هو، ومن أقواله وكتاباته. هذا من الإنصاف في الحوار والنظر، وهو الذي يكشف الغطاء عن الحقيقة بموضوعية ومصداقية.

"وينبغي أن يعلم أنه ليس كل من لم يمارس الشر والجاهلية أقل معرفة بها ممن مارسها، بل قد يكون بصيرًا بها وإن لم يمارسها"[(١)]. يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وليس المراد أن كل من ذاق طعم الكفر والمعاصي يكون أعلم بذلك وأكره له ممن لم يذقه مطلقًا؛ فإن هذا ليس بمطرد، بل قد يكون الطبيب أعلم بالأمراض من المرضى. والأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أطباء الأديان، فهم أعلم الناس بما يصلح القلوب ويفسدها، وإن كان أحدهم لم يذق من الشر ما ذاقه الناس، ولكن المراد أن من الناس من يحصل له بذوقه الشر من المعرفة به والنفور عنه، والمحبة للخير إذا ذاقه ما لا يحصل لبعض الناس، مثل من كان مشركًا أو يهوديًّا أو نصرانيًّا وقد عرف ما في الكفر من الشبهات والأقوال الفاسدة والظلمة والشر، ثم شرح الله ﷻ صدره للإسلام وعرفه محاسن الإسلام، فإنه قد يكون أرغب فيه، وأكره للكفر من بعض من لم يعرف حقيقة الكفر والإسلام، بل هو معرض عن بعض حقيقة هذا وحقيقة هذا، أو مقلد في مدح هذا وذم هذا"[(٢)].

رابعًا: الوقاية من آفات الجهل والغلاج:

١ - الحرصُ على طلبِ العلم النَّافع، وأن يعملَ طالب العلم بما علم:

والعلم النافع هو الذي يورث الخشية والتذكر وقوة الإيمان: قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد:١٩].

ولقد بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ أهل العلم ينتفعون بالآيات، أما الجهل فهو سببُ الكفر والجحود والظلم. قال الله ﷻ: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

---

(١) انظر: الصوارف عن الحق، د. حمد العثمان (ص:١٢٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٣٠٢)، المصدر السابق (ص:١٠٦).

وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٩]. وبيَّن الحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أنَّ العلم سبب في الهداية إلى الحقِّ، فقال ﷻ: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦].

وينبغي أن ينتفعَ طالبُ العلم بما علم، قال الشاطبي رَحِمَهُٱللَّهُ: "العلم المعتبر شرعًا -أعني: الذي مدح الله ﷻ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهله على الإطلاق- هو العلم الباعث على العمل"(١).

٢ - ملازمة العلماء الربانيين، والأخذ عنهم، وعدم الاكتفاء بمطالعة الكتب:

والرَّبانيون المعرفون بالعلم والتَّقوى هم عماد النَّاس في الفقه والعلم وأمور الدِّين والدُّنيا؛ ولذلك قال مجاهد: وهم فوق الأحبار؛ لأنَّ الأحبارَ هم العلماء. والرَّبانيُّ: الجامعُ إلى العلم والفقه: البصرَ بالسياسة والتدبير، والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دُنياهم ودينهم(٢). وقيل: سموا بذلك؛ لعلمهم بالربِّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى(٣).

قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في تفسير قوله ﷻ: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ [آل عمران:٧٩]: حلماء فقهاء، ويقال: الرَّبانيُّ الذي يُرَبِّي النَّاس بِصِغَار العلم قبل كِبَاره(٤). أي: بالتدريج، وقيل غير ذلك.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: "والمراد بصغار العلم: ما وضح من مسائله، وبكباره ما دقَّ منها. وقيل: يعلمهم جزئياته قبل كلياته، أو فروعه قبل أصوله، أو مقدماته قبل مقاصده. وقال ابن الأعرابي رَحِمَهُٱللَّهُ: لا يقال للعالم رباني حتى يكون عالما معلمًا عاملًا"(٥).

فالعالم الرَّباني قائم على أمور الناس، مصلح لأحوالهم، ومرشد لهم إلى ما فيه صلاحهم.

---

(١) الموافقات، للشاطبي (١/٨٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٥٤٤).

(٣) فتح الباري، لابن حجر (١/ ١٢١).

(٤) انظر: صحيح البخاري (١/ ٢٤)، شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/١٥١).

(٥) فتح الباري، لابن حجر (١/١٦٢).

وفي الحديث: ((**إنما العلم بالتعلم**))[1]. قوله: (إنما العلم) أي: تحصيله، (بالتعلم) -بضم اللام- على الصواب. وفي بعض النسخ: بالتعليم. والمعنى: ليس العلم المعتبر إلا المأخوذ من الأنبياء وورثتهم على سبيل التعلم[2].

وقال الشيخ محمد الشنواني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (حاشيته على مختصر ابن أبي جمرة): "((**إنما العلم بالتعلم**)) "أي: بكون الإنسان يتعلم العلم من غيره من العارفين، وليس العلم بالمطالعة في الكتب"[3].

والحاصل أن الأخذ عن العلماء الربانيين يورث استقامة في الفكر والسلوك. وقد روي أن لقمان الحكيم أوصى ابنه، فقال: يا بني جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك؛ فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء[4].

٣ - التفكر والنظر في ملكوت السَّموات والأرض وما خلق الله من شيء.

٤- الصبر على طلب العلم، وتحمل المشقة في مراحل التعلم والطلب:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (باب ما ذكر في ذهاب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في البحر إلى الخضر): "هذا الباب معقود للترغيب في احتمال المشقة في طلب العلم؛ لأن ما يغتبط به تحتمل المشقة فيه، ولأن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يمنعه بلوغه من السيادة المحل الأعلى من طلب العلم وركوب البر والبحر لأجله"[5].

٥ - الحذرُ من الحسد، والرياءِ، والإعجابِ، واحتقار الناسِ.

---

(١) رواه البخاري في (الصحيح) معلقًا (٢٤/١). قال ابن حجر: إسناده حسن؛ لاعتضاده بالمجيء من وجه آخر. انظر: فيض القدير (٥٦٩/٢)، (٢٤٢/٦)، تغليق التعليق على صحيح البخاري (٧٨/٢).

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر (١٦١/١)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٤٢/٢)، فيض القدير (٥٦٩/٢).

(٣) حاشية الشيخ محمد الشنواني على مختصر ابن أبي جمرة (ص:٤٢).

(٤) موطأ الإمام مالك [٣٦٧٠]، الزهد، لابن المبارك [١٣٨٧]. الزهد، لأحمد [٥٥٢].

(٥) فتح الباري (١٦٨/١)، وانظر: عمدة القاري (٥٨/٢)،

٦ - دوامُ مراقبته لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في علانيتهِ وسرِّه، محافظًا على قراءةِ القرآن، ونوافلِ الصلواتِ، والصومِ، وغيرِهما، معولًا على الله تعالى في كلِ أمره، معتمدًا عليه، مفوضًا في كل الأحوال أمره إليه.

٧ - تنظيم برامج للقضاء على الجهل والأمية في المجتمع.

٨ - تحفيز الطلاب من خلال المكافآت التشجيعية.

٩ - الاهتمام بكافة العلوم التي تخدم المجتمع في سائر المجالات.

١٠ - أن تكون المناهج مواكبة للتطور.

١١ - أن لا يقتصر في العلوم الصناعية على التعليم النظري.

١٢ - التشجيع على الابتكارات والإبداعات الجديدة.

١٣ — مراقبة تطور المناهج، واختيار معلمين أكفاء.

١٤ — إزالة العلوم غير النافعة من المقررات والمناهج.

١٥ — إدراك أن العلم والمعرفة من عناصر القوة، فينبغي على الجميع أن يعملوا من أجل القضاء على الجهل والأمية، وأن يبذلوا قصارى جهدهم من أجل تحقيق النهضة العلمية.

١٦ — اللجوء إلى الله ﷻ، والاستعانة به، والاستعاذة من الجهل. ومن دعائه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **((ربِّ اغْفِرْ لي خَطِيئَتي وجَهْلِي، وإسْرَافِي في أَمْرِي كُلِّه، وما أَنْتَ أَعْلَمُ به منِّي، اللهم اغْفِرْ لي خَطَايَايَ، وعَمْدِي وجَهْلِي وهَزْلِي، وكُلُّ ذلك عندي، اللهم اغْفِرْ لي ما قَدَّمْتُ ومَا أَخَّرْتُ، وما أَسْرَرْتُ وما أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ وأَنْتَ المُؤَخِر، وأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير))**[1].

---

(١) صحيح البخاري [٦٣٩٨، ٦٣٩٩]، مسلم [٢٧١٩].

وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا خرج من بيته قال: ((**بسم الله، توكلت على الله، اللهم إنا نعوذ بك من أن نَزِلَّ، أو نَضِلَّ، أو نَظْلِمَ، أو نُظْلَمَ، أو نَجْهَلَ، أو يُجْهَلَ علينا**))(١).

وقد أمرنا المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن نسأله الهدية إلى الصراط المستقيم فقال معلِّمًا للعباد أن يقولوا في صلاتهم ودعائهم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة:٦-٧] وسؤال الهداية يتضمن: معرفة الحق والتوفيق للعمل به، وهما ينافيان: الجهل والهوى.

(١) أخرجه الترمذي [٣٤٢٧]، وقال: "حسن صحيح". والحديث أخرجه غير واحد. قال العراقي أخرجه أصحاب السنن من حديث أم سلمة، قال الترمذي: حسن صحيح". المغني عن حمل الأسفار (ص:٣٨٤).

العقبة الثالثة عشرة

التقليد الأعمى

أولًا: تعريف التقليد:

التقليد: هو العمل بقول من ليس قوله إحدى الحجج بلا حجة(١)، وقيل: قبول قول الغير من غير حجة، والأول أدق وأحسن(٢).

والتقليد مأخوذ من القلادة في العنق؛ لأن المستفتي يتقلد قول المفتي كالقلادة في عنقه، أو أنه قلد ذلك للمفتي وتقلد المفتي في عنقه حكم مسألة المستفتي(٣). كأخذ العامي من المجتهد فالرجوع إلى قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس تقليدًا، والرجوع إلى الإجماع ليس تقليدًا كذلك؛ لأن ذلك رجوع إلى ما هو الحجة في نفسه(٤).

ثانيًا: أنواع التقليد وبيان المذموم منه:

إنَّ من التقليد ما يصرف عن الحق، ويروج للباطل، ويوقع في الضلال، ويكون عقبة في طريق الهداية، وهو التقليد الممنوع والمذموم، وهو المعنيُّ هنا، ومنه ما هو مشروع لا يذم.

فينبغي التمييز بين تقليد مذموم يكون في الأصول والعقائد؛ فإنه من أسباب الضلال؛ لظهور الأدلة ووضوحها، وبين تقليد في قضايا اجتهادية تختلف فيها النتائج باختلاف وجهات النظر، وآليات البحث، كالتقليد في الفروع والمسائل الفقهية التي تحتاج إلى الاجتهاد وبذل الجهد؛ فإنَّ مثل هذا الاجتهاد لا يختص به إلا طائفة من أهل العلم، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢]. فقد أوجب الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قبول ما أنذر به العلماء العامة، وهذا تقليد منهم للعلماء. وهذا بالنسبة للتقليد المتعلق بالفروع الفقهية التي يعسر على العامة

---

(١) وهو قول ابن الهمام. انظر: التقرير والتحبير (٤٣/١)، تيسير التحرير (٢٤١/٤)، إرشاد الفحول (٢٣٩/٢).

(٢) انظر: تيسير التحرير (٢٤١/٤- ٢٤٢)، إرشاد الفحول (٢٣٩/٢).

(٣) انظر: صفة الفتوى والمفتي والمستفتي (ص:٦٨)، رسالة في أصول الفقه، للعكبري (ص:١٢٨)، العدة في أصول الفقه، للقاضي أبي يعلى (١٢١٦/٤)، البحر المحيط في أصول الفقه (٣١٦/٨)، إرشاد الفحول (٢٣٩/٢).

(٤) انظر: روضة الناظر (٣٨١/٢)، شرح مسلم الثبوت (٤٠٠/٢)، الموسوعة الفقهية الكويتية (١٥٩/١٣).

الاطلاع على أدلتها. فلم يسقط الاجتهاد عن جميعهم، ولا أمر به كافتهم[1]. ونقل السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإجماع على أن العوام يجوز لهم التقليد، وقال: وإنما نهى الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن تقليده وتقليد غيره بمعنى أن يطبق أهل الأرض كلهم على التقليد؛ لأن فيه تعطيل فرض من فروض الكفايات، وهو الاجتهاد[2]. قال القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مذهب مالك وجمهور العلماء وجوب الاجتهاد، وإبطال التقليد؛ لقوله ﷻ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]. واستثنى مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أربع عشرة صورة؛ للضرورة منها: وجوب التقليد على العوام[3].

وفي تقليد العالم من هو أعلم منه خلاف، فقد رأى محمد بن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ جوازه[4]. وعن أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ روايتان، إحداهما: جوازه، والأخرى: المنع منه. وأجاز ابن سريج رَحِمَهُ ٱللَّهُ تقليد العالم من هو أعلم منه إذا تعذر عليه وجه الاجتهاد. وأكثر الفقهاء يمنعون من تقليد العالم من هو أعلم منه[5].

والتقليد عند جماعة من العلماء غير الإتباع؛ لأن التقليد هو الأخذ بقول الغير بغير حجة كما بينا، وأما الاتباع فهو سلوك التابع طريق المتبوع، وأخذ الحكم من الدليل بالطريق التي أخذ بها متبوعه، فهو اتباع للقائل على أساس ما اتضح له من دليل على صحة قوله.

والحاصل أن التقليد ينقسم إلى قسمين:

١- تقليد مباح ومطلوب: وهو تقليد العاجز عن الاجتهاد؛ لأنه لم يقدر على التوصل إلى الحكم الشرعي بنفسه فلم يبق أمامه إلا اتباع من يرشده من أهل النظر والاجتهاد إلى ما يجب عليه من التكاليف.

٢- تقليد مذموم: وهو ثلاثة أنواع:

---

(١) انظر: الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض، للسيوطي (ص:٤).

(٢) انظر: المصدر السابق (ص:٣).

(٣) انظر: الذخيرة، للقرافي (١/١٤٠)، البحر المحيط، للزركشي (٤/ ٥٦٣).

(٤) انظر: البحر المحيط، للزركشي (٤/ ٣٦٦)، حلية العلماء (١/٥٤)، الاجتهاد، للجويني (١/١٠٨).

(٥) انظر: المعتمد في أصول الفقه (٢/ ٣٦٦)، البحر المحيط (٤/ ٣٦٦).

الأول: ما تضمن الإعراض عما أنزل الله ﷻ، وعدم الالتفات إليه، كتقليد الآباء والرؤساء.

الثاني: تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأخذ قوله.

الثالث: التقليد بعد ظهور الحجة وقيام الدليل عند شخص على خلاف قول المقلَّد.

وهذه الأنواع الثلاثة هي التي يُحمل عليها ماورد من آيات وأحاديث في ذمِّ التقليد، كما يحمل عليها كل ما نقل عن العلماء في ذم التقليد، فقد نهى الأئمة الأربعة عن تقليدهم، وذموا من أخذ أقوالهم بغير حجة.

ثالثًا: فساد التقليد المذموم:

أوجب الإسلام تحرير العقل من التقليد الأعمى، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنبياء:٥١-٥٤]. ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الزخرف:٢٢-٢٣].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧] "دعوة صريحة إلى تحرير العقل، وإطلاقه من قيد الأسر للأوهام، ومن الانقياد للآخرين، من غير أن يكون له نظر واقتناع، عن برهان قاطع، وحجة واضحة"(١).

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب (٩/ ١١٩٤- ١١٩٥).

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه، وهو لايدري"(١). وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا تقلدني، ولا تقلد مالكًا، ولا الثوري، ولا الأوزاعي، وخذ من حيث أخذوا"(٢). وقال: "من قلَّة فقه الرجل أن يُقلِّدَ دِينَهُ الرِّجال"، وقال أبو يوسف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا يحِلُّ لأحد أن يقول مقالتنا حتى يعلم من أين قلنا"(٣).

ولعل الوجه في نهي الأئمة عن تقليدهم أنهم قالوه لتلامذتهم المؤهلين الذين لديهم القدرة على معرفة حجية الأدلة، ومدى صحتها، وعلى تفهم دلالاتها، فهؤلاء لا يصح منهم التقليد الصرف فيما يمكنهم فيه الرجوع إلى الأدلة.

وقال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ما زال السلف والخلف يأمرون بالاجتهاد، ويحضون عليه، وينهون عن التقليد، ويذمونه ويكرهونه.

فممن صنف في ذلك: المزني رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب الإمام الشافعي، ألف كتاب: (فساد التقليد) نقل عنه ابن عبد البر في (كتاب العلم)، والزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (البحر)، ولم أقف عليه، وألف ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثلاثة كتب في إبطال التقليد وقفت عليها، وألف أبو شامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك كتابه خطبة الكتاب (المؤمل في الرد إلى الأمر الأول) وقفت عليه، وألف ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب: (التسديد في ذم التقليد) لم أقف عليه، وألف ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابًا في ذم التقليد وقفت على كراسين منه، وألف المجد الشيرازي

(١) انظر: إعلام الموقعين (٢/٢٠٠)، إيقاظ همم أولي الأبصار (١/١٢٧)، الفقيه والمتفقه، للخطيب (٢/١٥٧).

(٢) انظر: إعلام الموقعين (٢/٢٠٠)، الفتاوى الكبرى (٥/١٢٣)، إيقاظ همم أولي الأبصار (ص:١١٣)، صفة صلاة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، للألباني (ص:٥٣).

(٣) انظر: إعلام الموقعين (٢/٢٠١)، الفتاوى الكبرى (٥/١٢٣)، إيقاظ همم أولي الأبصار (ص:٥١) و(ص:٧٠) و(ص:١١٣)، تيسير التحرير (٤/ ٢٤٩)، عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد، للدهلوي (ص:١٩)، حجة الله البالغة (ص:٣٣٢)، فواتح الرحموت (٤/٢٩٩)، قواعد الفقه، للبركتي (ص:٢٤٩).

رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب: (القاموس) كتاب: (الإصعاد إلى رتبة الاجتهاد) ولم أقف عليه"[١]، ثم ذكر نصوص العلماء في ذم التقليد"[٢].

رابعًا: الوقاية من آفة التقليد للآباء والأشياخ والعلاج:

١ – تحرير العقل:

إنَّ الوصول إلى الحقِّ يقتضي تحرير العقل، وإطلاقه من قيدِ الأَسر للأوهام، ومن الانقياد للآخرين، من غير أن يكون له نظر، ومن غير اقتناعٍ مبنيٍّ على برهان قاطع، وحجة واضحة.

وقد اشترط الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سبيل الوصول إلى الحقائق: أن يكون الباحث حرَّ العقل، مستقلَّ التَّفكير، وندَّدَ بكلِّ فكرٍ موسومٍ بالتبعية والمحاكاة، وبلغ من حرصه على هذا المبدأ أنه ختم كتابه: (معيار العلم) بدعوة للقارئ أن يقرأه بروح العقل الفهم لا بروح التقليد[٣].

٢ – الاعتماد على الذَّات وتأهيل الكفاءات:

والاعتماد على الذَّات لا يعني: عدم الاستفادة من جهود الآخرين، ولكنه يعني: الإيمان بالثوابت، والتمسك بالعقيدة، وإعداد العدة، وتأهيل الكفاءات، كما يعني: عدم الذوبان في تبعية مطلقة.

قال جمال الدين الأفغاني: "إن الدين هو قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سر سعادتها، وعليه مدارها، وهو السبب المفرد لسعادة الإنسان..وإنا معشر المسلمين اذا لم يؤسس نهوضنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه، ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلَّا عن هذا الطريق، وإنَّ ما نراه اليوم من حالة ظاهرة حسنة (من حيث الرقيُّ والأخذ بأسباب التمدن) هو عين التقهقر والانحطاط؛ لأننا في تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوروبية، وهو تقليد يجرنا بطبيعته إلى الاعجاب بالأجانب،

---

(١) الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض (ص:٤٢).

(٢) انظر: المصدر السابق (ص:٤٢) فما بعد.

(٣) انظر: معيار العلم، للإمام الغزالي، تحقيق: الدكتور سليمان دنيا (ص: ٣٤٨).

والاستكانة لهم، والرضا بسلطانهم علينا، وبذلك تتحول صبغة الاسلام، التي من شأنها رفع راية السلطة والغلب، إلى صبغة خمول، واستئناس لحكم الأجنبي"(١).

ويقول: "إنَّ المقلدين لتمدن الأمم الأخرى ليسوا أرباب تلك العلوم التي ينقلونها، والتمدن الغربي هو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة، وسير الاجتماع الإنساني. ولقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها، وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم"(٢).

وتاريخ المسلمين خير مثال تطبيقي لهذا الذي قررناه، فقد نهض المسلمون نهضة قوية حوَّلت العرب من أمَّةٍ صغيرة منطوية على نفسها إلى أمة ذاتِ حضارة وتأثير وقيادة وريادة في مختلف النواحي؛ لأنهم فهموا القرآن الكريم على هذا الأساس. سمعوا قول الله ﷻ: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤]، ففهموا منها أنهم أمَّة المطلوب منها أن تكون داعيةً ورائدة، لا أن تكون مجرَّد أمة مدعوة وتابعة. فواجبنا أن نحرص على تقوية الإيمان في القلوب، وأن نحرصَ على البناء السليم لأبنائنا وبناتنا القائم على العلم والمعرفة. وينبغي أن نعلم أن أعدائنا ليسوا بأقوى منَّا هممًا، ولا أكثرَ منا رقيًّا وتقدُّمًا إذا أبصرنا موضع الخلل، وكان نهجنا سليمًا.

٣ - أن نعلم أن المقَلَّدين ليسوا معصومين:

وذلك يقتضي الانتصار للحقِّ من خلال البحث والنَّقد والمحاكمةِ لكلِّ ما يرد من أقوالٍ وعقائدَ ومذاهب، ورد ذلك كله إلى ميزانٍ عادل قائم على أسس واضحة وسليمة، مع التحرر من التبعية والتقليد الأعمى والتقديس المذموم. قال المعلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان علاج مرض العصبية للآباء والأشياخ: "هذا وما منا إلا من يعتز بآبائة وأشياخه، ويعز عليه أن يتبين أنهم كانوا على باطل، ولكن أقل ما يجب علينا أن نعلم أن آبائنا وأشياخنا لم

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (ص:١٣١، ١٧٣، ٣٢٧، ٣٢٨، ١٦١، ١٩٧، ١٩٩).
(٢) المصدر السابق (ص:١٩٥- ١٩٧).

يكونوا معصومين، وهب أنهم يبعد عندنا جدًّا أن يكونوا تعمدوا الباطل، فما الذي يبعد أن يكونوا غلطوا أو أخطؤوا. فدع الآباء والأشياخ، والتمس الحق من معدنه، ثم إن شئت فاعرض عليه مقالة آبائك وأشياخك، فما وافقه حمدت الله ﷻ على ذلك، وما خالفه التمست لهم العذر، برجاء أن يكونوا لم يعتمدوا الباطل، ولم يقصروا تقصيرًا لا يسعه عفو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، بل قد ثبت رجوع بعض أكابرهم.

ولعل غيرهم قد رجع -وإن لم ينقل-. فإذا سلكت هذه الطريق فقد هديت، وإن أبيت إلَّا التعصب لآبائك وأشياخك، والجمود على اتباعهم، فقد قامت عليك الحجة. -والله المستعان-"[1].

٤ - بناء الشخصية المسلمة المستقلة من خلال المحاضن التربوية في المدارس والمعاهد والجامعات والأُسر.

٥ - الاهتمام بالعلوم الصناعية.

٦ - أن لا يقتصر في مناهج الدراسة على الجوانب النَّظرية فقط.

٧ - أن تكون المناهج مواكبة للتطور الحضاري.

٨ - الحث والتحفيز على الاختراع والابتكار، والتطور في الصناعات.

٩ - الاستفادة من الآخرين في الجوانب الإيجابية الصالحة والمفيدة، والتحذير من الجوانب السلبية.

١٠ - بيان مخاطر التبعية المطلقة للآخرين، وبيان مثالبهم وعيوبهم.

١١ - معرفة مواضع الخلل التي تهدد المجتمع في اقتصاده وتقدمه.

١٢ - التحذير من التقليد الأعمى وبيان حرمته.

١٣ — الاستفادة من الطاقات الجهود والعمل على تنميتها.

١٤ — الاهتمام بالبرامج التثقيفية لتوعية الناس وتبصيرهم بأخطار التقليد الأعمى.

(١) القائد إلى تصحيح العقائد (ص:٢٠٢-٢٠٣).

العقبة الرابعة عشرة

سوء التبليغ

أولًا: بيان مفهوم التبليغ:

إنَّ الحياة على مرِّ العصور لا تخلو من الشرِّ والظُّلم والفساد، والبعد عن منهج الله تعالى؛ ولذلك فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أرسلَ الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مبشِّرين ومنذرين؛ لهداية الناس، وإقامة الحجة عليهم بالإبلاغ والإرشاد، والتَّحذير من مخالفة أمر الله تعالى. قال الله ﷻ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة:٢١٣]، ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنعام:٤٨-٤٩]، ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤].

وتَبْليغ: مصدر بَلَّغ، وتبليغ الخبر: إيصالُه، والإخْبَار به. قال الله ﷻ: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل:٣٥]، والبلاغ: تبليغ الخبر. والمبين: الواضح.

قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "البلوغ والبلاغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى، مكانًا كان أو زمانًا، أو أمرًا من الأمور المقدرة، وربما يعبر به عن المشارفة عليه وإن لم ينته إليه.."[(١)].

ومفهوم التبليغ في القرآن يعني: إيصال رسالة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى الناس، فإن آمنوا بعد ذلك ووقفوا عند حدود شرع الله تعالى الذي فيه صلاح أحوالهم، أو أعرضوا فإن حسابهم على الله تعالى في الآخرة.

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (بلغ) (ص:١٤٤).

والمبلِّغونَ رسالةَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إلى النَّاس هم الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الذين اصطفاهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لأداء هذه الأمانة، وهي تبليغ الرسالة، وإرشاد الناس(١). والعلماء الربانيون الراسخون في العلم يحملون هذه الأمانة في التبليغ، "فهم ورثة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وحراس الدين، والمبلغون الموقعون عن الله ﷻ في خلقه؛ فلهذا كان لهم أجر المجاهد في سبيل الله ﷻ(٢)، وأجر الحاج الذَّاهب إلى بيت الله تعالى(٣)، ويستغفر لهم كل مخلوق على وجه الأرض(٤)، وحق لهم ذلك؛ فلقد ورثوا هذا الدين، وبلغوه إلى الخلق

---

(١) والآيات في ذلك كثيرة، منها قوله تعالى على لسان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٦٢]، وعلى لسان هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف:٦٨]، وعلى لسان صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:٧٩]، وعلى لسان شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف:٩٣]، وقال تعالى عن مهمة جميع الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل:٣٥]..إلى غير ذلك من الآيات.

(٢) جاء في الحديث: ((من جاء مسجدي هذا، لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه، فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومن جاء لغير ذلك، فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره)). أخرجه ابن أبي شيبة [٧٥١٧]، وأحمد [٩٤١٩]، وابن ماجه [٢٢٧]. قال في البوصيري في (في زوائد ابن ماجه) (٣١/١) "هذا إسناد صحيح احتج مسلم بجميع رواته". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [٦٤٧٢]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٥٧٥]. قال العلامة السندي: "وجه مشابهة طلب العلم بالمجاهد في سبيل الله ﷻ: أنه إحياء للدين، وإذلال للشيطان، وإتعاب النفس، وكسر ذرى اللذة، كيف وقد أبيح له التخلف عن الجهاد فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة:١٢٢] الآية؟". حاشية العلامة السندي على سنن ابن ماجه (١٠٠/١).

(٣) جاء في الحديث: ((من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرًا أو يعلمه كان له كأجر حاج تامًّا حجته)) أخرجه الطبراني [٧٤٧٣]. قال الهيثمي (١٢٣/١): "رجاله موثقون كلهم". وقال العراقي في تخريج أحاديث (الإحياء) (ص:١٧٤٠): "إسناده جيد" كما أخرجه الحاكم [٣١١]، قال الذهبي: "على شرط البخاري" كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٩٧/٦)، وابن عساكر (٤٥٦/١٦).

(٤) جاء في الحديث: ((من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها؛ رضاء لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر)) أخرجه أحمد [٢١٧١٥]،=

أجمعين، وميزوا فيه الصحيح من السقيم"(١). فهم أئمة الهدى، يدعون الناس إلى الخير والصلاح، ويبينون لهم أمر دينهم ودنياهم، ويدعونهم بالحجة والبيان، فيرشدون الأنام، وينشرون المحبة والسلام، ويرتقون بالعبد في مدراج الكمال، ويبصرونه بعقبات الطريق، فالعالِم يدلُّ على الله ﷻ بمقاله وسلوكه، ويكون سببًا للفلاح في الدنيا والآخرة، فكم من تائه عن الصراط المستقيم أرشدوه!

ولذلك كان لزامًا على طالبي الهداية: محبَّة العلماء، وتقديرهم، وملازمتهم، والإصغاء إلى نصحهم؛ فإنه أدعى إلى الانتفاع بعلمهم؛ فإنَّ المحبة هي الباعث القوي على الاتباع لهم، والتَّأثر بهم، واقتفاء أثرهم.

قال الشيخ محمَّد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإذا كان الأنبياء لهم حق التبجيل والتعظيم والتكريم، فلمن ورثهم نصيب من ذلك، أن يبجل ويعظم ويكرم.

وبتوقير العلماء توقر الشريعة؛ لأنهم حاملوها، وبإهانة العلماء تهان الشريعة؛ لأن العلماء إذا ذلوا وسقطوا أمام أعين الناس؛ ذلت الشريعة التي يحملونها، ولم يبق لها قيمة عند الناس، وصار كل إنسان يحتقرهم ويزدريهم، فتضيع الشريعة"(٢).

ومنذ أكرم الله ﷻ هذه الأمة ببعثة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأفواج الدعاة المصلحين يتعاقبون فيها، علماء ربانيون، ودعاة مصلحون، داعين إلى الحق، ومرشدين للخلق، حاكمين بالقسط، آمرين بالمعروف، وناهين عن المنكر. قال الله ﷻ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

=والدارمي [٣٥٤]، وابن ماجه [٢٢٣]، وأبو داود [٣٦٤١]، والترمذي [٢٦٨٢] وقال: "لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة، وليس هو عندي بمتصل. ثم أورد له إسنادًا، وقال: هذا أصح". وأخرجه أيضًا: ابن الأعرابي [١٥٦٤]، وابن حبان [٨٨]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٥٧٤].

(١) شرح الترغيب والترهيب، للشيخ الطبيب أحمد حطيبة، الترغيب في الرحلة في طلب العلم، الدرس رقم [١].

(٢) شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح العثيمين (٣/٢٢٩- ٢٣٤).

"أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه"[١]. وقال أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الراسخون في العلم المتدبرون في الأشياء على ما ينبغي"[٢].

إن العلماء الربانيين هم مصابيح الهدى، فكم كشف الله بهم من غمة! وكم أزاح بهم من ملمة! ولا عجب فهم خلفاء رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أمته، والمُحْيُون لما مات من سنته. والناس إن خلو من العلماء الربانيين تخطَّفتهم شياطين الإنس والجن، وتقاذفتهم الضلالات والفتن.

قال الشيخ محمد بن محمد المختار الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العلماء، وما أدراك ما العلماء؟ أئمة الهدى، ومصابيح الدجى، أهل الرحمة والرضا، بهم يُحتذى ويُهتدى ويُقتدى. كم طالب علم علموه! وتائه عن صراط الرشد أرشدوه! وحائر عن سبيل الله بصروه ودلوه! بقاؤهم في العباد نعمة ورحمة، وقبضهم وموتهم عذاب ونقمة قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا))**[٣].

فما أقرب الطريق على العلماء إلى جنة الله ﷻ ورحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حملوا الكتاب والسنة، وأحيوا منارات الدين والملة، فالله أعلم كم بذلوا، وكم ضحوا من أجل هذا العلم المبارك، والخير الكبير!"[٤].

ولكن ينبغي التمييز بين العلماء الربانيين العاملين، ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩]، الذين يصلحون ولا يفسدون، ويجمعون ولا يفرقون، وبين من سواهم. وسيأتيك في هذا المقام مزيد من البيان في عقبة: (اشتباه الحقيقة) وعقبة: (كتمان الحق).

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٧٩).

(٢) تفسير أبي السعود (٧/٤١).

(٣) صحيح البخاري [١٠٠]، مسلم [٢٦٧٣].

(٤) موقع المنبر، فضائل العلماء، محمد بن محمد المختار الشنقيطي [١٦٧٠]، بتصرف.

وقد تقدَّم في عقبة: (الجهل) أنَّ من شأن دعاة الباطل: التلبيس على الناس، وإظهار الباطل في صورة الحقِّ، ومَزْجُ الحقِّ بالباطل بالكتمان والتعمية، لكن منهج أهل الحقِّ: العمل على بيانه وتمييزه عن الباطل، هذا هو منهجهم في تشخيص المرض، ثم المعالجة بالدَّواء الشافي؛ حيث يرُدُّونَ المخالف إلى أدلةٍ واضحة، وحججٍ قاطعة، ومقدِّماتٍ مسلَّمة..الخ.

فإذا تمهد لكَ ذلك علمتَ أن الهدف من الإبلاغ: إقامة الحجة على العباد، حتى لا يقولوا يوم القيامة إنَّا كنَّا عنه غافلين؛ ولذلك ينبغي لمن يحمل هذه الأمانة في التبليغ أن يكون من الراسخين في العلم، فلا ينبغي أن يتصدَّر الجهال أو المدعون منابرَ الدعوة؛ لما يترتب على ذلك من الإساءة والتنفير، فكان لزامًا على أهل العلم والبصائر التحذير من هؤلاء.

والشيطانُ يزيِّن للإنسان سوء عمله فيراه حسنًا، فقد يسيء من يتصدَّر هو غير متأهل، فيظنُّ أنه على حقٍّ، وهو على باطل، ويغترُّ الناس به، ويظنُّون أنه صاحب علم، وأن هذا الذي قاله إنما قاله عن علم ومعرفة، وإنما هو في الحقيقة ضلالٌ وانحرافٌ في العلم؛ لأنهم تصوروا الفساد بصورة الصلاح؛ لما في قلوبهم من المرض، أو لعدم الأهلية، وقد قال الله تعالى منكرًا على هؤلاء وأمثالهم سوء صنيعهم فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر:٨]. وقد ذمَّ الله ﷻ أقوامًا رأوا الخير شرًا وعكسه ولم يعذرهم فقال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤]. قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: "إنَّ من أعظم البلوى: أن يُزَيَّن للإنسان الفساد حتى يَرى أنه مصلح؛ وليس كل من ادَّعى شيئًا يصدق في دعواه؛ لأنهم قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة:١١]، فقال الله ﷻ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٢]، وليس كل ما زينته النفس يكون حسنًا، كما قال ﷻ: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾"(١).

---

(١) تفسير الفاتحة والبقرة، محمد بن صالح العثيمين (٤٨/١)، بتصرف يسير.

وفي الحديث: ((**سيخرج قوم في آخر الزمان، أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين، كما يمرق السهم من الرمية..**)) الحديث(١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معناه: صغار الأسنان، ضعاف العقول. قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**يقولون من خير قول البرية**)) معناه: في ظاهر الأمر، كقولهم: لا حكم إلا لله، ونظائره من دعائهم إلى كتاب الله تعالى -والله أعلم-"(٢).

وعند مسلم: ((**يخرج قوم من أمتي يقرءون القرآن، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تَرَاقِيَهُم، يَمْرُقُون من الإسلام كما يَمْرُقُ السهم من الرَّمِيَّة**))(٣).

"فقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ((**يحسبون أنه لهم**)) واضح فيما قلنا، ثم إنهم يطلبون اتباعه بتلك الأعمال؛ ليكونوا من أهله، وليكون حجة لهم، فحين ابتغوا تأويله وخرجوا عن الجادة كان عليهم لا لهم"(٤). "أي: أنهم يفهمونه على غير وجهه، فهم يظنون أنهم على شيء وهم بخلاف ما ظنوا؛ يظنون أنهم على حق وهم على باطل؛ للشبه التي عرضت لهم، وللباطل الذي أشربته قلوبهم"(٥).

وقد حذَّرنا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من (سوء التبليغ) أيما تحذير، فحذَّر من الرؤوس الجهال، وأئمة الضلال. وقد تقدم في (عقبة الجهل) أن من تكلَّم في العلم بغير أمانة فقد مسَّ العلم بقرحة، ووضع في سبيل فلاح الأمة حجر عثرة.

---

(١) صحيح البخاري [٣٦١١، ٥٠٥٧، ٦٩٣٠]، مسلم [١٠٦٦].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٧/١٦٩)، وانظر: حاشية السندي على سنن النسائي (٧/١١٩).

(٣) صحيح مسلم [١٠٦٦].

(٤) الاعتصام، للشاطبي (ص:٧١٦).

(٥) من (شرح سنن أبي داود) من دروس الشيخ عبد المحسن العباد البدر.

ثانيًا: أسباب سوء التبليغ:

١ – عدم مراعاة أحوال المخاطبين:

إن من أسباب سوء التبليغ: الجهل بمقاصد التشريع من عدم مراعاة أحوال المدعوين. قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا تقل للكفار مثلًا إذا أتيت لتدعوهم: اتركوا الخمر، اتركوا الزنا، اتركوا الربا، هذا غلط، أصِّلِ الأصلَ أولًا، ثم فَرِّع الفروع، فأول ما تدعو: أن تدعوا إلى التوحيد والرسالة: أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ثم بعد ذلك عليك ببقية أركان الدين الأهم فالأهم"(١).

وكل من وقف على طريقة الشارع في التشريع، واستقرأ منهجه في التبليغ، وتدبر مسالكه في إنزال الأحكام يتأكد له أن التدرج سُنَّة من سنن الشريعة والطبيعة.

فعن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا"(٢).

وهذا هو المنهج النبوي في الدعوة، فعن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بعثني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: ((**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**))(٣).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "ما أنت بِمُحَدِّثٍ قومًا حديثًا لا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ، إِلَّا كان لبعضهم فِتْنَةً"(٤). قال العلامة المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "لأن العقول لا تحتمل

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/٥٠٣).

(٢) صحيح البخاري [٤٩٩٣].

(٣) صحيح البخاري [١٤٩٦، ٢٤٤٨، ٤٣٤٧]، صحيح مسلم [١٩].

(٤) صحيح مسلم [٥] (١/١١).

إلا على قدر طاقتها، فإن أزيد على العقل فوق ما يحتمله استحال الحال من الصلاح إلى الفساد"(١).

٢ – الإجهاض الفكري:

ومن سوء التبليغ: (الإجهاض الفكري)، وذلك بإخراج الفكرة قبل نضوجها(٢).

إن الإجهاض الفكري يبرز الفكرة مسخًا مشوهًا، فلا يورث إقناعًا، ولا يثمر هداية.

٣ – التصدر قبل التأهل والرسوخ:

ومن سوء التبليغ: (التصدر قبل التمكن والرسوخ والتأهل)؛ لأنَّه يورث آفاتٍ لدى المتلقي، وقد يكون سببًا لانصرافه عن الحق، وله كذلك أثر لا يخفى على صاحبه، فهو مما يورث الكِبر والعجب والغرور، والشذوذ الفكري. و"التصدر قبل التأهل هو آفة في العلم والعمل. وقد قيل: من تصدر قبل أوانه، فقد تصدى لهوانه"(٣).

وقد ذكر القاضي ابن جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من آداب العالِم في دَرْسِه: "أن لا ينتصب للتدريس إذا لم يكن أهلًا له، ولا يذكر الدرس مِنْ عِلْمٍ لا يعرفه، سواء أشرطه الواقف أو لم يشرطه؛ فإن ذلك لعب في الدين، وازدراء بين الناس. قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور))**(٤).

(١) فيض القدير (٥/ ٤٢٧).

(٢) انظر: حلية طالب العلم، لبكر بن عبد الله أبو زيد (ص:٢٠١).

(٣) المصدر السابق (ص:١٩٨)، وانظر: تاريخ الإسلام، للإمام الذهبي (١٠٢/٢٨)، سير أعلام النبلاء (٢١/١٣)، طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (٣٩٨/٤)، طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة (١٨١/١)، شذرات الذهب (٢٧/٥).

(٤) صحيح البخاري [٥٢١٩]، مسلم [٢١٢٩، ٢١٣٠]. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٨]، يعني: بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا، كما جاء في (الصحيح) عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((من ادعى دعوى كاذبة؛ ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة)) صحيح مسلم [١١٠]، وفي (الصحيح): ((المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور)). تفسير ابن كثير (١٨١/٢). قال العلامة=

وعن الشبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من تصدر قبل أوانه فقد تصدى لهوانه. وعن أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من طلب الرياسة في غير حينه لم يزل في ذلٍّ ما بقي"(١). وذكر الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (صحيحه) كتاب الإيمان باب (الاغتباط في العلم والحكمة): وقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ((**تَفقَّهُوا قبل أن تُسَوَّدُوا**))، قال أبو عبد الله(٢): وبعد أن تُسَوَّدُوا وَقَدْ تَعَلَّمَ أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كِبَرِ سِنِّهِمْ(٣).

قوله: (وقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: تَفَقَّهُوا قبل أن تُسَوَّدُوا) هو بضم المثناة وفتح المهملة وتشديد الواو، أي: تُجْعَلُوا سادةً(٤).

٤ – قلة العلم:

إنَّ من أسباب سوء التبليغ: قلَّة العلم بأصول التشريع، واختلاف العلماء. قال أيوب السختياني: "أجسر الناس على الفتيا أقلهم علمًا باختلاف العلماء، وأمسك الناس عن الفتيا أعلمهم باختلاف العلماء"(٥).

وروى ابن عبد البر الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بإسناده، عن مالك، قال: أخبرني رجل أنه دخل على ربيعة بن أبي عبد الرحمن، فوجده يبكي، فقال له: ما يبكيك؟ وارتاع لبكائه. فقال له: أمصيبة دخلت عليك؟ فقال: لا ولكن استفتي من لا علم له، وظهر في الإسلام أمر عظيم. قال ربيعة: ولبعض من يُفْتِي ههنا أَحَقُّ بالسِّجْن من السُّرَّاق. رحم

=المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ينبغي للعالم أن لا ينتصب للتدريس والإفادة حتى يتمكن من الأهلية، ولا يذكر الدرس من علم لا يعرفه، سواء شرط الواقف أم لا؛ فإنه لعب في الدين، وإزراء به" فيض القدير (٦/٢٦٠).

(١) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، للقاضي بدر الدين ابن جماعة (ص:٧٠-٧١).

(٢) أي: البخاري.

(٣) صحيح الإمام البخاري (١/٢٥).

(٤) فتح الباري، لابن حجر (١/١٦٦).

(٥) ذكره ابن المبارك في (الزهد) (٢/١٢٥)، وابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله) (٢/٨١٦).

الله ربيعة. كيف لو أدرك زماننا؟ وما شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل(١).

والاجتهاد له أهله من العلماء الراسخين، والإفتاء مقام خطير؛ ولذلك كان الأجرؤ على التَّصدر من غير تأهل الأجرؤ على النَّار.

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس:٥٩]: "وكفى بهذه الآية زاجرة زجرًا بليغًا عن التجوز فيما يسئل عنه من الأحكام. وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان، ومن لم يوقن فليتق الله وليصمت، وإلا فهو مفتر على الله ﷻ"(٢).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أنَّ الإفتاء عظيمُ الخطر، كبيرُ الموقِع، كثيرُ الفضلِ؛ لأنَّ المفتي وارثُ الأنبياءِ صلوات الله وسلامه عليهم، وقائم بفرض الكفاية، لكنه معرض للخطأ؛ ولهذا قالوا: المفتي مُوقِّعٌ عن الله تعالى، وروينا عن ابنِ المنكدِر قال: العالمُ بينَ الله تعالى وخَلْقِه، فلينظُر كيف يدخُل بينَهم، وروينا عن السَّلف وفضلاء الخَلَف من التوقُّف عن الفُتيا أشياء كثيرة معروفة نذكر منها أحرُفا تبركًا. وروينا عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: أدركت مائة وعشرين من الأنصار من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسأل أحدهم عن المسألة فيردها هذا إلى هذا وهذا إلى هذا حتى ترجِعَ إلى الأول. وفي رواية: ما منهم من يُحدِّث بحديث إلا وَدَّ أن أخاهُ كفاهُ إيَّاه، ولا يُستفتَى عن شيءٍ إلا ودَّ أن أخاه كفاه الفُتيا.

وعن ابن مسعود وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: من أَفْتَى في كُلِّ ما يُسأل فهو مجنون. وعن الشَّعبي والحسن وأبي حُصَين التابعِيَّيْن قالوا: إنَّ أحدكم ليُفتي في المسألة، ولو وَرَدَت على عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لجمع لها أهل بدر.

---

(١) أدب المفتي والمستفتي، لابن الصلاح (ص: ٨٥)، وانظر: صفة الفتوى والمفتي والمستفتي، لأحمد بن حمدان النميري الحراني الحنبلي (ص:١١)، شرح الكوكب المنير (٤/٥٤٤)، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ص:٣٩٢).

(٢) الكشاف (٢/٣٥٤)، تفسير النسفي (مدارك التنزيل) (٢/ ٢٩).

وعن عطاء بن السائب التابعيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أدركتُ أقوامًا يُسأل أحدهم عن الشيء فيتكلم وهو يَرْعَد. وعن ابن عباس ومحمد بن عجلان: إذا أَغْفَلَ العالِمُ (لا أدري) أُصيبَتْ مَقَاتِلُه. وعن سُفيَان بن عيينة وسَحنُون: أَجسَرُ النَّاس على الفُتيا أقَلُّهم عِلمًا. وعن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ –وقد سُئِل عن مسألةٍ فلم يُجِب– فَقِيلَ له فقال: حتى أدري أنَّ الفضلَ في السكوتِ أو في الجواب.

وعن الأثرَمِ: سمعتُ أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُكثِر أن يقول: لا أدري، وذلك فيما عَرَفَ الأقاويلَ فيه.

وعن الهيثم بن جميل: شهدتُ مالكًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ سُئِلَ عن ثمان وأربعينَ مسألةٍ، فقال في ثِنتَين وثلاثين منها: لا أدري. وعن مالك أيضًا أنَّه ربما كان يُسأل عن خمسين مسألة فلا يُجيب في واحدةٍ منها، وكان يقول: مَن أجاب في مسألةٍ فينبغي قبل الجواب أن يعرِض نفسَه على الجنَّة والنَّار، وكيفَ خَلاصُهُ، ثُمّ يُجيب، وسُئِل عن مسألة، فقال: لا أدري، فقيل: هي مسألةٌ خفيفة سهلة، فغضب وقال: ليس في العلم شيءٌ خفيفٌ. وقال الشافعي: ما رأيتُ أحدًا جمعَ الله تعالى فيه من آلة الفُتيا ما جَمَعَ في ابن عُيَيْنَة، [وما رأيتُ] أسكتَ منهُ على الفُتيا(١). وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لولا الفَرَق (وهو الخوف) من الله تعالى أن يَضيعَ العلم ما أفتيت، يكون لهم المهنأ وعليَّ الوِزرُ، وأقوالُهُم في هذا كثيرة معروفة"(٢).

٥ – تصدُّر داعية يظهرُ عكسَ ما يبطن:

إنَّ من أسبابِ سوءِ التَّبليغ: تصدُّرُ داعيةٍ يظهرُ عكسَ ما يبطن، فيظهر القبول لدين الله تعالى، والإذعان لشرعه، ولكنَّه يُعْرِض بقلبه، ويُعْرَفُ ذلك في تَصَرُّفَاتِهِ ولَحْن قَوْله. قال الله ﷻ: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٠].

---

(١) وفي (الكامل): "..وما رأيت أوقف أو أجبن عن الفتيا منه" الكامل في ضعفاء الرجال (١/١٨٣).

(٢) آداب الفتوى والمفتي والمستفتي، للإمام النووي (ص:١٣– ١٦).

وهذه حال المنافقين نفاقَ الْكُفَّار الْمُخَلَّدِينَ في الدَّرْك الأسفل من النَّار. "ويقال لما عدموا صدق الأحوال لم ينفعهم صدق الأقوال؛ فإن الله ﷻ قال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون:١]، فكانوا يقولون: نشهد إنك لرسول الله، وكذلك من أظهر من نفسه ما لم يتحقق به افتضح عند أرباب التحقيق في الحال. ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:٩] عاد وبال خداعهم والعقوبة عليه إلى أنفسهم فصاروا في التحقيق كأنهم خادعوا أنفسهم، فما استهانوا إلا بأقدارهم، وما استخفُّوا إلا بأنفسهم، وما ذاق وبال فعلهم سواهم"[(١)].

وقد حذَّر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ داعية يظهر خلاف ما يبطن، فيظهر الإذعان، بل وينتحل صفة العلماء، فيتصدر للدعوة، وهو يبطن ما يبطن من مكرٍ وإعراض، فمثل هذا ضالٌّ مُضِلٌّ، فهو أكثرُ خطرًا من معرضٍ ظاهر الإعراض؛ لكونه يتسبَّب في إعراض غيره؛ لسوء فهمه، وخُبْثِ غايته وقصده. جاء في الحديث عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان**))[(٢)]. وعند أبي يعلى عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: ((**كنا نتحدث أن ما يهلك هذه الأمة كل منافق عليم اللسان**))[(٣)].

قوله: ((**كل منافق عليم اللسان**)) "أي: كثير علم اللسان جاهل القلب والعمل، اتخذ العلم حرفة يتأكل بها، ذا هيبة وأبهة يتعزز ويتعاظم بها، يدعو النَّاس إلى الله ويفر هو منه، ويستقبح عيب غيره ويفعل ما هو أقبح منه، ويظهر للنَّاس التَّنسك والتَّعبد، ويسارر ربَّه بالعظائم إذا خلا به ذئب من الذئاب لكن عليه ثياب، فهذا هو الذي حذَّر منه الشَّارع صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا؛ حذرًا من أن يخطفك بحلاوة لسانه، ويحرقك بنار عصيانه، ويقتلك بنتن باطنه وجنانه. قال الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: والمنافقون أخبثُ الكفرة وأبغضهم إلى الله تعالى وأمقتهم عنده؛ لأنهم خلطوا بالكفر تمويهًا وتدليسًا،

(١) لطائف الإشارات (١/ ٦١).
(٢) تقدم تخريجه في عقبة النفاق.
(٣) معجم أبي يعلى [٣٣٤].

وبالشُّكر استهزاء وخداعًا؛ ولذلك أنزل فيهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ﴾ [النساء:١٤٥] انتهى.

وكان يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول لعلماء الدنيا: يا أصحاب القصور قصوركم قيصرية، وبيوتكم كسروية، وأبوابكم ظاهرية، وأخفافكم جالوتية، ومراكبكم قارونية، وأوانيكم فرعونية، ومآثمكم جاهلية، ومذاهبكم شيطانية، فأين المحمدية والعالمية؟! وأكثر علماء الزمان ضربان: ضرب منكبٌ على حطام الدنيا لا يمل من جمعه، وتراه شهره ودهره يتقلب في ذلك كالهج في المزابل يطير من عذرة إلى عذرة، وقد أخذت دنياه بمجامع قلبه، ولزمه خوف الفقر وحب الإكثار، واتخذ المال عدة للنوائب، لا يتنكر عليه تغلب الدنيا، وضرب هم أهل تصنع ودهاء وخداع وتزين للمخلوقين وتملق للحكام؛ شحًا على رئاستهم، يلتقطون الرخص، ويخادعون الله بالحيل، ديدنهم المداهنة وساكن قلوبهم المنى، طمأنينتهم إلى الدنيا، وسكونهم إلى أسبابها، اشتغلوا بالأقوال عن الأفعال، وسيكافئهم الجبار المتعال"[(١)].

٦ – إهمال فقه الواقع ومقاصد التشريع:

وقد بيناه في غير موضع.

٧ – انعدام الشفقة وكذلك التساهل في الوقوف عند الضوابط الشرعية:

من صفات الداعية الصادق في دعوته: رحمة المدعوين، ومراعاة مصالحهم، والشفقة عليهم، والفرح بما يسرُّهم مع وقوفه عند الحدود والضوابط الشرعية الفاصلة بين الإفراط والتفريط.

(١) فيض القدير (٢/٤١٩)، الكشاف، للزمخشري (١/٥٤).

٨ – الغلو:

وسيأتي بيانه في عقبة (المفهوم الخاطئ للاستقامة). وقد ورد التحذير من الغلو في غير موضع؛ لكونه سببًا في آفات كثيرة.

٩ – تقليد من عرف بالجهل والفسق:

لا يجوز للعامي أن يستفتي إلا من يعرف بالعلم والعدالة، أما من عرف بالجهل فلا يسأله اتفاقًا، وكذا لا يسأل من عرف بالفسق. ويجوز أن يستفتي من غلب على ظنه أنه من أهل العلم، لما يراه من انتصابه للفتيا وأخذ الناس عنه بمشهد من أهل العلم، وما يلمحه فيه من سمات أهل العلم والدين والستر، أو يخبره بذلك ثقة[(١)].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولا يجوز الاستفتاء إلا ممن يفتي بعلم وعدل[(٢)].

أما مجهول الحال في العلم فلا يجوز تقليده؛ إذ قد يكون أجهل من السائل. وأما مجهول الحال في العدالة فقد قيل: لا بد من السؤال عنه من عدل أو عدلين؛ لأنه لا يأمن كذبه وتدليسه، وقيل: لا يلزم السؤال عن العدالة؛ لأن الأصل في العلماء العدالة[(٣)].

١٠ – تتبع الحيل المحرمة أو المكروهة، والتمسُّكِ بالشُّبَه:

الحيل المحرمة هي الحيل التي تتخذ للتوصل بها إلى محرم، أو إلى إبطال الحقوق، أو لتمويه الباطل، أو إدخال الشبه فيه. وهي الحيل التي تهدم أصلًا شرعيًّا، أو تناقض مصلحة شرعية.

---

(١) انظر: المستصفى، للغزالي (٣٧٣/١)، شرح الكوكب المنير (٥٤١/٤)، بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب (٣٥٥/٣)، البحر المحيط في أصول الفقه (٤٢٠/٦)، غاية الوصول (ص:١٥٩)، حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع (٤٣٧/٢)، الموسوعة الفقهية الكويتية (١٦٢/١٣).

(٢) الفتاوى الكبرى (٥/ ٥٥٦)، وانظر: الفروع، لابن مفلح (١١٣/١١)، الإنصاف، للمرداوي (١٨٧/١١)، مطالب أولي النهى (٤٤١/٦).

(٣) انظر: المستصفى، للغزالي (٣٧٣/١)، روضة الناظر (٣٨٥/٢)، الموسوعة الفقهية الكويتية (١٦٢/١٣).

والحيل المحرمة تقوم على المخادعة، والتلبيس، والتدليس، وعلى اتخاذ الوسائل المشروعة، وغير المشروعة؛ للوصول إلى الحرام(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والله تعالى مسخ الذين استحلوا محارمه بالحيل قردة وخنازير جزاء من جنس عملهم؛ فإنهم لما مسخوا شرعه وغيروه عن وجهه مسخ وجوههم وغيرها عن خلقتها، والله تعالى ذم أهل الخداع والمكر، ومن يقول بلسانه ما ليس في قلبه، وأخبر أن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم، وأخبر عنهم بمخالفة ظواهرهم لبواطنهم وسرائرهم لعلانيتهم وأقوالهم لأفعالهم. وهذا شأن أرباب الحيل المحرمة، وهذه الأوصاف منطبقة عليهم؛ فإن المخادعة هي الاحتيال والمراوغة بإظهار أمر جائز ليتوصل به إلى أمر محرم يبطنه"(٢).

ولا يقلد متساهلًا في الفتيا، ولا من يبتغي الحيل المحرمة، ولا من يذهب إلى الأقوال الشاذة التي ينكرها الجمهور من العلماء.

"والتساهل قد يكون بأن لا يثبت ويسرع بالفتوى، أو الحكم قبل استيفاء حقها من النظر والفكر، وربما يحمله على ذلك: تَوَهُّمُهُ أن الإسراع براعة، والإبطاء عجز ومنقصة، وذلك جهل، فلأن يبطئ ولا يخطئ أجمل به من أن يعجل فَيَضِلَّ وَيُضِلَّ، وقد يكون تساهله وانحلاله بأن تحمله الأغراض الفاسدة على تتبع الحيل المحظورة، أو المكروهة، والتَّمَسُّكِ بِالشُّبَهِ؛ طلبًا للترخيص على من يَرُومُ نَفْعَه، أو التغليظ على من يُرِيدُ ضَرَّه. قال ابن الصلاح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن فعل ذلك فقد هان عليه دينه، ونسأل الله العفو والعافية"(٣).

---

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية (١٨/٣٣٠)، إعلام الموقعين (٣/١٢٨).

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/١٢٧).

(٣) تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام (١/ ٧٤)، وانظر: المجموع شرح المهذب، للإمام النووي (١/ ٤٦)، فتاوى ابن الصلاح (ص:٤٦).

ثالثًا: أثر سوء التبليغ على المتلقي:

إنَّ سوءَ التبليغ مما يصرف عن الاهتداء إلى الحقِّ، حيث إنَّ المتلقي لا يردُ الحقُّ على فكره مشفوعًا بالحجَّة والإقناع، أو لا ترد الفكرة على ذهنه في صورة كاملة من غير إجهاض، أو سوء تأويل، أو لا يُراعى فيها حال المتلقي؛ وذلك أن الدَّاعي الذي لا يتقن فنَّ الدعوة لا ينهج نهج التَّشريعات التي تتلاءم مع حال المتلقي من حيث التدرج مثلًا من الأهمِّ إلى ما دونه، واعتبار حاله من حيث الاستجابة أو عدمها، وبذلك يكون بعيدًا عن الحكمة التي أمر الله تعالى بها من يتصدى للدعوة إلى الله ﷻ.

رابعًا: الوقاية من آفات سوء التبليغ والعلاج:

١ – التَّمييز بين العلماء الرَّبانيين العاملين وبين من سواهم من المضلِّين:

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "روي في آثار السلف: أن الواعظ كان إذا جلس للناس قال العلماء: تفقدوا منه ثلاثًا، فإن كان معتقدًا لبدعة فلا تجالسوه؛ فإنه عن لسان الشيطان ينطق، وإن كان سيء الطعمة فعن الهوى ينطق، فإن لم يكن مكين العقل فإنه يفسد بكلامه أكثر مما يصلح فلا تجالسوه"(١).

٢ – ردُّ ما أشكل فهمُه إلى العلماء الرَّاسخين.

٣ – تجنُّب صحبة المضلِّين.

٤ – ملازمة العلماء وصحبة الصَّالحين.

٥ – التأسيس والبناء على أساسٍ سليمٍ من العلم والتربية.

٦ – الحذرُ من الآفاتِ التي تصيبُ النَّفس، وتكون من المسببات في سوء التبليغ، وفي الضَّلال والإضلال، كالكبر، والعُجب، والغرور...الخ.

٧ – الحذرُ من داعيةٍ يُلْبِسُ الحقَّ بالباطل.

٨ – الحذر من التَّصدر قبل التَّمكن والرسوخ.

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/٩١).

٩ – اتهامُ النَّفس بالتَّقصير، وتزكيتها بالعلم والمجاهدة، وتطهيرها من الصِّفات المذمومة.

١٠ – أن يكون الدَّاعيةُ على درايةٍ بمناهج وأصول الدَّعوة وأحوال المخاطبين؛ لأنَّ التَّبليغ بمثابة الوصفة الطبية التي تعالج المرض، ولا يكون العلاج إلا بعد المعاينة ومعرفة موضع الدَّاء، ثم توصيف العلاج الذي يناسبه.

١١ – حظرُ الإفتاء في القضايا العامة عن غير مُتَأهِّلٍ.

١٢ – تفعيلُ عمل هيئات الفتوى –ولا سيما في القضايا العامة والكبرى–، وأن تكون هي المرجع الذي يحسم كل خلاف، ويمنع التَّفرق والاختلاف، ويحارب الغلوَّ والتَّطرف.

١٣ – استفتاءُ من عرف بالعلم والعدالة.

١٤ – الوقاية من الآفات العامَّة للتبليغ، وهي تختص بالداعية أو بالقدوة.

١٥ – العلم بمقومات القدوة الحسنة، والتَّخلق بصفات الإمام القدوة:

وينظر ما جاء في (صفات القدوة الحسنة) في عقبة: (القدوة السيئة).

١٦ – أن يتصدَّى العلماءُ الصَّادقونَ للتحذير من أئمَّة الضَّلال، وعلماءِ السوء.

١٧ – أن يقوم العلماء بواجبهم في بيان الحقِّ، وحمل الناس عليه، ودعوتهم إليه.

العقبة الخامسة عشرة

القدوة السيئة

أولًا: تعريف القدوة:

القدوة: الإسوة، وهي تطلق على القدوة الحسنة وغير الحسنة.

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(الْقِدْوَة): الإِسْوَة، يقال: فلان قِدْوَةٌ يُقْتَدَى به. وقد يضمُّ، فيقال: لِي بك قُدْوَةٌ وقِدْوَةٌ وقِدَةٌ"(١).

وقال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القدوة: بالكسر والضم: الاقتداء بالغير ومتابعته والتأسي به"(٢).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الأُسْوَة والإِسْوَةُ كالقدوة والقدوة، وهي الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره إن حسنًا وإن قبيحًا، وإن سارًّا وإن ضارًّا، ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]، فوصفها بالحسنة"(٣).

وهي مثل (القدوة) في كونها مصدرًا بمعنى: الإئتساء، واسمًا بمعنى: ما يؤتسى به، وكذلك القدوة. يقال: لي في فلان أسوة، أي: قدوة(٤).

ثانيًا: أثر القدوة السيئة في الإفساد والإضلال:

إنَّ للقدوة أثرًا في تحديد وجهة الإنسان في فكره وسلوكه، ولا سيما في المراحل الأولى من نشأته؛ لأنَّ من طبيعة الإنسان التفاعل مع محيطه، والتشبه بمن يتخذهم أسوة له، ويُكِنُّ لهم احترامًا، ويحفظ لهم مكانة وقدرًا؛ ولذلك فإن القدوة الحسنة تهدي إلى الحقِّ، وإلى البرِّ والتقوى، والصَّلاح والإصلاح، كما أنَّ للقدوة السَّيئة من الأثرِ في الشَّرِّ والإفسادِ والضَّلال والإضلال ما لا يخفى على أولي البصائر مما سيأتي توضيحه.

ويوصف الإمام بأنه أُسوة وقدوة للمأمومين، فإذا كان إمامًا في الخير والصلاح أثَّر في أتباعه، فأثمر الاقتداء والتأسي: قيمًا وأخلاقًا واستقامة، وإذا كان إمامًا في الشَّر أثَّر فيهم، فأورث انحرافًا وضلالًا عن الحقِّ.

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (قدا) (٦/٢٤٥٩). وينظر ذلك مفصلًا في (التحرير والتنوير) (٧/٣٥٦).

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٦٩).

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة: (أسا) (ص:٧٦).

(٤) تاج العروس، مادة: (أسو) (٣٧/ ٧٥).

قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء:٧٣]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]، وفي المقابل: قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص:٤١]، ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٢١].

والمعنى: يدعون إلى النَّار، ويقودون إليها الأتباع والأنصار. فالأئمة: جمع إمام، وهو من يُقتدى به في عمل من خيرٍ أو شرٍّ.

وخير أسوة للنَّاس في الخير والاستقامة هم الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كما بيَّن الحق ﷻ كما في الآيات التالية: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة:٤]، قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: "يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنين به من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قد كان لكم أيها المؤمنون أُسوة حسنة: يقول: قدوة حسنة في إبراهيم خليل الرحمن عَلَيْهِ السَّلَامُ، تقتدون به، والذين معه من أنبياء الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ"(١). ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الممتحنة:٦].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: "يقول تعالى ذِكْرُه: لقد كان لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة فى الذين ذكرهم إبراهيم والذين معه من الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾، يقول: لمن كان منكم يرجو لقاء الله، وثواب الله، والنجاة في اليوم الآخر"(٢).

وفي هذا بيان لأهمية القدوة في حياة الإنسان المسلم، ومدى تأثيرها على فكره وسلوكه، ومسار حياته بصفة عامة.

فقيدت الأسوة في الآيات السابقة بكونها حسنة؛ احترازًا عن القدوة السيئة التي هي من أهم أسباب الضلال، ومعوقات الهداية.

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٣١٧).

(٢) المصدر السابق (٢٣/٣٢٠).

وقال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام:٣٤]. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: من خبرهم كيف نصروا وأيدوا على من كذبهم من قومهم، فلك فيهم أسوة وبهم قدوة"(١).

وقال الله ﷻ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ۝٨٩ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٨٩-٩٠].

فهؤلاء هم القدوة النافعة التي تهدي إلى سواء السبيل، إلى صراط العزيز الحميد. وقد ضلَّ كثيرون بسبب اقتفائهم لآثار الفلاسفة، والتأثر بهم، وإعراضهم عن منهج الله ﷻ، يقول الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فهذه وصية الله ﷻ بالاستقامة على منهج الله ﷻ الواضح البين..وسيأتي بيان ذلك في عقبة: (الافتتان بعلوم الفلسفة).

وقال الله ﷻ في حقِّ نبيه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة:١٢٤].

وقد تكون الإمامة في الشر -كما تقدم- وقد قال الله ﷻ عن فرعون وملئه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص:٤١]، فكان فرعون وملؤه أسوة في الشر والضلال والجبروت، يَقتدي بهم أهلُ العتو والكفر بالله ﷻ، فهم يحثون على فعل الشرور والمعاصي، وتدسية النفوس بالفسوق والآثام التي تلقي بفاعلها في النار.

وما كفاهم أن كانوا ضالين كافرين بالله ﷻ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل دأبوا على إضلال سواهم، وتحسين العصيان لهم، وبذا قد ارتكبوا جريمتين، فباؤوا بجزاءين: جزاء الضلال، وجزاء الإضلال.

وكما كانوا في الدنيا أئمَّة في الشر والجبروت والضَّلال، فإنهم سيكونون كذلك في الآخرة أئمَّة وقادة، لكن إلى النَّار، ﴿وَيَوْمَ القيامة لاَ يُنصَرُونَ﴾ [القصص:٤١].

(١) تفسير ابن كثير (٣/٢٥٢).

وقد جاء في الحديث الشريف: ((**من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**))[(١)].

وجاء في كتاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هرقل -عظيم الروم- يدعوه إلى الإسلام: ((**سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين..**)) الحديث[(٢)].

ومن الأحاديث الواردة في ذمِّ (القدوة السيئة) قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سُنَّةَ الجاهليَّة، وَمُطَّلِبُ دم امرئ بغير حق؛ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**))[(٣)]. فقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ومبتغ في الإسلام سُنَّةَ الجاهليَّة)، أي: ما كان عليه أهلها من الاعتقادات والأعمال الباطلة.

ومن الأحاديث الواردة في ذمِّ (القدوة السيئة) ما جاء عن كعب بن عُجْرَة قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أُعِيذُكَ بالله يا كعب بن عُجْرَةَ من أمراء يكونون من بعدي، فمن غَشِيَ أبوابهم فَصَدَّقَهُمْ في كذبهم، وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، ولا يرد علي الحوض، ومن غَشِيَ أبوابهم أو لم يَغْشَ ولم يُصَدِّقْهُمْ في كذبهم، ولم يُعِنْهُمْ على ظلمهم، فهو مِنِّي وأنا منه، وسَيَرِدُ عَلَيَّ الحَوْضَ**))[(٤)].

ويقول تعالى في أصحاب (القدوة السيئة): ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ

---

(١) صحيح مسلم [١٠١٧].

(٢) صحيح البخاري [٧، ٢٩٤١، ٤٥٥٣]، مسلم [١٧٧٣].

(٣) صحيح البخاري [٦٨٨٢].

(٤) أخرجه الترمذي [٦١٤]، وقال: "حسن غريب"، وأخرجه أيضًا: الطبراني في (الكبير) [٢١٢].

﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت:١٢-١٣].

والقرآن قد جاء يهدي جميع متبعي الملل والأديان السابقة إلى استعمال عقولهم مع ضمائرهم؛ للوصول إلى العلم والهدى في الدين، وألا يجمدوا بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم؛ فإن الحقَّ أحقُّ أن يُتَّبع. يقول الله ﷻ: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف:٢٢-٢٥]. فدلت الآيات على أنهم آثروا القدوة السيئة على الحسنة فضلوا، فاستحقوا العذاب.

والأمة بأمسِّ الحاجة إلى القدوة الحسنة. وأعظم قدوة للناس رسول الله ﷺ، ثم وُرَّاثُ رسول الله ﷺ من الصَّحابة والتَّابعين والسَّلف الصالح، ومن سار على هديهم، واقتفى أثرهم، ودعا إلى هذا الدين، وهو على بصيرة وبينة من العلماء الصالحين، والقادة المخلصين..فهم بناة الأجيال الحقيقيون، والهداة إلى سواء السبيل.

وهناك مقومات للقدوة الحسنة أهمها: التخلق بالأخلاق الفاضلة، والسَّير وفق شرع الله ﷻ، واتِّباع هدي النَّبي ﷺ، والتَّمسك بسُنَّته؛ فإنَّ العلم والعمل ركنا القدوة الحسنة، والبناء في التربية على أساسٍ راسخٍ منبثقٍ من العقيدة من غير زيغٍ أو ابتداع، وأن يكون صاحب همَّةٍ؛ فإنَّ رؤية المجدين تبعثُ في النَّفس الهمَّة؛ لتقليدهم والتَّشبه بهم.

ومن صفات الإمام القدوة: الاستقامة، والاعتدال، والحِلم، والحكمة، والتثبت، والرِّفق، واللين، والصَّبر، والإخلاص، والصِّدق، وأن يكون عالما بمقاصد التشريع، والأصول والاستنباط، وبصيرًا بمناهج الدعوة، ومطلعًا على اختلاف الفقهاء، آخذًا في الاعتبار مراعاة أحوال الناس، ومتدرجًا في دعوته بما يتلاءم مع طبيعة المخاطَبين، وأن يكون حريصًا على هداية قومه، ناصحًا، أمينًا، بعيدًا عن الجهل والحمق والصِّفات المذمومة.

وأن يرتكز في دعوته على كتابِ الله تعالى، وسُنَّةِ رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن ينهج نهج السَّلف والتَّابعين ومن تبعهم بإحسان من الأئمة والعلماء المخلصين العاملين.

وأن يكون تقيًا ورعًا يقدِّم رأي الشَّارع الحكيم على كل رأي، وأن يكون بعيدًا عن النفاق والمداهنة والغلو والتشدد والتكفير، وكل خلق ذميم.

ومن صفات الإمام القدوة: أن يفقه علوم الآلة التي يستند إليها في التفسير والاستنباط، وأن يكون قدوة في العمل؛ فإن لسان العمل أبلغ من لسان القول، ولا خير في قول لا يصدقه العمل.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "فمن آداب المعلم: أدبه في نفسه، وذلك في أمور: منها: أن يقصد بتعليمه وجه الله تعالى، ولا يقصد توصلًا إلى غرض دنيوي.

ومنها: أن يَتَخَلَّقَ بالمحاسن التي ورد الشرع بها، وحثَّ عليها، والخلال الحميدة، والشِّيم المرضية التي أرشد إليها، من التَّزَهُّدِ في الدنيا، وَالتَّقَلُّلِ منها، وعدم المبالاة بفواتها، والسخاء، والجود، ومكارم الأخلاق، وطلاقة الوجه، من غير خروج إلى حدِّ الخلاعة، والحلم، والصبر، والتنزه عن دنيء الاكتساب، وملازمة الورع والخشوع، والسكينة والوقار، والتواضع، والخضوع، واجتناب الضحك، والإكثار من المزح، وملازمة الآداب الشرعية الظاهرة والخفية، كالتنظيف بإزالة الأوساخ وتنظيف الإبط، وإزالة الروائح الكريهة، واجتناب الروائح المكروهة، وتسريح اللحية.

ومنها: الحذر من الحسد، والرياء، والإعجاب، واحتقار الناس -وإن كانوا دونه بدرجات- وهذه أدواء وأمراض يبتلى بها كثيرون من أصحاب الأنفس الخسيسات.

ومنها: استعماله أحاديث التسبيح والتهليل ونحوهما من الأذكار والدعوات وسائر الآداب الشرعيات.

ومنها: دوام مراقبته لله تعالى في علانيته وسره، محافظًا على قراءة القرآن، ونوافل الصلوات، والصوم، وغيرهما، معولًا على الله تعالى في كل أمره، معتمدًا عليه، مفوضًا في كل الأحوال أمره إليه.

ومنها: وهو من أهمها أن لا يذل العلم ولا يذهب به إلى مكان ينتسب إلى من يَتَعَلَّمُهُ منه -وإِنْ كَانَ الْمُتَعَلِّمُ كبير القدر-، بل يصون العلم عن ذلك كما صانه السلف.

ومنها: أنه إذا فعل فعلًا صحيحًا جائزًا في نفس الأمر ولكن ظاهره أنه حرام أو مكروه أو مخل بالمروءة ونحو ذلك فينبغي له أن يخبر أصحابه ومن يراه يفعل ذلك بحقيقة ذلك الفعل؛ لينتفعوا، ولئلا يأثموا بظنهم الباطل، ولئلا ينفروا عنه ويمتنع الانتفاع بعمله.

ومن آدابه: أدبه في درسه واشتغاله: فينبغي أن لا يزال مجتهدًا في الاشتغال بالعلم قراءة وإقراءًا ومطالعة وتعليقًا ومباحثة ومذاكرة وتصنيفًا، ولا يستنكف من التعلم ممن هو دونه في سنٍّ أو نسب أو شهرة أو دين أو في علم آخر، بل يحرص على الفائدة ممن كانت عنده -وإن كان دونه في جميع هذا- ولا يستحيي من السؤال.

ومنها: بيان التواضع، وأن الفاضل لا يمتنع من القراءة على المفضول.

وينبغي أن تكون ملازمة الاشتغال بالعلم هي مطلوبه ورأس ماله، فلا يشتغل بغيره، فإن اضطر إلى غيره في وقت فعل ذلك الغير بعد تحصيل وظيفته من العلم: وينبغي أن يعتني بالتصنيف إذا تأهل له؛ فبه يطلع على حقائق العلم ودقائقه ويثبت معه؛ لأنه يضطره إلى كثرة التَّفْتِيشِ والمطالعة والتحقيق والمراجعة والاطلاع على مختلف كلام الأئمة ومُتَّفقه وواضحه من مشكله، وصحيحه من ضعيفه، وَجَزْلِه من ركيكه، وما لا اعتراض عليه من غيره، وبه يتصف المحقق بصفة المجتهد. وليحذر كل الحذر أن يشرع في تصنيف ما لم يَتَأَهَّلْ له، فإن ذلك يَضُرُّهُ في دينه وعلمه وعرضه. وليحذر أيضًا من إخراج تصنيفه من يده إلا بعد تهذيبه وترداد نظره فيه وتكريره. وليحرص على إيضاح العبارة وإيجازها، فلا يوضح إيضاحًا ينتهي إلى الركاكة ولا يوجز إيجازًا يفضي إلى الْمَحْقِ وَالِاسْتِغْلَاقِ. وينبغي أن يكون اعتناؤه من التصنيف بما لم يسبق إليه أكثر. والمراد بهذا أن لا يكون هناك مصنف يغني عن مصنفه في جميع أساليبه، فإن أغنى عن بعضها فليصنف من جنسه ما يزيد زيادات يحتفل بها مع ضَمِّ ما فاته من الأساليب. وليكن تصنيفه فيما

يعم الانتفاع به، ويكثر الاحتياج إليه. وليعتن بعلم المذهب؛ فإنه من أعظم الأنواع نفعًا، وبه يتسلط المتمكن على المعظم من باقي العلوم"(١).

ثانيًا: الوقاية من آفات القدوة السيئة والعلاج:

١ - وجود القدوة الحسنة وظهور أهل الخير والصلاح؛ فإن هذا أدعى لاقتداء الناس بهم، واستغنائهم عن القدوة السيئة، فالنَّاس عادة لا بدَّ لهم من قدوة، وإذا خلت السَّاحة من القدوة الحسنة أصبحت القدوة السيئة هي الملاذ لهم، ولا سيما إذا تلبست بلبوس الخير والصلاح، واتخذته شعارًا.

٢ - العلم بمقومات القدوة الحسنة، والتخلق بصفات الإمام القدوة.

٣ - معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة.

٤ - أن يتصدَّى العلماءُ الصَّادقونَ للتَّحذير من أئمَّة الضَّلال، وعلماءِ السُّوء.

٥ - النأي بالأولاد عن مراتع أهل الضَّلال، وأماكن الشبهات.

٦ - أن ينشأ الأولاد في بيئةً صالحةً، وتربية الأجيال على القيم الحميدة، والأخلاق الفاضلة.

٧ - أن يكون المربِّي ناصحًا لأولاده وطلابه، دالًّا لهم على الخير، محذِّرًا إياهم من رفقاء السُّوء، ومسالك أهل الضَّلال.

٨ - المراقبةُ الحكيمة على وسائل الإعلام الوافدة؛ لأنَّ الإعلام الموجَّه يعملُ على هدمِ القيم، وذلك من خلال إظهارِ شعائرِ أهل الكفر وعاداتهم وتقاليدهم، ومن خلال الإعجابِ بشخصياتِ الكفرة عند عرضهم أبطالًا في الأفلام، فبدلًا من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وبدلًا من الصَّحابي والعالم والمجاهد، صار القدوة الممثل والمغني، والراقصة واللاعب.

وقد كانت الأجيال في الماضي تتربَّى على سيرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصحابته الكرام رضوان الله عليهم، والسلف الصالح، وسائر القدوات الصالحة، إلى أن غزت

---

(١) بقليل من التصرف عن (المجموع شرح المهذب)، للإمام النووي (١/٢٨- ٣٠).

الثقافاتُ الوافدة، والإعلامُ الموجَّهُ البلادَ الإسلامية، ذلك الإعلام الذي يُسَوِّقُ للرَّذيلة، ويقضي على الأخلاق والفضيلة، ويربط النَّاس برموزٍ هابطة، وثقافاتٍ دخيلة تؤثِّر في فكرهم وسلوكهم وأخلاقهم وولائهم، وأسوأ ما في ذلك غياب الهوية الدينية. وسيأتيك مزيد من البيان في عقبة: (الإعلام المضلل).

٩ – المطالعة الدَّائمة لسيرة النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسيرة أصحابه الكرام رضوان الله عليهم، والسَّلف الصَّالح، وما كانوا عليه من الزُّهد والورع والتَّقوى، وما قاموا به من فتوحاتٍ، ونشرٍ للعلمِ في أصقاع الأرض، مما حفظ لهذه الأمة هيبتها وريادتها وتقدمها.

١٠ – التَّبصر بعاقبة أئمَّة الضَّلال في الآخرة، وبيان أنهم يحملون لواء الخزي لأتباعهم، وأنهم يتبرأون يوم القيامة من أتباعهم، ويلعن بعضهم بعضًا. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧]، وقال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الروم:١٣]، وقال جَلَّ: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب:٦٧-٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر:١٣- ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا الذين أَضَلَّانَا مِنَ الجن والإنس نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين﴾ [فصلت:٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف:٥-٦].

العقبة السادسة عشرة

كتمان الحق

أولًا: تعريف الكتمان:

الكِتْمان: الإخفاء والستر، خلاف الإعلان. يقال: كتمت زيدًا الحديث: أي: أخفيته عنه.

وكَتَمْتُ الشيء كَتْمًا وكِتْمانًا، واكْتَتَمْتُه أيضًا. وسحابٌ مُكْتَتِم: لا رعد فيه. وسرٌّ كاتِم، أي: مَكْتومٌ. ومُكَتّمٌ بالتشديد: بولغ في كِتْمانِه. واسْتَكْتَمْتُهُ سرِّي: سألته أن يَكْتُمَهُ. وكاتَمني سرَّه: كَتَمَه عني، ورجل كتمة، مثال: همزة، إذا كان يكتم سرَّه[1].

وهو في الاصطلاح: السكوت عن البيان. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]. وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الكتمان: ستر الحديث"[2].

وقال بعض المحققين: الكتمان: ترك إظهار الشيء مع الحاجة إليه، وحصول الداعي إلى إظهاره؛ لأنه متى لم يكن كذلك لا يعدُّ كتمانًا، فلما كان ما أنزله الله من البينات والهدى من أشد ما يحتاج إليه في الدين، وصف من عَلِمَه ولم يُظْهِرْهُ بالكتمان[3]؛ لأنه إنما أنزل لهداية الناس وصلاحهم، ولن يهتدوا إذا كتم عنهم ما أنزل، فهم في حاجة إلى إظهاره وبيانه؛ ولذلك شدَّد الله النكير على الكاتمين؛ لما ينشأ عن هذا الكتمان من الضرر الجسيم.

وقال أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والكتم والكتمان: ترك إظهار الشيء قصدًا مع مساس الحاجة إليه، وتحقق الدَّاعي إلى إظهاره، وذلك قد يكون بمجرد سَترِه وإخفائِه، وقد يكون بإزالته ووضْعِ شيءٍ آخرَ في موضعه"[4].

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (كتم) (٢٠١٨/٥)، لسان العرب، (٥٠٦/١٢)، المصباح المنير (٥٢٥/٢).

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (كتم) (ص:٧٠٢).

(٣) انظر: تفسير الرازي (١٤٠/٤)، تفسير ابن عادل (١٠٤/٣)، تفسير النيسابوري (٤٤٧/١).

(٤) تفسير أبي السعود (١٨٢/١)، روح المعاني (٤٢٥/١).

وقال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الكتم: ترك إظهار الشيء الْمُحْتَاج إلى إظهاره"(١).

ثانيًا: التحذير من كتمان الحق وبيان كونه من العقبات:

جاءت النصوص محذِّرة من أنواعٍ من الكتمان المذموم؛ لما فيه من الغش والخداع، وإخفاء الحق، وإضلال الناس -ولا سيما مع الحاجة إلى البيان-، فمن الكتمان المحرم: كتمان الحق:

والباعث على كتمان الحق: اتباع الهوى، والرغبة في تحصيل المصالح والمنافع الدنيوية، أو الخوف على المكانة أو القيادة أو المصالح الاقتصادية أو الشَّخصية -كما سيأتي بيانه في عقبة: (الخوف المذموم)-.

وكتمان الحق أعم أنواع الكتمان وأخطرها، فهو يشمل كتمان الشهادة، وكتمان العيب في البيع والشراء، وكتمان العلم، وكتمان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وبيان ذلك على النحو التالي:

أما كتمان الشهادة فقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة:٢٨٣]. فالنهي عن كتمان الشهادة بالحق؛ لما فيه من التعمية والتلبيس وإخفاء الحق في وقت الحاجة إلى البيان، وكذلك فإن الكتمان -والحالة هذه- يتضمن: إعلاء الباطل ونصرته، وقد يؤول إلى الإضرار بالمحكوم، وإضلال القاضي بالحكم.

وأما الكتمان في البيع والشراء فقد جاء في الحديث: ((**البَيِّعَان بالخيار ما لم يَتَفَرَّقَا، -أو قال: حتى يَتَفَرَّقَا- فإن صدقا وَبَيَّنَا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما**))(٢)، والمعنى: إن كتما شيئًا مما يجب الإخبار به شرعًا كان ذلك من الغش والخداع، وإخفاء الحقيقة. والقاعدة: أن الصدق أساس في التعامل، فلا

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/١٥٢).

(٢) صحيح البخاري [٢٠٧٩، ٢٠٨٢، ٢١١٠]، مسلم [١٥٣٢].

ينبغي أن يتصف المؤمن بما يقابل الصدق من الكذب والغش والخداع -ولا سيما مع الحاجة إلى البيان-.

وأما (كتمان العلم) فقد جاءت النصوص محذِّرة من التقاعس أو السكوت عن البيان -مع القدرة على ذلك، وعند حاجة الناس-؛ فإن كتمان العلم من المضلَّات عن الحقِّ، ومن العقبات في طريق الهداية؛ لما فيه من إخفاء الحق، والصدِّ عن الهداية، والسكوت عن الباطل والمنكر والظلم مع القدرة على البيان، وحاجة الناس إليه. وقد يؤول إلى الإضرار بالعامة، وتمادي الباطل، وتشويه الحقائق والمفاهيم والقيم، وزيادة الظلم.

فإذا تخلَّى العالم عن الأمانة، وساءَ منه القصد والدِّيانة، وكان جامعًا للعلم بلا عمل، مفارقًا للقيم الإنسانية، يكتم الحق، ويغش الخلق، فمثل هذا قد توعَّده الله ﷻ بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]. وحذَّر منه النبيُّ ﷺ بقوله: ((**إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**))[(١)]. ومن هنا حرص أسلافنا أن لا يأخذوا العلم إلا عن الثقات الأمناء. قال ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن هذا العلم دين، فانظروا عمَّن تأخذون دينكم"[(٢)].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٤]، أي: إن الذين يُخفون ما أنزل الله ﷻ في كتبه من صفة محمد ﷺ، وغير ذلك من الحق، ويحرصون على أخذ عوض قليل من عرض الحياة الدنيا مقابل هذا الإخفاء، هؤلاء ما يأكلون في مقابلة كتمان الحق إلَّا نار جهنم تتأجج في بطونهم، ولا يكلمهم الله ﷻ يوم القيامة؛ لغضبه وسخطه عليهم، ولا يطهرهم

---

(١) أخرجه أحمد [٢٢٣٩٣]، والدارمي [٢١٥]، وأبو داود [٤٢٥٢]، والترمذي [٢٢٢٩]، وقال: "حسن صحيح"، وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم [٤٥٦]، والروياني [٦٢٩]، وابن حبان [٦٧١٤]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢/٢٨٩)، والشهاب [١١٦٦].

(٢) مقدمة صحيح مسلم (١/١٤).

من دنس ذنوبهم وكفرهم، ولهم عذاب موجع. وقد عاب الحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَى على الذين يكتمون ما بينه للناس من البينات والهدى فقال ﷻ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٤٠]. ويقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران:١٨٧].

والحاصل أن كتمان العلم الذي يبين الحق محظور إذا أمكن إظهاره، قال النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **((من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار))**(١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ في بيان حال أهل الكتاب من كتمان ما في كتابهم: "وهذه حال أهل الكتاب في كتمان ما في كتابهم من الألفاظ يتأولها بعضهم، ويجعلها بعضهم متشابها، وهي دلائل على نبوة محمد صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وغير ذلك. فإن ألفاظ التوراة والإنجيل وسائر كتب الأنبياء، وهي بضع وعشرون كتابًا عند أهل الكتاب لا يمكنهم جحد ألفاظها، لكن يحرفونها بالتأويل الباطل، ويكتمون معانيها الصحيحة عن عامتهم"(٢).

وقال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة:١٤٦- ١٤٧].

وروي عن عبد الله بن سلام –وكان من علماء اليهود وأحبارهم– أنه قال: أنا أعلم به مني بابني، فقال له عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: لم؟ قال: لأنِّي لستُ أشُكُّ في محمدٍ أنه نبيٌّ

---

(١) الحديث أخرجه غير واحد، فقد أخرجه الطيالسي [٢٦٥٧]، وابن أبي شيبة [٢٦٤٥٣]، وأحمد [٧٥٧١] في غير موضع، وله طرق حسنة وصحيحة، وابن ماجه [٢٦١]، وأبو داود [٣٦٥٨]، والترمذي [٢٦٤٩]، وقال: "حسن". كما أخرجه البزار [٩٢٩٧]، وأبو يعلى [٦٣٨٣]، وابن الأعرابي [٧٣]، وابن حبان [٩٥]، والطبراني في غير موضع، والحاكم [٣٤٤] وصححه، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [١٦١٢].

(٢) مجموع الفتاوى (٤١٥/١٦)

الله. وأما ولدي فلعلّ والدته قد خانت[1]. فقد اعترف من هداه الله من أحبارهم كهذا العالم الجليل، وتميم الداري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من علماء النصارى أنهم عرفوه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ معرفة لا يتطرق إليها الشك. ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنه الحق الذي لا مرية فيه.

وكذلك فإن السكوت عن بيان الحق وإظهاره قد يكون سببًا في امتناع وصوله إلى كثيرين، أو يصل لا على حقيقته.

قال ابن الوزير رَحِمَهُٱللَّهُ: "ولو أنَّ العلماء رضي الله عنهم تركوا الذبَّ عن الحق؛ خوفًا من كلام الخلق، لكانوا قد أضاعوا كثيرًا، وخافوا حقيرًا"[2].

وقال الشوكاني رَحِمَهُٱللَّهُ: "ومنهم من يترك التكلم بالحق والإرشاد إليه مخافة الضرر من تلك الدولة وأهلها، بل وعامتها؛ فإنه لو تكلم بشيء خلاف ما قد علموا عليه ونشروه في الناس لخشي على نفسه وأهله وماله وعرضه، ومنهم من يترك التكلم بالحق محافظة على حظ قد ظفر به من تلك الدولة من مال وجاه"[3].

وقال الشاطبي رَحِمَهُٱللَّهُ: إنَّ سبب رواج البدع: "أن يعمل بها العوام وتشيع فيهم وتظهر، فلا ينكرها الخواص، ولا يرفعون لها رؤوسهم، وهم قادرون على الإنكار فلم يفعلوا، فالعامي من شأنه إذا رأى أمرًا يجهل حكمه يعمل العامل به فلا ينكر عليه أحد، اعتقد أنه جائز وأنه حسن، أو أنه مشروع بخلاف ما إذا أنكر عليه فإنه يعتقد أنه عيب، أو أنه غير مشروع، أو أنه ليس من فعل المسلمين. هذا أمر يلزم من ليس بعالم بالشريعة؛ لأن مستنده الخواصّ والعلماء في الجائز أو غير الجائز. فإذا عَدِمَ الإنكار ممن شأنه

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (١/١٧٦)، روح المعاني (٢/١٣)، الكشاف (١/٢٣٠)، تفسير البيضاوي (١/٤٢٤)، تفسير النسفي (١/٩٤)، الرازي (٤/١١٠)، غرائب القرآن (١/٤٣٣)، البحر المديد (١/١٥١)، ابن عادل (٣/٥١)، تفسير المنار (٢/١٧).

(٢) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (١/٢٤) (١/ ٢٢٣).

(٣) أدب الطلب ومنتهى الأرب (ص:٦٢).

الإنكار، مع ظهور العمل وانتشاره وعدم خوف المنكر ووجود القدرة عليه، فلم يفعل، دل عند العوام على أنه فعل جائز لا حرج فيه"(١).

والمداهنة أثرها عظيم في التلبيس على كثير من العامة، وفيها ما فيها من الغش والنفاق. والمداهنة هي أن ترى منكرًا وتقدر على دفعه ولم تدفعه؛ حفظًا لجانب مرتكبه، أو جانب غيره، أو لقلة مبالاة الدين(٢).

قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فقد -والله- عم الفساد، وظهرت البدع، وخفيت السنن، وقل القوال بالحق، بل لو نطق العالم بصدق وإخلاص لعارضه عدة من علماء الوقت، ولمقتوه وجهلوه -فلا حول ولا قوة إلا بالله-"(٣).

وقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من بخل بالعلم، ابتلي بثلاث: إما موت يذهب علمه، وإما ينسى، وإما يلزم السلطان، فيذهب علمه(٤).

قال القاضي أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (أحكام القرآن): "وحقيقة الإدهان: إظهار المقاربة مع الاعتقاد للعداوة؛ فإن كانت المقاربة باللين فهي مداهنة، وإن كانت مع سلامة الدين فهي مداراة، أي: مدافعة. وقد ثبت في الصحيح: عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنه استأذن على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجل فقال: ((**ائذنوا له، بئس أخو العشيرة هو، أو ابن العشيرة**))، فلما دخل ألان له الكلام، فقلت له: يا رسول الله؛ قلت ما قلت، ثم ألنت له في القول؟ فقال لي: ((**يا عائشة إن شر الناس منزلة: من تركه أو وَدَعَهُ الناس اتقاء فحشه**))(٥).

وقد ثبت أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**مثل المداهن في حدود الله والقائم عليها كمثل قوم استهموا في سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم**

---

(١) الاعتصام (٢/٥٩٧)، وانظر: الصوارف عن الحق، د. حمد العثمان (ص:١٤٠-١٤١).

(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٦٤٥)، دستور العلماء (٣/١٦٤)، قواعد الفقه (ص:٤٧٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (١١/١٠٢).

(٤) انظر: حلية الأولياء، لأبي نعيم (٨/١٦٥)، سير أعلام النبلاء (٨/٣٩٨)، تهذيب الكمال (١٦/٢٢)، تاريخ دمشق (٣٢/٤٤٢)، تاريخ الإسلام (٤/٨٨٢)، المعجم، لابن المقرئ (ص:١٨٥).

(٥) صحيح البخاري [٥٦٨٥، ٥٧٠٧، ٥٧٨٠].

أسفلها، فأراد الذين في أسفلها أن يستقوا الماء على الذين في أعلاها فمنعوهم، فأرادوا أن يستقوا الماء في أسفل السفينة، فإن منعوهم نجوا، وإن تركوهم هلكوا جميعًا))"(١).

وما التبس الحقُّ على كثيرين إلا بسبب ركون بعض من المنتسبين لطلب العلم إلى الظالمين ومداهنتهم، وتأثر العامَّة بهم؛ فلذلك حذَّر الحقُّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من ذلك فقال ﷻ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود:١١٣].

فهذه الآية الكريمة أصل عظيم في النَّهي عن الوقوف مع الظالم وتأييده، وقد ذهب أكثر المفسِّرين في تفسيرها إلى أنَّ الله تعالى ينهى المؤمنين عن مجرَّد الميل إلى الظالمين، وهو معنى قلبي خفي، له مظاهرهم وآثاره، ومعلوم أنَّ ذلك يقتضي من باب أولى النهي عمَّا فوق ذلك من الموالاة للظالم وتأييده في أعماله، ونصرته وإعانته.

قال الإمام ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذه الآية أصل في سد ذرائع الفساد المحققة أو المظنونة"(٢).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الركون حقيقته: الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به. قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: معناه: لا تودوهم ولا تطيعوهم. ابن جريج: لا تميلوا إليهم. أبو العالية: لا ترضوا أعمالهم؛ وكله متقارب. وقال ابن زيد: الركون هنا: الإدهان، وذلك ألا ينكر عليهم كفرهم"(٣).

---

(١) أحكام القرآن (٤/٣٠٥). والحديث في (صحيح البخاري) [٢٦٨٦] بلفظ: ((مثل المدْهِن في حدود الله..)) الحديث. وبلفظ: ((مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة)) الحديث. (صحيح البخاري) [٢٣٦١]. والحديث أخرجه أيضًا: ابن حبان [٣٠١]، والطبراني في (الصغير) [٨٤٩].

(٢) التحرير والتنوير (١٢/١٧٨).

(٣) تفسير القرطبي (٩/١٠٨)، وانظر: فتح القدير، للشوكاني (٢/ ٧٦٥)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٥/٣٤٧٩)، فتح البيان في مقاصد القرآن (٦/ ٢٦٣).

والركون هو الميل، وهو أيضًا: المجاملة، وإعانة هذا الظالم على ظلمه، وأن تزيِّن للناس ما فعله هذا الظالم. وآفة الدنيا هي الركون للظالمين؛ لأنَّ الركون إليهم إنما يشجعهم على التمادي في الظلم، والاستشراء فيه. وأدنى مراتب الركون إلى الظالم ألَّا تمنعه من ظلم غيره، وأعلى مراتب الركون إلى الظالم أن تزيِّن له هذا الظلم، وأن تزيِّن للناس هذا الظلم. وأنت إذا استقرأت وضع الظلم في العالم كله تجد أن آفات المجتمعات الإنسانيَّة إنما تنشأ من الركون إلى الظالم، لكنك حين تبتعد عن الظالم، وتقاطعه أنت ومن معك، فلسوف يظنُّ أنَّك لم تُعرْض عنه إلَّا لأنَّك واثق بركن شديد آخر، فيتزلزل في نفسه؛ حاسبًا حساب القوَّة التي تركن إليها، وفي هذا إضعاف لنفوذه، وفي هذا عزلة له وردع لعله يرتدع عن ظلمه(١).

ولما خالط الزهريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ السلطان -وهو من هو- كتب أخ له في الدين إليه: "عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك، أصبحت شيخًا كبيرًا، وقد أثقلتك نعم الله ﷻ بما فهمك الله من كتابه وعلمك من سنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس كذلك أخذ الله ﷻ الميثاق على العلماء، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران:١٨٧]. واعلم أنَّ أيسر ما ارتكبتَ وأخفَّ ما احتملت: أنك آنست وحشة الظالم، وسهلت سبيل الغي بدنوِّك ممن لم يؤدّ حقًّا ولم يترك باطلًا، حين أدناك اتخذوك قطبًا تدور عليك رحى باطلهم، وجسرًا يعبرون عليك إلى بلائهم، وسلمًا يصعدون فيك إلى ضلالهم، يُدخلون الشكَّ بك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمَّروا لك في جنب ما خرَّبوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩]؟ فإنك تعامل من لا يجهل، ويحفظ عليك من لا يغفل،

---

(١) انظر: تفسير الشيخ الشعراوي (١ /٤٣١٥).

فداو دينك فقد دخله سقم، وهيىء زادك فقد حضر السفر البعيد، ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم:٣٨]"(١).

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قد اندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء، فالله تعالى المستعان، وإليه الملاذ في أن يعيذنا من هذا الغرور"(٢).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا هو ذلك الزمان الذي قد استولى فيه الباطل على الحق، وتغلب فيه العبيد على الأحرار من الخلق، فباعوا الأحكام، ورضي بذلك منهم الحكام، فصار الحكم مكسًا، والحق عكسًا لا يوصل إليه ولا يقدر عليه. بدلوا دين الله، وغيروا حكم الله، سمَّاعون للكذب أكالون للسحت"(٣).

وقال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والناس في القرآن أقسام: قوم شغلوا بالتردد على الظلمة وأعوانهم عن تدبره، وقوم شغلوا بما حبب إليهم من دنياهم، وقوم منعهم من فهمه سابق معرفة آراء عقلية انتحلوها، ومذاهب حكمية تمذهبوا بها، فإذا سمعوه تأولوه بما عندهم، فيحاولون أن يتبعهم القرآن لا أن يتبعونه، وإنما يفهمه من تفرغ من كل ما سواه؛ فإن للقرآن علوًّا من الخطاب يعلو على قوانين علوَّ كلام الله ﷻ على كلام خلقه"(٤).

وقد قيل: صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس: العلماء والأمراء.

وقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها؟(٥)

---

(١) انظر: الكشاف (٢/٤٠٩)، روح المعاني (١٢/١٥٤)، السراج المنير (٢/٩١)، صفة الصفوة (٢/١٦٠)، تاريخ دمشق (٢٢/٤١)، إحياء علوم الدين (٢/١٤٣)، حلية الأولياء (٣/٢٤٦).

(٢) إحياء علوم الدين (١/٢١).

(٣) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص:١٢٢٨).

(٤) فيض القدير (٦/٢٤٠).

(٥) ديوان عبد الله بن المبارك (ص:٦٧).

قال ابن النحاس الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإذا نظرنا إلى فساد الرعية وجدنا سببه: فساد الملوك، وإذا نظرنا إلى فساد الملوك وجدنا سببه: فساد العلماء والصالحين، وإذا نظرنا إلى فساد العلماء والصالحين وجدنا سببه: ما استولى عليهم من حب المال والجاه"(١). وفي (تفسير المنار): "وأما أعمال النفاق الدنيوية في أيام الملوك والأمراء الظالمين الفاسقين، فإنها تكون أكثر رواجًا ونتاجًا من أعمال الصادقين المخلصين. ولا دليل على فساد الملوك والأمراء والرؤساء أدل من تقريبهم للمنافقين المتملقين منهم، وإبعادهم للناصحين الصادقين عنهم"(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العلماء ثلاثة: عالم استنار بنوره واستنار به الناس، فهذا من خلفاء الرسل وورثة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وعالم استنار بنوره، ولم يستنر به غيره، فهذا إن لم يفرط كان نفعه قاصرًا على نفسه، فبينه وبين الأول ما بينهما، وعالم لم يستنر بنوره ولا استنار به غيره، فهذا علمه وبال عليه، وبسطته للناس فتنة لهم، وبسطة الأول رحمة لهم"(٣).

ومن تأمل حال كثير من المسلمين في هذا العصر وجد أنهم قد ركنوا إلى الظلمة المستكبرين، ووثقوا بهم أكثر من ثقتهم بربهم ﷻ، ومالوا إليهم كل الميل، وتسابقوا على إرضائهم -ولو بسحق إخوانهم-، وهذا من أعظم أسباب الذل والخذلان، وتخلف نصر الله ﷻ عن المسلمين، وتسلط أعدائهم عليهم؛ فإن من عادة الظلمة المستكبرين أن يزدادوا علوًّا وجورًا كلما زين لهم علماء السوء قبيح أفعالهم.

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قد كان عبد الله بن علي ملكًا جبارًا، سفاكًا للدماء، صعب المراس، ومع هذا فالإمام الأوزاعي يصدعه بمر الحق، لا كَخَلْق من علماء السوء الذين يُحَسِّنُون للأمراء ما يقتحمون به من الظلم والعَسْف، ويقلبون لهم الباطل حقًّا -قاتلهم الله- أو يسكتون مع القدرة على بيان الحق"(٤).

(١) تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين وتحذير السالكين من أفعال الجاهلين (ص:٦٨).
(٢) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) (١٠/٤٦٤).
(٣) مدارج السالكين (٣/٢٨٢).
(٤) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٢٥).

لقد أراد كفار (مكة) أن يصرفوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن بعض الأوامر والنواهي القرآنية، فحذَّر الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الافتتان بهم، والتنازل عن شيء من الدين إرضاء لهم؛ لأن ذلك من الركون إليهم، وتوعده بتخلف النصر مع عذاب الدنيا والآخرة، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معصوم من الوقوع في ذلك، ولكن خطاب الله عَزَّ وَجَلَّ له بذلك هو خطاب لأمته؛ لئلا يتركوا شيئًا من دينهم؛ إرضاء لأحد، فيكون ذلك ركونًا إلى غير الله تعالى يتخلف به نصره عَزَّ وَجَلَّ، ويقع الخذلان عليهم بسببه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥].

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ مبينًا مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخطر إغفال هذا الواجب:" أما بعد: فإنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله عَزَّ وَجَلَّ له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله؛ لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد"(١).

ثالثًا: الوقاية من آفة الكتمان والعلاج:

١ – أن يحذر كل داعية من مسبباتِ كتمان الحقِّ، كاتباع الهوى، والنفاق، والمداهنة، والغش، والخداع، والكذب، والخيانة.

٢ – أن يكونَ العالمُ صادقًا، أمينًا، يُبَلِّغُ رسالةَ ربِّه، ولا يخافُ في الله لومة لائم، فلا يداهنُ ولا ينافق، ولا يبيعُ دينَه بعرضٍ من الدنيا، ولا يتخلَّى عن مبادئه، ولا يتبدَّل قولُه لتحصيلِ منفعةٍ دنيويةٍ أو مكانةٍ أو منزلةٍ.

٣ – أن يتصدَّى العلماءُ الصَّادقونَ للتحذير من أئمَّة الضَّلال، وعلماءِ السوء.

٤ – أن يصدعَ العالمُ بالحقِّ، ولا سيما عند حاجة النَّاس إلى البيان.

(١) انظر: إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي (٢/٣٠٦).

٥ – أن لا يركنَ العالمُ إلى الظالمين، وأن يحفظ للعلم مكانته.

٦ – مراقبةُ الله تعالى في جميع الأحوال، والخوف منه.

٧ – التفكر في آثار كتمان الحق، وما يترتب عليه من العقاب في الآخرة.

٨ – التمييز بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة:

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد ورد في العلماء السوء تشديدات عظيمة دلَّت على أنهم أشد الخلق عذابًا يوم القيامة، فمن المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة"(١).

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٥٩).

العقبة السابعة عشرة

التفريط في تحري الحق

أولًا: تعريف التفريط:

التفريط في اللغة: من فَرَّطَ في الأمر تفريطًا: قَصَّرَ فيه وَضَيَّعَهُ حتى فَاتَ. و(فَرَّطَ فيه تَفْرِيطًا) مِثْلُهُ. يقال: ما فرطت في ذا، أي: ما قصرت(١).

ولا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

ويقابله: الإفراط، وهو من أَفْرَطَ في الشيء إفْرَاطًا، أي: أَسْرَفَ وجَاوَزَ الْحَدَّ.

فالتفريط : تجاوز الحدِّ من جانب النقصان والتقصير، وهو يقابل الإفراط، وهو تجاوز الحد من جانب الكمال.

وقولهم : (بلا إفراط ولا تفريط)، يعني: الاعتدال في الأمر بلا زيادة ولا نقصان.

والمراد من التفريط هنا: ما كان تقصيرًا من المكلَّف في طلب الهداية، وتضيعًا للجهد والوقت فيما لا نفع فيه؛ لأن التَّفريطُ أو التَّساهل في طلب الهداية مفضٍ إلى التَّحسر والنَّدم، حيثُ يكون المفرِّطُ من الخائبين الخاسرين، كما قال الله ﷻ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزمر:٥٦-٥٨]، كما تقدم في مقدمة البحث. وقال الله ﷻ: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام:٣١]. "وفَرَّطْنا: أَضَعْنَا. يقال: فَرَّطَ في الأمر إذا تَهَاوَنَ بشيء ولم يَحْفَظْه، أو في اكْتِسَابه حتى فَاتَه وأَفْلَتَ منه"(٢).

وفي التَّنزيل: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١]، ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (فرط) (١١٤٨/٣)، المصباح المنير (٤٦٩/٢)، مختار الصحاح (ص:٢٣٧)، لسان العرب (٣٦٨/٧)، التوقيف على مهمات التعاريف (ص:١٠٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٩١/٧).

ثانيًا: التفريط في تحري الحق من المضلات عن الهداية:

إن الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قضية أولى من قضايا العقل يرتبط بها مصير الإنسان في الدنيا والآخرة، وهذا من شأنه أن يدعو الإنسان إلى إعمال العقل، وإلى البحث والتنقيب عن الحق، والآيات والدلائل واضحة وبينة لا يعتريها الشك، ولكن الوصول إلى الحق يقتضي الحرص على طلبه، والتأمل والنظر؛ حتى يكون المؤمن على بصيرة وهدى، ويكون لهذا الإيمان أثره فيه.

وإن من أسباب الضلال: التقاعس عن البحث والنظر، والركون إلى الكسل. قال محمد صديق خان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما يعرف الحق من جمع خمسة أوصاف أعظمها: الإخلاص والفهم والإنصاف، ورابعها –وهو أقلها وجودًا وأكثرها فقدانًا–: الحرص على معرفة الحق، وشدة الدعوة إلى ذلك"(١). وإن الحق لا يعرف بالرجال، اعرف الحق، تعرف أهله(٢).

والحق ما وافق الدليل من غير التفات إلى كثرة المقبلين أو قلتهم.

ومجرد نفور النافرين، أو محبة الموافقين لا يدل على صحة قول أو فساده.

وكثرة الأتباع ليست دليلًا على صدق الدعوى، كما أن قلَّة الأتباع ليست دليلًا على ضعفها أو فسادها؛ ولهذا قال بعض السلف: عليك بالحق، ولا تستوحش من قلة السالكين، وإياك والباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين.

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المصيبة العظمى رضا الإنسان عن نفسه، واقتناعه بعلمه، وهذه محنة قد عمت أكثر الخلق: فترى اليهودي أو النصراني يرى أنه على الصواب، ولا يبحث ولا ينظر في دليل نبوة نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإذا سمع ما يلين قلبه، مثل القرآن المعجز هرب؛ لئلا يسمع، وكذلك كل ذي هوى يثبت عليه؛ إما لأنه مذهب

---

(١) قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر (ص:١٤٣).

(٢) صيد الخاطر (ص:٤٢).

أبيه وأهله، أو لأنه نظر نظرًا فرآه صوابًا، ولم ينظر فيما يناقضه، ولم يباحث العلماء؛ ليبينوا له خطأه"(١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ينبغي أن يعرف أن عامة من ضل في هذا الباب أو عجز فيه عن معرفة الحق فإنما هو لتفريطه في اتباع ما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وترك النظر والاستدلال الموصول إلى معرفته. فلما أعرضوا عن كتاب الله ﷻ ضلوا، كما قال ﷻ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:٣٥]، وقوله ﷻ: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٣-١٢٤]. قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: تكفل الله ﷻ لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآية"(٢).

وإذا تدبرت كتاب الله ﷻ تبين أنه يفصل النزاع بين من يحسن الردَّ إليه، وأن من لم يهتد إلى ذلك؛ فهو إما لعدم استطاعته، فيعذر؛ أو لتفريطه، فيلام(٣).

وقد تقدم في عقبة: (الجهل) أنه لا يعذر جاهل مقصر ومفرط في تحري الحق ومعرفة الحقوق والواجبات مع إمكان ذلك.

ثالثًا: درجات النَّاس في معرفة الحقِّ والعمل به:

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الإنسان له ثلاثة أحوال، إما أن يعرف الحق ويعمل به، وإما أن يعرفه ولا يعمل به، وإما ان يجحده. فأفضلها أن يعرف الحق ويعمل به، والثاني: أن يعرفه لكن نفسه تخافه، فلا توافقه على العمل به، والثالث: من لا يعرفه بل يعارضه، فصاحب الحال الأول هو الذي يدعى بالحكمة، فإن الحكمة هي العلم بالحق والعمل به، فالنوع الأكمل من الناس من يعرف الحق ويعمل به، فيدعون بالحكمة. والثاني: من

(١) المصدر السابق (ص:٤٧٠).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/٣٢)، الفتاوى الكبرى (١/١٤٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٤/٦٣).

يعرف الحق لكن تخالفه نفسه، فهذا يوعظ الموعظة الحسنة. فهاتان هما الطريقان الحكمة والموعظة. وعامة الناس يحتاجون إلى هذا وهذا؛ فإن النفس لها أهواء تدعوها إلى خلاف الحق –وإن عرفته–، فالناس يحتاجون إلى الموعظة الحسنة وإلى الحكمة، فلا بد من الدعوة بهذا وهذا. وأما الجدل فلا يدعى به، بل هو من باب دفع الصائل، فإذا عارض الحق معارض جودل بالتي هي أحسن"(١).

وقد أمر الله ﷻ الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجادل بالطريقة الحسنة في قوله ﷻ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

فالحكمة هنا هي: الأسلوب الدعوي الذي يقنع العقل، ويعتمد على الحجة والبرهان ونصب الأدلة، أما الموعظة فهي التي تحرِّكُ القلب والعاطفة كأساليب الترغيب والترهيب، فأهل الحكمة يغلب عليهم: النظر العقلي والاستدلال، وأهل الموعظة يغلب عليهم: التأثر العاطفي، وكذلك جاء ذكر الجدل، وهو الرد على المخالف. وهذه الأساليب الثلاثة يسميها أصحاب العلوم العقلية بالبرهان والخطابة والجدل كما ذكر ذلك ابن جزي الكلبي الغرناطي رَحِمَهُ اللهُ في (تفسيره)(٢).

وتقرير ذلك أن الداعي لا بدَّ أن يكون قوله مبنيًّا على حجة، وهي إما أن تكون يقينية، وإما أن تكون مفيدة للظن الغالب. فلا يلتفت إلى ما عارض المسلمات العقلية. فالحكمة هي التي تقنع العقل، والموعظة تحرك القلب.

والجدال يبرز الحق، ويسقط شبه الخصم، ويبين فساد ما بنى عليه استدلالته.

فينبغي على كل داعية أن يمزج الحكمة بالموعظة، وأن يلتزم قانون الجدل وأدبه من حيث عموم الدعوة، أما من حيث خصوص حال المدعو فينبغي أن يخاطبه بما يلاءم حاله.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "ذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو، فإنه إما أن يكون طالبًا للحق، راغبًا فيه، محبًّا له، مؤثرًا له على غيره إذا

(١) الرد على المنطقيين، لابن تيمية (ص: ٤٦٨).

(٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل (١/١٦٤– ١٦٥).

عرفه، فهذا يدعى بالحكمة ولا يحتاج إلى موعظة ولا جدال، وإمَّا أن يكون معرضًا مشتغلًا بضدِّ الحقِّ، ولكن لو عرّفه عَرَفَه وآثره واتَّبعه، فهذا يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة بالترغيب والترهيب، وإما أن يكون معاندًا معارضًا، فهذا يجادل بالتي هي أحسن.

وقال: فلمناظرة المبطل فائدتان: أحدهما أن يرد عن باطله ويرجع إلى الحق. الثانية: أن ينكف شره وعداوته، ويتبين للناس أن الذي معه باطل. وهذه الوجوه كلها لا يمكن أن تنال بأحسن من حجج القرآن ومناظرته للطوائف؛ فإنه كفيل بذلك على أتم الوجوه لمن تأمله وتدبره ورزق فهما فيه"(١).

فالمجادل المخالف للحق ينبغي إفحامه بالبناء على دليل مركب من مقدمات مشهورة ومسلَّمة عند الجمهور أو عند الخصم.

"وذهب ابن رشد والفخر الرازي وبعض فلاسفة المسلمين إلى أنَّ المراد بالحكمة: البرهان الذي يفيد يقينًا لا يحتمل النقيض، وبالموعظة الحسنة: الخطابة التي تفيد الظن الظاهر والإقناع، والمراد بقوله ﷻ: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥] استعمل معهم أحسن صناعة الجدل، فاستعمل معهم المقدمات المسلَّمة عند الجمهور، أو عند المناظر؛ لتصل إلى الحق، ولا تستعمل معهم المقدمات الباطلة، وتروجها عليهم بالسفاهة والشغب والحيل الباطلة.

قالوا: وإنما احتيج لهذه الصناعات الثلاثة: البرهان، والخطابة، والجدل؛ لأن الناس متفاوتون في العقول والأفهام، فمنهم من بلغ رتبة الحكمة، فلا يقنعه إلَّا البرهان المفيد لليقين الذي لا يحتمل النقيض، لا حالًا ولا مآلًا.

ومنهم الطرف الآخر المقابل للأول، وهم جمهور الناس، وهؤلاء لا يفيدهم إلَّا صناعة الخطابة. والبرهان مضرّ بهم، فلا يصلون إليه، وربما أفسد استعماله معهم عليهم أمرهم.

القسم الثالث: بين بين، فقد ارتفع عن طبقة العامة، ولم يصل إلى طبقة الخاصة، وهؤلاء لا يصلحهم إلا الجدل الحسن، وفي هذا دليل على أن القرآن من عند اللّه ﷻ؛

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٢٧٦).

لأنَّ هذه معارف لا يصل إليها إلَّا الحكماء الذين مارسوا الحكمة وانقطعوا لها، ومحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نشأ أميًّا، لم يمارس الحكمة، فظهور هذه الحكمة العالية على لسانه دليل على أنَّه من عند من علَّم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم"(١).

قال الشيخ محمد علي السايس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنَّ المراد بالحكمة: الطريق المحكم في الدعوة، ولا إحكام في الدعوة إلَّا إذا خوطب الناس بما يفقهون، فلا يخاطب العوام بالجدل والبرهان، ولا كل صنف من الناس إلَّا بما هو لائق به.

ومن ذلك يعلم أن القائم بالدعوة ينبغي أن يكون على حظٍّ عظيم من علم النفس وعلم الاجتماع وطبائع الأفراد والأمم؛ فإنّه ليس شيء أنجع في الدعوة من معرفة طبائع الناس وميولهم، وتغذية هذه الطبائع والميول بما يناسبها.

ومن الحمق أن يظنَّ أن الناس متساوون في القدرة والأفهام فيما إذا خوطبوا على درجة واحدة من الخطاب، وكما أن الأمراض مختلفة، وأدويتها كذلك مختلفة، وليس دواء واحد نافعًا لكل مرض ولكل مريض، كذلك أمراض النفوس، تحتاج إلى علاجات مختلفة، وتركيبات متباينة، وربَّ دواء أفاد إنسانًا وأضر بآخر، وربما أفاده في وقت، وأضر به في آخر، ومدار الأمر على معرفة الداعي أنَّ الغرض من القول: الإفهام والتأثير، فيسلك لذلك سبله، وعلى أن يكون عنده عقل مفكر، ولسان مؤثر"(٢).

وأباح الله ﷻ مناظرة أهل الكتاب بالطريقة الحسنة التي تثمر إقناعًا وتآلفًا، لا بطريقة تنتج نفورًا وتباعدًا في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦]، أي: بالخصلة التي هي أحسن، كمقابلة الخشونة باللين، والغضب بالكظم، والمشاغبة بالنصح، والسَّورة(٣) بالأناة، على وجه لا يدل على

---

(١) تفسير آيات الأحكام، محمد علي السايس (ص:٤٨٢).

(٢) المصدر السابق (ص: ٤٨٣).

(٣) يقال: "(سَار يَسُور) إذا غضب، و(السَّوْرَة) اسم منه، والجمع (سوْرَات) بالسكون للتخفيف. وقال الزبيدي: (السَّوْرَة): الحدة، و(السَّوْرَة) البطش". المصباح المنير، مادة: (سار) (١/٢٩٤).

الضعف ولا يؤدي الى إعطاء الدنية[1]. وقال الله ﷻ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران:٦٤].

وفي الحديث: ((**ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان باطلًا لم تصدقوه، وإن كان حقًّا لم تكذبوه**))[2].

رابعًا: الوقاية من آفات التَّفريط في تحرِّي الحقِّ والعلاج:

إنَّ عدم توفر الوسائل اللازمة للبحث، وعدم الإلمام بآلياته قد يكون سببًا للزيغ، واختلال النظر.

فلا بدَّ من توفر الوسائل اللازمة والمهيئة لنظر سليم، والتي تكون بإعداد العدة من الكتب والمطويات والمقالات والمجلات، ووسائل الاتصال الحديثة، والعكوف على البحث، والتجرد للحق.

ولا يكون الوصول إلى الحق بذلك فحسب، بل لا بدَّ من ملازمة المعلم الصالح، وأخذ العلم عن أهله، وتوفر وسائل المعرفة والبحث.

فإذا أراد الباحث إعداد بحث أو مقالة أو التهيأ لمناظرة أو محاضرة فعليه أن يعدَّ لذلك العدة من البحث والنظر في مادة البحث، والعلوم المساعدة، وقراءة الموضوعات ذات الصلة قراءة نقدية وتحليلية.

ولا بدَّ في سلوك طريق الهداية، من معرفة الحقِّ والعمل به، ولا يتأتى ذلك إلا بالإخلاص في البحث والطلب، وإمعان النَّظر، والحرص على المعرفة التي تسلم من

---

(١) تفسير أبي السعود (٤٢/٧)، وانظر: الكشاف (٤٦١/٣)، البحر المديد (٤٨١/٥)، السراج المنير (١٣٣/٣)، تفسير النسفي (٢٠٩/٣)، البيضاوي (٣١٨/٤)، روح المعاني (٢/٢١)، غرائب القرآن (٣٩٠/٥).

(٢) أخرجه معمر بن أبي عمرو راشد في (الجامع) [٢٠٠٥٩]، وعبد الرزاق في (مصنفه) [١٠١٦٠]، وأحمد [١٧٢٦٤]، وأبو داود [٣٦٤٤]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٢١٢١]، وابن حبان [٦٢٥٧] والطبراني في (الكبير) [٨٧٤]، والبيهقي في (السنن) [٢٢٣٧].

الآفات، ونصب الأدلة والبراهين، واقتران الدعوى بالدليل، ولا بدَّ من موعظةٍ تحرك القلب.

ولا بدَّ فيمن يتصدَّى للمناظرة أو الجدل من توفُّر الشُّروط، وانتفاء الموانع، ومراعاة أحوال المدعوين، وقد جاء ذلك مبينًا في عقبة: (المجادلة بالباطل)، وعقبة: (الافتتان بعلوم الفلسفة).

العقبة الثامنة عشرة

اشتباه الحقيقة

أولًا: بيان المراد من اشتباه الحقيقة:

المشتبهات من الأمور: المشكلات. واشتبه عليه الأمر: التبس عليه واختلط. وشُبِّه عليه الأمر تَشْبيهًا: لُبِّس عليه. و(تشابه الشيئان): أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا. وفي التنزيل: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة:٧٠]، واشتبهت الأشياء: تقاربت وتماثلت من وجه ما، واشتبه في أمره : شَكَّ فيه[١].

والمراد من (اشتباه الحقيقة): التباسها، وقد يحول اشتباهها دون الظَّفر بالحقِّ.

ولا يكاد الأئمَّة الفقهاء يخرجون في استعمالهم لكلمة: (اشتباه) عن معناها اللغوي، فهي حين ترد على ألسنتهم ويعنون بها: الالتباس والاختلاط. و(الشبهة) بالضمِّ: اسم من الاشتباه، وهو الالتباس. قال الأخفش رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما سميت الشبهة شبهة؛ لأنها تشبه الحق والباطل، ليست بحق واضح، ولا باطل لا شك فيه"[٢].

وقال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشبهة: الظن المشتبه بالعلم، ذكره أبو البقاء. وقال بعضهم الشبهة: مشابهة الحق للباطل، والباطل للحق من وجه إذا حقق النظر فيه ذهب"[٣]. وقال الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشبهة هو ما لم يتيقن كونه حرامًا أو حلالًا"[٤].

وقال أبو هلال العسكري: "الفرق بين الدلالة والشبهة في ما قال بعض المتكلمين أن النظر في الدلالة يوجب العلم، والشبهة يعتقد عندها أنها دلالة، فيختار الجهل لا لمكان الشبهة ولا للنظر فيها، والاعتقاد هو الشبهة في الحقيقة لا المنظور فيه"[٥].

ويتبينُ مما تقدَّم: أنَّ الاشتباه من العقبات التي يلتبس فيها الحق بالباطل، وقد يعتري الباحث في سلوكه طريق الهداية شُبَه من الممكن أن تكون سببًا للزَّيغ والضَّلال عن الحقِّ.

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (شبه) (٦/٢٢٣٦)، المعجم الوسيط (١/٤٧١)، الكليات (ص:٥٣٨).

(٢) الاختيارين، للأخفش الأصغر (ص:٧٣٠).

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٠١).

(٤) التعريفات (ص:١٢٤).

(٥) الفروق اللغوية (ص:٦٩).

وهو ما سنبيِّنه في خطورة الشُّبهات، وما يدخل في هذا الباب مما يلتبسُ الحقُّ فيه بالباطل.

ثانيًا: خطورة الشُّبهات:

لقد أرشدنا النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى ترك العمل بالأمور المشتبهات، وبين لنا أن الوقوع فيها يؤدي إلى الوقوع في المحرمات، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إنَّ الحلال بَيِّنٌ وإن الحرام بَيِّنٌ، وبينهما مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كثير من الناس، فمن اتقى الشُّبُهَاتِ استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشُّبُهَاتِ وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حِمَى، ألا وإن حِمَى الله محارمه**))[١]. و(المشتبهات): هي التي يرى الناظر إليها عناصر تشبه الحلال، وعناصر تشبه الحرام، وهذه العناصر مختلطة اختلاطًا يصعب معه التمييز، أو ترجيح أحد النوعين على الآخر، والمجاورة بين الحلال والحرام تجعل ظلال كل من المتجاورين تقع على الآخر، فيقع الوهم والاشتباه، واتقاء الشبهات هو الأولى والأورع دائمًا[٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وقال لي شيخ الاسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السِّفِنْجة، فيتشربها؛ فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة، تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها؛ فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أَشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقرًّا للشبهات"[٣].

"فاجتنب إثارة الشبه وإيرادَها على نفسك أو غيرك، فالشُّبَه خطَّافةٌ، والقلوب ضعيفة، وأكثر من يلقيها حمَّالةُ الحطب -المبتدعة- فتَوَقَّهم"[٤].

وإنَّ من أخطر الآفات على السالكين: مرض الشبهة الذي هو أعظم أمراض القلوب، وهو (فساد التصور والإدراك) حتى يرى الأمور على خلاف ما هي عليه، فيرى

(١) صحيح البخاري [٥٢]، صحيح مسلم [١٥٩٩].

(٢) انظر: بصائر للمسلم المعاصر (ص:١٠٧) فما بعد.

(٣) مفتاح دار السعادة (١/١٤٠).

(٤) حلية طالب العلم (ص:٢٠٠).

الحق باطلًا، والباطل حقًّا، ويرى الهدى ضلالًا، والضلال هدى، ويرى السنة بدعة، والبدعة سنة.

وإن من أعظم صفات المنافقين أنهم يتبعون الشبهات كما أخبر الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنهم في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:٧].

"وإن من أخطر العمل بالمشتبهات أن يصل المسلم إلى أن يرتكب جريمة قتل أخيه بغير حق؛ فالمؤمن الحقيقي لا يقتل مؤمنًا إلا عن طريق الخطأ؛ قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ [النساء:٩٢].

والمؤمن الحقيقي لا يقاتل إخوانه المسلمين، فإن قاتلهم بغير حق كان مشابهًا للكفار؛ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض**))[1].

ومن الأحكام الشرعية التي يحتاج إليها المسلم أنه يجوز للمسلم أن يدافع عن نفسه -وإن كان المعتدي مسلمًا- قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((**من قاتل دون ماله فقتل فهو شهيد، ومن قاتل دون دمه فهو شهيد، ومن قاتل دون أهله فهو شهيد**))[2].

ومن الأحكام الشرعية التي يحتاج إليها المسلم عندما تحدث فتنة قتال بين المسلمين -مع مشروعية قتال المعتدين- أنه يجوز للمعتدَى عليه إن كان المعتدِي مسلمًا يؤمن بالله واليوم الآخر أن يترك مقاتلة ذلك المعتدِي، وأن يقف موقف ابن آدم الأول الذي قال

---

(١) صحيح البخاري [١٢١] في غير موضع، مسلم [٦٥، ٦٦].

(٢) أخرجه النسائي في (السنن) [٤٠٩٤]، وفي (الكبرى) [٣٥٤٣]. والحديث له شواهد كثيرة. ومن الشواهد قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((من قتل دون ماله فهو شهيد)) وهو في (صحيح البخاري) [٢٤٨٠]، و(مسلم [١٤١]. وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد)). أخرجه أحمد [١٦٥٢]، وعبد بن حميد [١٠٦]، وأبو داود [٤٧٧٢]، والترمذي [١٤٢١]، وقال: "حسن صحيح"، وأخرجه أيضًا: النَّسائي [٤٠٩٥]، وأبو يعلى [٩٤٩]، والبيهقي في (الكبرى) [٥٨٥٨]، والضياء [١٠٩٢]، وقال: "إسناده حسن"..إلى غير ذلك. وينظر: فضائل الأعمال، للحافظ المقدسي (ص:٩٤-٩٥).

لأخيه: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝٢٨ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ۝٢٩﴾ [المائدة:٢٨-٢٩]، وذلك عندما يرجو أن يكون هذا الموقف يطفئُ فتنة اقتتال المسلمين فيما بينهم"(١).

وتأتي فتنةُ الشُّبهاتِ من ضعفِ البصيرة، وقلّةِ العلم، وتكونُ أكثرَ خطرًا إذا كان منشأها من اتباع الهوى، وفساد القصد كما فصَّلَ القول في ذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: "الفتنة نوعان: فتنة الشبهات. وهي أعظم الفتنتين، وفتنة الشهوات. وقد يجتمعان للعبد. وقد ينفرد بإحداهما.

أما النوع الأول، وهو فتنة الشبهات من ضعف البصيرة، وقلة العلم، ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد، وحصول الهوى.

وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق، وهي فتنة المنافقين، وفتنة أهل البدع، على حسب مراتب بدعهم.

وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد، وتارة من نقل كاذب. وتارة من غرض فاسد وهوى متبع، فهي من عمى في البصيرة وفساد في الإرادة. ولا ينجى من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتحكيمه في كل أمور الدين ظاهرة وباطنة.

أما النوع الثاني من الفتنة ففتنة الشهوات. وقد جمع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين الفتنتين في قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ﴾ [التوبة:٦٩]. أي: تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها، والخلاق هو النصيب المقدر ثم قال: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾. فهذا الخوض بالباطل، وهو الشبهات. فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان من الاستمتاع بالخلاق، والخوض بالباطل؛ لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح. فالأول: هو البدع وما والاها، والثاني: فسق العمل. فالأول: فساد من جهة الشبهات والثاني: من جهة الشهوات؛ ولهذا كان

---

(١) من أفكار وأحكام خطبة الجمعة (١٣/رمضان) الموافق (١١/٧/٢٠١٤) لشيخنا الفاضل إسماعيل المجذوب.

السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى قد فتنه هواه، وصاحب دنيا أعمته دنياه.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان:٢٠]. وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون. وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل.

فالأول: أصل فتنة الشبهة، والثاني: أصل فتنة الشهوة، ففتنة الشبهات تدفع باليقين، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر؛ ولذلك جعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]. فدلَّ على أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. وبكمال العقل والصبر تدفع فتنة الشهوة، وبكمال البصيرة واليقين تدفع فتنة الشبهة"(١).

ثالثًا: بيان ما يدخل في هذا الباب:

١ - تلبيس الحق بالباطل:

لا شكَّ أنَّ الفِطَر السويَّة تنفر من الباطل المحض، أما الباطل المشوب بشيء من الحقِّ فإنه يروج على كثيرٍ من النَّاس(٢). يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "الباطل لا يظهر لكثير من الناس أنه باطل؛ لما فيه من الشبهة، فإن الباطل المحض الذي يظهر بطلانه لكل أحد، لا يكون قولًا ومذهبًا لطائفة تذبُّ عنه، وإنما يكون باطلًا مشوبًا بحق كما قال تعالى: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧١]"(٣).

يعني: بالتحريف وإبراز الباطل في صورة الحق، فيلبسون على الضعفاء، والمراد تلبيس دينهم بما أدخلوا فيه من الأكاذيب والخرافات والتأويلات الباطلة حتى ارتفعت

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٦٥- ١٦٦).

(٢) انظر: الصوارف عن الحق، د. حمد العثمان (ص:٨٩).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٣/٣٧٤).

الثقة بجميعه. وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الطرائق المبتدعة كلها يجتمع فيها الحق والباطل"(١).

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يبعد في مجارى العادات أن يبتدع أحد بدعة من غير شبهة دليل ينقدح له، بل عامة البدع لا بد لصاحبها من متعلق دليل شرعي"(٢). وقال: "إنما نشأ عن الهوى مع شبهة دليل"(٣).

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والشبهة وارد يرد على القلب يحول بينه وبين انكشاف الحق له"(٤). وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ليس من ضلالة إلَّا عليها زينة فلا تعرض دينك إلى من يبغضه"(٥).

٢ – عدم تبين الحق:

إنَّ الله ﷻ أرسل الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ؛ لهداية خلقه، وأيدهم بالبينات، وهي كل ما تبين به الحق، فكانوا يدعون الخلق بالحجج والبراهين.

والعلماء الربانيون رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ورثة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ يبينون للناس أمر دينهم، ويدعونهم بالحجة والبيان، ولكن قد يشتبه الحق ويلتبس على كثيرين –ولا سيما في كثير من البلاد النائية أو القرى البعيدة–؛ بسبب بعدهم عن الدعاة المستبصرين والمصلحين؛ ولما يحدثه الغزو الفكري وصراع الثقافات، وتصدر كثير من الجهال منابر الدعوة، وهم يسيئون أكثر مما يصلحون، ولذلك انتشرت في مجتمعاتنا أمراض خطيرة من الغلو والتعصب والتكفير والإقصاء والقتل، وعمل الإعلام على إبراز واقع المسلمين، وهي أمراض تفتك بجسد الأمة، وتمزق وحدتها، ما لم يقم المصلحون من هذه الأمة، من أهل

(١) الاستقامة (١٧٨/٢).
(٢) الاعتصام (١٣٦/٢).
(٣) المصدر السابق (٢٨٢/٢).
(٤) مفتاح دار السعادة (١٤٠/١).
(٥) الإبانة الكبرى، لابن بطة (٤٦١/٢)، حلية الأولياء (٢٩/٧)، وانظر: الصوارف عن الحق، د. حمد العثمان (ص:٨٩-٩٣).

العلم وأصحاب البصائر والقلوب بنشر العلم والمحبة، وإرشاد الأنام إلى سبل السلام، وهدايتهم إلى الطريق الأقوم، وإلى المنهج الأحكم، والصدع بالحق، ومحاجة المغالين، الذين يجهدون في طمس معالم الحق، والتلبيس على العامة، فيرفعون رايات الظلام، ويستقطبون فئة من العوام، وهذا واقع مشاهد..فكان لزامًا على المصلحين: التبصير والتنوير والتحذير.

والرؤوس الجهال وزعماء الضلال يحملون الناس على الضلال، قال الله ﷻ: ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۞ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۞﴾ [ص:٦-٧].

وتحتاج الأمة في الفتن عندما يلتبس الحق بالباطل أن ترجع لأهل العلم الراسخ، والنظر الثاقب، وتحذر من خطيب مصقع[(١)]، وواعظ جاهل يشوّه الحقائق، ويغطي العقل بلهب العواطف. روي عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: "الفتنة إذا أقبلت عرفها كل عالم، وإذا أدبرت عرفها كل جاهل"[(٢)]. و"كان الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبصر من الفتنة إذا أقبلت كما نبصر نحن منها إذا أدبرت"[(٣)].

وقد جاء في الحديث: عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان**))[(٤)]. وعند أبي يعلى عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: ((**كنا نتحدث أن ما يهلك هذه الأمة كل منافق عليم اللسان**))[(٥)].

---

(١) يقال: (خطيب مِصْقَع) بكسر الميم، أي: بليغ ماهر بالخطبة. و(مسقع) بالسين مثل مصقع.

(٢) أخرجه ابن سعد في (الطبقات) (١٢٢/٧)، والبخاري في (التاريخ الكبير) (٣٢١/٤)، وأبو نعيم في (الحلية) (٢٤/٩).

(٣) المجالسة (٨٦/٦).

(٤) تقدم.

(٥) تقدم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فإن الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبادهم، فإذا كان العلماء فجرة، والعباد جهلة عمت المصيبة بهما، وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة"(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "والفتنة إذا وقعت عجز العقلاء فيها عن دفع السفهاء"(٢).

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: "اتقوا فتنة العابد الجاهل والعالم الفاجر؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون"(٣).

"وقد كان يقال: إن مثل الفتنة كمثل الدرهم الزيف يأخذه الأعمى ويراه البصير"(٤).

وقال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: قد رأينا والله أقوامًا يسرعون إلى الفتن، وينزعون فيها، وأمسك أقوام عن ذلك هيبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومخافة منه، فلما انكشفت إذ الذين أمسكوا أطيب نفسًا، وأثلج صدورًا، وأخف ظهورًا من الذين أسرعوا إليها، وينزعون فيها، وصارت أعمال أولئك حزازات على قلوبهم كلما ذكروها، وايم الله لو أن الناس يعرفون من الفتنة إذا أقبلت كما يعرفون منها إذا أدبرت لعقل فيها جيل من الناس كثير، والله ما بعثت فتنة قط إلا في شبهة وريبة، إذا شبت رأيت صاحب الدنيا لها يفرح ولها يحزن ولها يرضى ولها يسخط، ووالله لئن تشبث بالدنيا وحدب عليها ليوشك أن تلفظه وتقضى منه"(٥).

وقد بيَّن الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّ من أسباب الغواية: عدم تبين الحق، وهو ما سنبينه في اختلاف أحوال الناس من حيث التبين وعدمه.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٦٠).

(٢) منهاج السنة (٣/٣٤٣).

(٣) شعب الإيمان [١٧٥٢]، أخلاق العلماء (ص:٨٧)، الزهد والرقائق، لابن المبارك (١٨/٢)، المعجم، لابن المقرئ [٥٥]، أخبار الشيوخ وأخلاقهم (ص:١٨٦)، صفحات مشرقة من حياة السلف (ص:١١٤)، موسوعة أقوال الإمام أحمد بن حنبل [٤٢٤٢].

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٩/٣٠٣٣)، الدر المنثور، للسيوطي (٦/٤٥٠).

(٥) حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني (٢/٣٣٦).

٣ – أحوال الناس من حيث التبين وعدمه:

تختلف أحوال الناس من حيث التبين وعدمه على النحو التالي:

أ. من تبين له الحق فاهتدى إلى الطريق الأقوم:

إن الله ﷻ قد أوضح للمكلف طريق النجاة؛ ليسلكه، كما بيَّن له طريق الغواية؛ ليحترز عنه. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]، فإذا سلك طريق الهداية نجا، وإن سلك طريق الغواية هلك.

ب. من تبين له طريق الهداية ومع ذلك اختار الضلال:

دلت الآيات الكريمة على أن العذاب واقع على من تبين له الحق ولكنه أعرض عن الاتباع، واتبع هواه.

يقول الله ﷻ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة:٢١١]، ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥]، ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:١٥٧]، ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود:١٧].

فلا يعذر من جادل في الحق بعد التبين. يقول الله ﷻ: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال:٦].

ومن طرق التبين: الاعتبار. يقول الله ﷻ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [فصلت:٣٨]، فمن أعرض بعد الاستبصار فقد حقَّ عليه العذاب. يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:٣٢].

ومن الآيات الدالة على أهمية التبين –وأن من يهلكه الله ﷻ إنما يهلكه بعد وضوح الحق وإعراضه عنه– قولُه ﷻ: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٤٢].

ج. من لم يتبين له الحق:

وهو صنفان: **أحدهما**: من لم يبلغه الحق. **والثاني**: من بلغه بصورة مغلوطة أو مشوهة.

وقد دلَّت الآيات السَّابقة على أنَّ حال من لم يتبين له الحق ليست كحال من تبين له.

٤ – تشابه الحقائق في صفاتها ولو تباعدت:

إنَّ الإنسان قد تتقاذفه الآراء، وتتناوبه النوائب، وتختلط عليه الحقائق، فربما يتوهم أنه بلغ المقصود حتى إذا انتبه وجد نفسه في غير مراده.

وقد وصف الله ﷻ أعمال الكافرين بأنها كسراب بقيعة، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور:٣٩].

والسراب هو ما يرى في الفلوات من ضوء الشمس في الهجيرة حتى يظهر كأنه ماء يجري على وجه الأرض، فيظن العطشان أن السراب ماء، فيأتيه ليشربه، فإذا جاء خاب

ما أمل، وبطل ما ظن، وكذلك الكافر يظن أن أعماله تنفعه، فإذا كان يوم القيامة لم تنفعه، فهي كالسراب.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للكافرين مثلين مثلًا بالسراب، ومثلًا بالظلمات المتراكمة؛ وذلك لأن المعرضين عن الهدى والحق نوعان، أحدهما: من يظن أنه على شيء فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه، وهذه حال أهل الجهل وأهل البدع والأهواء الذين يظنون أنهم على هدى وعلم، فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء، وأن عقائدهم وأعمالهم التي ترتبت عليها كانت كسراب بقيعة يرى في عين الناظر ماء، ولا حقيقة له.

وهكذا الأعمال التي لغير الله ﷻ وعلى غير أمره يحسبها العامل نافعة له، وليست كذلك، وهذه هي الأعمال التي قال الله ﷻ فيها: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

وتأمل جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ السراب بالقيعة، وهي الأرض القفر الخالية من البناء والشجر والنبات والعالم، فمحل السراب: أرض قفر لا شيء بها، والسراب لا حقيقة له، وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدى. وتأمل ما تحت قوله: ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ﴾، والظمآن الذي قد اشتد عطشه فرأى السراب فظنه ماء فتبعه فلم يجده شيئًا"(١).

وعندما رأى قوم هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ منظر سحاب مقبلة على بلادهم، وكان هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد أنذرهم بالهلاك فلم يستجيبوا لدعوته، فلما رأوا السحب المقبلة قالوا: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف:٢٤]؛ لأنه كان مشابهًا في الصورة للعارض الممطر، لكنه كان عذابًا مهلكًا(٢).

---

(١) إعلام الموقعين (١/١٥٥)، وانظر: اجتماع الجيوش (ص:١٤)، الأمثال في القرآن الكريم (ص:١٥).

(٢) بصائر للمسلم المعاصر (ص:١٠٩- ١١٠).

٥ – انحراف النظر عن حدود الحقيقة:

كمن يبدأ من أول الطريق بداية صحيحة ضمن المسار الصحيح، ثم ينحرف فكره نتيجة لعوامل مختلفة. وكم يقع مفسروا النصوص في أخطاء فاحشة نتيجة انحراف نظرهم عن فهم المراد من النص؟![1].

رابعًا: سبل الوقاية من الشبهات والعلاج:

أما سبل الوقاية من هذا المرض فقد بينها الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: "وإذا عرف هذا، فالقلب محتاج إلى ما يحفظ عليه قوته، وهو الإيمان، وأوراد الطاعات، وإلى حمية عن المؤذى الضَّار، وذلك باجتناب الآثام والمعاصي، وأنواع المخالفات، وإلى استفراغه من كل مادة فاسدة تعرض له، وذلك بالتوبة النصوح، واستغفار غافر الخطيئات. ومرضه هو نوع فساد يحصل له، يفسد به تصوره للحق وإرادته له، فلا يرى الحق حقًّا، أو يراه على خلاف ما هو عليه، أو ينقص إدراكه له، وتفسد به إرادته له، فيبغض الحق النافع، أو يحب الباطل الضار، أو يجتمعان له، وهو الغالب؛ ولهذا يفسر المرض الذى يعرض له، تارة بالشك والريب، كما قال مجاهد وقتادة فى قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة:١٠]. أي: شك. وتارة بشهوة الزنا، كما فسر به قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِى فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢]. فالأول: مرض الشبهة، والثاني: مرض الشهوة. والصحة تحفظ بالمثل والشبه، والمرض يدفع بالضد والخلاف، وهو يقوى بمثل سببه، ويزول بضده، والصحة تحفظ بمثل سببها وتضعف أو تزول بضده.

ولما كان البدن المريض يؤذيه ما لا يؤذى الصحيح: من يسير الحَر، والبرد، والحركة، ونحو ذلك، فكذلك القلب إذا كان فيه مرض آذاه أدنى شيء من الشبهة أو الشهوة، حيث لا يقدر على دفعهما إذا وردا عليه، والقلب الصحيح القوى يطرقه أضعاف ذلك، وهو يدفعه بقوته وصحته.

---

(١) انظر: المصدر السابق (ص:..١).

وبالجملة فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه، وضعفت قوته، وترامى إلى التلف، ما لم يتدارك ذلك بأن يحصل له ما يقوى قوته ويزيل مرضه"(١).

وقال ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرح الطحاوية): "اعلم أن القلب له حياة وموت، ومرض وشفاء، وذلك أعظم مما للبدن. قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، أي: كان ميتًا بالكفر فأحييناه بالإيمان. فالقلب الصحيح الحي إذا عرض عليه الباطل والقبائح نفر منه بطبعه وأبغضها ولم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح. وكذلك القلب المريض بالشهوة؛ فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك، بحسب قوة المرض وضعفه.

ومرض القلب نوعان، كما تقدم: مرض شهوة، ومرض شبهة، وأردؤها: مرض الشبهة، وأردأ الشبه: ما كان من أمر القدر. وقد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يشعر به صاحبه؛ لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح، ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة. فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته، و(ما لجرح بميت إيلام...)(٢).

وقد يشعر بمرضه، ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها، فيؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء، فإن دواءه في مخالفة الهوى، وذلك أصعب في النفس، وليس له أنفع منه، وتارة يوطن نفسه على الصبر، ثم ينفسخ عزمه ولا يستمر معه، لضعف علمه وبصيرته وصبره، كمن دخل في طريق مخوف مفض إلى غاية الأمن، وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمن، فهو محتاج إلى قوة صبر وقوة يقين بما يصير إليه، ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق ولم يتحمل مشقتها، ولا سيما إن عدم الرفيق واستوحش من الوحدة وجعل يقول: أين ذهب الناس فلي أسوة بهم! وهذه حال أكثر

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/١٨).

(٢) ديوان المتنبي (ص:١٦٤)، وتمامه: (من يَهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليه***ما لجرحٍ بميِّتٍ إيلامُ). يقول: إذا كان الإنسان هينًا في نفسه سهل عليه احتمال الهوان كالميت الذي لا يتألم بالجراحة.

الخلق، وهي التي أهلكتهم. فالصابر الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فقده، إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول، ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]"(١).

وهاك إجمال سبل الوقاية من الاشتباه والالتباس:

١ - البعد عن أئمَّة الضَّلال وأصحاب البدع والأهواء ومناهجهم، والإعراض عن الجاهلين:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨]. "ولفظ الخوض في اللغة عبارة عن المفاوضة على وجه العبث واللعب، قال تعالى حكاية عن الكفار: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ [المدثر:٤٥]، وإذا سئل الرجل عن قوم فقال: تركتهم يخوضون أفاد ذلك أنهم شرعوا في كلمات لا ينبغي ذكرها"(٢). قال القشيري رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا توافقهم في الحالة، ولا ترد عليهم ببسط القالة. ذرهم ووحشتهم بحسن الإعراض عنهم، والبعد عن الإصغاء إلى تهاويشهم بحسن الانقباض"(٣). قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

وقد حذَّرنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من فتن الشبهات، وفتن الشهوات، وبيَّن لنا أن الفتن التي تتعلق بالشُّبهات خطرها أعظم، ومن فتن الشبهات: فتن أئمة الضلال، كالدجال الذي يفتن الناس بما يجري على يديه من الآيات، كإنزال المطر وإحياء الأرض، وبما يظهر على يديه من عجائب وخوارق للعادات. ففي الحديث: ((**يأتي الدَّجَّال، وهو مُحَرَّمٌ عليه أن يدخل نِقَابَ المدينة، بعض السِّبَاخ التي بالمدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس، أو من خير الناس، فيقول أشهد أنك الدَّجَّال، الذي حدثنا عنك رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **حَدِيثَه، فيقول الدَّجَّال: أرأيت إن قتلت هذا،**

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١/٢٥١- ٢٥٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٣/٢٢)، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٣/٩٧)، تفسير ابن عادل (٨/٢٠٧).

(٣) لطائف الإشارات (١/٤٨١).

ثم أحييته هل تَشُكُّون في الأمر؟ فيقولون: لا، فيقتله ثم يحييه، فيقول حين يحييه: والله ما كنت قطُّ أَشَدَّ بصيرة مني اليوم، فيقول الدَّجَّال: أَقْتُلُهُ فَلا أُسَلَّطُ عليه))[(١)].

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: **((إنَّ مع الدَّجَّال إذا خَرَجَ ماءً ونارًا، فأمَّا الذي يَرَى النَّاس أنَّها النَّار فماء باردٌ، وأمَّا الذي يَرَى النَّاس أنَّه ماءٌ باردٌ فنارٌ تُحْرِق، فمن أَدْرَكَ منكم فَلْيَقَعْ في الذي يَرَى أنَّها نارٌ؛ فَإِنَّهُ عَذْبٌ باردٌ))**[(٢)].

٢ – سلامة وسائل التعليم، والبناء على أساس سليم.

٣ – قوة الإيمان، والاستقامة على شرعة الإسلام.

٤ – البيئة الصالحة: فمن أسباب الوقاية من آفات الشبهات: تنبه المربين إلى سلامة البيئة: (الأسرة، الحي، المدرسة، المسجد، المعَلِّم، الصديق).

٥ – ملازمة العلماء الراسخين الصالحين.

٦ – اجتناب الذنوب والمعاصي وسائر المخالفات والشبهات.

٧ – التبين والتبصر لكل أمر مشتبه وملتبس.

٨ – عدم الخوض في مسائل الفلسفة والجدل والمناظرات مع المخالفين من غير متأهل، وقد ذكرت شروط من يتصدَّى لعلوم الفلسفة في عقبة: (الافتتان بعلوم الفلسفة).

---

(١) صحيح البخاري [١٨٨٢، ٧١٣٢]، مسلم [٢٩٣٨].

(٢) صحيح البخاري [٣٤٥٠، ٧١٣٠]، مسلم [٢٩٣٤، ٢٩٣٥].

العقبة التاسعة عشرة

كثرة أهل الباطل

أولًا: المراد من كثرة أهل الباطل:

قال ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ: "(بَطَلَ) الباء والطَّاء واللَّام أصل واحد، وهو ذهاب الشَّيء، وَقِلَّةُ مُكْثِه وَلُبْثِه. يقال: بَطَلَ الشَّيءُ يَبْطُلُ بُطُولاً وبُطْلًا وبُطْلانًا: ذَهَبَ ضَيَاعًا وخُسْرًا"[(١)]. والباطل: ضِدُّ الحَقِّ[(٢)].

والباطل: الزَّائل الذَّاهِب[(٣)]. ومنه قول لَبِيد:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِـلُ ... وكلُّ نعيـمٍ لا مَحالةَ زائِلُ[(٤)]

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الباطل: ما لَا صحة له. وضده: الحق. ويقال: بطل الشَّيء: إذا تلف، وبطل البناء: انتقض"[(٥)].

ويأتي الباطلُ في الاصطلاح في مقابل الصَّحيح عند الجمهور، وهو من حيث وصفه بالبطلان: ما لا يتعلق به النفوذ ولا يعتد به، بأن لم يستجمع ما يعتبر فيه شرعًا، عقدًا كان أو عبادة، والعقد يتصف بالنفوذ والاعتداد. والعبادة تتصف بالاعتداد فقط اصطلاحًا[(٦)].

و"هل الفاسد والباطل مترادفان؟ اختلف في ذلك على مذهبين:

المذهب الأول: أنهما مترادفان. ذهب إلى ذلك الجمهور. وهو الصحيح؛ لأن الباطل لغة بمعنى الفاسد والساقط، يقال: بطل الشيء: إذا فسد وسقط حكمه، فإذا لم يفرق بينهما لغة، فوجب عدم التفريق بينهما في الشرع؛ حملًا للمقتضيات الشرعية على مقتضياتها اللغوية؛ لأن الأصل عدم التغيير"[(٧)]. والحاصل أن جمهور الأصوليين لم يفرقوا

---

(١) انظر: مجمل اللغة، لابن فارس (١/١٢٨)، مقاييس اللغة، مادة: (بطل) (١/٢٥٨)، المحكم والمحيط الأعظم (٩/١٧٧)، مختار الصحاح (ص:٣٦).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (بطل) (٤/١٦٣٥).

(٣) انظر: مفاتيح الغيب (٥/٢٨٠)، تفسير القرطبي (٤/٣١٥)، البحر المحيط في التفسير (٣/٤٧١)، تفسير أبي السعود (٨/٩٢)، فتح القدير، للشوكاني (١/٤٧١)، روح المعاني (١١/٢٣).

(٤) ديوان لبيد بن ربيعة العامري (ص:٨٥).

(٥) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي (ص:١٩٦).

(٦) شرح الورقات في أصول الفقه، جلال الدين المحلي (ص:٩٤)، وانظر: الأنجم الزاهرات (ص:٩٥).

(٧) المهذب في علم أصول الفقه المقارن، عبد الكريم النملة (١/١٥١).

بين الباطل والفاسد سواء كان ذلك في العبادات أو في المعاملات، وأما الحنفية ففرقوا بينهما في المعاملات، فالباطل ما لم يشرع بأصله ووصفه، والفاسد ما شرع بأصله دون وصفه، وأما في العبادات فوافق الحنفية الجمهور في عدم التفريق بين الباطل والفاسد. والمسألة مبسوطة في مظانها.

والباطل يأتي في القرآن الكريم على أوجه ذكر ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ منها: الكذب، والإحباط، والظلم، والشرك، وقد يراد من الباطل: الشيطان[1].

ويأتي الباطل في مقابل الحق كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٤٢]، وقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧١].

وفي الآيات ما يدل على الباطل لا ثبات له ولا دوام، وأن الحق لا بدَّ أن يعلو وينتصر كما في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد:١٧]، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١]، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء:١٨].

وإذا بَطَلَ الشيء ثَبَتَ ضِدّه. "وزَهَقَ الباطل: إذا غَلَبَهُ الحقُّ؛ وقد أَزْهَقَ الحقُّ الباطِلَ. وقال أهل التَّفسير في قوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾، أي: بَطُلَ واضْمَحلّ"[2].

ويطلق الباطل على كل معبود من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما في قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج:٦٢]، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ [لقمان:٣٠].

ويطلق الباطل على العمل غير المشروع كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٨]. فما لا يحلُّ في الشرع فهو باطل. وقد يراد من الباطل:

---

(١) انظر: نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي (ص: ١٩٦- ١٩٧).

(٢) تهذيب اللغة (٥/٢٥٥).

صاحب الباطل، كما قيل في تفسير قوله ﷻ: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:٤٩]: الباطل هنا: إبليس، أراد: ذو الباطل، أي: صاحب الباطل، وهو إبليس(١).

وعن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال في تفسير قوله ﷻ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ [الأنبياء:١٨]: "الحق: القرآن، والباطل الشيطان. وكذلك كل ما في القرآن من الباطل فهو الشيطان عنده. وتقديره في العربية: ذو الباطل"(٢).

والذين اختلفوا في الحق، والباطل، سوف يكون القضاء بينهم يوم القيامة بين يدي الله ﷻ، فيجزي صاحب الحق بعمله، ويجزي صاحب الباطل بعمله. قال الله ﷻ: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر:٧٨]. قال الوحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المبطلون المكذبون بالعذاب والمفترون، والمبطل: صاحب الباطل"(٣).

والباطل له أهله الذين ينصرونه، و(كثرة أهل الباطل) تعني أنهم ليسوا قليلين؛ لأن الكَثْرَة ضِدُّ الْقِلَّة، فلا ينبغي الاغترار بكثرتهم.

ولأهل الباطل صفات بها يتميزون ويعرفون، كما أن لأهل الحق كذلك من الصفات ما يتميزون بها ويعرفون.

والإخلاص في طلب العلم على أسس سليمة يكشف زيف المبطلين، ويقي السالك من آفاتهم -كما سيأتي-.

ثانيًا: خطورة الاغترار بكثرة أهل الباطل:

إن من أسباب الضَّلال: موافقة ما عليه العامة من غير نظر ولا تبصر.

---

(١) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، مادة: (بطل) (١٧٨/٩)، لسان العرب (٥٦/١١)، الكشاف، للزمخشري (٥٩٢/٣)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٢٥٨/٤)، البحر المحيط في التفسير (٥٦٤/٨)، إعراب القرآن، لأبي جعفر النحاس (٢٤٢/٣).

(٢) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، لمكي (٤٧٤٠/٧)، تفسير القرطبي (٢٧٧/١١)، روح المعاني (٢٠/٩).

(٣) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن الواحدي (٢٢/٤).

قال بعض أهل العلم: اتبع طرق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة، ولا تغتر بكثرة الهالكين(١).

وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود كما بدأ غريبًا، فطوبى للغرباء))**(٢).

قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "أي: أنه كان في أول أمره كالغريب الوحيد الذي لا أهل له عنده(٣)؛ لقلة المسلمين يومئذ، وسيعود غريبًا كما كان، أي: يقل المسلمون في آخر الزمان فيصيرون كالغرباء". وقال: "وإنما خصهم بها؛ لصبرهم على أذى الكفار أوَّلًا وآخرًا، ولزومهم دين الإسلام"(٤).

قال العلامة السندي رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((وسيعود غريبًا))** "بقلة من يقوم به، ويعين عليه -وإن كان أهله كثيرًا-. **((للغرباء))** القائمين بأمره"(٥).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر))**(٦).

---

(١) هذا القول عزاه الإمام النووي وغيره إلى الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ. انظر: الأذكار، للإمام النووي (ص:١٦٠)، (ص:٢٦٨)، المجموع شرح المهذب، للإمام النووي (٨/٢٧٥)، التبيان في آداب حملة القرآن، للإمام النووي (ص:١١٦)، الاعتصام، للإمام الشاطبي (ص:١١٢)، إعانة الطالبين، لأبي بكر بن محمد شطا الدمياطي (٤/٢١٨)، الحوادث والبدع، لأبي شامة (ص:٢٢).

(٢) صحيح مسلم [١٤٥].

(٣) أصل الغريب: البعيد من الوطن.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (غرب) (٣/٣٤٨).

(٥) انظر: حاشية الإمام السندي على سنن ابن ماجه (٢/٤٧٨).

(٦) أخرجه الترمذي [٢٢٦٠]، وقال: "غريب"، وابن بطة في (الإبانة) [٣١]، وابن عساكر في (معجم الشيوخ) [٧١٠]. وفي رواية عن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((فإن من ورائكم أيام الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عمله)). رواه ابن ماجه [٤٠١٤]، وأبو داود [٤٣٤١]، وزاد: قيل يا رسول الله: أجر خمسين رجلًا منا أو منهم، قال: ((بل أجر خمسين منكم)). كما أخرجه الترمذي [٣٠٥٨]، وقال: "حديث حسن غريب"، والحاكم [٧٩١٢]، وصححه، ووافقه الذهبي.

قال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا زمان الصبر من لك بالتي ... كقبض على جمر فتنجو من البلا

ولو أن عينًا ساعدت لتوكفت ... سحائبها بالدمع ديمًا وهطلا

ولكنها عن قسوة القلب قحطها ... فيا ضيعة الأعمار تمشى سبهللا(١)

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن صفات هؤلاء الغرباء الذين غبطهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: التمسك بالسنة إذا رغب عنها الناس، وترك ما أحدثوه وإن كان هو المعروف عندهم، وتجريد التوحيد وإن أنكر ذلك أكثر الناس، وترك الانتساب إلى أحد غير الله ﷻ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا شيخ، ولا طريقة، ولا مذهب، ولا طائفة، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله ﷻ بالعبودية له وحده، وإلى رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالاتباع لما جاء به وحده، وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقًّا، وأكثر الناس، بل كلهم لائم لهم. فلغربتهم بين هذا الخلق: يعدونهم أهل شذوذ وبدعة، ومفارقة للسواد الأعظم"(٢).

قال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الاعتصام): "وهذه سنة الله في الخلق؛ أن أهل الحق في جنب أهل الباطل قليل؛ لقوله ﷻ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، ولينجز الله ﷻ ما وعد به نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عود وصف الغربة إليه؛ فإن الغربة لا تكون إلَّا مع فقد الأهل أو قلتهم، وذلك حين يصير المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، وتصير السنة بدعة، والبدعة سنة، فيقام على أهل السنة بالتثريب والتعنيف، كما كان أولًا يقام على أهل البدعة؛ طمعًا من المبتدع أن تجتمع كلمة الضلال، ويأبى الله ﷻ أن تجتمع حتى تقوم الساعة، فلا تجتمع الفرق كلها على كثرتها على مخالفة السنة عادة وسمعًا، بل لا بد أن تثبت جماعة أهل السنة حتى يأتي أمر الله، غير أنهم لكثرة ما تناوشهم الفرق الضالة وتناصبهم العداوة والبغضاء؛ استدعاء إلى موافقتهم، لا يزالون في جهاد ونزاع، ومدافعة

---

(١) متن الشاطبية (حرز الأماني ووجه التهاني) (ص:٧)، [٨١-٨٣].

(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٨٧-١٨٨).

وقراع، آناء الليل والنهار، وبذلك يضاعف الله ﷻ لهم الأجر الجزيل، ويثيبهم الثواب العظيم"(١).

وقد وصف الله ﷻ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه أمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠]؛ لئلا يستوحش سالك الطريق من قلَّة السالكين، ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ لا للملوك ولا للتجار المترفين، ﴿حَنِيفًا﴾ لا يميل يمينًا ولا شمالًا؛ كفعل العلماء المفتونين، خلافًا لمن كثر سوادهم، وزعم أنه من المسلمين. ويقول الله ﷻ: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة:١٠٠].

قال عبد الرحمن بن إسماعيل -المعروف بأبي شامة- رَحِمَهُ اللَّهُ: "حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحقِّ واتِّباعه، وإن كان المتمسك به قليلًا، والمخالف له كثيرًا؛ لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم"(٢).

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "فالبصير الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق، ولا من فقده إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول، الذين أنعم الله ﷻ عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، فتفرد العبد في طريق طلبه دليل على صدق طلبه.

ولقد سُئِلَ إسحاق بن راهويه رَحِمَهُ اللَّهُ عن مسألة فأجاب عنها، فقيل له: إن أخاك أحمد بن حنبل يقول فيها بمثل ذلك. فقال: ما ظننت أن أحدًا يوافقني عليها، ولم يستوحش بعد ظهور الصواب له من عدم الموافقة؛ فإن الحق إذا لاح وتبين لم يحتج إلى شاهد يشهد به، والقلب يبصر الحق كما تبصر العين الشمس. فإذا رأى الرائي الشمس لم يحتج في علمه بها واعتقاده أنها طالعة إلى من يشهد بذلك، ويوافقه عليه"(٣).

والمسلم صاحب دعوة وحق، وهو على بصيرة ونور، فلا يغره كثرة الهالكين، ولا قلة السالكين؛ إذ هو يسير بنور الله ﷻ وهدايته.

(١) الاعتصام (ص:٣٠).

(٢) الحوادث والبدع، لأبي شامة (ص:١٩)، وانظر: شرح العقيدة الطحاوية (٢/٣٦٢).

(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/٦٩).

وقد بين الحقُّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنَّ من أسباب الضَّلال موافقة ما عليه العامَّة من غير نظر ولا تبصر، يقول الله ﷻ: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١١٦]. فدلَّت الآية على أنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك؛ فإن أهل الحق هم الأقلون عددًا، الأعظمون -عند الله- قدرًا وأجرًا، بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل، بالطرق الموصلة إليه(١).

"والآية لم تقتض أن أكثر أهل الأرض مضلون؛ لأن معظم أهل الأرض غير متصدين لإضلال الناس، بل هم في ضلالهم قانعون بأنفسهم، مقبلون على شأنهم، وإنما اقتضت أن أكثرهم -إن قبل المسلم قولهم- لم يقولوا له إلا ما هو تضليل؛ لأنهم لا يلقون عليه إلا ضلالهم. فالآية تقتضي أن أكثر أهل الأرض ضالون بطريق الالتزام؛ لأن المهتدي لا يضل متبعه، وكل إناء يرشح بما فيه"(٢).

كما أن العدد القليل من أهل العزائم يفعل ما لا يفعل الكثير من ذوي المآثم، فمن ذلك: الشكر الذي يقربهم من الله تعالى، قال الله ﷻ: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر، وأنه من أجلِّ المقامات وأعلاها جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه فقال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس:٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ:٢٠].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ص:٢٧٠)، وانظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم (١/١٤٧-١٤٨).

(٢) التحرير والتنوير (٨/٢٥).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فالمؤمنون قليل في الناس، والعلماء قليل في المؤمنين، وهؤلاء قليل في العلماء[1]. وإياك ان تغتر بما يغتر به الجاهلون؛ فإنهم يقولون: لو كان هؤلاء على حق لم يكونوا أقلَّ الناس عددًا، والنَّاس على خلافهم. فاعلم أن هؤلاء هم الناس، ومن خالفهم فمشبهون بالناس، وليسوا بناس، فما الناس إلَّا أهل الحق -وإن كانوا أقلهم عددًا-. وقد ذمَّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الأكثرين في غير موضع كقوله ﷻ: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦]، وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، وقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ [ص:٢٤]"[2].

وفي الحديث: ((**ما أنتم في الناس إلَّا كالشَّعَرَةِ السَّوْدَاء في جِلْد ثَوْرٍ أَبْيَض، أو كَشَعَرَة بَيْضَاءَ في جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَد**))[3]. وعن ثوبان رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ((**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**))[4].

---

(١) يعني: الغرباء الذين يقومون بأمر الدين ولا يميلون يمينًا ولا شمالًا؛ كفعل العلماء المفتونين، فلا ينافقون ولا يداهنون، ﴿يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩].

(٢) مفتاح دار السعادة (١/١٤٧-١٤٨) بتصرف.

(٣) صحيح البخاري [٣٣٤٨].

(٤) صحيح مسلم [١٩٢٠]، ونحوه في (صحيح البخاري) [٧٣١١]، باب قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق)) يقاتلون وهم أهل العلم: عن المغيرة بن شعبة، عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، قال: ((لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين، حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون))، وفي (مسلم) [١٠٣٧] عن معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقول: ((لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس)).

ثالثًا: سبل الوقاية من آفة الاغترار بكثرة أهل الباطل والعلاج:

فمن أراد النَّجاة وسلوك طريق السَّعادة -ولا سيما عند تلاطم الفتن- فعليه أن يلزم الصِّراط المستقيم، والمنهج القويم، وطريق الحق وإن صعب وشق، وغمض ودق، ولا يغتر بقلَّة السَّالكين؛ فإنَّ الحقَّ لا يوزن بالرِّجال، وإنما يوزن الرِّجال بالحقِّ.

ومن أسباب الوقاية كذلك من آفة الاغترار بكثرة أهل الباطل: ما قيل في (أسباب الوقاية من خطر الإعراض والعلاج)، ويقال كذلك في سبل الوقاية من آفة الاغترار بكثرة أهل الباطل ما قيل في (سبل الوقاية من الاشتباه والالتباس والعلاج).

العقبة العشرون

التقديس

(اعتقاد العصمة في غير المعصوم)

أولًا: المراد من ظاهرة التَّقديس:

التَّقْدِيسُ لغة: التطهير. و(تَقَدَّسَ) تَطَهَّر. والأرض (الْمُقَدَّسَة) الْمُطَهَّرَة[1]. والْقُدُّوس: المبرأ عن المعايب. ومن أسمائه سبحانه: الْقُدُّوس، أي: المعظم المنزَّه عن صفات النَّقص كلِّها، فهو المتنزِّه عن جميع العيوب، عن أن يماثله أحدٌ فيما يختصُّ به. قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤]. وعلى ذلك فلا تعني كلمة: (التَّقديس) عند هؤلاء ما يكون من معوِّقات الهداية أو ما يعيق عن حرية النَّظر، فليس المراد هنا ما يختصُّ به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكن المراد استعمال هذا الوصف في حقِّ الآدميين.

قال العسكري: "والحاصل أنَّ التَّقديس لا يختصُّ به سبحانه، بل يستعمل في حقِّ الآدميين. يقال: فلانٌ رجلٌ مُقدَّس: إذا أريد تبعيده عن مسقطاتِ العدالة، ووصفه بالخير، ويستعمل في غير ذوي العقول أيضًا، فيقال: قدَّس اللهُ روحَ فلان. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة:٢١]، يعني: أرض الشَّام"[2]. قال الطَّبري رَحِمَهُ اللَّهُ: وعنى بقوله: ﴿الْمُقَدَّسَةَ﴾: المطهرة المباركة"[3].

وفي (تفسير السعدي): ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ [البقرة:١٠٢]، وهو جبريل الرَّسول المقدَّس المنزَّه عن كلِّ عيبٍ وخيانة وآفة"[4].

فالتَّقديس: هو تنزيهكَ من تقدِّسَه عن النَّقائص، ومن يتَّصفُ بذلك يسمى: مُقدَّسًا أو قُدُّوسًا.

وما يعنينا هنا: إطلاقُ هذا الوصف في غير محلِّه بحيث يكونُ له أثرٌ يعطِّل الفِكرَ أو يعيقُ النَّظر. فالتَّقديسُ المرادُ هنا من المعوِّقات التي تحولُ دونَ الوصول إلى الحقِّ إذا هيمنَ على النَّفس قبل النَّظر، وهو أمر يفضي إلى التَّقليد الأعمى المذموم كما تقدم في عقبة: (التقليد الأعمى).

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (قدس) (٣/ ٩٦٠).

(٢) معجم الفروق اللغوية (ص: ١٢٤- ١٢٥)، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي.

(٣) تفسير الطبري (١٠/ ١٦٨).

(٤) تفسير السعدي (ص:٤٤٩).

والباحث لا يقدِّس الحقَّ إلَّا بعد مرحلةٍ من النَّقد والمعارضة والبحث، والإخضاع للميزان العلمي، واختبار الاحتمالات المختلفة؛ لأن العقل البشري لا يخلو إمَّا أن يقدِّس الحقَّ أو يقدِّس الباطل، ولا يمكن أن يرتفع النقيضان كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس:٣٢]، يعني: أنه لا فراغ، ولا يمكن أن يرتفع النقيضان.

وقد يكون التَّقديس لشيخٍ أو عالمٍ فاضلٍ فيقلَّدُ في صوابِه وخطئِه مع أن الشَّارع يقرِّر أنَّ كلَّ إنسانٍ يؤخذُ من قوله ويرد، وأنَّه لا عصمة لأحد إلَّا لمن عصمه الله عَزَّ وَجَلَّ، وهو النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذلك فإنَّ تعامل الباحث مع العلماء وأهلِ الفضل ينبغي أن يكون بمسلكٍ صحيح، وبمنهجٍ دقيقٍ من النَّظر والبحث والنَّقد، فينبغي أن نفرِّق بين التَّقدير والتَّقديس، وأن نتعاملَ مع أهل العلم والفضل بالتقدير، مع إنزال كل منهم منزلته؛ لأنهم درجات دون تقديس، ودون تبخيس، فالتقدير يجعلك تقدِّر ذلك العالم؛ لعلمه، وذلك الفاضل؛ لفضله، وتنزله منزلته، فلا تقع في التبخيس، وإذا تكلم بخلاف الحق ترد قوله مع معرفتك لقدره.

والفتنةُ والابتلاء تجعل الكثيرين على المحك، فتسقط الفتنةُ الأقنعة، وتبرز ما كان خفيًّا..فكم أسقطت المحن أقوامًا، ورفعت آخرين؟! كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة:٤٩].

ثانيًا: مظاهر التقديس المذموم:

١ - تقديس الأشخاص:

ومن ذلك تقديس الحكام والعلماء والعُبَّاد، كتقديس اليهود والنصارى للأحبار والرهبان. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة:٣١]، "أي: أطاعوهم كما يطاع الرَّب -وإن كانوا لم يعبدوهم-"(١).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضَّلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنما يأمرون

---

(١) تفسير ابن جزي (١/ ٣٣٦).

بما أمر الله به وبلغتهم إياه رسله الكرام. إنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه وبلغتهم إياه رسله الكرام. فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتم قيام، ونصحوا الخلق، وبلغوهم الحق"(١).

وقال القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كما لا تجوز مجاوزة الحدِّ في وضع القدر لا تجوز مجاوزة الحدِّ في رفع القدر"(٢).

وقد بين الله ﷻ أن من آفات هذه الظَّاهرة: تطاول أمثال هؤلاء على أكلِ أموال النَّاس بالباطل، وصدِّهم عن الهداية، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

ومن آفات هذه الظاهرة: الغلو ومجاوزة الحدِّ في الوصف والمدح. قال الله ﷻ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وقد نهى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإطراء الذي يؤول إلى وصف منهيٍّ، فنهانا عن إطرائه في المدح، وهو المبالغة والغلو بوصفه بما لا يجوز كما غلت النصارى في عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فادَّعت فيه الألوهية، ونسبت إليه ما لا يكون إلا لله ﷻ.

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا تطروني، كما أطرت النَّصارى ابن مريم؛ فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله، ورسوله**))(٣). قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقوله: ((**لا تطروني**)) عرفهم ما خشي عليهم جهله، والغلو فيه كما صنعت النصارى في قولهم لعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: إنه ابن الله ﷻ"(٤).

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٦).
(٢) لطائف الإشارات (٢/٢٢).
(٣) صحيح البخاري [٣٤٤٥].
(٤) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٨/٤٦٠).

و"معنى الحديث: أنَّ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حرصًا منه على توحيد الله تعالى، وخوفًا على أمته من الشِّرك الذي وقعت فيه الأمم السابقة، حذَّرها عن الغلو فيه، ومجاوزة الحدِّ في مدحه بنسبة أوصاف الله ﷻ وأفعاله الخاصَّة به إليه. كما غلت النَّصارى في المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بوصفه بالألوهية والبنوة لله ﷻ، فوقعت في الشِّرك كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]، ((**فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله**))، أي: فصفوني بالعبودية والرسالة كما وصفني الله تعالى بذلك، ولا تتجاوزوا بي حدود العبودية إلى مقام الألوهية أو الربوبية كما فعلت النَّصارى؛ فإنَّ حق الأنبياء العبودية والرسالة، أما الألوهية فإنها حق الله وحده.

وقد دلَّ هذا الحديث على ما يأتي:

أولًا: التَّحذير من الغلوّ والإسراف في المدح، ومجاوزة الحدِّ، والمدح بالباطل؛ لأن ذلك قد يفضي إلى الشِّرك، وإنزال العبد منزلة الربِّ، ووصفه بصفاته.

ثانيًا: أن كفر النصارى إنما كان بسبب غلوهم في المسيح والقديسين والقديسات من بعده، وقولهم في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنه ابن الله، حتى أدى بهم ذلك إلى تحريف الكتب المقدسة، لكي يستدلوا بها على صحة مزاعمهم الباطلة، حتى إن بعضهم تجرأ فاستدل بآية من القرآن الكريم على فهمه السقيم"(١).

وقد صحَّ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: ((**إياكم والغلو في الدين؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**))(٢).

والحاصل أن من أسباب الضَّلال: المبالغة في تقديس بعض الناس. قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "فمن جعل شخصًا من الأشخاص غير رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَحَبَّهُ

---

(١) منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤/ ٢٠٨) بتصرف يسير.

(٢) تقدم تخريج الحديث.

وَوَافَقَه كان من أهل السُّنَّة والجماعة، ومن خالفه كان من أهل البدعة وَالْفُرْقَة كان من أهل البدع والضَّلال وَالتَّفَرُّق"[1].

٢ – تقديس الأفكار والمعتقدات:

أما أسباب تقديس الأفكار والمعتقدات فمن ذلك:

أ. هيمنة ثقافة الاستبداد على وسائل التعليم.

ب. سوء التربية.

ج. التقليد المذموم ومتابعة أهل الباطل في باطلهم.

د. التَّعصب بجميع أشكاله.

هـ. الانحراف الفكري، ومن ذلك: المبالغة في تقديس العقل، وإقحامه في غير مجاله، وفيما لا يستقلُّ بإدراكه. والزجُّ به في كل متاهة.

وقد منعَ الإسلامُ العقلَ من الخوض في الغيبيَّات كذات الله ﷻ والسَّمعيات الَّتي وردت بطريق النَّقل؛ لأنَّ العقل يعجزُ أن يصلَ إلى حقيقة، فمنعه العقلَ؛ صونًا له عن التَّخبط في بحار الغيوب الَّتي لا يملك العقل فيها وسيلة آمنة[2].

و. إهمال العقل، وحمل النَّاس على تأويلات ملتوية تتعارض مع العقل.

وأهل الحقِّ وقفوا بين مقتضياتِ الشَّرائع وموجباتِ العقول، وتحقَّقوا أن لا معاندة بين الشَّرع المنقول، والحقِّ المعقول.

والحاصل أنَّا نقول باستحالة وجود تعارضٍ بين الآيات القرآنية وبين المقتضيات العقلية، وكذلك بين الآيات القرآنية والحقائق العلميَّة، ومن قال بذلك فهو إمَّا جاهلٌ بالآية، أو جاهلٌ بقواعد الاستنباط والتَّأويل، أو جاهلٌ بالحقيقة العلميَّة.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/٣٤٧).

(٢) انظر: الإرشادات المنهجية في تفسير الآيات الكونية، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان (ص:٨٤-٩٥).

٣ – تقديس الانتماءات والولاءات:

أما أسباب تقديس الانتماءات والولاءات فهي على النحو التالي:

أ. قبلية.

ب. حزبية.

ج. مذهبية.

د. سياسية.

هـ. مصلحية.

و. نفسية.

٤ – تقديس الأشياء:

ومن ذلك: تقديس المشركين للأصنام، وتقديس الأشجار والأحجار، وتقديس الأضرحة. وقد وصل ذلك بالبعض إلى حدِّ الطَّواف حولها، والاستعانة بصاحب القبر على قضاء الحوائج، واعتقاد أنه يضر وينفع.

ويعدُّ الطَّواف عبادة لا يجوز أن تكون إلا لله ﷻ، ولا يكون الطَّواف إلَّا حول الكعبة، والدُّعاء كذلك عبادة لا تكون إلا لله ﷻ.

فإذا طافَ إنسان على قبرٍ أو حجرٍ أو شجرةٍ فمعنى ذلك أنه جعل العبادة في غير محلِّها، والإنسان العاقل لا يقع منه ذلك، والنصوص صريحة في النَّهي عن ذلك.

قال الله ﷻ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:٥٦]، وقال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر:١٣-١٤]. إلى غير ذلك من الآيات، وهي كثيرة.

ثالثًا: الأسباب العامة في ظهور ظاهرة التقديس السلبية في ثقافات الشعوب:

١ - التأثير السياسي.

٢ - تحريف نصوص الكتب السماوية.

٣ - الخلل في تفسير النصوص الإسلامية.

٤ - الاعتقاد الخاطئ الذي يورث عدم التفريق بين التقديس والتقدير والاحترام.

٥ - تصدر الجهال والمنتفعين منابر الدعوة.

٦ - الآفات النفسية كغلبة العاطفة المجردة، وكالخوف المذموم.

٧ - الآفات المصلحية والنفعية.

رابعًا: آفات التقديس:

١ - مخالفة النُّصوص ومقتضيات التَّشريع.

٢ - الانغماسُ في الضَّلال، والتَّعرض لغضبِ الله تعالى ومقْتِه.

٣ - تعطيلُ العقل عن النَّظر، أو هيمنةُ العاطفة على العقل.

٤ - انتكاسُ الفطرة.

٥ - تسلُّط المقدَّسين وتجبرهم واستعلاؤهم على النَّاس.

٦ - سيادةُ ثقافة التَّخلف والاستبداد.

٧ - سيادة ثقافة الذلِّ والاستعباد للمقدَّسين.

٨ - تخلُّفُ الأمَّة عن ركْبِ الحضارة والتَّقدم.

٩ - الضَّعف الذي يُطْمِع الاستعمار.

وهذه الآفات جدُّ خطيرة، فينبغي التَّحذير منها، وبيان أسباب الوقاية؛ حتى يكونَ كلُّ مسلمٍ على بيِّنةٍ وبصيرةٍ من الأخطارِ المحدقة، والتي تنالُ الأفرادَ والمجتمعات.

خامسًا: أسباب الوقاية من آفة التَّقديس المذموم والعلاج:

١ – إعمال العقل، وسلامة البحث والنَّظر من الآفات.

٢ – التَّفقُّه في الدِّين، والتَّحررُ من ظلماتِ الجهل، والتَّرقِّي في العلم.

٣ – تبصيرُ النَّاس بآفاتِ التَّقديس وآثاره.

٤ – ليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة إلى الخير، والتنفير من الشر، وهي سلطة خولها الله ﷻ لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها الله ﷻ لأعلاهم يتناول بها أدناهم[1].

فليس في الإسلام ما يسمى بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه، ولم يعرف المسلمون تلك السلطة الدينية التي كانت للبابا عند الأمم المسيحية عندما يعزل الملوك، ويحرم الأمراء، ويقرر الضرائب على الممالك، ويضع لها القوانين الإلهية.

٥ – إنَّ محبَّة العلماء لا تعني: التَّقديس، والاتِّباع من غير تبصُّر، فينبغي أن نفرق بين التقدير والتقديس –كما تقدم–.

٦ – عدم اعتقاد العصمة في أحد غير الأنبياء عَلَيهِمُ السَّلَامُ.

(١) انظر: الأعمال الكاملة، د. محمد عمارة (١/١٠٦)، وانظر: وسائل الإقناع في القرآن الكريم، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان (ص:٤٥٦–٤٥٧).

العقبة الحادية والعشرون

المسكرات

أولًا: تعريف المسكر:

المسكر: اسم فاعل من أسكر الشراب فهو مسكر، إذا جعل صاحبه سكرانًا، والسُّكْر: هو اختلاط العقل.

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "السَكْران: خلافُ الصاحي، والجمع سَكْرى وَسَكارى"(١)، وسُكارى. والمرأة سَكْرى. ولغةٌ في بني أسد: سَكْرانَة.

والخمر: كل ما خامر العقل، أي: غطاه من أيِّ مادة كان(٢)، وهو محرم بالكتاب والسنة والإجماع.

وقد جاء في الحديث: عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **((كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْر، وكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَام))**(٣).

وفي (الصحيحين) عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **((كُلُّ شَرَابٍ أَسْكَرَ فَهُوَ حَرَامٌ))**(٤).

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (سكر) (٦٨٧/٢)، وانظر: الملخص الفقهي (٥٤٠/٢- ٥٤١)، المبدع في شرح المقنع (٤١٥/٧)، كشاف القناع (١١٦/٦)، مطالب أولي النهى (٢١٠/٦)، أضواء البيان (٤٠٧/٢- ٤٠٩).

(٢) اختلف الفقهاء في تعريف الخمر بناء على اختلافهم في حقيقتها في اللغة وإطلاق الشرع. فذهب أهل المدينة، وسائر الحجازيين، وأهل الحديث كلهم، والحنابلة، وبعض الشافعية إلى أن الخمر تطلق على ما يسكر قليله أو كثيره، سواء اتخذ من العنب أو التمر أو الحنطة أو الشعير أو غيرها. وذهب أكثر الشافعية، وأبو يوسف ومحمد من الحنفية، وبعض المالكية إلى أن الخمر هي المسكر من عصير العنب إذا اشتد، سواء أقذف بالزبد أم لا، وهو الأظهر عند الشرنبلالي. وذهب أبو حنيفة وبعض الشافعية إلى أن الخمر هي عصير العنب إذا اشتد [قوي تأثيره بحيث يصير مسكرًا]. وقيده أبو حنيفة وحده بأن يقذف بالزبد [رمى بالرغوة] بعد اشتداده. واشترط الحنفية في عصير العنب كونه نيئًا. والمسألة مبسوطة في مظانها. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (١٢/٥-١٣).

(٣) صحيح مسلم [٢٠٠٣].

(٤) صحيح البخاري [٢٤٢، ٥٥٨٥، ٥٥٨٦]، مسلم [٢٠٠١].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على منبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**أما بعد، أيها الناس إنه نزل تحريم الخمر، وهي من خمسة من: العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل**))[1].

"وعند أبي داود والنسائي، وصححه ابن حبان من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ما أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَام**)) وللنسائي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مثله، وسنده إلى عمرو صحيح.."[2]. "وعن المختار بن فُلْفُل يقول: سألت أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: نهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الْمُزَفَّت، وقال: كل مسكر حرام، قال: فقلت له: صدقت المسكر حرام، فالشربة والشربتان على الطعام، فقال: ((**ما أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَام**)) وهذا سند صحيح على شرط مسلم"[3].

ثانيًا: خطر المسكرات وبيان كونها من العقبات:

إنَّ المسكراتِ آفةٌ عظيمة تفتكُ بجسدِ الأمة، وتهددُ حضارتها بالاضمحلال، وقيمها بالزوال، وثرواتها بالتلف.

وقد أفردت بالبحث من بين سائرِ المعاصي؛ لعظم خطرها على العقل والصِّحة والسلوك. تقود الإنسان إلى المهالك، وتصده عن الهداية.

إنَّ المسكرات تفتحُ أوسع أبواب الشَّر، وتقود إلى جرائمَ كبيرة، وآثامٍ خطيرة، فتهدم سياج الأخلاق، وتفسد الدين، وتهلك الأبدان، وتضيع الأموال، وتدمر العقول، وتؤذن بالهلاك، وتقتل في الإنسان الأمل والطموح، وتعيق عن التوبة والهداية والتَّبصر. فما حلَّت في مجتمع إلا وانتشرت فيه الرذيلة، وانعدمت الفضيلة عند من يتعاطى هذه السموم، ومن يروج لها.

---

(١) صحيح البخاري [٤٦١٩، ٥٥٨١، ٥٥٨٨]، مسلم [٣٠٣٢].

(٢) فتح الباري، لابن حجر (١٠/٤٣).

(٣) المصدر السابق (١٠/٤٤-٤٥).

ولا يخفى أن المسكرات تتفاوت من حيث الأثر، فأعظمها خطرًا: المخدرات؛ لما تورث من الإدمان، فهي تسيطر على متعاطيها سيطرةً تؤدي إلى غياب الوعي، وإلى الانهيار النفسي والبدني والعقلي، فلا هدف بعد ذلك ولا غاية في الحياة سوى الظفر بهذه السموم مهما كان السبيل إلى ذلك، ومهما كان الثمن، فأي خطر فوق هذا؟!

وقد أمر الله ﷻ باجتناب المسكرات مُبيِّنًا جملةً من أضرارها وأخطارها، ومُنبِّهًا إلى أن تزيين شُربها والإغراء بها من عمل الشيطان؛ ليُوقع به العدوان والبغضاء بين المسلمين، ويصدَّهم عن ذكر الله ﷻ، وعن الصلاة، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ۝٩١﴾ [المائدة:٩٠- ٩١]. وقد قرنها بعظائم أفعال الجاهلية وكبائرها التي أشقتهم في الدنيا والآخرة؛ للتدليل على خطرها، وسوء مآل صاحبها.

وقد بيَّن الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّه أحلَّ الطيبات وحرَّم الخبائث، وجعل ذلك من مقاصد بعثة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]. والخبائثُ تتفاوت، والخمر أم الخبائث كما جاء في الحديث: ((**الخمر أم الخبائث، ومن شربها لم يقبل الله منه صلاة أربعين يومًا، فإن مات وهي في بطنه مات ميتة جاهلية**))(١).

وعن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "اجتنبوا الخمر؛ فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن خلا قبلكم تعبد، فَعَلِقَتْهُ امرأة غَوِيَّةٌ، فأرسلت إليه جاريتها، فقالت له: إنا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها فَطَفِقَتْ كلما دخل بابًا أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئةٍ

(١) أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٣٦٦٧]، والدارقطني [٤٦١٠]، والقضاعي [٥٧] الجملة الأولى منه. قال المناوي (٣/٥٠٨): "فيه الحكم بن عبد الرحمن البجلي أورده الذهبي في (الضعفاء) وقال: مختلف فيه". قال العجلوني (١/٤٣٩): "رواه القضاعي بسند حسن".

عندها غُلامٌ وباطِيَةُ خَمْرٍ[1]، فقالت: إني والله ما دعوتك للشهادة، ولكن دعوتك لتقعَ عَلَيَّ، أو تشربَ من هذه الخمرة كأسًا، أو تقتلَ هذا الغلام، قال: فاسقيني من هذا الخمر كأسًا، فسقته كأسًا، قال: زيدوني فلم يَرِمْ[2] حتى وقع عليها، وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر؛ فإنها والله لا يجتمع الإيمان، وإدمان الخمر إلَّا ليوشك أن يُخرجَ أحدُهُما صاحِبَهُ"[3].

وإذا تقرَّر أنَّ الخبائث تتفاوت، وأن الخمر أم الخبائث، فلا شك أن أعظم المسكرات خطرًا: (المخدرات).

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والحشِيشَة نجسة في الأصَحِّ، وهي حرام سَكِرَ منها أو لم يَسْكَرْ، والْمُسْكِرُ منها حرام باتِّفَاق المسلمين، وضررُهَا من بعض الوجوه أعظمُ من ضرر الخمر"[4].

"وهذه الحشيشة وسائر المخدرات من أعظم ما يفتك اليوم بشباب المسلمين، وهي أعظم سلاح يصدره الأعداء ضدنا، ويروجها المفسدون في الأرض من اليهود وعملائهم؛ ليفتكوا بالمسلمين، ويفسدوا شبابهم، ويعطلوهم عن الاتجاه للعمل لمجتمعاتهم

---

(١) (الباطية): إناء، قيل: هو معرَّب. وهو (الناجود) كما في (الصحاح)، وأنشد: (قرَّبُوا عودًا وباطية***فبذا أدركتُ حاجَتِيْه). وقال الأزهري: الباطية من الزجاج عظيمة تملأ من الشراب وتوضع بين الشرب يغرفون منها ويشربون. انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (بطا) (٦/٢٢٨١)، تاج العروس (٣٧/١٧٤)، تهذيب اللغة، للأزهري (١٤/٢٨).

(٢) بفتح أوله وكسر الراء، أي: لم يبرح.

(٣) أخرجه عبد الرزاق [١٧٠٦٠]، والنسائي [٥٦٦٦]، وابن حبان [٥٣٤٨]، والبيهقي في (السنن) [١٧٣٣٩]، وفي (شعب الإيمان) [٥١٩٨]، والضياء [٣٧١]. قال المتقي الهندي في (كنز العمال) [١٣٦٩٦]: أخرجه: "عبد الرزاق، والنسائي، ورسته في (الإيمان)، وابن حبان، ورواه ابن أبي الدنيا في (ذم المسكر)، وابن أبي عاصم، وابن حبان، والبيهقي في (السنن الكبرى)، وفي (شعب الإيمان)، والضياء مرفوعًا، وقال الضياء: سئل الدارقطني عنه فقال: أسنده عمر بن سعيد عن الزهري، ووقفه يونس ومعمر وشعيب وغيرهم عن الزهري، والموقوف هو الصواب. وقال البيهقي في (شعب الإيمان): الموقوف هو المحفوظ. وأورد ابن الجوزي المرفوع في (الواهيات)، وصحح الوقف"اهـ. وقال الإمام الزيلعي: "وهذا الحديث رواه البيهقي في (سننه) موقوفًا على عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو أصح" نصب الراية (٤/٢٩٧).

(٤) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية (٥/٥٢٩).

والجهاد لدينهم وصد عدوان المعتدين على شعوبهم وبلادهم، حتى أصبح كثير من شباب المسلمين مخدرين، عالة على مجتمعهم، أو يعيشون رهن السجون، كل ذلك من آثار رواج تلك المخدرات والمسكرات في بلاد المسلمين؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"(١).

والخمر -عمومًا- من المضلات، وهي جالبة لأنواع من الشر في الحال والمآل.

ثالثًا: الوقاية من هذا الداء والعلاج:

والوقاية من هذا الدَّاء العضال خيرٌ من العلاج، وتكون ببناء الأجيال بناءً سليمًا يغرس في النَّاشئة القيمَ والأخلاق الفاضلة، ولا يكون البناء سليمًا إلَّا بالرجوع إلى العقيدة الصحيحة، واللجوء إلى الله ﷻ؛ لطلب الهداية والعافية، والاستعانة به، ثم الأخذ بأسباب السلامة من النأي عن مواطن الفتنة، وقرناء السوء، واغتنام الأوقات، وملئها بالعلم النافع، والعمل الصالح، وتعقب أوكار الإجرام، وإنزال العقاب بصُنَّاع الفساد، وتجار الأرواح، والمروجين لهذه السموم.

ومن وسائل الوقاية من هذا الداء: الإسهام في حملات توعية تبين خطر هذه السموم، وتوضح آثارها.

أما علاج المريض المصاب بهذا الداء فلا يقتصر فيه على الجانب الجسدي فحسب، بل لا بدَّ من العلاج النفسي، والبحث عن الدوافع والمسببات، وإعادة تأهيل المريض حتى يكون ذا نفع في مجتمعه.

(١) الملخص الفقهي، للشيخ صالح الفوزان (٢/٥٤١- ٥٤٢).

العقبة الثانية والعشرون

المجادلة بالباطل

أولًا: تعريف الجدل:

١ - مفهوم الجدل في اللغة: قال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الجيم والدال واللام أصل واحد، وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه، وامتدادِ الخصومة ومراجعةِ الكلام"(١).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من (جدلت الحبل)، أي: أحكمت فتله، ومنه: الجديل، و(جدلت البناء): أحكمته، ودرع مجدولة. والأجدل: الصَّقْرُ الْمُحْكَمُ الْبِنْيَة، والْمِجْدَل: القصر المحكم البناء، ومنه: الجدال فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه، وقيل: الأصل في الجدال: الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة وهي الأرض الصلبة، قال الله ﷻ: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ [غافر:٣٥]، ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ﴾ [الحج: ٦٨]، ﴿قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ [هود:٣٢]. وقرئ: جدلنا، ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف:٥٨]، ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف:٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ [الرعد:١٣]، ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:٧٤]، ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾ [غافر:٥]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ [الحج:٣]، ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧]"(٢).

وقال الفَيُّوميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المصباح المنير): "جدل الرجل جَدَلًا فهو جَدِلٌ من باب تعب إذا اشتدت خصومته، وجَادَلَ مُجَادَلَةً، وجِدَالًا: إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحقّ ووضوح الصواب هذا أصله. ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة؛ لظهور أرجحها وهو محمود إن كان للوقوف على الحقّ وإلَّا فمذموم"(٣).

والحاصل أن مادة (جدل) تدور في اللغة العربية حول أربعة معانٍ:

---

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة: (جدل) (١/٤٣٣).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (جدل) (ص:٨٩- ٩٠)، وانظر: روح المعاني (١٢/٤٥)، المنار (١٢/٥٨).

(٣) المصباح المنير، مادة: (جدل) (١/٩٣).

الأوَّل: الإحكام، يقال: جدله يجدله إذا أحكم فتله.

الثاني: الشدة، ومنه يقال للأرض: جدالة؛ لشدتها.

الثالث: الصراع، ومنه قيل للصريع: مجدل ومنجدل.

الرابع: الخصومة، يقال: رجل جدِل ومجدال، أي: شديد الخصومة.

وفي الحديث: ((**إنَّ أَبْغَضَ الرِّجال إلى اللهِ: الأَلَدُّ الخَصِم**))(١).

٢ - تعريف الجدل في الاصطلاح: قال في (المصباح المنير): "الجدل هو مقابلة الأدلة؛ لظهور أرجحها". وقال الشريف الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الجدل هو دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجة أو برهان"(٢). وقال أبو البقاء الكفوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الجدل: "دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجة أو شبهة، وهو لا يكون إلا بمنازعة غيره"(٣).

ويتبين مما سبق أن المجادلة المحمودة لا بدَّ أن تشتمل على عدة عناصر، منها:

١ — أن يكون القصد منها: إظهار الحق.

٢ — أن تكون المجادلة قائمة على الأدلة، فإن كانت مجرد دعاوى من دون أدلة فهذه مخاصمة وليست مجادلة.

٣ - التزام قانون الجدل وآدابه العامة.

وسيأتي المزيد في (سبل الوقاية من الجدل المذموم).

وقد جاءت نصوص في القرآن الكريم وفي السنة تحث على المجادلة، وفي المقابل جاءت نصوص أخرى تحذر من المجادلة وتذمها، وتصفها بأنها طريقة أهل الكفر والأهواء والبدع، وليس بينها أي تعارض، وعند التحقيق والتأمل في هذه النصوص يتبين أن المجادلة على نوعين: نوع محمود، ونوع مذموم(٤).

---

(١) صحيح البخاري [٢٤٥٧، ٤٥٢٣، ٧١٨٨]، مسلم [٢٦٦٨].

(٢) التعريفات (ص:١٠١).

(٣) الكليات، لأبي البقاء الكفوي (ص:٥٤٥).

(٤) انظر: مذكرة أدب الجدل، د. يوسف الشبيلي (ص:١-٤).

ثانيًا: الألفاظ ذات الصلة:

١ - المناظرة.

٢ - المحاجَّة.

٣ - المحاورة.

٤ - المناقشة.

٥ - المباحثة.

٦ - المفاوضة.

وقد بينت هذه المعاني بالتفصيل مع بيان أوجه الفرق في كتاب: (وسائل الإقناع في القرآن الكريم)(١).

كما أفردت الحوار بالبحث مبينًا أهميته وشروطه وآدابه(٢).

ثالثًا: أنواع الجدل:

١ - الجدل المحمود يحقُّ الحقَّ، ويكشف عن الباطل:

"الجدال المحمود المدعو إليه هو الذي يحق الحق، ويكشف عن الباطل ويهدف إلى الرشد، مع من يرجى رجوعه عن الباطل إلى الحق، وفيه قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، وقال ﷻ لرسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:١١١]"(٣).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُٱللَّهُ في بيان وجه الحاجة إلى علم الجدل المحمود: "اعلم -وفقنا الله وإياك- أن معرفة هذا العلم لا يستغني عنها ناظر، ولا يتمشى بدونها كلام مناظر؛ لأن به تتبين صحة الدليل من فساده، تحريرًا وتقريرًا. وتتضح الأسئلة الواردة من المردودة إجمالًا وتفصيلًا، ولولاه لاشتبه التحقيق في المناظرة بالمكابرة. ولو خلي كل مدع

---

(١) انظر: وسائل الإقناع في القرآن، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان من (ص:١٥١) إلى (ص:١٨٢).

(٢) انظر: المصدر السابق من (ص:١٨٣) إلى (ص:١٨٩).

(٣) الكافية في الجدل، للجويني (ص:٢٢- ٢٣) بقليل من التصرف.

ودعوى ما يرومه على الوجه الذي يختار، ولو مُكِّن كل مانع من ممانعة ما يسمعه –متى شاء– لأدى إلى الخبط وعدم الضبط. وإنما المراسم الجدلية تفصل بين الحق والباطل، وتبين المستقيم من السقيم، فمن لم يُحط بها علمًا كان في مناظراته كحاطب ليل. ويدل عليه الاشتقاق. فإن الجدل من قولك: جدلت الحبل أجدله جدلًا، إذا فتلته فتلًا محكمًا"(١).

وقال أيضًا: "أول ما تجب البداءة به: حسن القصد في إظهار الحق طلبًا لما عند الله تعالى، فإن آنس من نفسه الحيد عن الغرض الصحيح فليكفها بجهده، فإن ملكها، وإلَّا فليترك المناظرة في ذلك المجلس. وليتق السباب والمنافرة؛ فإنهما يضعان القدر، ويكسبان الوزر، وإن زل خصمه فليوقفه على زَلَله، غير مخجل له بالتشنيع عليه. فإن أصر أمسك، إلا أن يكون ذلك الزلل مما يحاذر استقراره عند السامعين، فينبههم على الصواب فيه بألطف الوجوه جمعًا بين المصلحتين. انتهى"(٢).

وقال الإمام ابن عرفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التعقيب على ما ذكره الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ذم المجادلة من حيث هي، وأنها مرجوحة وإن كانت لإظهار الحق: "هذا لا يقوله أحد من خلق الله ﷻ، بل الصواب أن الجدال في إظهار الباطل حرام، أما الجدال لإظهار الحق؛ فإن كان رياء وسمعة وليُذكر وينقل ذلك عنه، أو لتحقير المجادل فهو أيضًا حرام، وإن كان لمجرد القيام بالحق فهو مندوب إليه أو جائز"(٣).

وقد أمر الله ﷻ الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجادل بالطريقة الحسنة. وقد جاء بيان ذلك في عقبة: (التفريط في تحري الحق).

(١) الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة، لابن الجوزي (ص:٩٩-١٠٠)، وانظر: شرح الكوكب المنير (٣٦٠/٤-٣٦١).

(٢) الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة (ص:١٣٥)

(٣) درر المعرفة من تفسير الإمام ابن عرفة، جمعها: نزار حمادي (٣٠١/١).

٢ – الجدل المذموم يلبس الحق بالباطل، ويصدُّ عن الهداية:

إنَّ الجدل إذا لم يكن قائمًا على أساس من العلم والموضوعية، أو كانت الغاية منه: الانتصار للنفس، وأيضًا إذا لم يكن من يتصدى لإظهار الحق حاضر الذهن، وبعيد النظر، وقادرًا على إقامة الحجة على خصمه، وكان عاجزًا عن ردِّه إلى مسلمات عقلية متفق عليها، فإنه جدل مذموم، يلبس الحق بالباطل، ويصدُّ عن الهداية، قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحج:٣- ٤]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ۝٨ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج:٨-٩]، وقال ﷻ: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ [غافر:٣٥]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر:٥٦].

والدعاة هم وُرَّاثُ الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ يدعون إلى هذا الدين بالحكمة الموعظة الحسنة، ويجادلون بالتي هي أحسن، بأنفع مسالك الجدل وأحكمها، وهم في ذلك مخلصون لله ﷻ، ولا غاية لهم إلا إظهار الحق وبيانه، واستنقاذ الخصم من دركات الجهل إلى نور المعرفة.

يقول الجويني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ثم من الجدال ما يكون محمودًا مرضيًّا، ومنه ما يكون مذمومًا محرَّمًا؛ فالمذموم منه ما يكون لدفع الحق، أو تحقيق العناد، أو ليلبس الحق بالباطل، أو لما لا يطلب به تعرف ولا تقرب، أو للممارة وطلب الجاه والتقدم..إلى غير ذلك من الوجوه المنهي عنها، وهي التي نصَّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في كتابه على تحريمها، فقال: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨]، وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف:٥٤].. وغيرهما من الآيات"[١].

---

(١) الكافية في الجدل، للجويني (ص:٢٢- ٢٣).

قال الإمام الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾: "يشير إلى أهل الجدل من الفلاسفة؛ فإنهم يجادلون في ذات الله تعالى وصفاته ﷻ كذلك عند التحقيق؛ لأنهم لا يعتبرون كلام الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، ولا الكتب المنزلة من السماء، وأكثر علومهم مشوب بآفة الوهم، ومع هذا فشؤون الله جل وعلا طور ما وراء طور العقل"[1]. بمعنى أن العقل لا يستقل بإدراكها؛ لقصوره؛ ولأنها خارج حدوده، ومن هنا كانت حاجته إلى نور إلهي يستضيء به، وهو نور الوحي والنبوة، كما قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة:١٥]، فقد سدت أبواب الوصول إلَّا على متبع للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، كما قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٦].

فالذين يتبعون نهج الفلاسفة دون الاستضاءة بنور الوحي فإنهم يضلون عن الحقِّ. ويناقض قول بعضهم بعضًا، فيهدم اللاحق منهم ما أتى به السابق، بل قد يهدم الواحد منهم قوله السابق، وعقولهم في ظلمات بعضها فوق بعض، وما سطروه مبني على أوهام وخيالات ونظريات لم تثبت.

ومن الجدل المذموم: جدال الكفار في آيات الله ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر:٤]، يعني: في آياته الظاهرة، وحججه البينة، فهو جدال لردِّ الحقِّ، والترويج للباطل، كما قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في آية أخرى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف:٥٦]، وقوله ﷻ: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر:٥].

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واتفق العلماء على أن مدارسة العلم والمناظرة فيه ليست من الجدال المنهي عنه. واتفقوا على أن المجادلة في إنكار المنكر

(١) روح المعاني (٢١/١١٤).

وإقامة حدود الدين ليست من المنهي عنه، فالمنهي عنه هو ما يجر إلى المغاضبة والمشاتمة..الخ"(١).

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن المشورة والمناظرة بابا رحمة، ومفتاحا بركة لا يضل معهما رأي، ولا يفقد معهما حزم"(٢).

ومن الجدل المذموم: جدل قوم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما قال الله ﷻ: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [نوح:٣٢].

أراد قوم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يتهربوا من المناظرة بعد أن ألزمهم بالحجج، وأنهم ليسوا مستعدين للاقتناع بالحجج مهما كانت دامغة؛ حيث إنهم قد أصموا آذانهم عن السماع، فلم تعد تنفعهم قوة الحجة، ولا وضوح الدليل. فتحدوه أن يأتيهم بما توعدهم به من عقاب، وهو لا يملك إنزال العقاب، ولا يستطيع رفعه إن نزل، ولم تنفعهم النصيحة، فكانوا من المغرقين.

وقال الله ﷻ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:٢٥].

فقوله ﷻ: ﴿أَكِنَّةً﴾، أي: أغطية؛ لئلَّا يفقهوا القرآن، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، أي: صممًا عن السماع النافع، فهم كما قال ﷻ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾، أي: مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات لا يؤمنوا بها. فلا فهم عندهم، ولا إنصاف، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣]. وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾، أي: يحاجونك ويناظرونك في الحق بالباطل"(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٢٣٥).

(٢) أدب الدنيا والدين، للماوردي (ص:٣٠٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٧).

وهو تمثيل معرب عن كمال جهلهم بشؤون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفرط نبو قلوبهم عن فهم القرآن الكريم، ومج أسماعهم له، وقد أصمها الله ﷻ. ﴿وَإِنْ يَرَوْا﴾، أي: يشاهدوا ويبصروا: ﴿كُلَّ آيَةٍ﴾، أي: معجزة دالَّة على صدق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾؛ لفرط عنادهم، واستحكام التقليد فيهم.

ويقول الله ﷻ: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد:١٣]، أي: يخاصمون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الله ﷻ وصفاته، وهو شديد القوة، أو الأخذ، أو شديد الإهلاك بالمحل وهو القحط.

وفي الحديث: ((**ما ضَلَّ قوم بعد هُدًى كانوا عليه إلَّا أُوتُوا الجدل**))، ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨]))(١).

إنَّ الجدل بالباطل هو الذي لا يعتمد صاحبه على سندٍ علميٍّ أو برهانٍ منطقي، وإنما يعتمد على العصبية، والاعتداد بالذَّات والرأي، وهذا النَّوع من الجدل هو الجدل المذموم المبين في قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ [الحج:٣]، وقوله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [الحج:٨]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام:١٢١].

وقد اشترط العلماء فيمن يتصدَّى للجدل:

١- سلامة العقل وذكاؤه.

٢- قوَّة الإيمان والفضيلة.

٣- عدم التَّأثر بالآراء..

وسيأتيك مزيد من البيان في (عقبة الافتتان بعلوم الفلسفة).

ويتحصل من ذلك أن الجدل له ضوابط وحدود، ويحتاج إلى العلم والحكمة والأدب، والقراءة الدقيقة للواقع، وفهم مقاصد التشريع، وفقه المآلات.

---

(١) أخرجه أحمد [٢٢١٦٤]، وابن ماجه [٤٨]، والترمذي [٣٢٥٣]، وقال: "حسن صحيح"، وأخرجه أيضًا: الآجري في (الشريعة) [١٠٩]، والحاكم [٣٦٧٤] وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٨٠٨٠].

وقد ذكر الله ﷻ الجدل على أنه من طبيعة الإنسان؛ فلذلك كان التوجيه إلى جدلٍ نافع، والبعد عن الجدال الذي بمعنى: المراء والمنازعة[1]، فقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف:٥٤]، أي: مراء وخصومة ومنازعة، وبها يقطعون الطريق على أنفسهم. فتارة يجادلون الأنبياء في العقائد والتوحيد، وتارة يجادل في النبوة، وتارة يجادلون في الكتب المنزلة ويقولون: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١]، وتارة يجادلون في المتشابهات كما سبق، وتارة يجادلون في التفسير والتأويل، وتارة في الفروع إلى غير ذلك.

والجدال بالباطل قد يكون بسبب فساد النظر الذي يؤدي إلى الجهل المركب، وهو أشد خطرًا من الجهل البسيط؛ لأن المجادل يعتقد أنه قد بنى معتقده على مقدمات ونتائج وترتيب منطقي. وهي في الحقيقة مقدمات فاسدة، أو تتضمن اختلالًا في النظم والترتيب يدركه أرباب البصائر؛ ولذلك قيل: البلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء، والعمى أقرب إلى السلامة من بصيرة حولاء..

وقد يكون بسبب خوف المجادل على المصالح والجاه ونحو ذلك. ومرجع ذلك إلى سعة حيلته، واتباعه للهوى، فلو أن نفسه شرفت عن الدينار، واشتاقت إلى الدار الآخرة، لارتقت إلى المعالي، وأصبح الحق أمامها واضحًا جليًّا.

ويمكن حمل ما ورد عن علماء المسلمين من تحريم للجدل على اللجاجة بالباطل التي لمسوا شرها، وتحققوا من جريرتها، وليس على مطلق الجدل، فما يغير قومًا خطب أفدح من التنافر الذي يتسبب به اللجاج بالباطل، وترك العمل.

وسيأتيك في (عقبة العجب والكِبْر) مزيد من البيان.

فمقصد الفقهاء من المنع أو التحريم إنما هو هذا، أعني: الجدل العقيم الذي يمزق وحدة الجماعة، ويصرف العقل عن الفهم، حيث يختلط الفهم على العامة، ويلتبس

---

(١) قال الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "حقيقة المراء: طعنك في كلام غيرك؛ لإظهار خلل فيه لغير غرض سوى تحقير قائله وإظهار مزيتك عليه. والجدال هو ما يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها، والخصومة: لجاج في الكلام؛ ليستوفي به مالا أو غيره، ويكون تارة ابتداء وتارة اعتراضا، والمراء لا يكون إلا اعتراضا، والكل قبيح إذا لم يكن لإظهار الحق وبيانه وإدحاض الباطل وهدم أركانه" سبل السلام (٢/٦٧٤).

الحق، وحيث يأتي ذلك المجادل بالباطل إلى الحق الواضح فيضفي عليه من الغموض، ويترك الغامض ولا يرفع عنه الخفاء، وبناء على ذلك فقد كان قصد الفقهاء: إنقاذ العقل من ضلالة تغشاه، فتحجب عنه الحقيقة، ويعيذونه أن يخبط في النهار المبين خبط عشواء.

رابعًا: الوقاية من آفات الجدل المذموم والعلاج:

١ — أن تكون المجادلة قائمة على الأدلة.

٢ — أن يكون القصد من المجادلة: الوصول إلى الحق، وتجلية الحقيقة، والوصول إلى رؤية واضحة حول قضية مختلف بها تهيئ لإيجاد قناعة مشتركة حولها.

٣ – البعد عن التجاحد والزهو والمراء والمفاخرة وحظوظ النفس.

٤ – قوة الإيمان والفضيلة وإخلاص النية.

٥ — سلامة العقل وذكاؤه.

٦ – أن يكون المجادل على دراية تامَّة بآليات الحوار وعلوم الآلة.

٧ – أن تكون الغاية من الجدال كذلك: استنقاذ الخصم من ظلمات الجهل والتيه، وإزالة ما يشكل عليه أو يلتبس.

٨ – أن لا يقابل الإساءة بالإساءة، بل يعفو ويصفح ويغفر زلات خصمه.

٩ – حسن الاستماع إلى رأي الخصم، وعدم التشويش عليه في أثناء طرحه لوجهة نظره.

١٠ – أن يكون الرَّدُّ مبنيًا على مقدماتٍ ونتائج.

١١ – الرَّدُّ إلى القواعد والمسلمات المتفق عليها.

١٢ – مراعاة حال الخصم، والتَّدرج معه في الحوار بما يتلاءم مع حاله.

١٣ – تنوع وسائل وأساليب الحوار من السؤال والجواب، والنقض والمعارضة، والإلزام والمصادرة، والقياس، والسبر والتقسيم، وأن لا يفسر المفسر، وألا يكون الدليل المقدم ترديد لأصل الدعوى..إلى غير ذلك.

١٤ - الاعتراف بالخطأ، وعدم التعصب للرأي.

١٥ - تجنب الغضب.

١٦ - عدم التسرع في الرَّدِّ قبل ترتيب الأفكار.

١٧ - البعدُ عن الطَّعن، أو التَّجريح، أو السُّخرية، أو احتقار الخصم.

١٨ - الإلمام بالأدلَّة العقليَّة والنقليَّة.

١٩ - تمحيص الأدلَّة وبيان صحيحها من سقيمها.

٢٠ — القراءة الدَّقيقة للواقع، وفقه مقاصد التَّشريع.

٢١ — أن يكون المجادل واسع الاطِّلاع على ثقافات الأمم، وعلى حظٍّ من علم النفس والاجتماع وطبائع الأفراد والشعوب، وأدلَّة الخصم.

٢٢ — بيان تهافت أدلَّة الخصم.

٢٣ — أن لا يكون المجادل خاضعًا لإملاءات أو سياسات تؤثِّر في سلامة فكره.

٢٤ — التزام قانون الجدل وآدابه العامة.

٢٥ — أن يحذر من الجدل المذموم، وأن يكون على دراية بآثاره.

٢٦ — أن يحذر من مخالطة من يعرف بالمراء والجدال بالباطل.

٢٧ - أن يحذر أصحاب البدع والأهواء ومناهجهم، وأن يعرض عن الجاهلين.

٢٨ - سلامة وسائل التعليم، والبناء على أساس سليم.

٢٩ — أن تتوفر في المجادل الشروط والأهلية للجدل والحوار والمناظرة.

٣٠ - أن يجعل المحاور تقوى الله ﷻ نصب عينه، فلا يقول إلا حقًّا، ولا ينطق إلَّا صدقًا.

العقبة الثالثة والعشرون

المفهوم الخاطئ للاستقامة

أولًا: تعريف الاستقامة:

الاستقامة مصدر استقام، و"الاستقامة: الاعتدال. يقال: استقام له الأمر. وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ [فصلت:٦]، أي: في التَّوجه إليه دون الآلهة. وقومت الشيء فهو قويم، أي: مستقيم"(١).

قال الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الاستقامة: هي كون الخط بحيث تنطبق أجزاؤه المفروضة بعضها على بعض على جميع الأوضاع.

وفي الاصطلاح: هي الوفاء بالعهود كلها، وملازمة الصِّراط المستقيم برعاية حدِّ التَّوسط في كلِّ الأمور، من الطَّعام والشَّراب واللباس، وفي كلِّ أمر ديني ودنيوي، فذلك هو الصِّراط المستقيم. والاستقامة: أن يجمع بين أداء الطاعة واجتناب المعاصي، وقيل: الاستقامة ضد الاعوجاج، وهي مرور العبد في طريق العبودية بإرشاد الشرع والعقل. والاستقامة: المداومة. وقيل: الاستقامة: ألا تختار على الله شيئًا"(٢).

وقال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الاستقامة: هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القيم من غير تعريج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها، الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك، فصارت هذه الوصية جامعة لخصال الدين كلها"(٣).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الاستقامةُ كنايةٌ عن التَّمسُّكِ بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فعلًا وتركًا"(٤).

وقال الله ﷻ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود:١١٢]. فجعل الاستقامة في مقابل اتباع الهوى والطُّغيان والضَّلال. قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " فأمره أن يستقيم هو ومن تاب معه، وأن لا يجاوزوا ما أمروا به، وهو الطُّغيان، وأخبر أنه بصير بأعمالكم، مطلع عليها، قال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (قوم) (٥/ ٢٠١٧).

(٢) التعريفات (ص:١٩)، بتصرف يسير، وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٤٩).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٥١٠).

(٤) فتح الباري (١٣/ ٢٥٧).

وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى:١٥]"(١). والطغيان أصله: التَّعاظم والجراءة وقلَّة الاكتراث(٢).

قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والظَّاهر أنَّ هذا أمرٌ بالدَّوام على الاستقامة، وهي لزوم المنهج المستقيم، وهو المتوسط بين الإفراط والتفريط، وهي كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل وسائر الأخلاق، فتشمل العقائد والأعمال المشتركة بينه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين سائر المؤمنين، والأمور الخاصَّة به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من تبليغ الأحكام، والقيام بوظائف النبوة، وتحمل أعباء الرسالة وغير ذلك"(٣).

وفي الحديث: عن سفيان بن عبد الله الثَّقفيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك، وفي رواية: غيرك قال: **((قل: آمنت بالله ثمَّ استقم))**(٤).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا من جوامع كلمه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو مطابق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت:٣٠]، أي: وحَّدوا الله وآمنوا به، ثمَّ استقاموا فلم يحيدوا عن توحيدهم ولا أشركوا به غيره، والتزموا طاعته إلى أن توفوا على ذلك"(٥).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين. وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد. والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات. فالاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله، وعلى أمر الله"(٦).

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٥٠٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/١٧٧).

(٣) روح المعاني (٦/ ٣٤٥).

(٤) صحيح مسلم [٣٨].

(٥) إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم، للقاضي عياض (١/٢٠١)، وانظر: شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٢/٩).

(٦) مدارج السالكين (٢/ ١٠٦).

وذكر الإمام الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ خمسة أوجه من معاني الاستقامة في تفسير قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠]:

"**أحدها**: ثمَّ استقاموا على أنَّ الله ربّهم وحده، وهو قول أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ومجاهد.

الثّاني: استقاموا على طاعته وأداء فرائضه، قاله ابن عبَّاس والحسن وقتادة.

الثّالث: على إخلاص الدِّين والعمل إلى الموت، قاله أبو العالية والسدي.

الرّابع: ثمَّ استقاموا في أفعالهم كما استقاموا في أقوالهم.

الخامس: ثمَّ استقاموا سرًّا كما استقاموا جهرًا.

قال: ويحتمل سادسًا: أنَّ الاستقامة أن يجمع بين فعل الطَّاعات واجتناب المعاصي؛ لأنَّ التَّكليف يشتمل على أمر بطاعة يبعث على الرَّغبة، ونهي عن معصية يدعو إلى الرَّهبة"(١).

وفي (الكشاف): "أي ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته"(٢). قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأراد أن من قال: ربي الله تعالى فقد اعترف أنه عزَّ وجلَّ مالكه ومدبر أمره ومربيه، وأنه عبد مربوب بين يدي مولاه، فالثبات على مقتضاه: أن لا تزل قدمه عن طريق العبودية قلبًا وقالبًا، ولا يتخطاه، وفيه يندرج كل العبادات والاعتقادات"(٣).

فإذا تمهد لك ذلك علمتَ أن ما يقابل طريقَ الاستقامة: طرقٌ ملتويةٌ، ومتاهاتٌ مُضِلّة، وإنما تنشأُ التَّأويلاتُ المضِلّة لمفهوم الاستقامة عن جهلٍ، أو سوءِ فهمٍ؛ ولذلك كان المفهومُ الخاطئُ للاستقامة من العقباتِ في طريق الهداية -كما سيأتي-.

---

(١) تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٥/١٧٩- ١٨٠)، وانظر: نضرة النعيم (٢/٣٠٤).

(٢) الكشاف (٤/ ١٩٨).

(٣) روح المعاني (١٢/ ٣٧٢).

ثانيًا: المفهوم الخاطئ للاستقامة من عقبات الهداية:

١ – مفاهيم خاطئة لمعنى الاستقامة وآثارها:

إنَّ البعض يتصوَّر أنَّ الإيمان بالله ﷻ وما يقتضيه هذا الإيمان من التزامٍ بالدِّين، واستقامة على شرعه، إنما هو تكبيلٌ للنَّفس، وتقييدٌ لها، وأنَّ النَّاس وجدوا ليكونوا أحرارًا، ولينطلقوا في الحياة على طبيعتهم.

والجواب أنَّ العقل البشري لا يمكن أن يخلو من الشَّيء وضدِّه أو ما يقابله، فإذا خلا من الإيمان بالله ﷻ اشتغل تلقائيًّا بالإيمان بسواه، سيؤمن مثلًا بهواه فيتبعه على نحو بهيميٍّ ليس له ضابط، يقول الله ﷻ: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣]. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣]. سيؤمن بالمال –مثلًا– فيجعله إلهه المعبود. سيؤمن باللذة فيشرب ويزني ويفسق ويتحلل، فتضيع شخصيته، ويصبح مصدرَ خطرٍ على مجتمعه.

والقرآن يشير إلى هذا المعنى في قوله ﷻ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ﴾ [يونس:٣٢]، أي: أنَّه لا فراغ، ولا يمكن أن يرتفع الضِّدان. إما إيمان بالله ﷻ أو إيمان بسواه. وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**))(١). ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في (النونية):

هربـوا من الـرِّق الـذي خلقــوا له ... فبلـوا برقِّ النَّفـس والشَّـــيطان
لا ترض ما اختاروه هم لنفوسـهـم ... فقد ارتضـــوا بالذل والحـــرمان
لو ســـاوت الـدنيا جناح بعوضة ... لم يسق منها الرب ذا الكفران(٢)

فمن يفرُّ من عبادة الله ﷻ وطاعته فسيقع في رقِّ الشَّيطان.

والحاصل أن الالتزام ليس تكبيلًا للنفس، وإنما هو قيادة لها إلى الخير والصلاح، وكبح لجماحها عن الاسترسال في الشهوات.

---

(١) صحيح مسلم [٥٥٦].

(٢) متن القصيدة النونية (ص:٣٠٨).

٢ – الغلو والتشدد، ومجاوزة القصد في الفعل:

ومن مفاهيم الخاطئة لمعنى الاستقامة: ما يظهرُ في سلوكِ البعض بناءً على سوءِ فهم، وبُعْدٍ عن منهج الاعتدال والتَّوسط الذي هو شأن الدُّعاة والمصلحين، وانحرافٍ عن النَّهج المعرفي السَّليم إلى مزالقَ خطيرةٍ من الغلوِّ والتَّشدد، حيث نما التَّطرف إلى حدٍّ كبير.

ولا شك أن سوءَ الفهم ينعكسُ على السَّلوك والتَّطبيق العملي، فينتجُ عن ذلك انحرافٌ وضلالٌ في الفهمِ والتَّصور والسُّلوك والتَّطبيق، فيضِلُّ عن الحقِّ، ويُضِلُّ غيره إذا كان داعية ضلال.

والحقيقة أنَّ واقع هؤلاء ممن ألزم نفسه بتكاليف فيها ما فيها من الغلو والتشدد قد يكون منفرًا لآخرين، وقد يكون من أسباب الانتكاس بعد الهداية؛ فلذلك ينبغي الاعتدال والوسطية في الفهم، والحكمة في الدعوة، وهذا هو المنهج السليم الذي علَّمه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه رضوان الله عليهم. ففي (الصحيح) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يسألون عن عبادة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم، فقال: ((**أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**))[(١)].

فالوسطية هي جوهر الإسلام؛ فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣]، فالوسطية ليست خيارًا إنسانيًّا عند المسلمين، وإنما إرادة إلهيَّة؛ فإن الإسلام يتميَّز عن اليهوديَّة الماديَّة، وعن النصرانيَّة التي أغرقت في الروحانيَّة بمنهجه الوسطي، حيث ظهر الإسلام لا روحانيًّا مجرَّدًا، ولا جسديًّا جامدًا، بل إنسانيًّا آخذًا من

---

(١) صحيح البخاري [٥٠٦٣]، مسلم [١٤٠١].

كل القبيلين بنصيب، فتوفَّر له من ملائمة الفطرة البشريَّة ما لم يتوفر لغيره؛ ولذلك عرف بدين الفطرة، وعرف ذلك له خصومه اليوم.

إنَّ مجاوزة القصد في الفعل -وإن كان في مجال الطاعات- قد تكون له نتائج عكسية، ويؤول إلى الضعف بعد القوة، وإلى الانتكاس بعد الهداية.

وقد تميزت التشريعات الإسلامية بالتوسط والاعتدال، والبعد عن الغلو.

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومالك الوسط محفوظ الغلط، ومتى زاغ عن الوسط حصل الجور الموقع في الضلال عن القصد"(١).

وقد جعل مطرف بن الشخير ويزيد بن مرة الجعفي مجاوزة القصد فى العبادة وغيرها والتقصير عنه سيئة. فقالا: الحسنة بين السيئتين، والسيئتان إحداهما: مجاوزة القصد، والثانية: التقصير عنه، والحسنة التي بينهما هي: القصد والعدل(٢).

وفي السنة ما يفيد الحث على العمل، وأن قليله الدائم خير من كثيره الذي ينقطع؛ فبدوام القليل تدوم الطاعة، ويثمر ذلك، بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافًا كثيرة.

وقد سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: ((**أدومه وإن قل**))(٣).

---

(١) فيض القدير (٢/١٨٨).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٨/٤٠٦)، وانظر: الاستذكار، لابن عبد البر (٢/٨٨). وفي (تفسير الطبري): "عن مطرف بن عبد الله، قال: خير هذه الأمور أوساطها، والحسنة بين السيئتين. فقلت لقتادة: ما الحسنة بين السيئتين؟ فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [الفرقان:٦٧]..الآية". تفسير الطبري (١٩/٣٠٠). وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوجه ابنته فاطمة: ما نفقتك؟ فقال له عمر الحسنة بين السيئتين، ثم تلا الآية. انظر: الكشاف (٣/٢٩٣)، ابن عطية (٤/٢٢٠)، تفسير النسفي (٢/٥٤٩)، البحر المحيط في التفسير (٨/١٢٨)، الجواهر الحسان، للثعالبي (٤/٢١٨)، فيض القدير، للمناوي (٢/١٨٨).

(٣) صحيح مسلم [٧٨٢، ٢٨١٨].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل عليها وعندها امرأة، قال: ((**من هذه؟**))، قالت: فلانة، تذكر من صلاتها، قال: ((**مه، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا**))، وكان أحب الدين إليه مادام عليه صاحبه(١).

ولما رأى في بعض أصحابه إفراطًا في التَّعبد والصِّيام والقيام على حساب جسمه وأهله، قال له: ((**إن لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا، وإن لزورك عليك حقًّا**))(٢). كما الأفعال متعارضة المصالح والمفاسد. وليس كل ذلك معلومًا لنا، ولا مستحضرًا، وإذا تعارضت المصالح والمفاسد، فمقدار تأثير كل واحد منها غير محقق لنا. فالطريق حينئذ أن نفوض الأمر إلى صاحب الشرع. أما إذا تعارضت المصالح فيقدم أولاها وأقواها، ففي الحديث: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السفر، فمنا الصائم ومنا المفطر، قال: فنزلنا منزلًا في يوم حار، أكثرنا ظلًّا صاحب الكساء، ومنا من يتقي الشمس بيده، قال: فسقط الصُّوَّام، وقام المفطرون، فضربوا الأبنية، وسقوا الركاب، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ذهب المفطرون اليوم بالأجر**))(٣).

وقيل لعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّك لتقل الصوم، فقال: "إنه يضعفني عن قراءة القرآن، وقراءة القرآن أحبُّ إليَّ منه"(٤).

---

(١) صحيح البخاري [٤٣، ١١٥١، ٥٨٦١]، مسلم [٧٨٢، ٧٨٥]. ((تذكر من صلاتها))، أي: من كثرة صلاتها، وأنها لا تنام الليل. (مه) اسم فعل بمعنى: اكفف. (عليكم بما تطيقون): اشتغلوا بما تستطيعون المداومة عليه من الأعمال. ((لا يمل الله حتى تملوا)): لا يقطع عنكم ثوابه إلَّا إذا انقطعتم عن العمل بسبب إفراطكم فيه. (إليه) إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي رواية: (إلى الله).

(٢) صحيح البخاري [١٩٧٥، ٦١٣٤].

(٣) صحيح البخاري [٢٨٩٠]، مسلم [١١١٩]، واللفظ له.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة [٨٩٠٩]، وابن جرير كما في (كنز العمال) [٢١٦٤٢]، والطبراني في (الكبير) [٨٨٦٨]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٨٦٢]. قال الحافظ ابن حجر: "رواه سعيد بن منصور بإسناد صحيح" فتح الباري (٤/٢٢٣).

وقال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: "أكره التقلل من الطعام؛ فإن أقوامًا فعلوه، فعجزوا عن الفرائض"(١).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذا صحيح؛ فإن المتقلل لا يزال يتقلل إلى أن يعجز عن النوافل، ثم الفرائض، ثم يعجز عن مباشرة أهله وإعفافهم، وعن بذل القوى في الكسب لهم، وعن فعل خير قد كان يفعله"(٢).

وفي المقابل جاء التحذير من مجاوزة الحد في الشهوات؛ فإن الاشتغال بفتن الدنيا، ومطالب الجسد، وشهوات النفس مما يضعف البدن، ويصدُّ عن الحقِّ، يقول النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ما ملأ آدمي وعاء شرًّا من بطن. بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لِنَفَسِه**))(٣).

وقد قيل: الشبع يثقل البدن، ويقسي القلب، ويزيل الفطنة، ويجلب النوم، ويضعف عن العبادة(٤).

وفي (الصحيحين) عن نافع، قال: كان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لا يأكل حتى يُؤْتَى بمسكين يأكل معه، فَأَدْخَلْتُ رجلًا يأكل معه فأكل كثيرًا، فقال: يا نافع، لا تُدْخِلْ هذا عَلَيَّ، سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**المؤمن يأكل في مِعًى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء**))(٥).

---

(١) انظر: صيد الخاطر، لابن الجوزي (ص:٤٥).

(٢) المصدر السابق (ص:٤٥).

(٣) تقدم تخريج الحديث.

(٤) نسب هذا القول إلى الإمام الشافعي. انظر: جامع العلوم والحكم (٢/٤٧٤)، حلية الأولياء (٩/١٢٧)، آداب الشافعي ومناقبه، لابن أبي حاتم (ص:٧٨)، إحياء علوم الدين (١/٢٤)، تاريخ دمشق (٥١/٣٩٤)، سير أعلام النبلاء (٨/٢٤٨)، طبقات الشافعيين، لابن كثير (ص:٢٢)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (٥/١٤٦).

(٥) صحيح البخاري [٥٣٩٣، ٥٣٩٤، ٥٣٩٦، ٥٣٩٧]، مسلم [٢٠٦٠، ٢٠٦١، ٢٠٦٢].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمراد أن المؤمن يأكل بأدب الشرع، فيأكل في معى واحد، والكافر يأكل بمقتضى الشهوة والشره والنهم، فيأكل في سبعة أمعاء"(١).

وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ النفس إذا جاعت وعطشت، صفا القلب ورق، وإذا شبعت ورويت، عمي القلب، وقال: مفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع(٢).

فتبين مما سبق أنَّ مجاوزة القصد في الفعل قد تكون سببًا للانتكاس، وأن الاستقامة على العمل أو القليل منه خير من الإفراط الذي يؤول إلى الانقطاع الكلي، أو إلى الإضرار بالنفس أو الغير، وأن السبيل إلى ذلك الاعتدال، ويكون في اتباع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هديه وسننه.

ولكن وقعت مبالغات في الفهم والتطبيق كانت سببًا للانتكاس بعد الهداية، ومن أهمها:

أ. المبالغة في الجوانب الشَّكلية.

ب. الموقف السَّلبي من المجتمع من نحو المبالغة في التَّشدد والغلوّ، أو التَّسرع في الإنكار من غير حكمةٍ أو فهمٍ للواقع، أو مراعاةٍ لأحوال الناس.

ج. الموقف السَّلبي من الدُّنيا من نحو المبالغة في الزُّهد –كما تقدم–، وتعطيل قواه عن عمارة الأرض أو السَّعي والعمل فيها، أو التركيز على الجوانب الشَّرعية دون الاستفادة من العلوم الأخرى، ومواكبة الحضارة.

د. الوقوف عند ظواهر النصوص دون فهم مقاصدها.

هـ. تضخيم صغير القضايا، وعكسه.

و. الحكم من زاوية واحدة.

ز. تحجير واسع الشرع.

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/٤٧٤– ٤٧٥).

(٢) المصدر السابق (٢/٤٧٤).

ح. إعلاء الطائفية أو الحزبية أو القبلية بحيث يعقد الولاء والبراء على طائفة معينة، أو على حزب معين.

ط. التركيز على العبادات الظَّاهرة وإهمال العبادات القلبية.

ي. التركيز على نصوص الترهيب والوعيد والتخويف وإهمال نصوص الترغيب والوعد والرجاء.

ك. الجمود والتقليد دون تبصر.

ل. التمسك بوسائل قديمة في البحث، ورفض الوسائل الحديثة النافعة كالكومبيوتر ووسائل الاتصال الحديثة مثلًا من حيث استخدامها في الأمور النافعة.

م. الزيغ في العقيدة، وإتباع الهوى، وأخذ بعض القرآن وترك بعضه.

ثالثًا: الوقاية من آفات المفاهيم الخاطئة لمعنى الاستقامة والعلاج:

١ - ملازمة الصِّراط المستقيم، والبناء على أساسٍ سليمٍ من العلمِ والفقه والمعرفة، والاحتراز عن الطُّرق الملتوية التي تُضلُّ الباحث:

فلا يوفَّقُ الباحثُ للاهتداء إلى الحقِّ باتِّباع سبلٍ متفرِّقة يتيه فيها بين المذاهبِ والفِرق التي ضَلَّت عن الحقِّ، فيضيع العمر دون التبين والاهتداء، وقد حذَّرنا الله تعالى من اتِّباع سبلٍ متفرقة تُضِلُّ الباحثَ عن الحقِّ، فقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣]. وقد جاء ذلك المعنى مبينًا في عقبة (تفرق السبل) وفي غير موضع من البحث.

٢ - الإخلاصُ في طلب الاستقامة، والسَّداد في القول والفعل:

أمرنا رسولنا الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتحري السَّداد في القول والفعل في قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**سَدِّدُوا وقَارِبُوا**))(١). أي: اطلبوا السَّداد، وهو الصَّواب، وذلك بين الإفراط والتفريط لا غلو ولا تقصير. وقوله: ((**وقاربوا**))، أي: إن عجزتم عن السَّداد

---

(١) صحيح البخاري [٦٤٦٣، ٦٤٦٤، ٦٤٦٧]، مسلم [٢٨١٨].

فقاربوه، أي: اقربوا منه، وهو مثل قوله في حديث آخر: ((**استقيموا ولن تحصوا**))(١)، أي: وجوه الاستقامة، فغاية الأمر أن تقدروا على مقاربة الاستقامة(٢). قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فالسداد: هو حقيقة الاستقامة، وهو الإصابة في جميع الأقوال والأعمال والمقاصد"(٣). وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمطلوب من العبد: الاستقامة. وهي السَّداد. فإن لم يقدر عليها فالمقاربة. فإن نزل عنها: فالتفريط والإضاعة. وأخبر في حديث ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنهم لا يطيقونها. فنقلهم إلى المقاربة. وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم. كالذي يرمي إلى الغرض، فإن لم يصبه يقاربه"(٤).

٣ - "الفهم الدَّقيق الواعي لحقيقة الدنيا والآخرة، وعلاقة كل منهما بالأخرى، وسبل تحقيق التوازن بينهما"(٥)، والبعدُ عن الغلوّ والتَّشدد برعاية حدِّ التَّوسط في كلِّ الأمور الدِّينية والدُّنيوية:

وقد ربط الإسلام الإنسان بغاياتٍ ومقاصدَ سامية، وهو يحقق توازنًا بين الروح والمادة، وبين الدِّين والدُّنيا، وبين القيم والحاجات، وبين العاطفة والعقل. والإنسان كما أراده الله ﷻ ليس الذي ينقطع عن العالم، وينسحب من الحياة، ويتفرَّغ للعبادة، ويتعطَّل فلا يعمل، بل أوجدَ الإسلامُ توازنًا بين القيم الرُّوحية والقيم الماديَّة، وقرَّرَ أنَّ أيَّ طغيانٍ لأحدهما على الآخر يؤدي إلى خللٍ كبير في الحياتين -الروحية والمادية- معًا.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٠٤٠]، والطيالسي [١٠٨٩]، وأحمد [٢٢٣٧٨]، والدارمي [٦٨١]، وابن ماجه [٢٧٧]، وابن حبان [٨]، والطبراني [١٤٤٤]، والحاكم [٤٤٧]، والبيهقي [٣٨٤] عن ثوبان، وله طرق أخرى. قال الإمام الزيلعي: "روي من حديث ثوبان ومن حديث جابر ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ومن حديث سلمة بن الأكوع ومن حديث أبي أمامة" تخريج أحاديث الكشاف (٢٣٢/٢)، وفي (الزوائد) (٤١/١): "رجاله ثقات أثبات، إلا أنه منقطع بين سالم وثوبان، فإنه لم يسمع منه بلا خلاف، لكن له طرق أخرى متصلة".

(٢) انظر: طرح التثريب في شرح التقريب (٢٤١/٨)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (١٧٧/٨)، شرح النووي على صحيح مسلم (١٦٢/١٧).

(٣) جامع العلوم والحكم (٥١١/١).

(٤) مدارج السالكين (١٠٥/٢-١٠٦).

(٥) انظر: آفات على الطريق (ص:١٨٦).

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أما من بالغ في الجوع كما يفعله الرهبان، ورفض سائر الدنيا، ومألوفات النفس، من الغذاء والنوم والأهل، فقد عرض نفسه لبلاء عريض، وربما خُولِطَ في عقله، وفاته بذلك كثير من الحنيفية السمحة، وقد جعل الله ﷻ لكل شيء قدرًا، والسعادة في متابعة السنن، فَزِنِ الأمورَ بالعدل، وصم وأفطر، ونم وقم، والزم الورع في القُوْت، وارض بما قسم الله لك، واصمت إلا من خير"[1]. والحاصل الفهم الواعي

٤ – الدُّعاء والاستغفار والصَّلاة:

الدُّعاء صلةٌ بين العبدِ وربِّه ﷻ، وهو يجعلُ العبدَ قريبًا من ربِّه ﷻ، وخير الدُّعاء وأنفعه: أن يسألَ العبدُ ربَّه الهداية إلى طريقِ الاستقامة، وأن يوفقه الله تعالى إلا استخلاص الحق والثبات عليه، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يوفِّقه ويعينه ما دام مخلصًا لربِّه سبحانه في سؤاله الاستقامة والثبات على طاعته وشرعه، وقد أرشدنا اللهُ ﷻ إلى خير ما يسألُ العبدُ ربَّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة:٦-٧]، ولأهمية ذلك الدعاء فإنه يكرر في كلِّ ركعةٍ من الصلاة.

والصَّلاة خيرَ الأعمال التي تقرُّب من الله ﷻ، وتجعلُ المؤمن مع موعدٍ متجددٍ مع ربِّه ﷻ، والدُّعاءُ والصَّلاةُ وسائرُ العبادات تُنَمِّي في العبدِ شعورَ المراقبة، ذلك الشُّعور الذي يدفع العبد إلى فعل الخيرات وترك المنكرات. قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]. وفي الحديث: ((**استقيموا، ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**))[2].

ولما كان من طبيعة الإنسان أنه قد يقصِّر في فعل المأمور، أو اجتناب المحظور، وهذا خروج عن الاستقامة، أرشده الشرع إلى ما يعيده لطريق الاستقامة من الاستغفار والتوبة؛ لأنَّ ذنوب العبد قد تحرمه التوفيق، فإذا ألزم العبدُ قلبَه الاستغفار، فإن كان محتارًا

---

(١) سير أعلام النبلاء (٦٦/١٤).

(٢) تقدم تخريجه.

هُدِي، وإن كان مضطربًا سَكَن. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن اتصف بهذه الصفة -أي: صفة الاستغفار- يسَّرَ الله عليه رزقه، وسهَّل عليه أمره، وحفظ عليه شأنه وقوته"(١).

و"في قوله ﷻ: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت:٦] إشارة إلى أنه لا بد من تقصير في الاستقامة المأمور بها، فيجبر ذلك بالاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة"(٢).

٥ – التَّأكد من صِحَّة النَّقل، ودرء التَّعارض بين العقل والنَّقل، وقراءة النَّقل بالعقل، وتقويم العقل بالنقل، والاستضاءة بأنوار الوحي من الكتاب وصحيح السنة:

قال الله ﷻ: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾ [المائدة:١٥-١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِي هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

وقد قيل: الاستقامة ضدُّ الاعوجاج، وهي مرور العبد في طريق العبوديَّة بإرشاد الشَّرع والعقل(٣).

٦ – إدراك أن العقل وحده لا يحيط بجميع المطالب.

٧ – النَّظرُ بعين البصيرة إلى العاقبة:

لا يخفى على العبدِ الفَطِن أنَّه لا بدَّ من الاستقامة لأجل النَّجاة والفلاح، وأنَّ ما يقابلها: الانحرافُ والزَّيغ والضَّلال. وقد صرَّح سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمدح المستقيمين، وبيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه يتولاهم بعنايته وتوفيقه في الدُّنيا، ويتغمدهم برحمته ويكرمهم بجزيل عطائه في الآخرة، فما أحسنها من عاقبة!!

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٢٩).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/٥١٠).

(٣) التعريفات (ص:١٩).

قال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [فصلت:٣٠-٣١]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف:١٣-١٤].

ومن اهتدى فإنه ينتفع بالهداية والاستقامة لنفسه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس:١٠٨]. قال أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى ذكره لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ﴾، يا محمد، للناس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، يعني: كتاب الله، فيه بيان كل ما بالناس إليه حاجة من أمر دينهم. ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾، يقول: فمن استقام فسلك سبيل الحق، وصدَّق بما جاء من عند الله من البيان. ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾، يقول: فإنما يستقيم على الهدى، ويسلك قصد السبيل لنفسه، فإياها يبغي الخيرَ بفعله ذلك لا غيرها. ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾، يقول: ومن اعوج عن الحق الذي أتاه من عند الله، وخالف دينَه، وما بعث به محمدًا والكتابَ الذي أنزله عليه. ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾"(١). وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء:١٥].

٨ - القدوةُ النَّافعة، والحذرُ من أئمَّة الضَّلال:

وقد جاء مبينًا في عقبة (القدوة السيئة) وفي غير موضع من البحث.

٩ - أن يحذر السَّالكُ كيدَ الشيطان ووسوسته وخطواته.

١٠ - مطالعة سير السَّلف الصَّالح ممن عرفوا بدقة الفهم والاستقامة، والحرص على تنظيم دروسٍ تُذكِّرُ بِسِيَرِهم واستقامتهم.

١١ - "محاسبة النفس للوقوف على جوانب الضعف والخلل فيها.

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٢٢٠).

١٢ – التَّذكير الدَّائم بفوائد وثمرات التطبيق والعمل، وبعواقب ومضار إهدار هذا الالتزام، أو التخلي عنه.

١٣ – الاستعانة بالله ﷻ واللجوء إليه"[1].

١٤ – معاملة المتنطعين أو المغالين في الدِّين برفقٍ وحكمة، والعمل على توسيع مداركهم وتأهيلهم بالعلم والتربية، وتبصريهم بآفات وآثار الغلوّ والتَّشدد على الفرد وعلى المجتمع.

١٥ – العناية بمصادر الإعلام والتَّثقيف والتوعية، ومكافحة الغلوّ والتَّشدد والفراغ من خلال التربية والتَّعليم والعمل النافع، وتنظيم البرامج والدَّورات التَّثقيفية.

١٦ – العناية بالترفيه الهادف.

(١) انظر: آفات على الطريق (ص:١٨٩).

العقبة الرابعة والعشرون

الافتتان بعلوم الفلسفة

أولًا: تعريف الفلسفة:

الفلسفة: قيل هي الحِكْمة، وهي مشتقة من كلمة يونانية: (فَيْلا) و(سُوفا) أو (سوفيا)، وتفسيرها: محبّة الحكمة. فلما أعربت قيل: فيلسوف، ثم اشتقت الفلسفة منه، وهي مُرَكَّبَةٌ، كالحَوْقَلَة[١].

وقد اختلف في تعريفها في الاصطلاح. فقيل: هي علم حقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح[٢].

وقيل: هي دراسة المبادئ الأولى وتفسير المعرفة تفسيرًا عقليًّا. وكانت تشمل العلوم جميعًا، واقتصرت في هذا العصر على المنطق والأخلاق وعلم الجمال وما وراء الطبيعة. و(الفيلسوف): العالم الباحث في فروع الفلسفة[٣].

وقيل: هي العلم الذي يبحث فيه عن حقائق الأشياء على ما هي عليه بقدر الطاقة البشرية.

وقيل: هي البحث العقلي عن حقائق الأشياء، لمعرفة السبيل إلى الخير.

وقيل: هي البحث عن حقائق الأشياء أو الموجودات ونظامها الجميل لمعرفة المبدع الأول.

وقيل: العلم بالأسباب القصوى، أو علم الموجود بما هو موجود.

---

(١) انظر: المحكم والمحيط الأعظم (٦٥٣/٨)، مادة: (فلسف)، لسان العرب (٢٧٣/٩)، المحيط، للفيروزآبادي (ص:٨٢٢)، العباب الزاخر (٤٤٠/١)، تاج العروس (٤٧٦/٢٣)، مفاتيح العلوم (ص:١٥٣)، وانظر: التفكير الفلسفي في الإسلام، للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود (ص:١٦٣).

(٢) انظر: مفاتيح العلوم (ص:١٥٣).

(٣) المعجم الوسيط، مادة: (فلسف) (٧٠٠/٢).

وقيل: علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان.

وقيل: الوقوف على حقائق الأشياء كلها على قدر ما يمكن الإنسان أن يقف عليه.

وقيل: التناول العلمي للمسائل العامة المتعلقة بمعرفة العالم والنظرة إلى الحياة.

وقيل غير ذلك، وبعض ما قيل لا يستقيم[1].

وقال ابن خلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المقدمة): "وأما العلوم العقلية التي هي طبيعة للإنسان، من حيث إنه ذو فكر فهي غير مختصة بملة، بل يوجد النظر فيها لأهل الملل كلهم، ويستوون في مداركها، ومباحثها، وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليقة، وتسمى هذه العلوم: علوم الفلسفة والحكمة"[2].

"وهكذا نجد أنه ليس من السهل إعطاء تعريف للفلسفة يتفق عليه الجميع. ولعل الصعوبة في العثور على تحديد أو تعريف متفق عليه لمفهوم الفلسفة يرجع إلى أن مفهوم الفلسفة ذاته يعد موضوعًا فلسفيًّا، ومن هنا لا نعجب إذا ذهبت وجهات النظر في شأنه مذاهب شتى، شأنه في ذلك شأن أي موضوع فلسفي آخر"[3].

(١) انظر: معجم مقاليد العلوم (ص:١٣١)، التعريفات، للجرجاني (ص:١٦٩)، التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٦٤)، وانظر: جامع العلوم في اصطلاحات الفنون (١/١٠٧).

(٢) مقدمة ابن خلدون (٢/٢٤٨)، وانظر: كشف الظنون (١/ ٦٧٦).

(٣) تمهيد للفلسفة، للأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق (ص:٣٥)، بتصرف يسير. وانظر: كذلك: (محاولة جديدة لتعريف الفلسفة) (ص:٣٦) من الكتاب نفسه. وانظر: التفكير الفلسفي في الإسلام، للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود (ص:١٦٥).

ثانيًا: خطورة الافتتان بعلوم الفلسفة:

إنَّ الافتتان بالفلسفة، والاشتغال بأقوال الفلاسفة وكل قِيْلٍ وقَال فيه ما فيه من الإفساد والإضاعة للعمر، وهو من أسباب السقوط في أودية الضلال. وقد قال الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقد اختلف العلماء في حكم دراسة علوم الفلسفة. فمنهم من أشار إلى أهميتها من حيث كونها من علوم الآلة، ولكنَّه اشترط فيمن يعالج الفلسفة شروطًا كما سيأتي.

وفي المقابل فقد ذهب آخرون إلى تحريم علوم الفلسفة مطلقًا؛ لأنَّ من يخوض فيها لا يأمن على نفسه من الافتتان بها.

وقد انتصر للرأي الأول ابن رشد، فهو يرى أنَّ النَّظر العقلي وما يوجه إليه من دراسة البراهين ومقدماتها واجب شرعًا؛ لأنَّ الشرع أمر بالنَّظر في الموجودات، والنَّظر لا يتوفر إلَّا بمعرفة وسائل هذا النظر مما حوته الفلسفة. وأنَّ من كان متأهلًا للنظر فيها ينبغي أن يجتمع فيه أمران: الأول: ذكاء الفطرة. والثاني: العدالة الشرعية، والفضيلة الخلقية.

فقد صدَّ الناس عن الباب الذي دعا الشرع منه الناس إلى معرفة الله ﷻ، وهو باب النظر المؤدي إلى معرفته حق المعرفة. وذلك غاية الجهل، والبعد عن الله تعالى[1].

وكون النظر العقلي لم يكن موجودًا في عصر الرسول ﷺ لا يبرر منع النظر؛ فبعض العلوم الشرعية كعلوم الحديث وغيرها لم يكن موجودًا كذلك.

ودعوى أن النظر العقلي الفلسفي لم يرد به كتاب ولا سُنَّة ليس مسلَّمًا؛ لأنَّ الأمر بالنظر العقلي وارد في أكثر من موضع كما سبق، بل إن القرآن الكريم يجعل تعطيل النظر من سمات الكافرين حيث يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ

(١) انظر: فصل المقال (ص:٢٨- ٢٩)، الفلسفة الإسلامية، للأستاذ الدكتور عبد المعطي بيومي (ص:١٨).

لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩](١).

وقد اشترط العلماء –ممن أجاز– فيمن يتصدى الفلسفة شروطًا، منها:

١ – سلامة العقل وذكاؤه.

٢ – قوة الإيمان والفضيلة.

٣ – عدم التأثر بالآراء.

٤ – أن لا تكون دراسة هذه العلوم على سبيل الافتتان بها.

٥ – أن لا تكون دراسة هذه العلوم على حساب العلوم الأخرى الرئيسية.

٦ – أن لا تتسبب دراسة تلك العلوم بتضييع الحقوق، وهدر الوقت.

٧ – أن لا تكون هذه العلوم غاية، وإنما وسيلة وآلة.

وفي مقابل رأي ابن رشد يقول الإمام السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وتحرم علوم الفلسفة كالمنطق بإجماع السَّلف، وأكثر المعتبرين من الخلف، وممن صرح بذلك ابن الصلاح(٢) والنووي، وخلق لا يحصون(٣).

---

(١) انظر: الفلسفة الإسلامية، للدكتور عبد المعطي بيومي (ص:١٤).

(٢) ومن فتاوى ابن الصلاح أنه سئل عمن يشتغل بالمنطق والفلسفة فأجاب: "الفلسفة أس السفه والانحلال، ومادة الحيرة والضلال، ومثار الزيغ والزندقة، ومن تفلسف، عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المؤيدة بالبراهين، ومن تلبس بها، قارنه الخذلان والحرمان، واستحوذ عليه الشيطان، وأظلم قلبه عن نبوة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلى أن قال: واستعمال الاصطلاحات المنطقية في مباحث الأحكام الشرعية من المنكرات المستبشعة، والرقاعات المستحدثة، وليس بالأحكام الشرعية –ولله الحمد– افتقار إلى المنطق أصلًا، هو قعاقع قد أغنى الله ﷻ عنها كل صحيح الذهن، فالواجب على السلطان أعزه الله ﷻ أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المشائيم، ويخرجهم من المدارس ويبعدهم". أدب المفتي والمستفتي، لابن الصلاح (ص:١٦)، سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٤٣/٢٣)، تاريخ الإسلام، للذهبي (٤٥٥/١٤).

(٣) ذكر صاحب (السلم المنورق) الخلاف في تعلم المنطق فقال:

والخلف في جواز الاشتغال	به على ثلاثة أقوال
فابن الصلاح والنواوي حرما	وقال قوم ينبغي أن يعلما
والقولة المشهورة الصحيحة	جوازه لكامل القريحة
ممارس السنة والكتاب	ليهتدي به إلى الصواب=

وقد جمعت في تحريمه كتابًا نقلت فيه نصوص الأئمة في الحطِّ عليه[1].

=فيرى أن المختار الصحيح جوازه لذكي القريحة، صحيح الذهن، سليم الطبع، ممارس الكتاب والسنة؛ لئلا يؤول به إلى اتباع بعض الطرق الوهمية، فيفسد المقدمات والأقيسة النظرية، فتزل قدمه في بعض الدركات السفلية. ولا مانع من دراسة المواد الفلسفية إذا كانت الدراسة للإحاطة بالأفكار ومقارنتها بالدين، فإن كانت متفقة معه قبلت وإلا رفضت، مع بيان وجه رفضها، وعلى هذا الأساس ألفت كتب في الملل والنحل والعقائد المختلفة –الصحيح منها والباطل– وناقشها العلماء مناقشة علمية على ضوء الدين والعقل الصحيح. أما دراستها لمن لا يعرف الحق من الباطل، وترك الباطل منها دون بيان بطلانه ففيها ضرر كبير. والقرآن الكريم نفسه ذكر عقائد المشركين، والمنكرين لوجود الله والدهريين والمنكرين للبعث والحساب وغيرهم، وذكر الأدلة على بطلان ما يعتقدون، كما ذكر الأدلة على العقائد الصحيحة التي جاء بها الإسلام..الخ.

(١) للسيوطي: (صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام) قال في (كشف الظنون) (٢/١٠٨٤): "مجلد للسيوطي ذكره في (فهرس مؤلفاته) في: فن الفقه" اهـ. وهو مخطوط في (الأزهرية)، رقم [٣١٦١٥١]، [ب:٤]، وقد طبع في دار الكتب العلمية. بيروت، بتحقيق: أحمد فريد المزيدي. و(فهرس مؤلفاته) مخطوط في (الأزهرية) رقم [٣١٠١٨٦]، وللسيوطي (جهد القريحة في تجريد النصيحة) قال: في (فهرس مؤلفاته) [ب:٤]: "وهو مختصر نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق أهل اليونان لابن تيمية". وهو مطبوع مع (صون الكلام). قال السيوطي في (الحاوي): " فن المنطق فن خبيث مذموم يحرم الاشتغال به؛ مبني بعض ما فيه على القول بالهيولي الذي هو كفر يجر إلى الفلسفة والزندقة، وليس له ثمرة دينية أصلًا، بل ولا دنيوية، نص على مجموع ما ذكرته أئمة الدين وعلماء الشريعة فأول من نص على ذلك: الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ونص عليه من أصحابه إمام الحرمين، والغزالي في آخر أمره، وابن الصباغ صاحب الشامل، وابن القشيري، ونصر المقدسي، والعماد بن يونس، وحفده، والسلفي، وابن بندار، وابن عساكر، وابن الأثير، وابن الصلاح، وابن عبد السلام، وأبو شامة، والنووي، وابن دقيق العيد، والبرهان الجعبري، وأبو حيان، والشرف الدمياطي، والذهبي، والطيبي، والملوي، والإسنوي، والأذرعي، والولي العراقي، والشرف بن المقري، وأفتى به شيخنا قاضي القضاة شرف الدين المناوي، ونص عليه من أئمة المالكية ابن أبي زيد صاحب (الرسالة)، والقاضي أبو بكر بن العربي، وأبو بكر الطرطوشي، وأبو الوليد الباجي، وأبو طالب المكي صاحب (قوت القلوب)، وأبو الحسن بن الحصار، وأبو عامر بن الربيع، وأبو الحسن بن حبيب، وأبو حبيب المالقي، وابن المنير، وابن رشد، وابن أبي جمرة، وعامة أهل المغرب. ونص عليه من أئمة الحنفية أبو سعيد السيرافي، والسراج القزويني، وألف في ذمه كتابًا سماه: (نصيحة المسلم المشفق لمن ابتلى بحب علم المنطق). ونص عليه من أئمة الحنابلة: ابن الجوزي، وسعد الدين الحارثي، والتقي ابن تيمية، وألف في ذمة ونقض قواعده مجلدًا كبيرًا سماه: (نصيحة ذوي الأيمان في الرد على منطق اليونان)، وقد اختصرته في نحو ثلث حجمه، وألفت في ذم المنطق مجلدًا سقت فيه نصوص الأئمة في ذلك.." الحاوي للفتاوي، للسيوطي (١/٢٤٤- ٢٤٥).

وذكر الحافظ سراج الدين القزويني رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الحنفية في كتاب ألفه[١] في تحريمه أن الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ رجع إلى تحريمه بعد ثنائه عليه في أول (المستصفى)[٢]، وجزم السلفي من أصحابنا، وابن رشد من المالكية[٣] بأن المشتغل به لا تقبل روايته"[٤].

والحاصل أن الافتتان بعلوم الفلسفة صادٌّ عن الحقِّ بالاتفاق، ومشوشٌ للفكر، وهو من أسبابِ السقوط في متاهات، ومزالق، ومن أسباب التخبط والصراع الفكري، والتفرق بين سبل مختلفة وملتوية ومتناقضة، وفي ذلك إضاعة للجهد والعمر، وهدر للوقت.

ولا يخفى أن من الفلسفة ما يتجاوزُ حدودَ العقل، ولا يرتكز على وحي معصوم، إنما يقوم على نتاج العقول، والعقول مهما بلغت فلن تستقلَّ بمعرفة الإلهيات والشَّرائع، وحقائق الكون، وصحَّة النظر بكل حال؛ ولهذا فإن الاختلاف، والافتراق هو دأب الفلاسفة في هذا المجال، وترى المتأخر منهم ربما يهدم ما أتى به المتقدم.

فتحصَّل مما تقدم أن تلك أقوالهم متبدلة ومتناقضة وغير ثابتة، فلكل فيلسوف وجهته وثقافته. وقد كثرت الأقوال والنَّظريات إلى أن بلغت مبلغًا عظيمًا، فلا حدود لما يقال.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وصف هؤلاء: "إنك تجدهم أعظم الناس شكًّا واضطرابًا، وأضعف الناس علمًا ويقينًا، وهذا أمر يجدونه في أنفسهم، ويشهده النَّاس منهم، وشواهد ذلك أعظم من أن تذكر هنا. وإنما فضيلة أحدهم باقتداره على الاعتراض والقدح والجدل. ومن المعلوم: أنَّ الاعتراض والقدح ليس بعلم، ولا فيه منفعة، وأحسن أحوال صاحبه: أن يكون بمنزلة العامي، وإنما العلم في جواب السؤال؛ ولهذا تجد غالب حججهم تتكافأ؛ إذ كل منهم يقدح في أدلة الآخر"[٥].

---

(١) للسراج القزويني: (نصيحة المسلم المشفق لمن ابتلي بحب المنطق)، وهو: عمر بن عبد الرحمن المتوفى سنة [٧٤٥] ذكره السيوطي في: (القول المشرق). انظر: كشف الظنون (٢/١٩٥٨).

(٢) ذكر الإمام الغزالي أن من لم يعرف المنطق فلا ثقة له في العلوم أصلًا. انظر: المستصفى (١/١٠).

(٣) يعني: الجد، وهو عكس رأي الحفيد في (فصل المقال) وغيره.

(٤) إتمام الدراية لقراء النقاية، للسيوطي، تحقيق: د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، د. عبد الرقيب صالح الشامي، وفضيلة الشيخ مصطفى محمود سليخ (٢/٤٩٩-٥٠٠).

(٥) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٧-٢٨).

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن كلامهم في الإلهيات مثلًا: إنهم لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم، بل انفردوا بمذاهب بعضها كفر وبعضها بدعة.

ووصف كلامهم في الطبيعيات مثلًا بأن بعضه مخالف للشرع والدين والحق فهو جهل وليس بعلم..إلى غير ذلك(١).

وذكر الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الفلاسفة مختلفون ومتنازعون، وأنَّ مناهجهم وطرقهم متباعدة ومتنافرة، يقول: "ليعلم أن الخوض في حكاية اختلاف الفلاسفة تطويل؛ فإن خبطهم(٢) طويل، ونزاعهم كثير، وآراؤهم منتشرة، وطرقهم متباعدة متدابرة"(٣).

وبيَّن أنَّ مذاهب الفلاسفة لا يقين فيها ولا ثبات، يقول: "لا تثبت ولا إتقان لمذهبهم عندهم ، وأنهم يحكمون بظنٍّ وتخمين، من غير تحقيق ويقين، ويستدلون على صدق علومهم الإلهية بظهور العلوم الحسابية والمنطقية، ويستدرجون به ضعفاء العقول، ولو كانت علومهم الإلهية متقنة البراهين، نقية عن التخمين، كعلومهم الحسابية، لما اختلفوا فيها كما لم يختلفوا في الحسابية"(٤).

ثالثًا: الوقاية من الافتتان بعلوم الفلسفة والعلاج:

١ - إدراك أن العقل ليس مستقلًّا بالإحاطة بجميع المطالب، ولا كاشفًا للغطاء عن جميع المعضلات.

٢ - الاحتراز عن الطُّرق الملتوية التي تُضلُّ عن الصراط المستقيم، وتستنفذُ الطَّاقة والجهد، وتُضيِّع العمر، وطريق الهداية واضح وميسر، والباطل مختلط ومعسَّر.

---

(١) انظر ذلك مفصلًا في (إحياء علوم الدين) (١/٢٢-٢٣).

(٢) وفي نسخة: (خطبهم).

(٣) تهافت الفلاسفة، الطبعة الرابعة (ص:٧٦).

(٤) المصدر السابق (ص:٧٦-٧٧).

وقد ضلَّ كثيرون بسبب اقتفائهم لآثار الفلاسفة، والتأثر بهم، وإعراضهم عن منهج الله ﷻ، يقول الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

٣ - القدوةُ النَّافعة من أئمَّة الهدى، والحذرُ من أئمَّة الضَّلال كما جاء مبينًا في (عقبة القدوة السيئة).

٤ - التَّحذير من آفات الافتتان بعلوم الفلسفة، وهو أساس لا بدَّ منه في التربية.

٥ - لا يَسْلَمُ من آفاتِ الفلسفة ممن تصدَّى لتعلُّم الفلسفة، أو المناظرة إلَّا من اجتمعت فيه الشُّروط الآنفة الذِّكر.

٦ - الإعراض عن النظر في كتبهم، والتتبع لكلامهم.

العقبة الخامسة والعشرون

اتباع الظن المنهي عنه

أولًا: بيان معنى الظن:

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الظن معروف، وقد يوضع موضع العلم"(١). وقال الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الظن: هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، ويستعمل في اليقين والشك"(٢).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الظن في الأصل: قوة أحد الشيئين على نقيضه في النفس. والفرق بينه وبين الشك. أن الشك: التردد في أمرين لا مزية لاحدهما على الآخر. والتظني: أعمال الظن. والأصل: التظنن. والظنون: القليل الخير. ومظنة الشيء: موضعه ومألفه. والظنة: التهمة. والظنين: المتهم"(٣). ومنه قوله ﷻ: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بظنين﴾ [التكوير:٢٤]، أي: بمتهم(٤). وبئر ظَنُونٌ: لا يُوثَقُ بمائها. ورجل ظَنُونٌ: لا يوثق بخبره(٥).

وقد وردت كلمة: (الظن) في القرآن الكريم في أكثر من آية وبأكثر من معنى. قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وذكر أهل التفسير أن الظن في القرآن على خمسة أوجه:

أحدها: الشك. ومنه قوله ﷻ في (البقرة): ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨]، وفي الجاثية: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ [الجاثية:٣٢].

---

(١) الصحاح، مادة: (ظن) (٦/ ٢١٦٠).

(٢) التعريفات (ص:١٤٤)، وانظر: المفردات، مادة: (ظن) (ص:٥٣٩)، بصائر ذوي التمييز (٣/٥٤٥-٥٤٧)، التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٣١).

(٣) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر (ص:٤٢٤).

(٤) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي (بظنين) بالظاء، والباقون بالضاد. انظر: التيسير في القراءات السبع (ص:٢٢٠)، "ومعنى بظنين بالظاء من الظِّنَّة، وهي التهمة؛ أي: ما هو بمتهم على ما لديه من علم الغيب الذي يأتيه من قبل الله ﷺ، ومعناه بالضاد ببخيل؛ أي: لا يبخل بشيء منه بل يبلغه كما أمر به؛ امتثالًا لأمر الله تعالى، وحرصًا على نصح الأمة" إبراز المعاني من حرز الأماني (ص:٧٢٠)، وانظر: تفسير الطبري (٢٤/٢٦١).

(٥) انظر: بصائر ذوي التمييز (٣/٥٤٧).

والثاني: اليقين. ومنه قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في (البقرة): ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:٤٦]، وفيها: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩]، وفي (ص): ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ [ص:٢٤]، وفي (سورة الحاقة): ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٠].

والثالث: التهمة. ومنه قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في (التكوير): ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بظنين﴾ [التكوير:٢٤]، أي: بمتهم(١).

والرابع: الحسبان. ومنه قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في (حم السجدة): ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ [فصلت:٢٣]، وفي (الانشقاق): ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [التكوير:١٤]، أي: حسب.

والخامس: الكذب. ومنه قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في (النجم): ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم:٢٨]، قاله الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ"(٢).

قال الإمام محمد الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا التفنن في معاني الظن في القرآن يشير إلى وجوب النظر في الأمر المظنون حتى يلحقه المسلم بما يناسبه من حسن أو ذم على حسب الأدلة، ولذلك استنبط علماؤنا أن الظن لا يغني في إثبات أصول الاعتقاد وأن الظن الصائب تناط به تفاريع الشريعة"(٣).

ولما كان قبول الاعتقاد للقوة والضعف غير مضبوط فكذا مراتب الظن غير مضبوطة؛ فلهذا قيل: إن الظن عبارة عن ترجيح أحد طرفي المعتقد في القلب على الآخر مع تجويز الطرف الآخر.

---

(١) تقدم.

(٢) نزهة الأعين النواظر (ص: ٤٢٤- ٤٢٦)، وانظر: بصائر ذوي التمييز (٣/٥٤٥- ٥٤٧). قال أبو حيان في (البحر) (١/ ٢٩٥): "الظن: ترجيح أحد الجانبين، وهو الذي يعبر عنه النحويون بالشك، وقد يطلق على التيقن. وفي كلا الاستعمالين يدخل على ما أصله المبتدأ والخبر بالشروط التي ذكرت في النحو، خلافا لأبي زيد السهيلي، إذ زعم أنها ليست من نواسخ الابتداء. والظن أيضا يستعمل بمعنى: التهمة، فيتعدى إذ ذاك لواحد، قال الفراء: الظن يقع بمعنى الكذب، والبصريون لا يعرفون ذلك".

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/١٠٩).

ثم إنَّ الظن المتناهي في القوة قد يطلق عليه اسم: العلم.

فلا جرم قد يطلق أيضًا على العلم اسم: الظن كما قال بعض المفسرين في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:٤٦]. قالوا: إنما أطلق لفظ: الظن على العلم ههنا لوجهين:

أحدهما: التنبيه على أن علم أكثر الناس في الدنيا بالإضافة إلى علمه في الآخرة كالظن في جنب العلم.

والثاني: أن العلم الحقيقي في الدنيا لا يكاد يحصل إلَّا للنبيين والصديقين الذين ذكرهم الله تعالى في قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات:١٥].

واعلم أن الظن إن كان عن أمارة قوية قُبِلَ ومُدِح، وعليه مدار أكثر أحوال هذا العلم. وإن كان عن أمارة ضعيفة ذم كقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس:٣٦]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢][(١)]. وقال السيوطي رَحِمَهُٱللَّهُ: "الظَّنُّ: إصابة المطلوب بضرب من الأمارة"[(٢)].

وقد استخدم الظن للدلالة على أولى مراحل العلم في إطار ما يسمى بنظرية المعرفة الإسلامية، فتعرف مرحلة الظن بأنها تكون حينما تتعادل دلالات الإثبات مع دلالات النفي. أما المرحلة التي تلي مرحلة الظن فهي مرحلة: (غلبة الظن)، وتأتي هذه المرحلة بعد البحث والتمحيص في أدلة النفي وأدلة الإثبات، فترجح إحدى الكفتين دونما دليل قطعي يقيني فيبقى هناك مجال للنظر.

ويلي مرتبة (غلبة الظن): (مرتبة التصديق)، ثم: (الإيمان)، ثم: (اليقين) عندما يجتمع صدق مصدر الخبر مع القوة الإقناعية بالبراهين العقلية، ثم: (عين اليقين) حيث تجتمع شروط المراحل السابقة مع المشاهدة العينية لموضوع المعرفة. ثم: (حق اليقين)، وهي أعلى درجات اليقين، وهي مباشرة الشيء والإحساس به، كما إذا أُدخل أهلُ الجنَّةِ

---

(١) تفسير الرازي (٣/٣٩٦).

(٢) معجم مقاليد العلوم (ص:٢٠١).

الجنَّةَ، وتمتعوا بما فيها من ألوان النعيم، وأُدخل أهلُ النَّار النَّارَ، وذاقوا ما فيها من ألوان العذاب، فذلك حينئذ: (حق اليقين).

ثانيًا: المعنى المراد من الظن من حيث كونه عقبة:

إنَّ المراد من الظنِّ من حيث كونه عقبة: الظن المذموم الذي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيه: ﴿مَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس:٣٦]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

وقد نهى الله ﷻ عن اتباع الظن الذي لا يستند فيه إلى دليل، ولا يكون معه تبين، والظن الذي يصاحبه الهوى؛ فإنَّ اتباع الظن المنهي عنه في الكتاب والسنة مما يصرف عن الحق. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢]، وقال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم:٢٣]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١١٦].

وأمر بالتبين والتبصر في قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء:٩٤]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات:٦]، وأمر برد ما أشكل على البعض فهمه إلى العلماء الراسخين فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣].

قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا أصل عظيم في الاستنباط والاجتهاد"(١). وقول المهايمي رَحِمَهُ اللَّهُ: "فلو وجدوا في القرآن ما يوهم الاختلاف، لوجب عليهم استفسار

(١) الإكليل في استنباط التنزيل (ص: ٩٥).

الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والعلماء الذين هم أولو الأمر؛ ليعلمهم منهم المجتهدون في استنباط وجوه التوفيق"(١).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "نهى الله تعالى عن كثير من الظن السوء بالمؤمنين فـ: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾. وذلك، كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظن السوء، الذي يقترن به كثير من الأقوال، والأفعال المحرمة؛ فإن بقاء ظن السوء بالقلب، لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به، حتى يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضًا: إساءة الظن بالمسلم، وبغضه، وعداوته المأمور بخلاف ذلك منه"(٢).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أنَّ سوء الظَّنِّ حرام مثل سوء القول، فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوىء الغير فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك، ولست أعني به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء، فأمَّا الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه، بل الشَّك أيضًا معفو عنه، ولكن المنهي عنه أن يظن، والظن عبارة عما تركن إليه النفس، ويميل إليه القلب، فقد قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

وسبب تحريمه: أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءًا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل، فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته، وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك فإنَّما الشيطان يلقيه إليك، فينبغي أن تكذبه؛ فإنه أفسق الفساق"(٣).

وحسنُ الظَّنِّ أساسٌ لا بدَّ منه في الدَّعوة، وهو يعكسُ سلامةَ الصَّدر، والحرصَ على هداية الناس، وتدعيمَ روابط الألفة والمحبَّة بين أبناء المجتمع، فلا تحمل الصُّدور غلًّا ولا حقدًا، وهو من علامات الفطرة السليمة. وبالمقابل فإنَّ سوء الظَّنِّ المبنيِّ على الحكم على دخيلةِ الأنفسِ والنِّيات أو على مجرَّدِ سماعٍ من أسباب الصَّدِّ عن الهداية، وقد يؤدي

---

(١) تفسير المهايمي (تبصير الرحمن وتيسير المنان) (١/١٥٧)، وانظر: محاسن التأويل، للقاسمي (٣/٢٣٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص:٨٠١).

(٣) إحياء علوم الدين (٣/١٥٠).

إلى خصوماتٍ وعداوات، وتقطُّعٍ للصِّلات، كما أنه يمزِّق وشائجَ الألفة والمحبَّة، وهو من أسباب الإعراض عن السَّماع.

وفي الحديث: ((**إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث**))(١).

"قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو تحقيق الظن وتصديقه دون ما يهجس في النفس؛ فإن ذلك لا يملك(٢). قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومراد الخطابي أنَّ المحرَّم من الظَّنِّ ما يستمرُّ صاحبه عليه، ويستقر في قلبه، دون ما يعرض في القلب ولا يستقر"(٣).

وقال المهلب: "فهذا الظَّن ليس هو الاجتهاد على الأصول، وإنما هو الظن المنهي عنه في الكتاب والسنة، مثل ما سبق إلى المسؤول من غير أن يعلم أصل ما سئل عنه في كتاب الله ﷻ أو سنة نبيه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو أقوال أئمة الدين. وأما إذا قال وهو قد علم الأصل من هذه الثلاثة فليس بظان، وإنما هو مجتهد، والاجتهاد سائغ على الأصول"(٤).

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: و"يحتمل الحكم في دين الله ﷻ بالظَّنِّ المجرَّد، دون بناءٍ على أصل، ولا تحقيقِ نظرٍ واستدلال"(٥). أو اجتنبوا الظَّن في التَّحديث والإخبار. وقوله: ((**فإنَّ الظَّنّ**)): أقامَ الْمُظْهَرَ مَقامَ الْمُضْمَر؛ لِزِيَادَة التمكين في ذِهْن السَّامِع؛ حَثًّا على الاجْتِنَاب(٦).

فتحصَّل مما تقدم أنَّ اتِّباع الظَّنِّ المنهيِّ عنه كما أنَّه من أسباب الضَّلال عن الهداية فهو كذلك من أسباب الإضلال، فهو من العقبات التي يجتازها الفَطِنُ بالعلم والتثبت، واتخاذ أسباب الوقاية.

---

(١) صحيح البخاري [٦٠٦٤، ٦٠٦٦، ٦٧٢٤]، مسلم [٢٥٦٣].

(٢) انظر: معالم السنن، للخطابي (١٢٣/٤).

(٣) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٦/ ١١٩).

(٤) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٣٤٣/٨)، وانظر: عمدة القاري، للإمام العيني (٢٣٢/٢٣).

(٥) إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم (٨/ ١٤).

(٦) انظر: شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك (٤١٥/٤)، مرقاة المفاتيح (٣١٤٧/٨).

ثالثًا: الوقاية من آفات الظن المنهي عنه والعلاج:

١ - التَّبين والتَّبصر لكلِّ أمر مشتبهٍ وملتبس.

٢ - تحرير الأخبار وتوثيقها، والتَّثبتُ من صحَّتها، وسلامتها.

٣ - درءُ موهمِ الاختلاف بالرَّدِّ إلى العلماءِ الرَّاسخين، ونصبِ الأدلَّة والبراهين.

٤ - اجتنابُ التَّحديث والإخبار لمجرد السَّماع من غير تبين.

٥ - إحسان الظَّنِّ، وهو أساسٌ لا بدَّ منه في الدَّعوة والتعامل مع الناس -كما تقدم-.

٦ - الاحترازُ عن سوء الظَّنِّ، وعدم التعجل في الحكم دون تبين، ولا سيما إذا كان مبنيًا على ما يكمن في دخيلةِ الأنفس والنِّيات؛ لأنَّ سرائرَ النَّاس لا يعلمها إلا الله ﷻ وحده؛ ولأنَّ سوء الظَّنِّ يؤدِّي إلى الخصومات والعداوات، وتَقَطُّعِ الصِّلات، وهو من أسبابِ الصدِّ عن الهداية كما تقدم. فمن أسباب الوقاية من آفات الظن المنهي عنه: أن يتفكر في عواقبه في الدنيا والآخرة، وآثاره على النفس وعلى الجماعة.

٧ - النَّظَرُ بعينِ البصيرة إلى مآلاتِ سوء الظَّنِّ، واستحضارِ آفاته، فكم صدَّ أناسًا عن الهداية، ونفَّرَهم من السَّماع؟ وكم أوقع من فراقٍ بين المتحابين، وقطيعة بين المتواصلين؟

٨ - تكميل النَّفس بالعلم والمعرفة.

٩ - صلاح القلب: قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ۝٨٩﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩]. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فهذا هو السليم من الآفات التي تعتري القلوب المريضة من مرض الشبهة التي توجب اتباع الظن، ومرض الشهوة التي توجب اتباع ما تهوى الأنفس، فالقلب السليم الذي سلم من هذا وهذا"[١].

١٠ — التقرب إلى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بالدعاء وسائر العبادات.

---

(١) كتاب الروح، لابن القيم (ص:٢٤٤).

١١ – إنزال النفس منزلة الغير، وحمل المنقول من الكلام أو المكتوب إن احتمل تأويلًا على أحسن المحامل.

١٢ – التماس الأعذارُ، وذلك من شيم الكرام.

١٣ – مجاهدة النفس والهوى، والحذر من خطوات الشيطان.

١٤ – الحرص على سلامة البيئة.

١٥ – بناء العقيدة السليمة التي تقوم على أساس من الالتزام بالأخلاق والقيم، والتي منها: تحسين الظن.

العقبة السادسة والعشرون

العُجْب والكِبْر

أولًا: تعريف العجب والكبر وبيان الفرق بينهما:

وإنما دُمِجَا؛ لأنَّ أحدهما -وهو الكبر- متولدٌ عن الآخر، وأثرٌ من آثاره -كما سيأتي-.

١ - أما (الكِبْر) بكسر الكاف وسكون الموحدة ثم راء فهو العظمة، وكذا (الْكِبْرِيَاء) مكسورًا ممدودًا(١). ومن الألفاظ المرادفة: التَّفَخُّر، فهو التَّعظُّم والتَّكبُّر(٢). و(التَّكبر) و(الاستكبار): التَّعظم(٣).

و(الخيلاء) بضم الخاء المعجمة أو كسرها وبفتح الياء ممدودًا هو الكبر والعجب(٤).

وقد جاء تعريف الكِبْر اصطلاحًا في الحديث الشريف بأنه: ((**بَطَرُ الحق، وَغَمْطُ الناس**))(٥). قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فالمتكبر ينظر إلى نفسه بعين الكمال، وإلى غيره بعين النقص، فيحتقرهم ويزدريهم، ولا يراهم أهلا لأن يقوم بحقوقهم، ولا أن يقبل من أحد منهم الحق إذا أورده عليه"(٦). ولذلك كان الكبر صادًّا عن الهداية. قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إعجاب المرء بنفسه هو ملاحظته لها بعين الكمال والاستحسان، مع نسيان مِنَّةِ الله تعالى، فإن رفعها على الغير واحتقره فهو الكبر المذموم"(٧).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الْكِبر وَالتَّكَبُّر والاسْتِكْبَار متقارب، فالكبر الحالة التي يختص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى نفسه أكبر من غيره. وأعظم

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (كبر) (٢/٨٠١).

(٢) انظر: المصدر السابق، مادة: (فخر) (٢/٧٧٩)، مجمل اللغة، لابن فارس (١/٧١٣)، مقاييس اللغة (٤/٤٨٠).

(٣) انظر: الصحاح، مادة: (كبر) (٢/٨٠٢)، لسان العرب (٥/١٢٩).

(٤) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/١١٠).

(٥) صحيح مسلم [٩١]. و(بطر الحق) يعني: رده، و(غمط الناس) يعني: احتقارهم وازدراءهم.

(٦) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٧٥).

(٧) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٥/٤٠٦).

ذلك: أن يَتَكَبَّرَ على ربِّه بأن يمتنع من قبول الْحَقِّ والإذعان له بالتوحيد والطاعة.

وَالتَّكَبُّرُ يأتي على وجهين:

أحدهما: أن تكون الْأَفْعَالُ الْحَسَنَةُ زَائِدَةً على محاسن الغير، ومن ثم وصف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْمُتَكَبِّرِ.

والثاني: أن يكون مُتَكَلِّفًا لذلك مُتَشَبِّعًا بما ليس فيه وهو وَصْفُ عَامَّةِ الناس نَحوَ قوله ﷻ: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥]، وَالْمُسْتَكْبِرُ مثله"[(١)].

وقال: "الكبر: رفع نفسه فوق قدره"[(٢)]. ويقابله: التواضع.

أما العُجْب فهو الزُّهُوُّ. يقال: رجلٌ مُعْجَب: مَزْهُوٌّ بما يكون منه حسنًا أو قبيحًا.

وقيل: المعْجَب: الإنسانُ المعْجَب بنفسه أو بالشيء، وقد أُعْجِبَ فلانٌ بِنَفْسِه، فهو مُعْجَبٌ برأيه وبنَفْسِه؛ والاسم: العُجْب، بالضم[(٣)].

قال ابن مسكويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أما العجب فحقيقته إذا حددناه أنه ظن كاذب بالنفس في استحقاق مرتبة هي غير مستحقة لها"[(٤)].

وأصل العجب عند العلماء هو حمد النفس، ونسيان النعمة، وهو نظر العبد إلى نفسه، وأفعاله، وينسى أن ذلك إنما هو مِنَّةٌ من الله تعالى عليه، فيحسن حال نفسه عنده، ويقل شكره، وينسب إلى نفسه شيئًا هو من غيرها، وهي مطبوعة على خلافه، فإن غفل هَلَكَ، واستُدْرِج"[(٥)].

وقد فرَّقَ العلماءُ بين كلٍّ من الكبر والعجب. قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا الفرق بين الكبر والعجب: "الْكِبْرُ خُلُقٌ في النَّفْس، وهو الاسْتِرْوَاح وَالرُّكُون إلى رؤية النَّفس فوق المتكبَّر عليه؛ فإنَّ الكِبْر يستدعي مُتَكَبَّرًا عليه وَمُتَكَبَّرًا به، وبذلك يَنْفَصِلُ

(١) المفردات، للراغب، مادة: (كبر) (ص:٦٩٧)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (١٠/ ٤٨٩).

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص:٢١٣).

(٣) انظر: لسان العرب، مادة: (عجب) (١/٥٨٢).

(٤) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق (ص:٢٠٥).

(٥) المدخل، لابن الحاج (٣/ ٥٢-٥٣).

الْكِبْرُ عَنِ الْعُجب؛ فإنَّ العُجْب لا يستدعي غير الْمُعْجَب. بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تصور أن يكون معجبًا، ولا يتصور أن يكون متكبرًا إلا أن يكون مع غيره، وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفاتِ الكمال، فعند ذلك يكون متكبرًا. ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبرًا فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه. ولا يكفي أن يَسْتَحْقِرَ غيره، فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أَحْقَرَ لَمْ يَتَكَبَّرْ، ولو رأى غيره مثل نفسه لم يَتَكَبَّرْ، بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خُلُقُ الْكِبْرِ"[1].

قال أبو وهب المرْوَزِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سألت ابن المبارك: ما الكبر؟ قال: أن تَزْدَرِي الناس. فسألته عن العُجْب؟ قال: أن ترى أن عندك شيئًا ليس عند غيرك، لا أعلم في المصلين شيئًا شرًّا من العُجب[2].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما الْكِبْرُ فَأَثَرٌ من آثار الْعُجْب والْبَغْي من قَلْبٍ قد امْتَلَأَ بالجهل والظُّلْم، تَرَحَّلَتْ منه الْعُبُودِيَّة، ونَزَلَ عليه الْمَقْتُ، فَنَظَرُهُ إلى النَّاس شَزْرٌ، ومَشْيُهُ بينهم تَبَخْتُرٌ، وَمُعَامَلَتُهُ لهم مُعَامَلَةُ الِاسْتِيثَارِ لا الْإِيثَار، ولا الْإِنْصَاف، ذَاهِبٌ بِنَفْسِهِ تِيهًا، لا يَبْدَأُ من لَقِيَه بالسَّلَام، وإن رَدَّ عليه رَأَى أنَّه قد بَالَغَ في الْإِنْعَام عليه، لا يَنْطَلِقُ لهم وَجْهُه، ولا يَسَعُهُمْ خُلُقُهُ، ولا يَرَى لِأَحَد عليه حَقًّا، ويرى حُقُوقَهُ على النَّاس، ولا يَرَى فَضْلَهُمْ عليه، ويرى فَضْلَهُ عليهم، ولا يزداد من الله إلَّا بُعْدًا، ولا من النَّاس إلَّا صَغَارًا وبُغْضًا"[3].

وقال القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الفرق بين الكبر العجب من جهتين:

الجهة الأولى: ما في الأصل وصححه ابن الشاط من أن الكبر راجعٌ للخلق والعباد كما علم من حقيقته المتقدمة، والعجب راجع للعبادة؛ إذ هو رؤية العبادة

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٤٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (٨/٤٠٧)، تذكرة الحفاظ (١/٢٠٤).

(٣) الروح (ص: ٢٣٥- ٢٣٦).

واستعظامها من العبد فهو معصية تكون بعد العبادة، ومتعلقة بها هذا التعلق الخاص كما يتعجب العابد بعبادته.

والعالم بعلمه، وكل مطيع بطاعته، وهو -وإن كان حرامًا- لا يفسد العبادة؛ لأنه يقع بعدها بخلاف الرياء فإنه يقع معها فيفسدها. وسر تحريم العجب: أنه سوء أدب على الله تعالى؛ فإن العبد لا ينبغي له أن يستعظم ما يتقرب به إلى سيده، بل يستصغره بالنسبة إلى عظمة سيده لا سيما عظمة الله ﷻ؛ ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام:٩١]، أي: ما عظموه حق تعظيمه، فمن أعجب بنفسه وعبادته فقد هلك مع ربه، وهو مطلع عليه وعرض نفسه لمقت الله تعالى وسخطه. ونبه على ضد ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠]، معناه: يفعلون من الطاعات ما يفعلون وهم خائفون من لقاء الله تعالى بتلك الطاعة احتقارًا لها، وهذا يدل على طلب هذه الصفة، والنهي عن ضدها اهـ.

والجهة الثانية: ما في (الزواجر)، لابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ من أن الكبر إما باطن، وهو خلق في النفس واسم الكبر بهذا أحق أي كما يرشد له قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر:٥٦]، فجعل محله القلب والصدور، وإما ظاهر، وهو أعمال تصدر من الجوارح، وهي ثمرات ذلك الخلق، وعند ظهورها يقال له: تكبر، وعند عدمها يقال في نفسه: كبر. فالأصل هو خلق النفس الذي هو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه، فهو يستدعي متكبرًا عليه ومتكبرًا به، بخلاف العجب فإنه لا يستدعي غير المعجب به حتى لو فرض انفراده دائمًا أمكن أن يقع منه العجب دون الكبر، ومجرد استعظام الشيء لا يقتضي التكبر إلا إن كان ثم من يرى أنه فوقه اهـ"[1].

(١) الفروق، للقرافي (٤/ ٢٤٧)، الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيتمي (١/ ١٢٢).

ثانيًا: أخطار العجب:

قال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ اللَّهُ: "المعجب يرى أنه سعد وظفر بمراده فلا يحتاج لعمل، ومن ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم:٣٢]. ومن تزكية النفس: اعتقاد أنها بارّة، وهو معنى العجب"(١).

وذكر أن للعجب آفات كثيرة: "منها: تَوَلُّدُ الكبر عنه، فتكون آفَاتُ الْكِبْرِ آفَاتِ العجب؛ لأنه الأصل، هذا مع الْعِبَادِ؛ وأما مع الله فهو يُنْسِي الذُّنُوبَ؛ لِظَنِّهِ أنه لا يُؤَاخذ بها، فلا يتدارك وَرطَاتِهَا ولا يَتَنَصَّلُ من مَذَامِّهَا، ويُورِثُ اسْتِعْظَامَ عِبَادَتِه، وَيَمُتُّ على الله بفعلها، فَيَعْمَى عن تَفَقُّدِ آفَاتِهَا فَيَضِيعُ كلُّ سَعْيِهِ أو أَكْثَرُه؛ إذ العمل ما لم يَتَنَقَّ مِنْ الشَّوَائِبِ لا ينفع، وإنما يحمل على تَنْقِيَتِهِ منها الْخَوْفُ، والْمُعْجَب غَرَّتْهُ نفسه بِرَبِّهِ فأمن مكره وعقابه، وَعَدَّ أَنَّ له على الله حقًّا بعمله، فَزَكَّى نفسه، وأعجب برأيه وعقله وعلمه، حتى اسْتَبَدَّ بذلك، ولم تطمئن نفسه أن يرجع لغيره في علم ولا عمل، فلا يسمع نصحًا ولا وعظًا؛ لنظره إلى غيره بعين الاحتقار.

و"العجب مذموم في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وسنَّة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة:٢٥]، ذكر ذلك في موضع الإنكار، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((**ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**))(٢)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لو لم تكونوا تذنبون لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك: الْعُجْب الْعُجْب**))(٣)، فجعل العجب أكبر الذنوب.

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/١٢٢).

(٢) الحديث مروي عن أنس بن مالك وعبد الله بن عباس وأبي هريرة وعبد الله بن أبي أوفى وعبد الله بن عمر. قال المنذري: "رواه البزار واللفظ له، والبيهقي وغيرهما وهو مروي عن جماعة من الصحابة وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى". الترغيب والترهيب (١/١٧٤).

(٣) أخرجه البزار [٦٩٣٦]، والخرائطي في (مساوئ الأخلاق) [٥٦٨]، والقضاعي [١٤٤٧]، قال الهيثمي (١٠/٢٦٩): "رواه البزار، وإسناده جيد". وهو حسن بمجموع طرقة كما في (فيض القدير) (٥/٣٣١).

وروي عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: الهلاك في شيئين: العجب والقنوط، وإنما جمع بينهما؛ لأن السعادة لا تنال إلا بالطلب، والقانط لا يطلب، والمعجب يظن أنه قد ظفر بمراده فلا يسعى(١).

قال الإمام الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما الإعجاب فيخفي المحاسن، ويظهر المساوئ، ويكسب الْمَذَامَّ، ويَصُدُّ عن الفضائل"(٢).

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: الإعجاب ضد الصواب، وآفة الألباب(٣).

وفي (شعب الإيمان) قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إياكم والعجب؛ فإن العجب مهلكة لأهله، وإن العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب"(٤).

وقد قيل للحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "من شر الناس؟ قال: من يرى أنه أفضلهم، وقال بعضهم: الكاذب في نهاية البعد من الفضل، والمرائي أسوأ حالًا منه؛ لأنه يكذب بفعله وقوله، والمعجب أسوأ حالًا منهما، فإنهما يريان نقص أنفسهما ويريدان إخفاءه، والمعجب عمي عن مساوئ نفسه ورآها محاسن وسُرَّ بها"(٥).

وقال الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والحق أقول: إن من فتن هذا الزمان حب الظهور وحشر النفس في زمرة المؤلفين، وخاصة في علم الحديث الذي عرف الناس قدره أخيرًا بعد أن أهملوه قرونًا، ولكنهم لم يقدروه حقَّ قدره، وتوهموا أن المرء بمجرد أن يحسن الرجوع إلى بعض المصادر من مصادره والنقل منها؛ صار بإمكانه أن يعلق وأن يؤلف! نسأل الله السلامة من العجب والغرور!!"(٦).

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي (ص:٢٣٤).
(٢) أدب الدنيا والدين (ص:٢٣٧).
(٣) المصدر السابق (ص: ٢٣٧)، المنهج المسلوك في سياسة الملوك (ص:٤١٤)، الموسوعة الفقهية الكويتية (٢٩/٢٨١-٢٨٢).
(٤) شعب الإيمان [٦٨٦١].
(٥) الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص:٢١٧).
(٦) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (١١/٦٩٨).

وقديمًا قالوا: حب الظهور يقصم الظهور[1].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإني تدبرت أحوال أكثر العلماء والمتزهدين، فرأيتهم في عقوبات لا يحسون بها، ومعظمها من قبل طلبهم للرئاسة، فالعالم منهم يغضب إن رد عليه خطؤه، والواعظ متصنع بوعظه، والمتزهد منافق أو مراء. فأول عقوباتهم: إعراضهم عن الحق شغلًا بالخلق، ومن خفي عقوباتهم: سلب حلاوة المناجاة، ولذة التعبد، إلا رجال مؤمنون، ونساء مؤمنات، يحفظ الله ﷻ بهم الأرض، بواطنهم كظواهرهم؛ بل أجلى، وسرائرهم كعلانيتهم؛ بل أحلى، وهممهم عند الثريا، بل أعلى، إن عرفوا تنكروا، وإن رئيت لهم كرامة أنكروا، فالناس في غلاتهم، وهم في قطع فلاتهم، تحبهم بقاع الأرض، وتفرح بهم أملاك السماء، نسأل الله ﷻ التوفيق لاتباعهم، وأن يجعلنا من أتباعهم"[2].

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إذا قال الرجل: هلك الناس فهو أَهْلَكُهُم**)) قال أبو إسحاق: لا أدري، أهلكهم أَهْلَكَهُم، أو أَهْلَكُهُم بالرفع[3].

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا يزال الرجل يعيب الناس، ويذكر مساويهم، ويقول فسد الناس وهلكوا ونحو ذلك، فإذا قاله كذلك، فهو أهلكهم أي: أسوأ حالًا، فيما يلحقه من الإثم في عيبهم والوقيعة فيهم، وربما أداه ذلك إلى العجب بنفسه، ورؤيته أن له فضلًا عليهم، وأنه خير منهم فيهلك"[4].

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/١٠).

(٢) صيد الخاطر (ص:٢٧-٢٨).

(٣) صحيح مسلم [٢٦٢٣].

(٤) معالم السنن (٤/١٣٢)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/١٧٦).

ثالثًا: الوقاية من العجب والعلاج:

قال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "علاج كل علة إنما يكون بِضِدِّهَا؛ وعلة العجب: الجهل المحض كما علم مما مر في حده، وشفاؤها: النظر إلى ما لا ينكره أحد، وهو أن الله تعالى هو الْمُقَدِّرُ لك على نحو العلم والعمل، والْمُنْعِمُ عليك بالتوفيق إلى حِيَازَتِه، ويجعلك ذا نسب أو مال أو جاه، فكيف يعجب بما ليس إليه ولا منه، وكونهُ مَحَلَّ ذلك لا يُجْدِيه شيئًا؛ لأنَّ المحلَّ لا مَدْخَلَ له في الإيجَادِ والتَّحْصِيل، وكونُه سببًا فيه نُزُولُ مُلَاحَظَتِه له إذا تَأَمَّلَ أن الأسباب لا تأثير لها، وإنما التأثير لموجدها وَالْمُنْعِمِ بها، فينبغي أن لا يكون إعجابه إلا بما أسداه إليه الحق وأجراه عليه وآثره به دون غيره من مزايا جوده وكرمه مع عدم سابقة استحقاق منه لذلك، فإن قال: لولا ما علم في من صفة محمودة باطنة لما آثرني بذلك.

قيل له: وتلك الصفات أيضًا من خلقه وإنعامه؛ على أن من انطوى علم خاتمته وعاقبته عن نفسه، كيف يسوغ له عجب بأي نوع فرض من أنواعه فإنه لا أعبد من إبليس، ولا أعلم من بلعم بن باعوراء في زمنه، ولا أقرب ولا أشفق من أبي طالب على نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا أشرف من الجنة ومكة، وقد علمت ما وقع لأولئك من سوء الخاتمة -والعياذ بالله-، وما وقع لآدم في الجنة، ولكفار مكة فيها، فاحذر أن تعجب وتغتر بنسب أو علم أو محل أو غير ذلك، هذا كله إن كنت معجبًا بحق، فكيف وكثيرًا ما يقع الإعجاب بباطل، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر:٨]. وقد أخبر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذا يغلب في آخر هذه الأمة، إذ جميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم الفاسدة، وبذلك أهلكت الأمم السابقة لما افترقوا فرقًا وأعجب كل برأيه: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ۝٥٤ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون:٥٣- ٥٦]، أي: إن ذلك ربما كان مقتًا واستدراجًا.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣]"[1].

ويمكن إجمال علاج العجب باتباع الأساليب والوسائل التالية:

١ – أن يعرف الإنسان نفسه وقدره، وأن يعرف ربه ﷻ:

"وحقيق على من عرف نفسه أن يعرف كثرة العيوب والنقائص التي تعتورها فإن الفضل مقسوم بين البشر، وليس يكمل الواحد منهم إلا بفضائل غيره. وكل من كانت فضيلته عند غيره فواجب عليه أن لا يعجب بنفسه. وكذلك الافتخار؛ فإن الفخر هو المباهات بالأشياء الخارجة عنا، ومن باهي بما هو خارج عنه فقد باهى بما لا يملكه. وكيف يملك ما هو معرض للآفات والزوال في كل ساعة وفي كل لحظة؟!"[2].

٢ – التفكر في أسباب النعم، وشكر المنعم على نعمه.

٣ – التفكر في عاقبة العجب، والوقوف عند أخبار السابقين ممن كان العجب سبب ضلالهم وهلاكهم:

وقد ضرب الله ﷻ مثلًا رجلين، أحدهما لنعم الله تعالى، والآخر كافر لها، وما صدر من كلٍّ منهما، من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل، والثواب؛ ليعتبروا بحالهما، ويتعظوا بما حصل عليهما. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن صاحب الجنتين: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٤-٣٦]. فلما أعجب بما عنده نسي أن هذا فضل الله ﷻ عليه، وأن الذي أعطاه قادر على أن يأخذه، فكانت عاقبته ما ذكره الله ﷻ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الكهف:٤٢-٤٣].

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ١٢٣).

(٢) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، لابن مسكويه (ص: ٢٠٥).

وقال ﷻ عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨]، وقال تعالى في بيان عاقبته: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١].

وفي (الصحيح): ((**بينما رجل يمشي في حُلَّة، تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة**))(١).

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ويفيد هذا الحديث: ترك الأمن من تعجيل المؤاخذة على الذنوب، وأن عجب المرء بنفسه وهيئته حرام وكبيرة"(٢).

٤ – صحبة العلماء والصالحين.

٥ – مجاهدة النفس، ومحاسبتها، وحملها على الأخلاق الفاضلة، وعلى تعلم الآداب الإسلامية، والالتزام بها في المعاملات مع الآخرين.

٦ – ملازمة النظر والسماع لعظاتٍ تحرِّكُ القلوب.

٧ – التذكر بأنَّ كل شيء يجري في هذا الكون إنما يجري بقضاء الله تعالى وقدره.

٩– معرفة آفات العجب:

العجب آفة نفسية؛ ولذلك فإنَّ العلاج يكون بمعرفة الأسباب لتحديد موضع الدَّاء.

وقد ذكر الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ما به العجب ثمانية أقسام:

الأول: أن يعجب ببدنه فيلتفت إلى جمال نفسه، وينسى أنه نعمة من الله تعالى، وهو بعرضة الزوال في كل حال. وعلاجه: التفكر في أقذار باطنه، وفي أول أمره وفي آخره، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت في التراب وأنتنت في القبور حتى استقذرتها الطباع.

---

(١) صحيح البخاري [٥٧٨٩]، واللفظ له، مسلم [٢٠٨٨]. (مرجل جمته) مسرح رأسه، والجمة هي الشعر الذي يتدلى إلى الكتفين، أو هو مجمع شعر الرأس. (يتجلجل) يتحرك وينزل مضطربًا.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٥/٤٠٦).

الثاني: البطش والقوة كما حكي عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]. وعلاجه: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ حُمَّى يَوْمٍ تُضْعِفُ قُوَّتَه، وأنه إذا أُعْجِبَ بها ربَّما سَلَبَهَا اللهُ تعالى بآفة يسلطها عليه، فيصبح أضعف العباد.

الثالث: العجب بالعقل استحسانًا له واستبدادًا به. وعلاجه: أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل، وأن يتفكر في أنه قد يسلب منه بآفة تصيبه كما فعل بغيره، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلًا -وإن اتسع علمه-، وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى؟! وأن يتهم عقله، وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم، ويضحك الناس منهم فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري؛ فإن القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله، فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه، ومن أعدائه لا من أصدقائه؛ فإن من يداهنه يثني عليه فيزيده عجبًا، وهو لا يظن بنفسه إلا الخير، ولا يفطن لجهل نفسه، فيزداد عجبًا.

الرابع: النسب الشريف افتخارًا به، واعتقادًا للفضل به على كثير من العباد، ويتخيل الشريف أنه ينجو بشرف آبائه. وعلاجه: أن يعلم أن ذلك النسب لا يجلب له ثوابًا، ولا يدفع عنه عذابًا، وأن أكرم النَّاس عند الله أتقاهم، وأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لكل من ابنته فاطمة وعمته صفية رضي الله عنهما: لا أغني عنك من الله شيئًا(١).

الخامس: الانتساب إلى ظلمة الملوك، وفسقة أعوانهم؛ تشرفًا بهم. وهذا غاية الجهل. وعلاجه: أن يتفكر في مخازيهم، وأنهم الممقوتون عند الله تعالى.

السادس: العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب والأنصار والأتباع كما قال الكفار: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ [سبأ:٣٥]. وعلاجه: أن يتفكر في ضعفه وضعفهم، وأن كلهم عبيد عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا.

السابع: العجب بالمال، كما قال ﷻ إخبارًا عن صاحب الجنتين إذ قال: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف:٣٤]. وعلاجه: أن يعلم أن المال فتنة، وأن له آفات متعددة، وأن يتفكر في أن المال كان سببًا في العقوبة والهلاك لكثيرين.

---

(١) صحيح البخاري [٢٧٥٣، ٤٧٧١]، مسلم [٢٠٦].

الثامن: العجب بالرأي الخطأ، كما قال الله ﷻ: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر:٨]. وعلاجه: أن يكون متهمًا لرأيه أبدًا، لا يغتر به، إلا أن يشهد له قاطع من كتاب، أو سنة أو دليل عقلي جامع لشروط الأدلة، ولن يعرف ذلك إلا بمجالسة أهل العلم، وممارسة الكتاب والسنة(١).

١٠ – الحرص على سلامة القلب من الآفات:

قال أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا يكون القلب سليمًا إذا كان حقودًا، حسودًا، معجبًا، متكبرًا، وقد شرط النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الإيمان: ((**أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه**))(٢).

١١ – أن ينظر في العلم والعبادة إلى من هو فوقه، ولا ينظر إلى من هو أدنى منه، وذلك بعكس نظره إلى نعيم الدنيا وزخرفها؛ فإن ذلك أدعى لأن يَتَقَالَّ علمه وعبادته، ويحتقر نفسه.

١٢ – مطالعة سير السلف والعلماء الربانيين والصالحين:

وقد ذكر ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تواضع أهل العلم، فقال: "سمعت غير واحد من شيوخي يذكر أن الغازي بن قيس لما رحل إلى المدينة سمع من مالك، وقرأ على نافع القاري، فبينما هو في أول دخوله المدينة في مسجد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ دخل ابن أبي ذئب فجلس ولم يركع، فقال له الغازي: قم يا هذا فاركع ركعتين؛ فإن جلوسك دون أن تحيي المسجد بركعتين جهل، أو نحو هذا من جفاء القول، فقام ابن أبي ذئب فركع ركعتين وجلس، فلما انقضت الصلاة أسند ظهره وتحلق الناس إليه، فلما رأى ذلك الغازي بن قيس خجل واستحيا وندم وسأل عنه، فقيل له: هذا ابن أبي ذئب أحد فقهاء المدينة وأشارفهم، فقام يعتذر إليه، فقال له ابن أبي ذئب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يا أخي لا عليك، أمرتنا بخير فأطعناك"(٣).

---

(١) بتصرف واختصار عن (إحياء علوم الدين) (٣/ ٣٧٤- ٣٧٨)، و(مختصر منهاج القاصدين) (ص: ٢٣٥-٢٣٦).

(٢) أحكام القرآن (٣/٤٥٩). والحديث أخرجه البخاري في (صحيحه) [١٣]، ومسلم [٤٥].

(٣) التمهيد، لابن عبد البر (٢٠/١٠٦).

فما أحوجنا إلى مثل هذا الأدب وترك العجب.

رابعًا: آفات الكبر:

آفة الكبر عظيمة، وفيه يهلك الخواص، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء.

وكيف لا تعظم آفته، وقد أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنه ((**لا يدخل الْجَنَّةَ من كان في قلبه مثقال ذَرَّةٍ من كِبْرٍ**))(١).

وإنما صار حجابًا دون الجنة؛ لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين؛ لأن صاحبه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، فلا يقدر على التواضع، ولا على ترك الحقد والحسد والغضب، ولا على كظم الغيظ، وقبول النصح، ولا يسلم من الازدراء بالناس واغتيابهم. فما من خلق ذميم إلا وهو مضطر إليه.

ومن مظاهر الكبر المتوعد عليها بالعذاب في الآخرة: جر الثوب خيلاء كما جاء في (الصحيح): عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا يَنْظُرُ اللهُ إلى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ**))(٢).

والخِيَلاء والأَخْيَل والخَيْلَة والمخِيلَة، كلُّه: الكِبْر. وقد اخْتَالَ، وهو ذو خُيَلاءَ، وذُو خَالٍ وذُو مَخِيلَة، أَي: ذُو كِبْر. يقال: خَالَ الرجلُ يَخُولُ خَوْلًا واخْتَالَ إذا تَكَبَّرَ، وهو ذُو مَخِيلة(٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال العلماء: الخُيَلَاءُ -بالمدِّ- والْمَخِيلَة والْبَطَر والْكِبْر وَالزَّهْو والتَّبختر كلها بمعنى واحد، وهو حرام. ويقال: خال الرجل خالا واختال اختيالا

---

(١) صحيح مسلم [٩١].

(٢) صحيح البخاري [٣٦٦٥، ٥٧٨٣، ٥٧٨٤، ٥٧٩١]، صحيح مسلم [٢٠٨٥].

(٣) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (خيل) (٤/ ١٦٩١)، لسان العرب (١١/ ٢٢٦).

إذا تَكَبَّرَ، وهو رجل خال، أي: مُتَكَبِّرٌ، وصاحب خال، أي: صاحب كبر(١). ومعنى: (لا ينظر الله إليه) أي: لا يرحمه ولا ينظر إليه نظر رحمة"(٢).

وقال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((بينما رجل يَجُرُّ إزارَهُ من الخُيلاءِ، خُسِفَ به، فهو يَتَجَلْجَلُ في الأرض إلى يوم القيامة))**(٣).

ومن شر أنواع الكبر: ما يمنع من استفادة العلم، وقبول الحق، والانقياد له.

وقد تحصل المعرفة للمتكبر، ولكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق، كما قال ﷻ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]، ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون:٤٧]، ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم:١٠]، وآيات كثيرة نحو هذا، وهذا تكبر على الله ﷻ وعلى رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "(٤).

"لكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات:

الأولى: أن يكون الكبر مستقرًّا في قلب الإنسان منهم، فهو يرى نفسه خيرًا من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع، فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة، إلا أنه قد قطع أغصانها.

الثانية: أن يظهر لك بأفعاله من الترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، والإنكار على من يقصر في حقه، فترى العالم يصعر خده للناس، كأنه معرض عنهم، والعابد يعيش ووجهه كأنه مستقذر لهم، وهذان قد جهلا ما أدب الله ﷻ به نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حين قال: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٢١٥].

---

(١) قال العراقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال والدي ﷺ في (شرح الترمذي): وكأنه مأخوذ من (التخيل)، أي: الظن، وهو أن يخيل له أنه بصفة عظيمة بلباسه لذلك اللباس، أو لغير ذلك. انتهى. وهو محتمل. ويقال: للكبر أيضًا: خيل وأخيل وخيلة -بكسر الخاء- ذكر ذلك في (المحكم)". طرح التثريب في شرح التقريب (٨/١٧١).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/٦٠-٦١).

(٣) صحيح البخاري [٣٤٨٥].

(٤) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي (ص:٢٢٨).

الدرجة الثالثة: أن يظهر الكبر بلسانه، كالدعاوى والمفاخر، وتزكية النفس، وحكايات الأحوال في معرض المفاخرة لغيره، وكذلك التكبر بالنسب، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملًا.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك، وليس أحد أكرم من أحد إلا بالتقوى. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣][(١)].

وكذلك التكبر بالمال، والجمال، والقوة، وكثرة الأتباع، ونحو ذلك، فالكبر بالمال أكثر ما يجرى بين الملوك والتجار ونحوهم.

والتكبر بالجمال أكثر ما يجرى بين النساء، ويدعوهن إلى التنقص والغيبة وذكر العيوب.

وأما التكبر بالأتباع والأنصار، فيجرى بين الملوك بالمكاثرة بكثرة الجنود، وبين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين.

وفي الجملة فكل ما يمكن أن يعتقد كمالًا، فإن لم يكن في نفسه كمالًا، أمكن أن يتكبر به، حتى إن الفاسق قد يفتخر بكثرة شرب الخمرة والفجور؛ لظنه أن ذلك كمال"[(٢)].

وقال ابن حبان رَحِمَهُ اللَّهُ: "العاقل يلزم مجانبة التكبر؛ لما فيه من الخصال المذمومة.

وذكر منها: أنه لا يتكبر على أحد حتى يعجب بنفسه، ويرى لها على غيرها الفضل"[(٣)].

وقد ذمَّ الله ﷻ الكبرَ في آياتٍ كثيرة، وأوضح أنه يصرف الإنسان عن الحجج والبراهين فقال ﷻ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٤٦]، أي: سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوبَ المتكبرين عن طاعتي،

---

(١) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) [٨٩٨].

(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص:٢٢٩- ٢٣٠)، إحياء علوم الدين (٣/٣٥٠- ٣٥١).

(٣) روضة العقلاء (ص:٦١).

ويتكبرون على الناس بغير حقٍّ، أي: كما استكبروا بغير حقٍّ أذلهم الله بالجهل، كما قال ﷻ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، وقال ﷻ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

وهناك من الآيات ما يدل على أن الكبر يصرف عن اتباع الحق، فقد صرف أوَّل ما صرف إبليس اللعين، كما قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤]، وقال الله ﷻ على لسان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح:٧]، وقال ﷻ عن عاد قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، وعن ثمود قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الأعراف:٧٥]، وعن قوم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف:٨٨]، وعن قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت:٣٩]. وقال أيضًا عن قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]. فقد رأوا الحق بأعينهم، وجاءتهم الآيات مبصرة وبينة، وعلموا أن ما جاء به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الحق البين، ولكن صدَّهم الكبر عن الاتباع والإيمان.

ومنع الكبر أيضًا مشركي قريش في مكة من اتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات:٣٥]. والكبر هو الذي صرف المنافقين وصدَّهم عن الانتفاع بالحقِّ، قال ﷻ عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون:٥]، فالكبر داء يمنع من قبول الحق كما يمنع من التفكر في آيات الله ﷻ ومخلوقاته، ويجعلهم يصرفونها عن ظاهرها، ويفسرونها وفق أهوائهم، سواء في ذلك الآيات القرآنية أو الآيات الكونية، قال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر:٥٦].

ومن الآيات التي توضح أنَّ الكبر سببٌ للإعراض عن الحق قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ۝٢٠٥ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۝٢٠٦﴾ [الأعراف:٢٠٤- ٢٠٦].

وقد جاء الخطاب الإلهي يبين أنَّ من صفات الذين ينتفعون به، ويهتدون إلى الحق أنَّهم لا يستكبرون، يقول الله ﷻ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ۝٨٣﴾ [المائدة:٨٢-٨٣]، وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة:١٥].

وقال بعض السلف: لا ينال العلم حييٌّ ولا مستكبر. وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبدًا[1].

خامسًا: أقسام التكبر:

يتفاوت خطر الكبر من حيث اختلاف أقسامه، وقد ذكر الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن التكبر أقسام ثلاثة:

١ - التكبر على الله ﷻ:

وذلك هو أفحش أنواع الكبر، ولا مثار له إلَّا الجهل المحض والطغيان، [والغفلة عن البون الشَّاسع بين مقام الألوهية ومقام العبودية]، مثل ما كان من نمرود، فإنه كان يحدث نفسه بأنه يقاتل رب السماء، وكما يحكى عن جماعة من الجهلة.

بل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون وغيره، فإنه لتكبره قال: أنا ربكم الأعلى؛ إذ استنكف أن يكون عبدًا لله ﷻ، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، وقال ﷻ: ﴿لَنْ

(١) انظر: تفسير الحافظ ابن كثير (٣/٤٧٥).

يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدا لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٧٢]، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان:٢١].

٢ – **التكبر على الرسل** عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: من حيث تعزز النفس وترفعها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس، وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار، فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد، وهو ظان أنه محق فيه، وتارة يمتنع مع المعرفة، ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل، كما حكى الله ﷻ قولهم: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون:٤٧]، وقولهم: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم:١٠]، ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون:٣٤]، إلى آخر الآيات التي وردت في هذا الشأن.

٣ – **التكبر على العباد**: وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره، فتأبى نفسه الانقياد لهم، وتدعوه إلى الترفع عليهم، فيزدريهم ويستصغرهم. ثم ذكر الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ أن الذي تعظم به رذيلة الكبر يدعوه ذلك إلى مخالفة الله ﷻ في أوامره؛ لأن المتكبر إذا سمع من عبدٍ من عباد الله ﷻ استنكف عن قبوله، وتشمر لجحده، ولذلك ترى المناظرين في مسائل الدين [أو حتى في مسائل السياسة] يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين [أو عن مصالح الأمة]، ثم إنهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين، ومهما اتضح الحقُّ على لسان واحد منهم أنف الآخر قبوله، وتشمَّر لجحده، واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التَّلبيس، وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين؛ إذ وصفهم الله ﷻ فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦]، فكل من يناظر للغلبة والإفحام لا ليغتنم الحق إذ ظفر به فقد شاركهم هذا الخلق، وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوعظ، كما قال ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾ [البقرة:٢٠٦][(١)].

---

(١) بتصرف عن (إحياء علوم الدين) (٣/٣٦٤) فما بعد.

ثم ذكر أنه لا يتكبر إلَّا متى استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلَّا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال. وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي، فالديني هو العلم والعمل، والدنيوي هو النسب، والجمال، والقوة، والمال، وكثرة الأنصار..[1].

سادسًا: الوقاية من الكبر والعلاج:

يمكن إجمال علاج الكبر باتباع الأساليب والوسائل التالية:

١ - استئصال أصله وقطع شجرته، وذلك بأن يعرف الإنسان نفسه، ويعرف ربه، وأن يتفكر في طبيعة الخلق وعلته، وفي العاقبة والمآل.

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن تكبر لرياسة نالها دلَّ ذلك على دناءة عنصره، ومن تفكر في تركيب ذاته، فعرف مبدأه ومنتهاه وأوساطه عرف نقصه، ورفض كبره، وقد نبَّه الله ﷻ على ذلك أحسن تنبيه بقوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧﴾ [الطارق:٥-٧]، وبقوله ﷻ: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝١٩﴾ [عبس:١٧-١٩]، ثم قوله ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان:٢]، وقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [يس:٧٧].

وإلى هذا المعنى نظر مطرف بن عبد الله بن الشخير[2]. فقد روي أن مُطَرِّف بن عَبْدِ الله بن الشِّخِّير رأى الْمُهَلَّب بن أبي صُفْرَةَ وهو يَتَبَخْتَرُ في جُبَّةِ خَزٍّ، فقال: يا عبد الله هذه مِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا الله ﷻ وَرَسُوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال له الْمُهَلَّب: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك، أَوَّلُك نُطْفَةٌ مَذِرَة، وآخِرُك جِيفَةٌ قَذِرَة، وأنتَ بين ذلك تَحْمِلُ الْعَذِرَةَ، فمضى المهلب، وترك مِشْيَتَهُ تلك[3].

---

(١) المصدر السابق (٣/٣٦٧) بتصرف.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص:٢١٤- ٢١٥).

(٣) انظر: إحياء علوم الدين (٣/٣٤٠)، الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيتمي (١/١١٨)، بريقة محمودية (٢/٩٢).

٢ – التواضع بالفعل لله ﷻ ولعباده، وذلك بالمواظبة على استعمال خلق المتواضعين.

٣ – من اعتراه الكبر من جهة النَّسب، فليعلم أنَّ هذا تعزُّز بكمال غيره، ثم يعلم أباه وجده، فإنَّ أباه القريب نطفة قذرة، وأباه البعيد تراب. ومن اعتراه الكبر بالجمال فلينظر إلى باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر إلى ظاهره نظر البهائم. ومن اعتراه من جهة القوة فليعلم أنَّه لو آلمه عرق عاد أعجز من كلِّ عاجز، وإن شوكة دخلت في رجله لأعجزته، وبقَّة لو دخلت في أذنه لأقلقته. من تكبر بالغنى، فإذا تأمل خلقًا من اليهود وجدهم أغنى منه، فأفٍّ لشرف تسبقه به اليهود، ويستلبه السارق في لحظة ، فيعود صاحبه ذليلًا. ومن تكبر بسبب العلم، فليعلم أنَّ حجة الله على العالم آكد من حجته على الجاهل، وليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده، فإنَّ خطره أعظم من خطر غيره، كما أنَّ قدره أعظم من قدر غيره.

٤ — أن يعلمَ أنَّ الكِبْرَ لا يليق إلا بالله تعالى، وأنَّه إذا تكبر صار ممقوتًا عند الله بغيضًا عنده، وقد أحبَّ الله تعالى منه أن يتواضع، وكذلك كلُّ سبب يعالجه بنقيضه، ويستعمل التواضع[1].

٥ – تذكير النفس بالعواقب والآثار المترتبة على التكبر.

٦ – عيادة المرضى، ومشاهدة المحتضرين وأهل البلاء وتشييع الجنائز، وزيارة القبور، فلعل ذلك أيضًا يحركه من داخله، ويجعله يرجع إلى ربِّه بالإخبات والتواضع.

٧ – الانسلاخ من صحبة المتكبرين، والارتماء في أحضان المتواضعين المخبتين، فربما تعكس هذه الصحبة بمرور الأيام شعاعها عليه.

٨ – مجالسة ضعاف النَّاس وفقرائهم، وذوى العاهات منهم، بل ومؤاكلتهم ومشاربتهم؛ فإن هذا مما يهذِّب النَّفس، ويجعلها تقلع عن غيِّها، وتعود إلى رشدها

(١) انظر ذلك مفصلًا في (مختصر منهاج القاصدين)، لابن قدامة المقدسي (ص:٢٣١– ٢٣٣).

٩ – النَّظر في سير وأخبار المتكبرين، كيف كانوا ؟ وإلى أي شيء صاروا؟[١].

١٠ – شكر المنعم على نعمه، ويكون بمعرفة مصدر تلك النعم، فمن الذي منح العبد تلك النعم، وكيف حاله لو سلبت منه نعمة واحدة فضلًا عن سلب نعم كثيرة أو عن سلب النعم كلها.

١١ – حضور مجالس العلم، وملازمة العلماء الربانيين. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مجالسة العارف تدعوك من ست إلى ست: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الطوية إلى النصيحة"[٢].

١٢ – مجاهدة النفس وتهذيبها بالأخلاق الفاضلة، وحملها على التواضع في سائر الأحوال والأفعال.

١٣ – الرجوع عن الخطأ، والاعتراف بالتقصير، والاعتذار لما بدر من زلات.

١٤ – الدعاء بخشوع وتذلل لله ﷻ، والمواظبة على الطاعات، والإكثار من النوافل.

١٥ – أن لا يغيب عنه في كل حال ميزان التفاضل بين الخلق، وهو التقوى، والتنافس في فعل الخيرات.

١٦ – عدم الرضا عن النفس؛ لأنه أصل جميع الصفات المذمومة كما بيناه في عقبة: (الرضا عن النفس).

(١) انظر: آفات على الطريق، د. السيد محمد نوح (ص:١١٤-١١٦).

(٢) مدارج السالكين (٣/٣٢٢).

العقبة السابعة والعشرون

الغرور

أولًا: تعريف الغرور:

الغَرور بالفتح تطلق على الأشياء التي تمارس الخداع لغيرها كالشيطان، وما يمكن أن ينخدع به الإنسان فيغتر به، أو فيه، كالدنيا وما فيها من حبِّ المال أو الجاه أو السلطة أو المال أو سائر الشهوات، أو الشيطان، أو كل زخرف باطل خادع. أما الغُرور بالضم فيقصد به أن ينخدع الإنسان بالدنيا وشهواتها أو بحيل الشيطان وتلبُّسه أو بمكر البشر.

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "و(الغَرُور) بالفتح: الشَّيطان، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣]. والْغَرُور أيضًا: ما يُتَغَرْغَر به من الأدوية. و(الْغُرُور) بالضَّمِّ: ما اغْتُرَّ به من متاع الدنيا"[١].

فالغَرور بالفتح من يمارس الخداع، من يخدع غيره، أو ينخدع به غيره، وأما الغُرور بالضم فيطلق على عملية الخداع نفسها، كالوُضوء بالضم فهو أن تأتي بأفعال الوضوء كما أمر الله تعالى. أما الوَضوء بالفتح فيطلق على الماء نفسه الذى نتطهر به، وكالسَّحور بفتح السين: وهو ما يتسحر به، وبضمها الفعل.

فالغُرور بالضم: الانخداع، يقال: غَرَّه يَغرُّه غُرورًا فهو غارٌّ ومغرور، والغَرور بالفتح مثالُ مبالغة، كالضَّروب، والغِرُّ: الصغير، والغَريرة: الصغيرة؛ لأنهما يَنْخَدِعَان. والغِرَّةُ مأخوذة من هذا. يقال: (أَخَذَه على غِرَّة) أي: تَغَفُّل وخداع"[٢]. قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الغَرُور: بالفتح كل ما يَغُرُّ الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فسِّر بالشيطان؛ إذ هو أخبث الْغَارِّين، وبالدُّنيا؛ لما قيل: الدُّنيا تَغُرُّ وتَمُرُّ[٣] وتضرُّ، والْغَرَر: الخطر، وهو من الْغَرِّ، ((**ونهي عن بيع الْغَرَر**))"[٤].

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (غرر) (٢/٧٦٨).

(٢) انظر: الدر المصون (٣/٩٦)، البحر المحيط في التفسير (٣/٨٠)، اللباب في علوم الكتاب (٥/١٢٠).

(٣) تنقضي سريعة.

(٤) المفردات في غريب القرآن، مادة: (غرر) (ص:٦٠٣- ٦٠٤)، وانظر: بصائر ذوي التمييز (٤/١٢٩)، تفسير الطبري (٢٠/١٥٨). والحديث في (صحيح مسلم) [١٥١٣].

والغرور تزيين الخطأ بِمَا يُوهِمُ الصَّوَاب، فيظن المغرور به أنه صواب. يقال: غرَّ فلان فلانًا إذا أَصَابَ غُرَّتَهُ، أي: غفلته، ونال منه ما يريد، والمراد به الخداع.

وقال الكفوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كل من غر شيئًا فهو غرور بالفتح، والغُرور بالضم الباطل"(١).

والانخداع بالباطل يعمُّ ما كانَ خداعًا للنَّفس، أو للغير، أو للنفس والغير.

وقد وردت الغُرور بالضم في القرآن الكريم في تسعة مواضع، أما الغَرور بالفتح فقد وردت في القرآن كله في ثلاثة مواضع.

ويتبين مما تقدَّم أن الغُرور في معناه اللغوي له صلة وثيقة بمعناه في الاصطلاح، وقد قيل في تعريفه: إنه "سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع"(٢). "وعبر عنه بعضهم بأنه كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشيطان، وفسر بالدنيا؛ لأنها تغر وتمر وتضر"(٣).

وقال الحرالي: "هو إخفاء الخدعة في صورة النصيحة"(٤). وفَسَّرَ بعضهم الْغُرُورَ بأنه إظهار النفع فيما هو ضَارٌّ(٥). أي: في الحال أو المآل كشرب الخمر والقمار والزنا وغير ذلك(٦).

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المغرور هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلًا، وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائدًا والشيطان دليلًا"(٧).

وقد جاءت الآيات في القرآن محذِّرة من الغرور، ومبينة لأسبابه وعواقبه؛ ليكون كل مكلف على بصيرة وبينة.

---

(١) الكليات (ص: ٦٦٣).

(٢) التعريفات، للجرجاني (ص:١٦١).

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي (ص:٢٥١).

(٤) تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير (ص:٥٤٤).

(٥) انظر: تفسير البيضاوي (٢/٩٨)، تفسير أبي السعود (٢/٢٣٤)، السراج المنير (١/٣٣٣).

(٦) المنار (٥/٣٥١).

(٧) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٧٨- ٣٧٩).

ثانيًا: ما جاء في تحذير السالكينَ من آفات الغرور وعاقبته:

أما الآيات التي تحذِّرُ السالكينَ من آفات الغرور، وتبين مآل وعاقبة من أصابته آفة الغرور فيأتي بيانها على النحو التالي:

١ - قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران:٢٣-٢٤]. فقد دلت الآيات على أن الغرور كان سببًا للتولي والإعراض عن الحق، والإصرار على الباطل.

"وقد أخبر الله ﷻ عن مفاسد هذا الغرور والافتراء بإيقاعها في الضَّلال الدَّائم؛ لأن المخالفة إذا لم تكن عن غرور فالإقلاع عنها مرجو، أما المغرور فلا يترقب منه إقلاع. وقد ابتلي المسلمون بغرور كثير في تفاريع دينهم، وافتراءات من الموضوعات عادت على مقاصد الدين وقواعد الشريعة بالإبطال"[١].

٢ - إن أعظم العوائق الشاغلة عن التفكر في الآخرة، وعن الاستعداد لها: الدنيا، والشيطان الموسوس الْمُسَوِّل، فنهى تعالى عباده، أن تغرهم الدنيا، أو يغرهم بالله تعالى الْغَرُور[٢]، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥]. شَبَّه الدُّنيا بالمتاع الذي يُدَلَّسُ به على الْمُسْتَامِ[٣]، ويُغَرُّ حتى يشتريه، ثم يَتَبَيَّن له فسادُهُ ورداءتُهُ.

---

(١) التحرير والتنوير (٣/٢١١).

(٢) وسيأتيك مزيد من البيان من خلال تفسير قول الله ﷻ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ [النساء:١٢٠-١٢١]. وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر:٥-٦].

(٣) السوم: عرض السلعة على البيع. يقال: اسْتامَ مني بسلعتي اسْتِيامًا إذا كان هو العارض عليك الثمن. وسامني وسامني الرجل بسلعته سومًا، وذلك حين يذكر لك هو ثمنها، والاسم من جميع ذلك: السُّومَة والسِّيمَة. لسان العرب، مادة: (سوم) (١٢/٣١٠).

والشيطان هو المدلس الغرور. وعن سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنما هذا لمن آثرها على الآخرة، فأما من طلب الآخرة بها فإنها متاع بلاغ[1].

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يغترُّ بها الإنسان، فيلهو ويلعب ويفرح ويبطر ثم تزول، كل هذه الجمل وهذه الأوصاف يريد الله ﷻ -وهو أعلم- أن يُزهِّدَ الإنسانَ في الدنيا ويرغِّبه في الآخرة، ومن زهد بالدنيا ورغب في الآخرة لم يفته شيء من نعيم الدنيا حتى وإن افتقر، فإنه لا يفوته نعيم الدنيا، ودليل هذا من القرآن والسنة، قال الله ﷻ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧]. لم يقل: لنكثرن ماله وأولاده وقصوره. ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ مطمئنة مستريح البال فيها. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وبين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك في قوله: ((**عجبًا لأمر المؤمن، إنَّ أمره كُلَّهُ خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سَرَّاءُ شَكَرَ، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضَرَّاءُ صَبَرَ فكان خيرًا له**))"[2].

٣ - قال الله ﷻ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران:١٩٦]. "فنهى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكره نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الاغترار بضربهم في البلاد، وإمهال الله إياهم، مع شركهم، وجحودهم نعمه، وعبادتهم غيره. وخرج الخطاب بذلك للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمعنيُّ به غيره من أتباعه وأصحابه"[3].

٤ – تقدم أن أعظم العوائق الشاغلة عن التفكر في الآخرة، وعن الاستعداد لها: الدنيا، والشيطان الموسوس الْمُسَوِّل المزين، وقد قال الله ﷻ عن الشيطان: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠].

---

(١) انظر: الكشاف (٤٤٩/١)، مفاتيح الغيب (٤٥٣/٩)، البحر المحيط في التفسير (٤٦١/٣)، غرائب القرآن (٣٢٣/٢).

(٢) صحيح مسلم [٢٩٩٩]، تفسير الحجرات والحديد، محمد بن صالح العثيمين (ص:٤٠٧).

(٣) تفسير الطبري (٤٩٣/٧).

ومن أنفع ما قيل في تفسير الآية أن الغرور هو أن يظن الإنسان بالشيء أنه نافع ولذيذ، ثم يتبين اشتماله على أعظم الآلام والمضار، وجميع أحوال الدنيا كذلك، والعاقل يجب عليه أن لا يلتفت إلى شيء منها، ومثال هذا أن الشيطان يلقي في قلب الإنسان أنه سيطول عمره وينال من الدنيا أمله ومقصوده، ويستولي على أعدائه، ويقع في قلبه أن الدنيا دول، فربما تيسرت له كما تيسرت لغيره، إلا أن كل ذلك غرور، فإنه لا بد وأن يكون عند الموت في أعظم أنواع الغم والحسرة، فإن المطلوب كلما كان ألذ وأشهى وكان الإلف معه أدوم وأبقى كانت مفارقته أشد إيلامًا وأعظم تأثيرًا في حصول الغمِّ والحسرة، فظهر أن هذه الآية منبهة على ما هو العمدة والقاعدة في هذا الباب. وفي الآية وجه آخر: وهو أن الشيطان يعدهم بأنه لا قيامة ولا جزاء فاجتهدوا في استيفاء اللذات الدنيوية.

ثم قال ﷻ: ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [النساء:١٢١]. واعلم أنا ذكرنا أن الغرور عبارة عن الحالة التي تحصل للإنسان عند وجدان ما يستحسن ظاهره إلا أنه يعظم تأذيه عند انكشاف الحال فيه، والاستغراق في طيبات الدنيا، والانهماك في المعاصي، وإن كان في الحال لذيذًا إلا أن عاقبته عذاب جهنم، وسخط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والبعد عن رحمته، فكان هذا المعنى مما يقوي ما تقدم ذكره من أنه ليس إلا الغرور[1].

٥ - قال الله ﷻ: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام:٧٠]، أي: من زعم أنه على الحقِّ، وأنه صاحبُ دينٍ وتقوى، وقد اتَّخذ دينَه لعبًا ولهوًا، بأن لَهَا قلبُه عن محبَّة الله تعالى ومعرفته، واتَّبع الشَّيطان والهوى، فدعه وأعرض عنه، فمثله لا ينفعه التذكر، وقد طمس الله ﷻ على بصيرته، وهو صائر إلى العذاب.

٦ - قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]، "يعني: أنَّه يُلْقِي الْمُلْقِي منهم

(١) انظر: مفاتيح الغيب (١١/ ٢٢٤).

القولَ، الذي زيَّنه وحسَّنه بالباطل إلى صاحبه، ليغترَّ به من سمعه، فَيَضِلَّ عن سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى "[1].

٧ - قال الله ﷻ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام:١٣٠]. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: وقد فرطوا في حياتهم الدنيا، وهلكوا بتكذيبهم الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ومخالفتهم للمعجزات، لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها"[2].

٨ - قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف:٥١]، أي: اغتروا بطول البقاء، "وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا من اتخاذهم الدين لهوا ولعبا، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للدار الآخرة"[3].

٩ - قال الله ﷻ: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء:٦٤].

تقدَّم أن الغُرور هو الباطل. قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وما يعد الشيطان أولياءَه الذين اتخذوه وليًّا من دون الله إلا غرورًا، يعني: إلا باطلًا"[4].

١٠ - قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب:١٢]. وهذا بيانٌ لحالِ المنافقين الذين يظهرونَ الإيمان، ويبطنونَ الكفر، وعندهم نقصٌ في يقينهم، ومرضٌ في قلوبهم، واختلالٌ في عقولهم ومناهجهم، أضلَّهم عن الحقِّ، وأعمى أبصارهم.

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٥١).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤١).
(٣) المصدر السابق (٣/ ٤٢٤).
(٤) تفسير الطبري (٩/ ٢٢٤).

١١ – قال الله ﷻ: ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر:٤٠].
"أي: ذلك الذي مشوا عليه، ليس لهم فيه حجة، فإنما ذلك توصية بعضهم لبعض به، وتزيين بعضهم لبعض، واقتداء المتأخر بالمتقدِّم الضَّال، وأمانيُّ مَنَّاها الشيطان"(١).

١٢ – قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣].

١٣ – قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر:٥-٦].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول: ولا يخدعنّكم بالله خادع. والغَرور بفتح الغين: هو ما غرَّ الإنسان من شيء كائنًا ما كان، شيطانًا كان أو إنسانًا، أو دنيًا، وأما الغُرور بضم الغين: فهو مصدر من قول القائل: غررته غرورا"(٢). وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ الآية [الحديد:١٤] كاف في ذم الغرور"(٣).

١٤ – قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۝١٣ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝١٤﴾ [الحديد:١٣- ١٤]. قوله ﷻ: ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾، أي: طول الآمال والطمع في امتداد الأعمار، ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾، أي: الموت، ﴿وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾، أي: وغركم الشيطان بأن الله عفو كريم لا يعذبكم، أو بأنه لا بعث ولا حساب.

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٩١).
(٢) تفسير الطبري (٢٠/ ١٥٨).
(٣) إحياء علوم الدين (٣/٣٧٩).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاءِ أن يفتح للعبد طريق النَّجاة والفلاح، حتى إذا ظن أنه ناج ورأى منازلَ السعداءِ اقتطع عنهم، وضربت عليه الشقوة، ونعوذ بالله من غضبه وعقابه.

وإنما كانت هذه الطبقة في الدرك الأسفل؛ لغلظ كفرهم، فإنهم خالطوا المسلمين وعاشروهم، وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان ما لم يباشره البعداءُ، ووصل إليهم من معرفته وصحته ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوة، فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفرًا وأخبث قلوبًا، وأشدَّ عداوة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللمؤمنين من البعداءِ عنهم، وإن كان البعداء متصدِّين لحرب المسلمين"(١).

١٥ - قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦].

قال ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أيُّ شيء غرَّك بربِّك حتى كفرت به أو عصيته، أو غفلت عنه فدخل في العتاب: الكفار وعصاة المؤمنين، ومن يغفل عن الله تعالى في بعض الأحيان من الصالحين. وروي أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ فقال: غرَّه جهله(٢).

وقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: غرَّه جهله وحمقه. وقرأ: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢]، وقيل: غرَّه الشيطان المسلط عليه. وقيل: غرَّه ستر الله عليه. وقيل: غرَّه طمعه في عفو الله عنه. ولا تعارض بين هذه الأقوال؛ لأن كل واحد منهما مما يغرُّ الإنسان، إلا أن بعضها يغرُّ قومًا وبعضها يغر قومًا آخرين. فإن قيل: ما مناسبة وصفه

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٤٠٣).

(٢) قال الإمام الزيلعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "رواه الثعلبي أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه، واسمه: الحسين بن محمد ثنا أبو علي بن حنش المقري ثنا أبو القاسم بن الفضل المقري ثنا علي بن الحسين المقدمي وعلي بن هاشم قالا ثنا كثير بن هشام ثنا جعفر بن برقان ثنا صالح ابن مسمار قال: بلغني أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾، قال: غره جهله، وعن الثعلبي رواه الواحدي في تفسيره (الوسيط) بسنده ومتنه، ورواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب (فضائل القرآن) حدثنا كثير ابن هشام، وذكره سواء إلا أنه قال: غره حلمه، والنسخة صحيحة" تخريج الأحاديث في تفسير الكشاف (٤/١٦٧).

بالكريم هنا للتوبيخ على الغرور؟ فالجواب أن الكريم ينبغي أن يعبد ويطاع شكرًا لإحسانه ومقابلة لكرمه، ومن لم يفعل ذلك فقد كفر النعمة، وأضاع الشكر الواجب"(١).

ويتبين مما تقدَّم أن الغرور آفة قد تصيب بعض السالكين، فتصدَّهم عن الحق، بل قد تكون هذه الآفة من العقبات المهلكات.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أما الغرور فإنه ما غرَّ الإنسان فخدعه فصدَّه عن الصَّواب إلى الخطأ، وعن الحقِّ إلى الباطل"(٢).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فالمغرور هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلًا، وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائدًا، والشيطان دليلًا. ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٧٢].

وذكر أنَّ الغرور هو أم الشَّقاوات، ومنبع المهلكات، ثم بين مداخله ومجاريه، وأصناف المغترين(٣).

وأوضحَ أنَّ هذا الدَّاء يسري حتى يصيبَ كثيرين من العلماء والعُبَّاد والزُّهاد والقضاة وأرباب الأموال، وأنَّ أظهر أنواع الغرور وأشدَّها: غرور الكفَّار وغرور العصاة والمفسدين.

وأعظم الخلق غرورًا من اغترَّ بالدنيا وعاجلها، فآثرها على الآخرة، ورضي بها من الآخرة،

فمنهم من قال: الدُّنيا نقد، والآخرة نسيئة، والنَّقد أحسن من النسيئة. وهذا محل التلبيس؛ فإنَّ النقد لا يكون خيرًا من النسيئة إلا إذا كان مثل النسيئة، فكيف والدنيا

(١) تفسير ابن جزي (التسهيل لعلوم التنزيل) (٢/ ٤٥٨).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٥٦).

(٣) انظر: إحياء علوم الدين (٣/ ٣٧٩)، وانظر: أصناف المغرورين (ص: ٢٥).

كلها من أولها إلى آخرها كنفس واحد من أنفاس الآخرة؟ كما في الحديث: ((**ما الدنيا في الآخرة إلا مِثْلُ ما يجعل أحدكم إصبعه هذه في الْيَمِّ، فلينظر بم تَرْجِع؟**))[1].

فإيثار هذا النقد على هذه النسيئة، من أعظم الغبن وأقبح الجهل، وإذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها إلى الآخرة، فما مقدار عمر الإنسان بالنسبة إلى الآخرة، فأيهما أولى بالعاقل؟ إيثار العاجل في هذه المدة اليسيرة، وحرمان الخير الدائم في الآخرة، أم ترك شيء حقير صغير منقطع عن قرب، ليأخذ ما لا قيمة له ولا خطر له، ولا نهاية لعدده، ولا غاية لأمده؟

ويقول بعضهم: ذرة منقودة، ولا درة موعودة. ويقول آخر منهم: لذات الدنيا متيقنة، ولذات الآخرة مشكوك فيها، ولا أدع اليقين بالشك.

وأما قول الآخر: لا أترك متيقنًا لمشكوك فيه، فيقال له: إما أن تكون على شك من وعد الله ووعيده وصدق رسله، أو تكون على يقين من ذلك، فإن كنت على اليقين فما تركت إلا ذرة عاجلة منقطعة فانية عن قرب؛ لأنه متيقن لا شك فيه ولا انقطاع له.

فأما ملابسوا المعاصي مع سلامة عقائدهم، فإنهم قد شاركوا الكفار في هذا الغرور؛ لأنهم آثروا الدنيا على الآخرة، إلا أن أمرهم أسهل من أمر الكفار، من جهة أن أصل الإيمان يمنعهم من عقاب الأبد.

ومن العصاة من يغتر، فيقول: إن الله كريم، وإنما نتكل على عفوه، وربما اغتروا بصلاح آبائهم.

وقد قال العلماء: من رجا شيئًا طلبه، ومن خاف شيئًا هرب منه، ومن رجا الغفران مع الاصرار، فهو مغرور.

وليعلم أن الله ﷻ مع سعة رحمته شديد العقاب، وقد قضى بتخليد الكفار في النار، مع أنه لا يضره كفرهم، وقد سلَّط الأمراض والمحن على خلق من عباده في الدنيا، وهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَى قادر على إزالتها، ثم خوفنا من عقابه، فكيف لا نخاف؟!

---

(١) صحيح مسلم [٢٨٥٨]. "ومعنى الحديث: ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة في قصر مدتها، وفناء لذاتها، ودوام الآخرة، ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالأصبع إلى باقي البحر". شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٧/١٩٢- ١٩٣).

فالخوف والرجاء سائقان يبعثان على العمل، وما لا يبعث على العمل فهو غرور.
يوضح هذا أن رجاء أكثر الخلق يحملهم على البطالة، وإيثار المعاصي.

والعجب أن القرن الأول عملوا وخافوا، ثم أهل هذا الزمان أمنوا مع التقصير واطمأنوا، أتراهم عرفوا من كرم الله ﷻ ما لم يعرف الأنبياء والصالحون؟!

ولو كان هذا الأمر يدرك بالمنى، فلم تعب أولئك وكثر بكاؤهم؟! وهل ذم أهل الكتاب بقوله ﷻ: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف:١٦٩]، إلا لمثل هذا الحال؟!"[(١)].

وقال شيخنا إسماعيل المجذوب حفظه الله: "في ظروفنا الحاضرة يكثر تعاطي مهلكات قد تكون من نوع: ((**إن العبد لَيَتَكَلَّمُ بالكلمة، ما يَتَبَيَّنُ ما فيها، يهوي بها في النار، أبعد ما بين المشرق والمغرب**))[(٢)].

ومن هذا الباب: كلام في الدين بغير علم. وكلام في أمور الأمة يلبس ثوب العصبيات مع قصر النظر وضيق الأفق. وكلام فيه اتهام الناس وسوء الظن بهم. وكلام فيه إرجاف وتخويف يؤدي إلى اليأس والقنوط. وأغلب ما تكون هذه المهلكات في مناخ من الغرور بالنفس، أو الغرور بجماعة مخصوصة، أو الغرور بمنهج مخصوص"اهـ.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قد اندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء، فالله تعالى المستعان، وإليه الملاذ في أن يعيذنا من هذا الغرور"[(٣)].

وقال في (بداية الهداية): "واعلم أن الناس في طلب العلم على ثلاثة أحوال: رجل طلب العلم ليتخذه زاده إلى المعاد، ولم يقصد به إلا وجه الله والدار الآخرة؛ فهذا من الفائزين.

---

(١) انظر: مختصر منهاج القاصدين (ص:٢٣٧)، وانظر ذلك مفصلًا في (إحياء علوم الدين)، كتاب ذم الغرور (٣/٣٧٨) فما بعد، أصناف المغرورين، لأبي حامد الغزالي (ص:٢١) فما بعد، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم (ص:٣٦- ٣٧).

(٢) أخرجه البخاري [٦٤٧٧]، ومسلم [٢٩٨٨].

(٣) إحياء علوم الدين (١/٢١).

ورجل طلبه ليستعين به على حياته العاجلة، وينال به العز والجاه والمال، وهو عا لم بذلك، مستشعر في قلب ركاكة حاله وخسة مقصده، فهذا من المخاطرين. فإن عاجله أجله قبل التوبة خيف عليه من سوء الخاتمة، وبقي أمره في خطر المشيئة؛ وإن وفق للتوبة قبل حلول الأجل، وأضاف إلى العلم العمل، وتدارك ما فرط به من الخلل التحق بالفائزين؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

ورجل ثالث استحوذ عليه الشيطان؛ فاتخذ علمه ذريعة إلى التكاثر بالمال، والتفاخر بالجاه، والتعزز بكثرة الأتباع، يدخل بعلمه كل مدخل رجاء أن يقضى من الدنيا وطره، وهو مع ذلك يضمر في نفسه أنه عند الله بمكانة؛ لاتسامه بسمة العلماء، وترسمه برسومهم في الزي والمنطق، مع تكالبه على الدنيا ظاهرًا وباطنًا، فهذا من الهالكين، ومن الحمقى المغرورين؛ إذ الرجاء منقطع عن توبته لظنه أنه من المحسنين"(١).

وقال في (الإحياء): "فأما أهل العلم، فالمغترون منهم فرق: منهم فرق أحكموا العلوم الشرعية والعقلية، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي، وإلزامها الطاعات، واغتروا بعلمهم، وظنوا أنهم عند الله بمكان، لعلموا أن العلم إنما يراد لمعرفة الحلال والحرام، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها، فهي علوم لا تراد إلا للعمل، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل. قال الله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس:٩]، ولم يقل: قد أفلح من تعلَّم كيف يزكيها، فإن تلا عليه الشيطان فضائل أهل العلم، فليذكر ما ورد في العا لم الفاجر، كقوله ﷻ: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف:١٧٦]، وقوله: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة:٥].

وفرقة أخرى أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات الذميمة من الكبر والحسد والرياء وطلب العلا وإرادة السوء للأقران والنظراء وطلب الشهرة في البلاد والعباد، فهؤلاء زينوا ظواهرهم

---

(١) بداية الهداية، لأبي حامد الغزالي (ص:٢٦- ٢٧).

وأهملوا، ونسوا قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))**(١).

وفرقة أخرى: علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم"(٢).

والعُجْبُ قد يحمل صاحبه على تعظيم نفسه حتى تستولي عليه الغفلة، ويفرح بما هو عليه، ويستغني بما عنده، وربما يصل إلى (غرور العلم) الصَّارف عن الآيات والحجج، والصادّ عن الهداية، و(غرور العلم) سببٌ في خلق نزعة الإلحاد والجحود، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر:٨٣].

وهذا النوع من الغرور هو خداع للنفس، وركون إلى ما يوافق الهوى. وإطلاق العلم على اعتقادهم تهكم وجري على حسب معتقدهم، وإلا فهو جهل، وإن كان قد أصاب علمًا من طرف فهو جاهل بجوانب أخرى، ولو أنه بحث أو ردَّ ما أشكل عليه إلى أولي العلم لذهب عنه ما يجد في نفسه من الشبه، ورجع عن الانحراف، واستقام على الهداية. قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣]. لكن الغرور منعه من الاستفادة من علم غيره، فبقي في ظلمة الجهل.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأصناف غرور أهل العلم كثيرة، وما يفسد هؤلاء أكثر مما يصلحونه"(٣).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "ألا ترى أنَّ الذي يعظم نفسه بالباطل يريد أن ينصر كل ما قاله –ولو كان خطأ–"(٤).

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٦٤].

(٢) إحياء علوم الدين (٣/٣٨٨)، بتصرف، موعظة المؤمنين (ص:٢٦٠)، مختصر منهاج القاصدين (ص:٢٣٩).

(٣) أصناف المغرورين (ص:٤٠)، وانظر: إحياء علوم الدين (٣/٣٩١).

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/٢٩٢).

والحاصل أنَّ الغرورَ له خطرُه على العقيدة والهداية والعبادة وممارسة الحياة، وله عواقب وآثار على السَّالِكِ وعلى المدعوين، فمن آثاره على السالك: ضلالُه عن الحقِّ، واتِّباعُه للهوى وما يزينه الشيطان له من سوء عمله، وانتصارُه للنفس، والمراء، والجدال بالباطل، والعجب، والتكبر، والاستبداد بالرأي، وازدراء الآخرين واحتقارهم، حتى يضلَّ عن الحقِّ، ويهلك مع من هلك.

ومن آثاره على المدعوين: التنفيرُ والصَّدُّ عن الهداية، فهو يعكس بسوء خلقه وقصده، وانحراف فكره صورة قبيحة ومشوهة عما يدعو إليه.

ثالثًا: الوقاية من الغرور والعلاج:

١ - التيقظ والفطنة:

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فمفتاح السعادة: التيقظ والفطنة، ومنبع الشقاوة: الغرور والغفلة، فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة، ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية، ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة.

فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم: ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور:٣٥]. والمغترون قلوبهم: ﴿كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور:٤٠]. فالأكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم فشرح صدورهم للإسلام والهدى، والمغترون هم الذين أراد الله أن يضلهم، فجعل صدرهم كالتي وصفها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقوله: ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام:١٢٥]"[1]. فلا يليق بذي همَّة علية: اتباع الدنيء والرضا

(١) إحياء علوم الدين (٣/٣٧٨).

بالدون الزائل عن العالي الدائم، وإيثار شهوة عاجلة على سعادة دائمة، وإيثار الجهل على العلم، والعمى على النور.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فالموفق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد، فأخذ منها حذره، وبنى على الحزم والبصيرة أمره"(١).

٢ – الاختبار العكسي:

إن وسائل الوقاية من آفات الغرور: إعادة البحث والنظر وإصلاح الفكر، ونقد ما بني على أسس متهافتة، أو على عاطفة مجردة، وهو ما يسمى بالاختبار العكسي، وقد يكون سببًا في كشف زيف المعتقد، وتقويم الفكر، وتصحيح الموقف، والرجوع عن الغرور، واتباع الحق الذي لا شك فيه.

٣ – أن يفقه الباحثُ مولِّداتِ الغرور وآفاته، وأن يطَّلعَ على ما سطَّره العلماءُ والباحثون في الأخلاقِ والتربية.

٤ – محاسبة النفس والتنقيب عن عيوبها ونقائصها؛ فإن محاسبة النفس هو طريق استقامتها وكمالها وفلاحها وسعادتها، ومعرفة الداء تبصِّرُ السالك بسبل الوقاية والعلاج، فقد يبتلى بعض السالكين بآفة الغرور؛ لإهماله متابعة النفس ومحاسبتها، حيث يتمكن الداء منه.

وقد بين الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المحاسبة تكون لمستقبَل الأعمال ولمستدبرها. فقال: المحاسبة في مستقبل الأعمال: "النظر بالتثبت قبل الزلل؛ ليبصر ما يضره مما ينفعه، فيترك ما يضره على علم، ويعمل بما ينفعه على علم. والمحاسبة الثانية في مستدبر الأعمال، وقد نطق بها الكتاب والسنة، وقالت بها علماء الأمة"(٢).

٥ – الدعوة إلى دين الله ﷻ بالوسطية والاعتدال، والاحتراز عن الغلوّ والتَّشدد:

"وقد يكون السبب في الغرور إنما هو الغلوُّ أو التشدد في الدِّين، ذلك أنَّ بعضَ العاملين قد يُقْبِلُ على منهجِ الله تعالى في غلوٍّ وتشدُّدٍ، وبعد فترة من الزَّمان ينظرُ حوله

---

(١) المصدر السابق (٣/٣٧٩).

(٢) انظر ذلك مفصلًا في (الرعاية لحقوق الله) (ص:٤٨–٥٥).

فيرى غيره من العاملين يسلكون المنهج الوسط، فيظنُّ لغفلته أو عدم إدراكه طبيعة هذا الدِّين أنَّ ذلك منهم تفريط أو تضيع، ويتمادى به هذا الظَّن إلى حد الاحتقار والاستصغار لكلِّ ما يصدرُ عنهم بالإضافة إلى ما يقع منه وذلك هو الغرور. ولعل ذلك هو بعض السر في دعوة الإسلام إلى الوسطية، بل وتحذيره من الغلو أو التشدد في الدين"[1].

والحاصل أن الغلوّ والتَّشدد قد يكون منفرًا للنَّاس عن الاتباع، وقد يكون من أسباب الانتكاس بعد الهداية؛ فلذلك ينبغي الاعتدال والوسطية في الفهم، والحكمة في الدعوة، وهذا هو المنهج السليم الذي علَّمه النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه رضوان الله عليهم، وقد جاء ذلك مبينًا في عقبة (المفهوم الخاطئ للاستقامة).

٦ - الاعتبار بعاقبة المغرورين، كصاحب الجنتين، وفرعون وقارون، ومن اغتر بقوته أو ماله أو بهما، أو من اغتر بجماله أو جاهه ومكانته إلى غير ذلك.

٧ – تبصير النَّاس بآفات الغرور، فهو يقي كثيرينَ من الإصابة بهذا الداء، وهو من النُّصح والدِّلالة إلى الخير، ومن التعاون على البر والتقوى.

٨ – التربية السليمة على التواضع والأخلاق الفاضلة.

٩ - مراقبة الله ﷻ، وإخلاص العمل له.

١٠ - تدبر آيات القرآن والانتفاع بمواعظه، والتمسك بهدي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسنته؛ "فإن دوام النظر في كتاب الله تعالى، وسنة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطلعنا على سير وأخبار الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ والصالحين، وكيف كانوا يخافون من الهفوات أن تقع منهم مع أن رصيدهم من الطاعات كبير"[2].

١١ – الوقوف على سير وأخبار السَّلف والصَّالحين والأعلام من هذه الأمة الذين جمعوا بين العلم والعمل، والخوف والرجاء، وكان لسان الصِّدق والإخلاص في العمل

---

(١) آفات على الطريق، الدكتور السيد محمد نوح (ص:٩٢-٩٣).

(٢) انظر: المصدر السابق (ص:١٠٣).

عندهم أبلغ من لسان القول؛ فلذلك لامست مواعظهم النفوس، ودخلت شغاف القلوب، وأثَّرت في المدعوين.

١٢ - ومن أسباب الوقاية من آفات الغرور: الاشتغال بالعبادات الظاهرة والباطنة، والإكثار من النوافل، والذكر والاستغفار والدعاء، واللجوء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والاستعانة به، وحضور مجالس العلماء؛ فإن ذلك مما يقي السالك آفات الشرود، وينمي فيه شعور المراقبة.

١٣ - مصاحبة الصالحين وأرباب العزائم والهمم ومنافستهم في الأعمال الصالحة:

إن صحبة أرباب العزائم والهمم، ومشاركة المجدين تبعث في النفس الهمة، وتولد الحرارة والشوق؛ لتقليدهم والتشبه بهم في أخلاقهم وسلوكهم، وهي من أسباب النجاة والرفعة، كما أن صحبة أهل الباطل تؤثِّر في الصَّدِّ عن الحقِّ، وتورد صاحبها المهالك.

١٤ – إيثار الآخرة على الدنيا.

١٥ - الحرص على هداية الناس، ومحبة الخير لهم، ونصحهم وإرشادهم، وذلك الحرص الذي يعكس سلامة الصدر، وصفاء النفس، وطهارة القلب، ومتانة المنهج؛ فإن المحبة أساس الدعوة إلى الله عَجَّلَ ومنطلقها، فالدين محبة ورحمة ومعاملة.

١٦ - يقال كذلك في وسائل الوقاية والعلاج ما تقدم مما قيل في الوقاية من آفات التكبر والعجب من نحو معرفة الإنسان أصل خلقته، وضعفه، ومصيره الذي سيؤول إليه.

١٧ - ترك الالتفات إلى الأعمال والركون إليها، والتعويل على كرم الله عَجَّلَ ورحمته:

جاء في الحديث: ((**إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة، فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار، فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة**))[(١)].

(١) صحيح البخاري [٢٨٩٨، ٤٢٠٢، ٤٢٠٧]، مسلم [١١٢].

وفي (صحيح مسلم): ((**إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة، ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار، ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة**))(١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ففيه التحذير من الاغترار بالأعمال، وأنه ينبغي للعبد أن لا يتكل عليها، ولا يركن إليها؛ مخافة من انقلاب الحال"(٢).

وفي الحديث: ((**لن يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجنَّةَ**))، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ((**لا، ولا أنا، إلا أن يَتَغَمَّدَنِي الله بِفَضْلٍ ورحمة**))(٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]، ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف:٧٢]، ونحوهما من الآيات الدالة على أن الأعمال يدخل بها الجنة، فلا يعارض هذه الأحاديث، بل معنى الآيات: أن دخول الجنة بسبب الأعمال، ثم التوفيق للأعمال، والهداية للإخلاص فيها، وقبولها برحمة الله ﷻ وفضله، فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل، وهو مراد الأحاديث"(٤).

وذكر الرَّاغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ جماع ما يأمنُ به السَّالكُ من الغرور ما يلي:

"أ. معرفة المقصود المشار إليه بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات:٥٠].

ب. معرفة الطريق إليه المشار إليه بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف:١٠٨].

ج. تحصيل الزَّاد المتبلغ به المشار إليه بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة:١٩٧].

---

(١) صحيح مسلم [٢٦٥١].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ١٢٦).

(٣) صحيح البخاري [٥٦٧٣، ٦٤٦٣، ٦٤٦٧]، مسلم [٢٨١٦].

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/ ١٦٠- ١٦١)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (١١/٢٩٧).

د. المجاهدة في الوصول إليه كما قال ﷻ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج:٧٨]. فبهذه الأشياء يأمن الغرور الذي خوفه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منه في قوله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣]"[١].

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص: ٢٧٠-٢٧١).

العقبة الثامنة والعشرون

الحســـد

أولًا: تعريف الحسد:

الحسد تمني زوال النعمة عن المحسود[1] وإن لم يصر للحاسد مثلها، وتفارقه الغبطة، فإنها تمني مثلها من غير حبِّ زوالها عن المغبوط[2]. وهذا ممدوح. ولما كان كثير من الناس لا يفرقون بين الحسد والغبطة سمي هذا باسم هذا تجوزًا[3].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال أهل اللغة: الغبطة أن يتمنى مثل حال المغبوط من غير إرادة زوالها عنه، وليس هو بحسد. أقول: منه غَبَطْتُه بما نَالَ أَغْبِطُه -بكسر الباء- غَبْطًا وغِبْطَة فاغْتَبَطَ هو، كَمَنَعْتُه فامْتَنَع، وحَبَسْتُهُ فَاحْتَبَس"[4]. وفي (صحيح البخاري) باب اغتباط صاحب القرآن[5].

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "اعلم أنه لا حسد إلا على نعمة، فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان، إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، وهذه الحالة تسمى: حسدًا، فالحسد حدُّه: كراهة النِّعمة وحُبُّ زوالها عن المنعم عليه. الحالة الثانية: أن لا تحبَّ زوالها، ولا تكره وجودها ودوامها، ولكن تشتهي لنفسك مثلها، وهذه تسمى: غبطة، وقد تختص باسم المنافسة، وقد تسمى المنافسة: حسدًا، والحسد: منافسة، ويوضع أحد اللفظين موضع الآخر، ولا حجر في الأسامي بعد فهم المعاني"[6].

وحدَّ بعضُهم الحسدَ فقال: هو أذى يلحق بسبب العلم بحسن حال الأخيار.

وقال بعض الحكماء: كل أحد يمكن أن ترضيه إلَّا الحاسد فإنه لا يرضيه إلَّا زوال نعمتك.

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (حسد) (٢/ ٤٦٥)، الفائق، للزمخشري (٣/ ٤٦).

(٢) انظر: غريب الحديث، لابن الجوزي (١/ ٢١٢)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (حسد) (١/ ٣٨٣)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (١/ ١٦٦)، وانظر: مادة: (حسد) في (لسان العرب) (٣/ ١٤٨)، المحكم والمحيط الأعظم (٣/ ١٧٦)، المخصص (٤/ ٨٦).

(٣) كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي (١/ ٢٨٨).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٠/ ٩٨).

(٥) صحيح البخاري (٦/ ١٩١).

(٦) إحياء علوم الدين (٣/ ١٨٩).

وقال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الحسد: تمني زوال نعمة عن مستحق لها"(١).

وقال الأصمعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سمعت أعرابيًا يقول: ما رأيت ظالما أشبه بظلوم من الحاسد، حزن لازم، ونفس دائم، وعقل هائم، وحسرة لا تنقضي(٢).

وقال الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والحسد: إحساس نفساني مركب من استحسان نعمة في الغير مع تمني زوالها عنه؛ لأجل غيرة على اختصاص الغير بتلك الحالة أو على مشاركته الحاسد فيها. وقد يطلق اسم الحسد على الغبطة مجازًا(٣). والغبطة: تمني المرء أن يكون له من الخير مثل ما لمن يروق حاله في نظره، وهو محمل الحديث الصحيح: ((**لا حسد إلا في اثنتين**))(٤)، أي: لا غبطة، أي: لا تحق الغبطة إلا في تَيْنِكَ الخَصْلَتَيْن، وقد بين شهاب الدين القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الفرق بين الحسد والغبطة في الفرق الثامن والخمسين والمائتين(٥).

فقد يغلب الحسدُ صَبْرَ الْحَاسِدِ وَأَنَاتَه فَيَحْمِلُه على إيصال الأذى للمحسود بإتلاف أسباب نعمته أو إهلاكه رأسًا. وقد كان الحسد أول أسباب الجنايات في الدنيا؛ إذ حسد أحد ابني آدم أخاه على أن قُبِلَ قُرْبَانُه ولم يُقْبَلْ قُرْبَانُ الآخر، كما قصه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في (سورة العقود)"(٦).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**لا حسد إلا في اثنتين**)) قال العلماء: الحسد قسمان حقيقي ومجازي، فالحقيقي تمني زوال النعمة عن صاحبها، وهذا حرام بإجماع الأمة مع النصوص الصحيحة، وأما المجازي فهو الغبطة، وهو أن يتمنى مثل

(١) التوقيف على مهمات التعاريف (ص:١٣٩)، وانظر: التعريفات (ص:٨٧).

(٢) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (١/١١٣- ١١٤).

(٣) انظر: فتح الباري، لابن حجر (١/١٦٧)، مرقاة المفاتيح (١/٢٨٤)، روح المعاني، للألوسي (١٥/٥٢٣).

(٤) صحيح البخاري [٧٣، ١٤٠٩، ٥٠٢٥، ٥٠٢٦، ٧١٤١، ٧٣١٦، ٧٥٢٩]، مسلم [٨١٥، ٨١٦].

(٥) انظر: الفروق، للقرافي، الفرق الثامن والخمسون بين قاعدة الحسد وقاعدة الغبطة (٤/٢٢٤).

(٦) التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٢٩- ٦٣٠).

النعمة التي على غيره من غير زوالها عن صاحبها، فإن كانت من أمور الدنيا كانت مباحة، وإن كانت طاعة فهي مستحبة"[(١)].

وذكر أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الحسد الحقيقي الذي هو تمني زوال نعمة الغير قد يكون غير مذموم، بل محمود، مثل أن يتمنى زوال النعمة عن الكافر، أو عمن يستعين بها على المعصية[(٢)].

ويتبين مما تقدم أن الحسد يقابل الغطبة والمنافسة في الخير من حيث الحكم والأثر.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وبين المنافسة والغبطة جمع وفرق، وبينهما وبين الحسد أيضًا جمع وفرق. فالمنافسة تتضمن مسابقة واجتهادًا وحرصًا. والحسد: يدل على مهانة الحاسد وعجزه، وإلا فنافس من حسدته. فذلك أنفع لك من حسده، والغبطة تتضمن نوع تعجب وفرح للمغبوط، واستحسان لحاله"[(٣)].

ونحوه قول الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الذي ينال الإنسانَ بسبب خير يصل إلى غيره على سبيل التمني أن يكون له مثله فهو غبطة، وإذا كان مع ذلك سعي منه أن يبلغ هو مثل ذلك من الخير أو ما هو فوقه فمنافسة، وكلاهما محمودان"[(٤)].

والغبطة والمنافسة في الخير كلاهما محمود. قال أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيستحب الغبط في الخير؛ وهو المراد بقوله: صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((لا حسد إلا في اثنتين))**[(٥)].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "حكم الحسد بحسب حقيقته، وأما الحسد المذكور في الحديث فهو الغبطة، وأطلق الحسد عليها مجازًا، وهي أن يتمنى أن يكون له مثل ما لغيره من غير أن يزول عنه، والحرص على هذا يسمى: منافسة، فإن كان في الطاعة فهو

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ٩٧)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٤/ ١٤٥٦).
(٢) المفهم لما أشكل من صحيح مسلم (٢/٤٤٥)، طرح التثريب في شرح التقريب (٤/٧٣).
(٣) مدارج السالكين (٣/ ٤٨).
(٤) الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص:٢٤٥).
(٥) أحكام القرآن (١/ ٥٢٦).

محمود، ومنه: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦]، وإن كان في المعصية فهو مذموم. ومنه: ((**ولا تنافسوا**))[١]، وإن كان في الجائزات فهو مباح"[٢].

وقد قُيِّدَ التباري والتنافس بكونه في صالح الأعمال وفي العلوم النافعة التي يخلص فيها المكلف النية والعمل؛ لأنه كما يكون التنافس في أعمال البرِّ والطاعات، وهو التنافس المحمود، كذلك يكون في الرَّغبة في الدنيا وأسبابها وحظوظها، وهو التَّنافس المذموم.

والمسابقة إلى الأعمال المحصلة للدرجات العالية مطلوبة، وهي تشمل العلم إذا كان خالصًا لله تعالى، والاجتهاد في الطاعات، وأعمال البر والخير، وهذه المنافسة ترتقي بالإنسان في العلم والعمل، كما ترتقي بالأمم في مجالات العلوم، والصناعات، والتقدم الحضاري.

ثانيًا: ذم الحسد وبيان كونه من العقبات:

إنَّ الحسدَ يعدُّ من (الصوارف الذَّاتية) عن الحقِّ؛ لكونه من أمراض القلوب، ومن الآفات التي تصيب النفس فتؤثِّر في الفكر، وهو من العقبات في طريق الهداية من حيث كونه مشتتًا للأفكار، ومورِّثًا للوسواس، ومكدرًا للحواس.

يقول الله ﷻ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩]. فالمعنى أن حسد الإنسان ذاتي صارف عن الحق، وهو من أمراض النفس، فمودتهم لكفركم من عند أنفسهم، لا أنه عندهم هو الحق.

---

(١) جاء في الحديث: ((وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها)) صحيح البخاري [١٣٤٤، ٣٥٩٦، ٤٠٨٥، ٦٤٢٦، ٦٥٩٠]، مسلم [٢٢٩٦]. وفي رواية: ((إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا..)) الحديث. صحيح مسلم [٢٥٦٣].

(٢) فتح الباري، لابن حجر (١/١٦٧).

وقد نهانا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الحسد؛ لأنه آفة تؤدي إلى التقاطع والتدابر فقال: ((**لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا**))(١).

وحذَّرنا من خطر هذا الداء وآفاته، وبين لنا سعة انتشاره حتى لا يسلم منه إلا الموفَّقُونَ الذين امتحن الله قلوبهم للتَّقوى، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((**سَيُصِيبُ أُمَّتِي دَاءُ الأمم**))، فقالوا: يا رسول الله، وما داء الأمم؟ قال: ((**الأَشَرُ، والبَطَرُ، والتَّكَاثُرُ، والتَّنَاجُشُ في الدنيا، والتَّباغُض، والتَّحَاسُد، حتى يكون البَغْيُ**))(٢)، "أي: مجاوزة الحد، وهو تحذير شديد من التنافس في الدنيا؛ لأنها أساس الآفات، ورأس الخطيئات، وأصل الفتن، وعنه تنشأ الشرور"(٣).

والناس لا يزالون بخير ما تآلفت قلوبهم، وصفَت نفوسُهم، فإذا تحاسدوا تفرَّقوا واختلفوا وضعفوا. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا**))(٤).

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأمم قبلكم: الحسدُ والبغضاء، هي الحَالِقَة، لا أقول تَحْلِقُ الشعر ولكن تَحْلِقُ الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم**))(٥).

---

(١) صحيح البخاري [٦٠٦٤، ٦٠٦٥، ٦٠٦٦، ٦٠٧٦، ٦٧٢٤]، صحيح مسلم [٢٥٥٨، ٢٥٥٩، ٢٥٦٣، ٢٥٦٤].

(٢) أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٩٠١٦]، والحاكم [٧٣١١]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. قال الحافظ العراقي: "أخرجه ابن أبي الدنيا في (ذم الحسد)، والطبراني في (الأوسط) من حديث أبي هريرة بإسناد جيد". المغني عن حمل الأسفار (ص:١٠٨٦).

(٣) فيض القدير (٤/ ١٢٥).

(٤) أخرجه الطبراني [٨١٥٧]. قال الهيثمي (٨/٧٨): "رواه الطبراني، ورجاله ثقات".

(٥) أخرجه البزار [٢٢٣٢] عن يعيش بن الوليد، مولى لابن الزبير، عن ابن الزبير. قال الهيثمي (٨/٣٠): "رواه البزار وإسناده جيد".

وذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الحسد داء كامن في النفس يمنع من الانقياد للحق، وهو من أسباب الكفر والضلال(١).

قال ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ثم إن الحسد على درجات:

الأولى: أن يحب الإنسان زوال النعمة عن أخيه المسلم -وإن كانت لا تنتقل إليه- بل يكره إنعام الله على غيره، ويتألم به.

الثانية: أن يحب زوالَ تلك النعمة؛ لرغبته فيها رجاء انتقالها إليه.

الثالثة: أن يتمنى لنفسه مثل تلك النعمة من غير أن يحب زوالها عن غيره، وهذا جائز، وليس بحسد، وإنما هو غبطة.

والحاسد يضر نفسه ثلاث مضرات:

أحدها: اكتساب الذنوب؛ لأن الحسد حرام.

الثانية: سوء الأدب مع الله تعالى؛ فإن حقيقة الحسد كراهية إنعام الله على عبده، واعتراض على الله تعالى في فعله.

الثالثة: تألم قلبه من كثرة همه وغمه، فنرغب إلى الله ﷻ أن يجعلنا محسودين لا حاسدين، فإن المحسود في نعمة والحاسد في كرب ونقمة"(٢).

ومن العلماء من فرّق في الحكم بين الحسد من حيث إيصال الأذى، وظهور الأثر، وبين كونه مضمرًا في النفس، ولا أثر له في الواقع.

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قول الله ﷻ: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:٥]: "أي: إذا أظهر حسده، وعمل بمقتضاه من بغى الغوائل للمحسود؛ لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره فلا ضرر يعود منه على من حسده، بل هو الضارُّ لنفسه؛ لاغتمامه بسرور غيره"(٣).

---

(١) انظر: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (ص: ٢٤٥).

(٢) تفسير ابن جزي (٢/ ٥٢٧).

(٣) الكشاف (٤/٨٢٢).

ونحوه قول الإمام محمد الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث قال في (تفسيره): "وتقييد الاستعاذة من شره بوقت: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾؛ لأنه حينئذ يندفع إلى عمل الشر بالمحسود حين يجيش الحسد في نفسه، فتتحرك له الحيل والنوايا لإلحاق الضر به. والمراد من الحسد في قوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ حسد خاص، وهو البالغ أشد حقيقته، فلا إشكال في تقييد الحسد بـ(حسد)، وذلك كقول عمرو بن معد يكرب:

وبدت لميس كأنها ... بدر السماء إذا تبدى

أي: تجلى واضحًا منيرًا"[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد دلَّ القرآن والسنة على أن نفس حسد الحاسد يؤذي المحسود. فنفس حسده شر متصل بالمحسود من نفسه وعينه وإن لم يؤذه بيده ولا لسانه؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إذا حَسَدَ﴾ فحقق الشر منه عند صدور الحسد. والقرآن ليس فيه لفظة مهملة. ومعلوم أن الحاسد لا يسمى حاسدًا إلا إذا قام به الحسد، كالضارب، والشاتم، والقاتل ونحو ذلك. ولكن قد يكون الرجل في طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود، لاه عنه، فإذا خطر على ذكره وقلبه انبعث نار الحسد من قلبه إليه، وتوجهت إليه سهام الحسد من قبله. فيتأذى المحسود بمجرد ذلك. فإن لم يستعذ بالله ويتحصن به، ويكون له أوراد من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله ﷻ، والإقبال عليه، بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على الله ﷻ، وإلا ناله شر الحاسد ولا بد. فقوله ﷻ: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ بيان؛ لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل (تأثير العين)، وقد تقدم في حديث: أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الصحيح رقية جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيها: ((**بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، من كُلِّ شيءٍ يُؤْذِيكَ، من شَرِّ كلِّ نَفْسٍ أو عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ**))[2]. فهذا فيه الاستعاذة من شر عين الحاسد، ومعلوم أن عينه لا تؤثر بمجردها؛ إذ لو نظر إليه نظر لاه ساه عنه كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره لم يؤثر فيه شيئًا، وإنما إذا نظر إليه نظر من

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٦٣٠).

(٢) صحيح مسلم [٢١٨٦].

قد تكيفت نفسه الخبيثة، واتسمت واحتدت، فصارت نفسًا غضبية خبيثة حاسدة، فأثرت تلك النظرة في المحسود تأثيرًا بحسب صفة ضعفه وقوة نفس الحاسد.."(١).

وأثبت أهل السنة والجماعة تأثيرَ الحسد والعين في الأنفس. قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله ﷻ: ﴿وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إذا حَسَدَ﴾: "دليلٌ على أن الحسد يؤثر في المحسود ضررًا يقع به، إمَّا في جسمه بمرض، أو في ماله وما يختص به بضرر، وذلك بإذن الله تعالى ومشيئته، كما قد أجرى عادته، وحقق إرادته، فربط الأسباب بالمسببات، وأجرى بذلك العادات، ثمَّ أمرنا في دفع ذلك بالالتجاء إليه، والدعاء، وأحالنا على الاستعانة بالعُوَذ والرُّقى "(٢).

وفي الحديث: ((**العين حقٌّ**))(٣)، وعند مسلم: ((**العين حَقٌّ، ولو كان شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وإذا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا**))(٤). قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومعناه: أن الأشياء كلها بقدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا تقع إلا على حسب ما قدرها الله تعالى وسبق بها علمه، فلا يقع ضرر العين ولا غيره من الخير والشر إلا بقدر الله تعالى. وفيه صحة أمر العين، وأنها قوية الضرر، والله أعلم"(٥).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**العين حقٌّ**)) "أي: ثابت موجود، لا شكَّ فيه. وهذا قول علماء الأمَّة، ومذهب أهل السُّنَّة. وقد أنكرته طوائف من المبتدعة، وهم محجوجون بالأحاديث والنُّصوص الصَّريحة، الكثيرة الصحيحة، وبما يشاهد من ذلك في الوجود"(٦).

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٢٨- ٢٢٩) بتصرف يسير. وانظر: علاقة كل من الحسد والعين بالآخر في (آفات على الطريق)، للدكتور السيد محمد نوح (ص:٦٦٥).

(٢) المفهم لما أشكل من صحيح مسلم (٥/٥٦٤).

(٣) صحيح البخاري [٥٧٤٠، ٥٩٤٤]، مسلم [٢١٨٧، ٢١٨٨].

(٤) صحيح مسلم [٢١٨٨].

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/١٧٤).

(٦) المفهم لما أشكل من صحيح مسلم (٥/٥٦٥).

وقد استدل كذلك بقول الله ﷻ: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ الآية [القلم:٥١]. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾: لينفذونك بأبصارهم، أي: يعينونك بأبصارهم، بمعنى: يحسدونك لبغضهم إياك، لولا وقاية الله لك، وحمايته إياك منهم. وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق، بأمر الله ﷻ كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة"(١).

وقد أرادوا بالفعل أن يصيبوه بالعين فنظر إليه قوم من قريش كانوا مشتهرين بذلك فقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حججه، بقصد إصابته بالعين، فعصمه الله من شرورهم(٢).

قال ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن الله يخلق عند نظر العائن إلى المعاين وإعجابه به إذا شاء ما شاء من ألم أو هلكة، وكما يخلقه بإعجابه وبقوله فيه فقد يخلقه ثم يصرفه دون سبب، وقد يصرفه قبل وقوعه بالاستعاذة، فقد كان عليه الصلاة والسلام يُعَوِّذُ الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ، وَيقُولُ: ((**إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بها إسماعيلَ وإسحاق: أعُوذُ بِكَلِمَات الله التَّامَّة، من كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّة، ومن كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ**))"(٣).

والحاصل أن الحسد هو الداء العضال الذي ابتلي به كثير من الناس، فأوغر صدورهم، وأفسد ضمائرهم، وفرق شملهم، وصرفهم عن الحق، وهو أوَّل ذنب عصي الله ﷻ به؛ لأن إبليس لم يترك السجود لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلَّا بسبب الحسد، كما أن قابيل لم يحمله على قتل أخيه هابيل سوى الحسد.

وذكر الله ﷻ حسد إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لما كرهوا حبَّ أبيهم ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وساءهم ذلك، وأحبوا زواله، غيبوه عنه كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف:٨].

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٠١).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٢٥٤).

(٣) عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي (٨/٢١٧)، وانظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٣١/١٢٠-١٢١). والحديث في (صحيح البخاري) [٣٣٧١]. (هامة) كل حشرة ذات سم. وقيل مخلوق يهم بسوء. و(لامة) العين التي تصيب بسوء، وتجمع الشر على المعيون. وقيل هي كل داء وآفة تلم بالإنسان.

وداء الحسد هو الداء الذي صرف اليهود عن اتباع النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع علمهم أنه الرسول الخاتم، المبشر به في كتبهم، فقد عرفوه بصفاته المذكورة عندهم كما يعرفون أبناءهم ، قال الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٨٩]. وقال ﷻ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

قال ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والحسد شر تلازمه شرور: العجب، والاحتقار، والكبر. وقد جمع إبليس هذه الشرور كلها: حسد آدم عجبًا بنفسه فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾. ورآه لا يستحق السجود احتقارًا له، فقال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾؟! [الإسراء:٦٢]. ثم تكبر ولم يسجد ورضي باللعنة والخزي. ولا أشنع من صفة يكون إبليس فيها إمامًا!! والحسد شر على صاحبه قبل غيره؛ لأنه يأكل قلبه، ويؤرق جفنه، ويقضُّ مضجعه"[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أركان الكفر أربعة: (الكبر والحسد والغضب والشهوة). فالكبر يمنعه الانقياد، والحسد يمنعه قبول النصيحة وبذلها، والغضب يمنعه العدل، والشهوة تمنعه التفرغ للعبادة، فإذا انهدم ركن الكبر سهل عليه الانقياد، وإذا انهدم ركن الحسد سهل عليه قبول النصح وبذله، وإذا انهدم ركن الغضب سهل عليه العدل والتواضع، وإذا انهدم ركن الشهوة سهل عليه الصبر والعفاف والعبادة. وزوال الجبال عن أماكنها أيسر من زوال هذه الأربعة عمن بلي بها، ولا سيما إذا صارت هيئات راسخة وملكات وصفات ثابتة، فإنه لا يستقيم له معها عمل البتة، ولا تزكو نفسه مع قيامها بها، وكلما اجتهد في العمل أفسدته عليه هذه الأربعة، وكل الآفات متولدة منها، وإذا استحكمت في القلب أرته الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل، والمعروف في صورة المنكر، والمنكر في صورة المعروف، وقربت منه الدنيا، وبعدت منه الآخرة. وإذا تأملت كفر الأمم رأيته ناشئًا منها، وعليها يقع العذاب، وتكون خفته وشدته بحسب خفتها وشدتها، فمن فتحها على نفسه فتح عليه أبواب الشرور كلها عاجلًا وآجلًا، ومن أغلقها على نفسه

---

(١) تفسير ابن باديس (١/ ٣٧٩- ٣٨٠).

أغلق عنه أبواب الشرور؛ فإنها تمنع الانقياد، والإخلاص، والتوبة، والإنابة، وقبول الحق، ونصيحة المسلمين، والتواضع لله ﷻ ولخلقه. ومنشأ هذه الأربعة من جهله بربه وجهله بنفسه"[(١)].

ثالثًا: الأسباب التي تدعو إلى الحسد:

ذكر الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأسباب التي تدعو الإنسان إلى الحسد، ومن أهمها:

١ - العداوة والبغضاء: وهذا أَشَدُّ أسباب الحسد؛ فإنَّ من آذاه شخص بسبب من الأسباب، وخالفه في غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه، وغضب عليه، ورسخ في نفسه الحقد، والحِقْدُ يقتضي التفشي والانتقام، فإن عجز عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان. وكثيرًا ما يفضي إلى التنازع والتقاتل، والسعي إلى إزالة النعمة بالطرق الخبيثة، والحيل القبيحة.

٢ - التَّعَزُّز: وهو أن يَثْقُلَ عليه أن يَتَرَفَّعَ عليه غيره، فإذا أصاب بعض أمثاله ولايةً أو علمًا أو مالًا خاف أن يتكبر عليه، وهو لا يطيق تكبره، ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه..

٤ — العجب وحبُّ الذَّات:

قال ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما ينشأ الحسد من العجب وحب الذات، فتسول له نفسه أن غيره ليس أهلًا لنعم الله، وكفى بهذا معاداة للمنعم"[(٢)].

وقد أخبر الله ﷻ عن الأمم السالفة أنهم قالوا: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [يس:١٥]، وقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون:٤٧]، ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون:٣٤].

---

(١) الفوائد (ص:١٥٩).

(٢) تفسير ابن باديس (١/ ٣٧٩).

٥ - الخوف من فوت المقاصد: وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد، كتحاسد الضرات في التزاحم على مقاصد الزوجية، وتحاسد الإخوة في التزاحم على نيل المنزلة في قلب الأبوين؛ للتوصل به إلى مقاصد الكرامة والمال والجاه.

٦ - حب الرئاسة وطلب الجاه لنفسه: فإن الرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون إذا غلب عليه حب الثناء، واستفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر، وفريد العصر في فنه، وأنه لا نظير له، فإنه لو سمع بنظير له في أقصى العالم لساءه ذلك، وأحب موته أو زوال النعمة عنه التي بها يشاركه المنزلة من شجاعة، أو علم، أو عبادة، أو صناعة، أو جمال، أو ثروة، أو غير ذلك مما يتفرد هو به، ويفرح بسبب تفرده.

٧ - خُبْثُ النَّفس وشُحُّها بالخير لعباد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

بحيث يَشُقُّ عليه أن يُوصَفَ عنده حُسْنُ حَالِ عَبْدٍ فيما أُنْعِمَ عليه، ويفرح بذكر فَوَاتِ مَقَاصِدِ أَحَدٍ، واضْطِرَابِ أُمُوره، وتَنَغُّص عَيْشِه، فهو أبدًا يبْخَلُ بنعمة الله على عباده، وكأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته. وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خُبْثٌ في النَّفْس، ورَذَالَةٌ في الطَّبْع، ومُعَالَجَتُهُ شديدةٌ؛ لأَنَّهُ خُبْثٌ في الجِبِلَّةِ لا في عارضٍ حتى يُتَصَوَّرَ زواله.![1].

٦ – التباهي والتفاخر بالأموال والأولاد، والتنافس على متاع الدنيا:

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله ﷻ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ [الحديد:٢٠]: "والتفاخر كثير في أحوال الناس في الدنيا، ومنه التباهي والعجب، وعنه ينشأ الحسد"[2].

وفي الحديث: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: ((**إذا فتحت عليكم فارس والروم، أي قوم أنتم؟**))، قال عبد الرحمن بن عوف رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: نقول كما أمرنا الله، قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**أو غير**

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٣/١٩٤)، موعظة المؤمنين (ص:٢١٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/٤٠٣).

ذلك، تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، أو نحو ذلك، ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين، فتجعلون بعضهم على رقاب بعض))(١).

وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج يومًا، فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر، فقال: ((**إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض – أو مفاتيح الأرض – وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها**))(٢)، أي: ولكنني أخشى أن يحملكم التنافس على المال والجاه على التنازع فيما بينكم، فيودي بكم ذلك إلى العداوة والبغضاء والتقاتل على الدنيا وخيراتها(٣).

وعند مسلم: ((**ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها، وتقتتلوا، فتهلكوا، كما هلك من كان قبلكم**))(٤).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال العلماء: التنافس إلى الشيء: المسابقة إليه وكراهة أخذ غيرك إياه، وهو أول درجات الحسد"(٥).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "فيه إنذار بما سيقع، فوقع كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد فتحت عليهم الفتوح بعده، وآل الأمر إلى أن تحاسدوا وتقاتلوا، ووقع ما هو المشاهد المحسوس لكل أحد مما يشهد بمصداق خبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"(٦).

وقال ابن باديس رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأعظم ما ينمي الحسد ويغذيه: امتداد العين إلى ما متع الله به عباده من متاع المال والبنين ونعمة العافية والعلم والجاه والحكم. وقد نهى الله نبيه عن مد العين إلى ما عند الغير فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا

---

(١) صحيح مسلم [٢٩٦٢].

(٢) صحيح البخاري [١٣٤٤، ٣٥٩٦، ٤٠٨٥، ٦٤٢٦، ٦٥٩٠]، مسلم [٢٢٩٦].

(٣) منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٢/٤٠٠).

(٤) صحيح مسلم [٢٢٩٦].

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/٩٦).

(٦) فتح الباري، لابن حجر (٦/٦١٤).

مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه:١٣١]. وفي هذه الآية مع النهي: إرشاد إلى علاج الحسد؛ فإن الحسد مرض نفساني معضل، ولكنه كغيره من الأمراض النفسية يعالج.

٧- التفريق في المعاملة بين النظراء وتفضيل بعضهم على بعض:

إن التفريق في المعاملة قد يكون من الأسباب المؤدية إلى الحسد. وأكثر ما يكون بين الضرائر، وبين الأولاد، وبين المرؤوسين مع المسؤولين عنهم أو رؤسائهم(١).

٨ – الغفلة عن عواقب الحسد وآثاره، وهي تشمل الغفلة عن الآثار النفسية التي تصيب الحاسد، والغفلة عن العاقبة والجزاء في الآخرة. ولا يخفى ما ينال الحاسدَ من الهمِّ والقلقِ والخوفِ والاضطرابِ النفسي، وهي آفات نفسية قد تجنح به إلى مزالق الضلال، وفي الغالب لا تبقى تلك الآثار كامنة، بل تظهر في السلوك والأعمال، وتغير الحال. ومن كان هذا حاله تسوء عاقبته في الآخرة.

٩ – سوء البيئة والتربية:

ويكون سوء البيئة والتربية مما يدعو إلى الحسد للأسباب التالية:

أ. ضعف الإيمان بالقدر، وأن الله تعالى قد قَسَمَ الأرزاق والحظوظ بحكمته.

ب. البعد عن التفقه في الدين والتأدب بآدابه.

ج. صحبة المضلين والمفسدين.

رابعًا: الوقاية من الحسد والعلاج:

١ – الإيمان والرضا بقضاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقدره:

أن يعلم أن الكل بقضاء الله ﷻ وقدره، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا يرده كراهية كاره حيث كره حكم الله ﷻ، وقسمته في عباده .

---

(١) انظر: آفات على الطريق (ص:٦٨٩).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الحسد: هو من ثمرات السخط. وسلامة القلب منه من ثمرات الرضا"(١). ويقابل الرضا: السُّخط، والسُّخط يفتحُ باب الشَّكِّ في الله، وقضائه، وقدره، وحكمته وعلمه وعدله.

وقد وصف الحكماء له أنواعًا من العلاج، فصلتها كتب السنة، وكتب الفقه النفسي، ككتاب الإحياء، للغزالي"(٢).

وإغفال الجانب الإيماني في التربية الذي ينمي في العبد الخوف من الله تعالى، والرغبة في الآخرة مما يحمل الإنسان على الحرص على الدنيا، والتنافس على متاعها وزينتها، وعلى تحصيل المكانة والجاه فيها، ولا يبالي بالوسيلة التي تمكنه من ذلك، ولو كان على حساب الآخرين، وإلحاق الأذى والضر بكل من يكون عقبة في طريقه، ولو كان أولى منه أو أحق في عمل أو منصب أو نحو ذلك.

٢ – العلم بخطورة الحسد:

فمن أسباب الوقاية من آفات الحسد: أن يعلم أنه لا ضرر على المحسود في دنياه؛ لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك، بل ينتفع به؛ لأنه مظلوم من جهتك، فيثيبه الله ﷻ على ذلك، وقد ينتفع في دنياه من جهة أنك عدوه، ولا يزال يزيد همومك وأحزانك إلى أن يفضي بك إلى الدنف والتلف. وقد قيل:

اصبر على مَضَضِ الحسـودِ ... فإن صَبْـرَك قَـاتِلُـه
النَّـار تـأكـل نفسـها ... إن لم تجد مـا تأكـله

٣ – التخلق بصفات المتقين المهتدين:

ومن أهم هذه الصفات: سلامة القلب وطهارته من الغلّ والحقد والحسد، فقد أخبرنا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ أفضل النَّاس من اجتمعت فيه صفات، منها: أن لا يحمل في قلبه غِلًّا ولا حَسَدًا، فقد سئل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أيُّ الناس أفضل؟ قال: ((**كُلُّ مَخْمُوم القلب، صدوق اللسان**))، قالوا: صدوق اللسان، نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال:

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٠١).

(٢) تفسير ابن باديس (١/ ٣٧٩- ٣٨٠). ومن الكتب المعاصرة المفيدة، والتي فيها بيان لعلاج الحسد: (آفات على الطريق)، للدكتور السيد محمد نوح.

((**هو التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لا إثم فيه، ولا بَغْيَ، ولا غِلَّ، ولا حَسَدَ**))(١). و(مخموم القلب) هو النقي الذي لا غِلَّ فيه ولا حسد. وهو من خَمَمْتُ البيت إذا كَنَسْتُهُ وَنَظَّفْتُه(٢).

٤ - غرسُ بذور الإيمان والتَّقوى وقواعدِ وآداب التربية في نفوس الأولاد والطلاب من أول النشأة:

إنَّ غرس بذور الإيمان والتَّقوى من أوَّل النشأة مما يُنَمِّي في الأولاد والطلاب شعورَ المراقبة لله ﷻ، فيكون كل واحد منهم على يقينٍ بأنَّ الله ﷻ مطَّلعٌ على أقواله وأفعاله وجميع أحواله.

وانَّ وعي الإنسان لطبيعة هذه الرقابة الرَّبانية وحقيقتها يمكِّنه من أن يكون على رقابة دائمة لنفسه ولأفعاله بعد أن يتوفر عنده الشعور باطلاع الله تعالى على كلِّ شيء يفعله أو يقوله أو يهم فيه.

٥ - الاستعاذة والتحصن من شرِّ الحاسد والعائن:

فمن أسباب الوقاية من شرِّ الحاسد والعائن، أن يستعذ بالله تعالى، ويتحصن به، ويكون له أوراد من الأذكار والدعوات، وأن يتوجه إلى الله تعالى، ويقبل عليه. وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه يدفع عنه من شر الحاسد بمقدار توجهه وإقباله على الله، وإلا ناله شر الحاسد ولا بد(٣).

٦ – تجنب الأسباب المؤدية إلى الحسد.

---

(١) أخرجه ابن ماجه [٤٢١٦]، والخرائطي في (المكارم) [٤٥]، والطبراني في (مسند الشاميين) [١٢١٨]، وأبو نعيم في (الحلية) (١/١٨٣). قال في (الزوائد) (٤/٢٤٠): "هذا إسناده صحيح". وقال العراقي: "أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بإسناد صحيح" المغني عن حمل الأسفار (ص:٨٩٠).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (خمم) (٢/٨١)، حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٢/٥٥٣)، الاستذكار، لابن عبد البر (٧/ ٤٩)، المرقاة (٨/٣٢٦٧).

(٣) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢٢٩).

العقبة التاسعة والعشرون

الغضب

أولًا: تعريف الغضب:

١ - الغضب لغة: الغضب: ضد الرِّضَا. قال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان معنى الغضب في اللغة: "الغين والضاد والباء أصلٌ صحيح يدلُّ على شدَّة وقُوَّة. يقال: إنَّ الغَضْبة: الصَّخرة الصُّلبة. قالوا: ومنه اشتُقَّ الغَضَب؛ لأنَّه اشتدادُ السُّخط"(١).

٢ - الغضب اصطلاحًا: عرفه الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه "تغير يحصل عند غليان دم القلب؛ ليحصل عنه التشفي للصدر"(٢). وقال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الغضب حالة تحصل في القلب عند غليان دم القلب، وسخونة المزاج، والأثر الحاصل منها في النهاية: إيصال الضرر إلى المغضوب عليه"(٣).

ثانيًا: الغضب مرض صارف عن الهداية:

إنَّ الغضب مرض يصيب النفس، فيؤثر فيها، وينعكس أثره على سلوك المريض ومزاجه، وهو مفتاح لكثير من الشرور؛ فإنه إذا ملك ابن آدم كان كالآمر والناهي له، وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا يَقْضِيَنَّ حَكَمٌ بين اثْنَيْن وَهُوَ غَضْبَانُ**))(٤).

وقد قيل: الغضب ريح تهب على سراج العقل فتطفئه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والغضب غول العقل، فإذا اغتال الغضب عقله حتى لم يعلم ما يقول"(٥).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الغضب من نزغات الشيطان؛ ولهذا يَخْرُجُ به الإنسَان عن اعتدال حاله، ويتكلم بالباطل، ويفعل المذموم، وينوي الحقد والبغض وغير ذلك من القبائح المترتبة على الغضب؛ ولهذا قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للذي قال له: أوصني: ((**لا**

---

(١) مقاييس اللغة، مادة: (غضب) (٤/ ٤٢٨).

(٢) التعريفات (ص:٢٠٩)، وانظر: فيض القدير (٦/١٠٥).

(٣) تفسير الرازي (١/٢٧)، وانظر: غرائب القرآن (١/٧٤).

(٤) صحيح البخاري [٦٧٣٩]، مسلم [٤٥٨٧].

(٥) إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان (ص:٣٩).

تغضب)) فردد مرارًا، قال: ((**لا تغضب**))[1]، فلم يزده في الوصية على (لا تغضب) مع تكراره الطلب، وهذا دليل ظاهر في عظم مفسدة الغضب، وما ينشأ منه"[2].

وقال البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "جميع المفاسد التي تعرض للإنسان إنما هي من شهوته وغضبه"[3].

وقال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الغضب يحمل صاحبه على أن يقول غير الحق، ويفعل غير العدل"[4].

وكثيرًا ما يحصل منه المرض الذي لا شفاء له، أعني: زوال العقل والعز والحرمة، وحصول الندامة والخسران[5]. فهو من أمراض النفس كالحسد، مشتت ومشوش للفكر، وصارف عن الحق. والغضب المذموم ما كان في غير الحقِّ ولغير الله ﷻ، وإنما انتقامًا للنفس، ولأجل حظوظ دنيوية زائلة، ويترتب عليه نتائج خطيرة، ومفاسد عظيمة، على الفرد والأسرة والمجتمع، وهو الذي حذَّر منه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحاديث كثيرة.

والغضب في غير الحقِّ مفتاحُ كلِّ شرٍّ، فهو مفتاح للقتل، والنزاع والشقاق، والطلاق، والظلم بجميع أنواعه.

وهو من أسباب الزيغ والضلال. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "دخل الناس النار من ثلاثة أبواب: باب شبهة أورثت شكًّا في دين الله، وباب شهوة أورثت تقديم الهوى على طاعته ومرضاته، وباب غضب أورث العدوان على خلقه"[6].

ومن كان سريعًا في غضبه كان سيئًا في خُلُقه ومعاملته؛ إذ للغضب أثارٌ سيئة وخطيرة على قلب الغاضب ولسانه وجوارحه، ومجتمعه.

---

(١) صحيح البخاري [٦١١٦].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ١٦٣).

(٣) فتح الباري، لابن حجر (١٠/٥٢٠)، عمدة القاري (٢٢/١٦٤)، مرقاة المفاتيح (٨/٣١٨٧)، فيض القدير (١/١٥٢).

(٤) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/١٦٦).

(٥) انظر: دستور العلماء (٣/٦).

(٦) الفوائد (ص: ٥٨).

فمن آثار الغضب على القلب: الحقد، والحسد، والكراهية، والبغضاء، والحزن، والقلق، وإضمار السوء للمغضوب عليه.

ومن آثار الغضب على اللسان: السب، والشتم، والفحش في القول، والشماتة، والاستهزاء، والغيبة، وإفشاء السر، وهتك الستر عن المغضوب عليه.

ومن آثار الغضب على الجوارح: الضرب، والقتل، والإهانة، والتعذيب، فإن عجز الغاضب عن خصمه رجع الغضب عليه، وقد يرجع الغضب على من لا ذنب له، كالزوجة، والأبناء، والدابة، والجماد.

ومن آثار الغضب على المجتمع: الخصام والنزاع، والعداوة والبغضاء بين الناس، فالغاضب عند الانفعال لا يتحكم في أقواله وأفعاله التي تخرج غالبًا عن الآداب العامة، فيثير الطرف الآخر، ويقابله الآخرُ بالمثل، مما يؤدي في النهاية إلى حقد دائم، ونزاع مستمر، فيعيش المجتمع في قلق واضطراب وتمزق وشتات[(١)].

وفي الحديث: ((**من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ، أو يَدْعُو إلى عَصَبَةٍ، أو يَنْصُرُ عَصَبَةً، فَقُتِلَ، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ**)) الحديث[(٢)].

قوله: ((**يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة**)) هذه الألفاظ الثلاثة بالعين والصاد المهملتين، هذا هو الصواب المعروف في نسخ بلادنا وغيرها. وحكى القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن رواية العذري بالغين والضاد المعجمتين في الألفاظ الثلاثة، ومعناها: أنه يقاتل لشهوة نفسه وغضبة لها. ويؤيد الرواية الأولى الحديث المذكور بعدها يغضب للعصبة، ويقاتل للعصبة، ومعناه: إنما يقاتل عصبية لقومه وهواه"[(٣)].

---

(١) لا تغضب، أحمد عماري (ص:٧)، و(ص:٢٣) بتصرف.

(٢) صحيح مسلم [١٨٤٨].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/ ٢٣٨- ٢٣٩)، إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم، للقاضي عياض (٦/١٣٤).

ثالثًا: أقسام الغضب:

وقد قسَّم ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الغضبَ إلى ثلاثة أقسام على النحو التالي:

الأوَّل: أن يحصل له مبادئ الغضب، بحيث لا يتغير عقله، ويعلم ما يقول ويقصده.

الثاني: أن يبلغ الغضب منتهاه، حتى أصبح لا يعلم ما يقول ولا ما يريده.

الثالث: أن يتوسط حاله بين هاتين المرتبتين، بحيث لم يَصِرْ كالمجنون، كما أنه ليس في كامل عقله. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وحينئذ فنقول: الغضب ثلاثة أقسام:

أحدها: أن يحصل للإنسان مبادئه وأوائله، بحيث لا يتغير عليه عقله ولا ذهنه، ويعلم ما يقول وما يقصده، فهذا لا إشكال في وقوع طلاقه وعتقه، وصحة عقوده، ولا سيما إذا وقع منه ذلك بعد تردد فكره.

القسم الثاني: أن يبلغ به الغضب نهايته، بحيث ينغلق عليه باب العلم والإرادة، فلا يعلم ما يقول ولا ما يريده، فهذا لا يتوجه خلاف في عدم وقوع طلاقه –كما تقدم–.

والغضب غول العقل، فإذا اغتال الغضب عقله، حتى لم يعلم ما يقول، فلا ريب أنه لا ينفذ شيء من أقواله في هذه الحالة؛ فإن أقوال المكلف إنما مع علم القائل بصدورها منه ومعناها وإرادته للتكلم بها.

القسم الثالث: من توسط في الغضب بين المرتبتين، فتعدى مبادئه، ولم ينته إلى آخره، بحيث صار كالمجنون، فهذا موضع الخلاف ومحل النظر، والأدلة الشرعية تدل على عدم نفوذ طلاقه وعتقه وعقوده التي يعتبر فيها الاختيار والرضا، وهو فرع من الإغلاق كما فسره به الأئمة"(١).

---

(١) إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان (ص:٣٩)، وانظر: مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى (٥/٣٢٣)، حاشية ابن عابدين (٣/ ٢٦٨)، قواعد الفقه (ص:٤٠١).

والغضب منه محمود ومذموم. فالمذموم: ما كان في غير الحق، والمحمود: ما كان في جانب الدين والحق[1]. وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يغضب لنفسه، ومن أخلاقه أنه: ((**لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح**))[2]، فهو (يعفو)، أي: في الباطن، (ويصفح)، أي: في الظاهر عن صاحب السيئة.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: ((**ما ضرب رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **شيئًا قط بيده، ولا امرأة، ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط، فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله، فينتقم لله عز وجل**))[3]. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "في هذا الحديث: الحثُّ على العفو والحلم، واحتمال الأذى، والانتصار لدين الله تعالى ممن فعل محرمًا أو نحوه. وفيه أنه يستحب للأئمة والقضاة وسائر ولاة الأمور: التخلق بهذا الخلق الكريم، فلا ينتقم لنفسه، ولا يهمل حق الله تعالى"[4].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أمرهم، أمرهم من الأعمال بما يطيقون، قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه، ثم يقول: ((**إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**))[5].

وعن جُنْدَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حدَّثَ أنَّ رجلًا قال: والله لا يغفر الله لفلان، وإن الله تعالى قال: ((**من ذا الذي يَتَأَلَّى علي أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك**))[6]. "وإنما غضب الله على هذا الرجل؛ لأنه حجَّرَ واسعًا من رحمة الله، ولم يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[7].

---

(١) انظر: لسان العرب، مادة: (غضب) (١/٦٤٩)، بصائر ذوي التمييز (٤/١٣٥)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١/١٦٦).
(٢) صحيح البخاري [٤٨٣٨].
(٣) صحيح مسلم [٢٣٢٨].
(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٨٤).
(٥) صحيح البخاري [٢٠].
(٦) صحيح مسلم [٢٦٢١].
(٧) مكفرات الذنوب وموجبات الجنة، لابن الديبع (ص:١٩).

"وأما في حدود الله فلما شفع عنده أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -وهو الْحِبُّ ابْنُ الْحِبِّ، وكان هو أَحَبَّ إليه من أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأَعَزَّ عنده- في امرأةٍ سرقت شريفةٍ أن يعفو عن قطع يدها: غضب وقال: ((**يا أسامة أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟! إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها**))(١). فغضب على أسامة لما شفع في حد لله وعفا عن أنس في حقه. وكذلك لما أخبره أسامة أنه قتل رجلًا بعد أن قال: لا إله إلا الله"(٢).

فعن حصين، أخبرنا أبو ظبيان، قال: سمعت أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يقول: بعثنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الحُرَقة، فَصَبَّحْنَا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم، فلما غشيناه، قال: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ((**يا أسامة، أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله**))، قلت: كان مُتَعَوِّذًا، فما زال يُكَرِّرُهَا حتى تَمَنَّيْتُ أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم(٣).

وعند مسلم: ((**أقال: لا إله إلا الله وقتلته؟**))، قال: قلت: يا رسول الله، إنما قالها خوفًا من السلاح، قال: ((**أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟**))(٤).

---

(١) صحيح البخاري [٣٤٧٥، ٦٧٨٨]، مسلم [١٦٨٨، ١٦٨٨].
(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٣٠/ ٣٧٠).
(٣) صحيح البخاري [٤٢٦٩، ٦٨٧٢]، مسلم [٩٦].
(٤) صحيح مسلم [٩٦].

رابعًا: أسباب الغضب:

وللغضب الذي هو انتصار للنفس وهيجان من أجلها أسباب كثيرة، منها: البيئة المحيطة بالمرء، والعجب، والافتخار، والزهو، والمراء، والاستعلاء والتكبر، والجدال بالباطل، والمزاح بالباطل، وعدوان الآخرين أو عدم قيامهم بواجبهم نحو من ابتلي بالغضب، والوصف بما يراه المرء منقصة له أو عيبًا، والغفلة عن العواقب المترتبة على الغضب. وفي جميعها تبدو شهوة الانتقام، ومن لواحقه: الندامة، وتوقع العقاب عاجلًا أو آجلًا، وربما كان سببًا لأمراض صعبة فضلًا عن أنه يمنع من التفكير الصائب.

خامسًا: الوقاية من الغضب والعلاج:

ويعين على ترك الغضب:

١ - استحضار ما جاء في كظم الغيظ من الفضل، وما جاء في عاقبة ثمرة الغضب من الوعيد:

قال الله ﷻ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٤].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في (تفسيره): "مدح الله ﷻ الذين يغفرون عند الغضب، وأثنى عليهم فقال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى:٣٧]، وأثنى على الكاظمين الغيظ بقوله: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، وأخبر أنه يحبهم بإحسانهم في ذلك. ووردت في كظم الغيظ، والعفو عن الناس، وملك النفس عند الغضب أحاديث، وذلك من أعظم العبادة وجهاد النفس"[(١)].

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٠٨-٢٠٩)، وانظر: المحرر الوجيز (١/٥٠٩).

وفي الحديث: ((**من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة؛ حتى يخيره من الحور العين يزوجه منها ما شاء**))(1)، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ما من جرعة أعظم أجرًا عند الله، من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله**))(2).

٢ - أن يملك الإنسان نفسه عند الغضب:

جاء في الحديث: ((**ليس الشديد بالصُّرَعَة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**))(3).

"فإنه إذا ملكها كان قد قهر أقوى أعدائه، وشر خصومه، ولذلك قيل: أعدى عدوك: نفسك التي بين جنبيك"(4).

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد مدح الله من يغفر عند غضبه، فقال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى:٣٧]؛ لأن الغضب يحمل صاحبه على أن يقول غير الحق، ويفعل غير العدل، فمن كان لا يقول إلا الحق في الغضب والرضا دلَّ ذلك على شدة إيمانه، وأنه يملك نفسه"(5).

٣ - أن يستعيذ بالله ﷻ من الشيطان الرجيم: فقد استبَّ رجلان عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه مغضبًا قد احمر وجهه فقال

---

(١) أخرجه أحمد [١٥٦١٩]، وابن ماجه [٤١٨٦]، وأبو داود [٤٧٧٧]، والترمذي [٢٠٢١]، وقال: "هذا حديث حسن غريب"، كما أخرجه أبو يعلى [١٤٩٧]، والطبراني في (الكبير) [٤١٥]، وفي (الأوسط) [٩٢٥٦]، وفي (الصغير) [١١١٢]، وأبو نعيم في (الحلية) (٨/٤٧)، والبيهقي في (السنن) [١٦٦٤٥]، وفي (شعب الإيمان) [٧٩٥٠]، بألفاظ متقاربة. وللحديث أطراف أخرى.

(٢) أخرجه أحمد [٦١١٤]، وابن ماجه [٤١٨٩]. قال البوصيري: "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات" مصباح الزجاجة (٤/٢٣٣).

(٣) صحيح البخاري [٦١١٤]، مسلم [٢٦٠٩].

(٤) مرقاة المفاتيح (٨/٣١٨٨). وانظر: فتح الباري، لابن حجر (١/١٤٣)، (١٠/٥٢٠).

(٥) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/١٦٦).

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم))**[(١)].

٤ – تغيير السلوك في مواجهة المشكلات:

ولا يكون تجنب الغضب بتناول المهدئات؛ لأن تأثيرها يأتي بتكرار تناولها، ولا يستطيع الذي يتعاطى المهدئات أن يتخلص منها بسهولة، ولأن الغضب يغير السلوك فإن العلاج يكون بتغيير السلوك في مواجهة المشكلات، وذلك من خلال الاسترخاء النفسي والعضلي، وتدريب النَّفس على ضبط الأعصاب حيال المواقف الصعبة، فإنما الحلم بالتَّحلم، والصبر بالتَّصبر، وكلما ارتفع مستوى الانفعال قلَّ التفكير. ومن وسائل السيطرة على الانفعالات: الانتقال من الهيئة والحالة التي هو عليها إلى هيئة أخرى، فإذا كان واقفًا فليجلس أو ليضجع؛ ليعطي نفسه فرصة للتأمل والتروي والهدوء. يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((إذا غَضِبَ أحدُكم وهو قائمٌ فليجلسْ، فإنْ ذهب عنه الغضبُ وإلا فليضطجعْ))**[(٢)]؛ لأنَّ القائم متهيِء للحركة والبطش، والقاعد دونه في هذا المعنى، والمضطجع ممنوع منهما، فيشبه أن يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما أمره بالقعود والاضطجاع؛ لئلا تبدر منه في حال قيامه وقعوده بادرة يندم عليها فيما بعد والله أعلم[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري [٥٧٠١، ٥٧٦٤]، مسلم [٦٨١٢، ٦٨١٣].

(٢) أخرجه أحمد [٢١٣٤٨]، وأبو داود [٤٧٨٢]، وأبو يعلى كما في (إتحاف الخيرة المهرة) [١٧٥٨]، وابن حبان [٥٦٨٨]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٩٣٢]. قال العراقي: "أخرجه أحمد بإسناد جيد" المغني عن حمل الأسفار (ص:١٠٧٠)، وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد) (٨/٧١): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح".

(٣) انظر: معالم السنن، للخطابي (٤/١٠٨)، كشف المشكل، لابن الجوزي (٣/ ٥٤٠)، التيسير بشرح الجامع الصغير (١/١١٧).

٥ – اجتناب أسباب الغضب:

جاء في الحديث: ((**اجْتَنِب الغَضَب**))[(١)]. قال العلامة المناوي رَحِمَهُٱللَّهُ: قوله: ((**اجتنب الغضب**)) "أي: أسبابه، أي: لا تفعل ما يأمر به ويحمل عليه من قول أو فعل"[(٢)].

٦ – التبصير بالآثار الضارة، والعواقب المهلكة المترتبة على الغضب.

٧ – إلصاق الخدِّ بالأرض والتمرغ في ترابها حتى يسكن غضبه؛ لما في ذلك من الضعة عن الاستعلاء وتذكار أن من كان أصله من التراب لا يستحق أن يتكبر[(٣)].

٨ – الوضوء: وهو من تغير الحالة والسلوك، ويفيد في تخفيض الانفعال ونسبة الحرارة في الجسد عند حمرة العينين، وانتفاخ الأوداج.

٩ – دفع الغضب بالعفو والحلم والصبر، واحتمال الأذى.

١٠ – التمييز بين الغضب المحمود والغضب المذموم، والانتصار لدين الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، لا نصرة للنفس والهوى، أو لحظ من حظوظ الدنيا الفانية.

١١ – أن يتذكر الغاضب قدرة الله ﷻ عليه، وحاجته إلى عفو ربه، فلا يأمن إن أمضى عقوبته بمن قدر عليه أن يمضي الله ﷻ غضبه عليه يوم القيامة.

والتذكر يدفع نزعات النفس ووساوس الشيطان، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١].

وعن مجاهد، في قول الله ﷻ: ﴿طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ قال: الغضب[(٤)]. وقد روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم نحو ذلك[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في (مصنفه) [٢٥٣٨٦]، وأحمد [٢٣٤٦٨] بإسناد صحيح. كما أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الغضب، وابن عساكر كما في (كنز العمال) [٧٦٩١].

(٢) فيض القدير (١/١٥٢).

(٣) انظر: مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٢١٨)، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٦/٣٥٩).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٣٣٦).

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٤٠)،

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف:٢٤]. قيل: أي: إذا غضبت، وهو قول عكرمة(١) وقد ذكر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ أنه تفسير باللازم(٢). وقال الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ووجه تفسير النسيان بالغضب أنه سبب للنسيان"(٣). وقال أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما من قال: معناه: واذكر ربك إذا غضبت -بالغين والضاد المعجمتين- فمعناه: التثبت عند الغضب؛ فإنه موضع عجلة، ومزلة قدم، والمرء يؤاخذ بما ينطق به فمه"(٤).

فتبين مما تقدم أن المعنى أعم، فيكون معنى الآية: اذكر ربك إذا نسيت ذكره، أي: إرجع إلى الذكر إذا غفلت عنه، واذكره في كل حال.

١٢ - أن يسأل ربه أن يرزقه الحلم، وكظم الغيظ، وسعة الصدر، وأن يدرب نفسه على تحمل الأذى، والتحلي بمكارم الأخلاق.

١٣ - أن يطالع سيرة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصالحين من أمته الذين تأسوا به، فما كانوا يغضبون إلا لله تعالى.

١٤ — أن يسكت عند الغضب:

فقد روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**يسروا ولا تعسروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت**))(٥).

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذا أيضًا دواء عظيم للغضب؛ لأن الغضبان يصدر منه في حال غضبه من القول ما يندم عليه في حال زوال غضبه، كثيرًا من السباب وغيره مما يعظم ضرره، فإذا سكت زال هذا الشر كله عنه.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في (المصنف) [٣٥٤٦٥]، وابن أبي حاتم في (التفسير) [١٢٧٦٣]. وأبو نعيم في (الحلية) (١٠/٥٣٢)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٩٤٣].

(٢) تفسير ابن كثير (٥/١٤٩).

(٣) روح المعاني (٨/ ٢٣٨).

(٤) أحكام القرآن (٣/ ٢٢٨).

(٥) أخرجه الطيالسي [٢٧٣٠]، وأحمد [٢١٣٦]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٢٤٥]. قال الهيثمي (٨/٧٠): "رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات؛ لأن ليثا صرح بالسماع من طاوس".

وما أحسن قول مورق العجلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما امتلأت غيظًا قط، ولا تكلمت في غضب قط بما أندم عليه إذا رضيت.

وغضب يومًا عمر بن عبد العزيز رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال له ابنه عبد الملك رحمهما الله: أنت يا أمير المؤمنين مع ما أعطاك الله وفضلك به تغضب هذا الغضب؟ فقال له: أو ما تغضب يا عبد الملك؟ فقال عبد الملك: ما تُغْنِي سَعَةُ جَوْفِي إن لم أَرْدُدْ فيها الْغَضَبَ حتى لا يَظْهَرَ منه شيءٌ أكرهُهُ؟ قال: وكان له بطين[1]. فهؤلاء قوم ملكوا أنفسهم عند الغضب"[2].

وقال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "السكوت يسكن الغضب، وحركة الجوارح تثيره"[3].

(١) ذكره ابن أبي شيبة في (المصنف) [٣٥٠٩٢]، وأبو نعيم في (الحلية) (٥/٣٥٨).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٦٦) بتصرف يسير.

(٣) فيض القدير (٤/٣٢٨).

العقبة الثلاثون

الخجل أو الحياء المذموم

أولًا: تعريف الحياء:

الحياء لغة: انقباض وخشية يجدها الإنسان في نفسه عندما يطلع منه على قبيح.

وشرعًا: هو خلق يبعث على ترك القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي حق.

وهو ميراث الأنبياء لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلامِ النُّبُوَّةِ إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**))[1]، وهو لا يأتي إلَّا بخير كما أخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما قال: ((**الْحَيَاءُ لا يَأْتِي إِلا بِخَيْرٍ**))[2]؛ لأن من استحيا من الناس أن يروه بقبيح دعاه ذلك إلى أن يكون حياؤه من ربه وخالقه ﷻ أشد، فلا يضيع فريضة، ولا يرتكب معصية.

ولكني لا أتناول هنا ذلك الجانب المحمود من الحياء، ولكن الحياء في العلم المانع من سؤاله عن مهمات المسائل في الدين إذا أشكلت عليه، حيث يبقى مترددًا، ولا يصل إلى الاقتناع.

ثانيًا: الحياء المذموم من الصوارف عن الحق:

إنَّ من (الصوارف الذاتية) عن الحق: الحياء المذموم أو الخجل، فينبغي أن يراعى في الحياء (القانون الشرعي)؛ فإن منه ما يذم، كالحياء المانع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع وجود شرطه، وكذا الحياء الذي ينشأ عنه الإخلال بالحقوق ليس حياء شرعيًّا، بل هو عجز ومهانة، وإنما يطلق عليه حياء؛ لمشابهته للحياء الشرعي، ومثله الحياء المانع من السؤال عن مهمات المسائل.

وقد ذكر البخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ في باب الحياء في العلم: قال مجاهد رَحِمَهُ اللهُ: "لا يتعلَّمُ العلم مُسْتَحْيٍ ولا مستكبر.

---

(١) صحيح البخاري [٣٢٩٦، ٥٧٦٩].

(٢) صحيح البخاري [٥٧٦٦]، مسلم [١٦٥].

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: نِعْمَ النِّساء نساء الأنصار لم يمنعهُنَّ الحياء أن يتفقَّهْنَ في الدِّين"(١).

وعن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: جاءت أم سليم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: يا رسول الله إنَّ الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إذا رأت الماء**))، فغطت أم سلمة، تعني وجهها، وقالت: يا رسول الله أوتحتلم المرأة؟ قال: ((**نعم تربت يمينك فبم يشبهها ولدها؟**))(٢).

والحاصل أن الحياء كله خير، أما الخجل والعجز الذي يوجب التقصير في شيء من حقوق الله ﷻ أو حقوق عباده فهو مذموم، وليس من الحياء في الحقيقة، بل هو جبن ومهانة، وإطلاق الحياء عليه مجاز؛ لمشابهته له، والحياء المذموم هو الذي يضر بدين المرء كأن يؤدي إلى ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو في دنياه كأن يأتيه من يطلب قرضًا منه وهو يعلم سوء معاملته، أو من يستعير منه دابة وهو يعلم أنه لا يرفق بها، فيحمله الحياء على الإعطاء وعدم المنع، فيندم بعد ذلك، ومثل ما ذكر الحياء في العلم المانع من سؤاله عن مهمات المسائل في الدين إذا أشكلت عليه فهو مذموم(٣).

وكما ترى فإن هناك فرقًا بين الحياء والخجل، وأن الخجل عكس الحياء، فالخجل هو شعور بالنقص داخل الإنسان، فهو يشعر أنه أضعف من الآخرين، ولا يستطيع مواجهتهم حتى ولو لم يفعل شيئا خطأ، وهذا مختلف عن الحياء، فالحياء شعور نابع من

---

(١) صحيح البخاري (١/٦٠- ٦١). ذكر الحافظ ابن حجر أن قول مجاهد هذا وصله أبو نعيم في (الحلية) من طريق علي بن المديني عن ابن عيينة عن منصور عنه، وهو إسناد صحيح على شرط المصنف. قوله: (وقالت عائشة) هذا التعليق وصله مسلم من طريق إبراهيم بن مهاجر عن صفية بنت شيبة عن عائشة في حديث أوله أن أسماء بنت يزيد الأنصاري سألت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن غسل المحيض. فتح الباري (١/٢٢٩). وحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أخرجه كذلك مسلم [٧٧٦].

(٢) صحيح البخاري [١٣٠]، مسلم [٧٣٨].

(٣) انظر: شرح الشيخ محمد بن عبد الله الجرداني الدمياطي الشافعي على الأربعين النووية (ص:١٤٧- ١٤٨).

الإحساس برفعة وعظمة النفس التي يأبى صاحبها أن ينزل بها إلى سفاسف الأمور، فهي أكبر من تلك الأمور الدنيئة.

فالحيي يستحيي أن يكذب أو يزني؛ لأنه لا يقبل أن تنزل نفسه إلى هذه الدنايا، ولكن الخجول إذا أتيحت له الفرصة أن يفعل ذلك دون أن يراه أحد لفعل.

ثالثًا: الوقاية من آفات الخجل:

١ - التمييز بين الحياء المحمود والحياء المذموم (الخجل).

٢ - الحرص على طلب العلم النافع، والمنافسة التي ترتقي بالسَّالك إلى معالي الأمور.

٣ - سؤال أهل الذِّكر وحسن الإصغاء: قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

والمقصود هنا: أن لا يكون الحياء مانعًا من السؤال النافع عن المهمات. ولذلك جاء المنهج القرآني معلِّمًا للمخاطَبين أن يسألوا سؤالًا نافعًا، ونهى عن سؤال لا نفع فيه. فما كان على وجه التَّبيين والتَّعلُّم ممَّا تَمَسُّ الحاجة إليه فهو مباحٌ أو مندوبٌ أو مأمورٌ به. وما كان على طَريق التَّكلُّف والتعنُّت فهو مكرُوه ومَنْهيٌّ عنه[1].

وليس في الكتاب والسنَّة تنفير من السؤال النَّافع، بل حثٌّ عليه كما جاء الآيات كما في قوله ﷺ: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة:٢١١]، ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤]، ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل:٤٣]، ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥].

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (سأل) (٢/٨٢٦)، أساليب الخطاب في القرآن، د.عبد القادر محمد المعتصم دهمان (٢/٨٩٣-٩٢٠).

وكما في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أتدرون ما المفلس؟**))[1]، ((**ما تعدون أهل بدر فيكم؟**))[2]، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال**))[3]. و(العي): قصور الفهم، وشفاء هذا المرض: بالسؤال عما جهله؛ ليعرف.

وللسؤال أهمية كبيرة في طلب العلم. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومفتاح العلم: حسن السؤال، وحسن الإصغاء"[4]. وقال: "وللعلم ست مراتب، أولها: حسن السؤال، الثانية: حسن الانصات والاستماع، الثالثة: حسن الفهم، الرابعة: الحفظ، الخامسة: التعليم، السادسة: وهي ثمرته وهي العمل به ومراعاة حدوده. فمن الناس من يحرم العلم لعدم حسن سؤاله؛ إما لأنه لا يسأل بحال؛ أو يسأل عن شيء وغيره أهم إليه منه كمن يسأل عن فضوله التي لا يضر جهله بها، ويدع ما لا غنى له عن معرفته، وهذه حال كثير من الجهال المتعلمين"[5].

أما حسن الإصغاء فمن أَعْطَى من قَلْبِه حُسْنَ الْإِصْغَاء، واستشعر الخوف فاتقى، وانتظر الثواب وصدَّق بالحسنى فسييسره الله تعالى لليسرى[6].

٤ – التبصر بعواقب الخجل وآثاره.

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٨١].

(٢) صحيح البخاري [٣٩٩٢].

(٣) الحديث مروي عن جابر وعن ابن عباس. حديث جابر: أخرجه أبو داود [٣٣٦]، والدارقطني [٧٢٩]، والقضاعي [١١٦٣]، والبيهقي في (السنن الكبرى) [١٠٧٥]. حديث ابن عباس: أخرجه عبد الرزاق [٨٦٧]، وأحمد [٣٠٥٦]، والدارمي [٧٧٩]، وابن ماجه [٥٧٢]، وأبو داود [٣٣٧]، وأبو يعلي [٢٤٢٠]، والطبراني في (الكبير) [١١٤٧٢]، والدارقطني [٧٣٠]، والحاكم [٦٣٠] قال الذهبي: على شرطهما.

(٤) حادي الأرواح (ص:٤٨).

(٥) مفتاح دار السعادة (١/١٦٩).

(٦) إحياء علوم الدين (٤/٥٧).

فِهرِس موضوعات الجزء الأول

مقدمة.......... ٥

هداية الدَّلالة والإرشاد وهداية التوفيق.......... ١٠

الهدايات الأربع.......... ١١

أولًا: بيان منهج البحث.......... ٣٢

توطئة.......... ٣٢

ثانيًا: مصطلحات البحث والألفاظ ذات الصِّلة.......... ٣٣

١ – مصطلحات البحث.......... ٣٣

٢ – الألفاظ ذات الصِّلة.......... ٣٤

العقبة الأولى: الشيطان.......... ٣٧

أولًا: تعريف الشيطان.......... ٣٩

ثانيًا: الابتلاء من السنن الرَّبانيَّة.......... ٤٢

ثالثًا: جذور عداوة الشيطان للإنسان.......... ٤٣

رابعًا: أساليب الشيطان في الإغواء والإضلال.......... ٤٤

خامسًا: أهداف الشيطان.......... ٤٧

سادسًا: وظيفة الشيطان.......... ٥١

سابعًا: الوقاية من آفات الشيطان والعلاج.......... ٥٣

العقبة الثانية: الكفر بالله ﷻ.......... ٥٧

أولًا: تعريف الكفر وبيان أنواعه.......... ٥٩

ثانيًا: الكفر من حيث كونه عقبة من العقبات.......... ٦٧

ثالثًا: التحذير من آفة التكفير.......... ٦٨

رابعًا: الوقاية من الغلو في التكفير.......... ٧٩

خامسًا: النتائج.......... ٧٩

سادسًا: الوقاية من خطر الكفر والعلاج........ ٨٤
العقبة الثالثة: الشرك بالله ﷻ........ ٨٧
أولًا: تعريف الشرك........ ٨٩
ثانيًا: الشرك من حيث كون عقبة في طريق الهداية........ ٩٨
ثالثًا: الوقاية من خطر الشرك والعلاج........ ١٠٢
العقبة الرابعة: النفاق........ ١٠٩
أولًا: تعريف النفاق........ ١١١
ثانيًا: النفاق الأكبر والنفاق الأصغر من حيث كونهما من العقبات........ ١١٣
ثالثًا: الوقاية من خطر النفاق والعلاج........ ١١٦
العقبة الخامسة: البدعة........ ١٢٩
أولًا: تعريف البدعة........ ١٣١
ثانيًا: الابتداع عقبة في طريق الهداية........ ١٣٣
ثالثًا: الوقاية من آفة الابتداع والعلاج........ ١٤٢
العقبة السادسة: اتباع الهوى........ ١٤٧
أولًا: تعريف الهوى........ ١٤٩
ثانيًا: المفاسد المترتبة على اتباع الهوى........ ١٥٠
ثالثًا: أسباب الإذعان للهوى........ ١٥٧
رابعًا: سبل الوقاية من هذا الداء والعلاج........ ١٦٠
العقبة السابعة: الذنوب والمعاصي........ ١٦٥
أولًا: تعريف المعاصي وبيان أقسامها........ ١٦٧
ثانيًا: خطر المعاصي وآثارها على القلب والبدن........ ١٦٩
ثالثًا: الإصرار على الصغائر........ ١٧٥
رابعًا: نماذج من الإصرار على الصغائر........ ١٧٩
خامسًا: الإصرار على تعاطي الشبهات........ ١٨٢
سادسًا: الوقاية من خطر الذنوب والمعاصي والعلاج........ ١٨٣

العقبة الثامنة: الإعراض عن الهدى ١٩٣
أولًا: تعريف الإعراض ١٩٥
ثانيًا: مظاهر الإعراض عن الحق وبيان كونه من العقبات ١٩٥
ثالثًا: حكم الإعراض عن الحق ٢٠٨
رابعًا: إجمال أسباب الإعراض ٢٠٨
خامسًا: إجمال مضارّ الإعراض ٢١٤
سادسًا: الوقاية من خطر الإعراض والعلاج ٢١٥
العقبة التاسعة: الشَّك والحَيْرَة ٢٢١
أولًا: تعريف الشك ٢٢٣
ثانيًا: الشك من حيث كونه عقبة من العقبات ٢٢٦
ثالثًا: الوقاية من هذا الداء والعلاج ٢٣٤
العقبة العاشرة: حب الدُّنيا والتَّنازع على حطامها ٢٣٧
أولًا: تعريف الحياة الدنيا ٢٣٩
ثانيًا: التنازع على حطام الدنيا من معوقات الهداية ٢٤١
ثالثًا: الوقاية من آفات التنازع على حطام الدنيا والعلاج ٢٤٨
العقبة الحادية عشرة: رفقاء السوء ٢٥٣
أولًا: تعريف الصداقة ٢٥٥
ثانيًا: أهمية الصحبة الصالحة ومخاطر رفقاء السوء ٢٥٦
ثالثًا: الوقاية من آفات رفقاء السوء والعلاج ٢٦٢
العقبة الثانية عشرة: الجهل ٢٦٣
أولًا: تعريف الجهل وبيان أقسامه ٢٦٥
ثانيًا: خطورة الجهل ٢٧٢
ثالثًا: الجهل بحقيقة الباطل ٢٧٦
رابعًا: الوقاية من آفات الجهل والعلاج ٢٧٩
العقبة الثالثة عشرة: التقليد الأعمى ٢٨٥

أولًا: تعريف التقليد.. ٢٨٧
ثانيًا: أنواع التقليد وبيان المذموم منه.. ٢٨٧
ثالثًا: فساد التقليد المذموم: ٢٨٩
رابعًا: الوقاية من آفة التقليد للآباء والأشياخ والعلاج.......................... ٢٩١
العقبة الرابعة عشرة: سوء التبليغ.. **٢٩٥**
أولًا: بيان مفهوم التبليغ.. ٢٩٧
ثانيًا: أسباب سوء التبليغ... ٣٠٣
ثالثًا: أثر سوء التبليغ على المتلقي.. ٣١٢
رابعًا: الوقاية من آفات سوء التبليغ والعلاج.................................. ٣١٢
العقبة الخامسة عشرة: القدوة السيئة... **٣١٥**
أولًا: تعريف القدوة.. ٣١٧
ثانيًا: أثر القدوة السيئة في الإفساد والإضلال................................. ٣١٧
ثانيًا: الوقاية من آفات القدوة السيئة والعلاج................................. ٣٢٤
العقبة السادسة عشرة: كتمان الحق... **٣٢٧**
أولًا: تعريف الكتمان: ٣٢٩
ثانيًا: التحذير من كتمان الحق وبيان كونه من العقبات.......................... ٣٣٠
ثالثًا: الوقاية من آفة الكتمان والعلاج....................................... ٣٣٩
العقبة السابعة عشرة: التفريط في تحري الحق................................... **٣٤١**
أولًا: تعريف التفريط... ٣٤٣
ثانيًا: التفريط في تحري الحق من المضلات عن الهداية.......................... ٣٤٤
ثالثًا: درجات النَّاس في معرفة الحقِّ والعمل به................................ ٣٤٥
رابعًا: الوقاية من آفات التفريط في تحري الحق والعلاج......................... ٣٤٩
العقبة الثامنة عشرة: اشتباه الحقيقة.. **٣٥١**
أولًا: المراد من اشتباه الحقيقة.. ٣٥٣
ثانيًا: خطورة الشُّبهات... ٣٥٤

ثالثًا: بيان ما يدخل في هذا الباب.. ٣٥٧
رابعًا: سبل الوقاية من الشبهات والعلاج.................................. ٣٦٤
العقبة التاسعة عشرة: كثرة أهل الباطل........................ ٣٦٩
أولًا: المراد من كثرة أهل الباطل.. ٣٧١
ثانيًا: خطورة الاغترار بكثرة أهل الباطل.................................. ٣٧٣
ثالثًا: سبل الوقاية من آفة الاغترار بكثرة أهل الباطل والعلاج................ ٣٧٩
العقبة العشرون: التقديس (اعتقاد العصمة في غير المعصوم).. ٣٨١
أولًا: المراد من ظاهرة التَّقديس... ٣٨٣
ثانيًا: مظاهر التقديس المذموم.. ٣٨٤
ثالثًا: الأسباب العامة في ظهور ظاهرة التقديس.......................... ٣٨٩
رابعًا: آفات التقديس.. ٣٨٩
خامسًا: أسباب الوقاية من آفة التَّقديس المذموم والعلاج.................... ٣٩٠
العقبة الحادية والعشرون: المسكرات........................... ٣٩١
أولًا: تعريف المسكر.. ٣٩٣
ثانيًا: خطر المسكرات وبيان كونها من العقبات............................ ٣٩٤
ثالثًا: الوقاية من هذا الداء والعلاج...................................... ٣٩٧
العقبة الثانية والعشرون: المجادلة بالباطل...................... ٣٩٩
أولًا: تعريف الجدل.. ٤٠١
ثانيًا: الألفاظ ذات الصلة.. ٤٠٣
ثالثًا: أنواع الجدل.. ٤٠٣
رابعًا: الوقاية من آفات الجدل المذموم والعلاج............................ ٤١٠
العقبة الثالثة والعشرون: المفهوم الخاطئ للاستقامة............. ٤١٣
أولًا: تعريف الاستقامة.. ٤١٥
ثانيًا: المفهوم الخاطئ للاستقامة من عقبات الهداية......................... ٤١٨
ثالثًا: الوقاية من آفات المفاهيم الخاطئة لمعنى الاستقامة والعلاج............. ٤٢٤

العقبة الرابعة والعشرون: الافتتان بعلوم الفلسفة ٤٣١
أولًا: تعريف الفلسفة ٤٣٣
ثانيًا: خطورة الافتتان بعلوم الفلسفة ٤٣٥
ثالثًا: الوقاية من الافتتان بعلوم الفلسفة والعلاج ٤٣٩
العقبة الخامسة والعشرون: اتباع الظن المنهي عنه ٤٤١
أولًا: بيان معنى الظن ٤٤٣
ثانيًا: المعنى المراد من الظن من حيث كونه عقبة ٤٤٦
ثالثًا: الوقاية من آفات الظن المنهي عنه والعلاج ٤٤٩
العقبة السادسة والعشرون: العجب والكِبْر ٤٥١
أولًا: تعريف العجب والكبر وبيان الفرق بينهما ٤٥٣
ثانيًا: أخطار العجب ٤٥٧
ثالثًا: الوقاية من العجب والعلاج ٤٦٠
رابعًا: آفات الكبر ٤٦٥
خامسًا: أقسام التكبر ٤٦٩
سادسًا: الوقاية من الكبر والعلاج ٤٧١
العقبة السابعة والعشرون: الغرور ٤٧٥
أولًا: تعريف الغرور ٤٧٧
ثانيًا: ما جاء في تحذير السالكينَ من آفات الغرور وعاقبته ٤٧٩
ثالثًا: الوقاية من الغرور والعلاج ٤٩٠
العقبة الثامنة والعشرون: الحسد ٤٩٧
أولًا: تعريف الحسد ٤٩٩
ثانيًا: ذم الحسد وبيان كونه من العقبات ٥٠٢
ثالثًا: الأسباب التي تدعو إلى الحسد ٥٠٩
رابعًا: الوقاية من الحسد والعلاج ٥١٢
العقبة التاسعة والعشرون: الغضب ٥١٥

أولًا: تعريف الغضب.. ٥١٧
ثانيًا: الغضب مرض صارف عن الهداية.................................. ٥١٧
ثالثًا: أقسام الغضب.. ٥٢٠
رابعًا: أسباب الغضب.. ٥٢٣
خامسًا: الوقاية من الغضب والعلاج.................................... ٥٢٣
العقبة الثلاثون: الخجل أو الحياء المذموم........................ ٥٢٩
أولًا: تعريف الحياء.. ٥٣١
ثانيًا: الحياء المذموم من الصوارف عن الحق.......................... ٥٣١
ثالثًا: الوقاية من آفات الخجل والعلاج.................................. ٥٣٣

نهاية الجزء الأول من كتاب عقبات في طريق الهداية